الوسطية في العقيدة الإسلامية

تأليف

الدكتور ثائر إبراهيم خضير الشمري

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٥ م - ١٤٢٦ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

هذا الكتاب بالأصل جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في أصول الدين مقدَّمة من قبل المؤلف إلى مجلس كلية العلوم الإسلامية بجامعة بغداد، تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد رمضان عبد الله.

الوسطية في العقيدة الإسلامية

ISBN 2-7451-4744-7
9 782745 147448 90000

http://www.al-ilmiyah.com/

email: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

صدق الله العظيم

سورة البقرة/الآية: ١٤٣

الإهداء

إلى الوالدين الطيبين العظيمين اللذين أكرما بحمل أعظم وأشرف نور
إلى الوالدين الحبيبين اللذين تشرفا بحمل أحب ابن وأكرم نبي ورسول
إلى الوالدين الطيبين الحبيبين الأعزين الأكرمين اللذين يطيب التاريخ بذكر اسميهما في صفحات النور.

إلى الوالدين الشريفين اللذين أحبهما القلب من سويدائه.

إلى من حملا وولدا وأنجبا وربيا أبرّ ابن وأشرف إنسان وأعظم نبي وأكرم رسول.

إلى الأم البرة النقية التقية سيدتي آمنة بنت وهب عليها السلام.

إلى الأب البر النقي التقي سيدي عبدالله بن عبدالمطلب عليه السلام.

حباً لكما وتقرباً بكما إلى حبيبكما وحبيبنا حضرة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب.

حباً وشوقاً وولاءً واعترافاً بالفضل

إلى كل مؤمن ومسلم أحبكما ... أقدم هذا البحث راجيا النظر والقبول

المحب لوالدي سيدنا رسول الله ﷺ

الباحث

ثائر إبراهيم خضير الشمري

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، والصلاة والسلام على خير الأنام، ومصباح الظلام، سيدنا وحبيبنا محمد خير البرية، المبعوث بالاعتدال والتوازن والوسطية، وعلى آله وأصحابه والمهتدين بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن للحد الأوسط مساحة واسعة جدا في جميع الأنظمة الإسلامية وله دور كبير وأهمية خطيرة وحركة دقيقة في التنظيم الاقتصادي والمناهج السياسية والأساليب التربوية والقوانين الفقهية.

وللوسطية النفوذ المباشر في داخل شخصية المسلم وصميم سلوكه وتصرفاته وتغطي لونا كبيرا من مزاجه النفسي وتحتل طابعا واسعا من ميله الباطني فهي التي توازن في بنائها شخصية المسلم بين متطلبات الجسد وأشواق الروح وبين معاني الخوف من الله تعالى والفزع من عذابه وموحيات الامن والطمأنينة والطمع برحمته.

ولا تنسى الوسطية الجانب العقلي وتنميته بالعلم والحضارة والتقدم ولا تنسى دورها الكبير في دعوة المجتمع وإصلاحه وتوعيته ونصحه وحثه على العمل البناء ولا تنسى أيضاً وظيفتها الثقيلة في تزكية النفس الإنسانية وتربيتها التربية الروحانية.

وللوسطية مميزات كثيرة فهي معروفة برؤيتها الشمولية للكون والحياة وبرفضها لتجزئة الإسلام وتحذيرها من الاتجاهات الهدامة والأفكار المنحرفة وطردها لكل اتجاه يبتعد عن خط الاعتدال والتوازن والجمع بين الاصالة والمعاصرة.

وللوسطية أهداف عديدة وفي مقدمتها حماية العقيدة الإسلامية والحفاظ على قدسيتها وهيبتها وإدامة العمل بقوانين الإسلام وإشاعة التيسير وتحقيق العدالة ونشرها بين الناس وصيانة الحضارة الإسلامية من كل ألوان التزييف والتعريف والحفاظ على هوية الأمة الإسلامية واستقلال الفكر الإسلامي من كل مظاهر التقليد الأعمى.

لقد سئمت ساحتنا الإسلامية من تيارين اثنين: الأول هو التيار الخرافي القديم الذي يقوم على أساس الخرافة في الاعتقاد والابتداع في العبادة والجمود في الفكر والعقل

والمداهنة في السياسة والحقد على أصحاب رسول الله (ﷺ).

والثاني التيار الظاهري الجديد الذي تميز بجدليته العقيمة وشكليته في العبادة وظاهريته في فهم النصوص وجفاف روحه وقسوة قلبه وخشونته في دعوته وسوء ظنه بالعلماء والأنبياء والأولياء.

كل ذلك بسبب الابتعاد عن التوازن والاعتدال. ولقد كان هذا الكتاب عام ٢٠٠١ ميلادي أطروحة دكتوراه تقدم بها المؤلف إلى كلية العلوم الإسلامية في جامعة بغداد وقد نوقشت ومنح صاحبها درجة الامتياز بفضل الله تعالى حيث الباعث من كتابتها محاولة علاج أزمة فكرية خطيرة طعنت جسد الأمة ألا وهي ظاهرة التطرف والتعصب.

وإني بعد شكر الله تعالى ورسوله (ﷺ) أتقدم بشكري الجزيل إلى كل من ساهم في طبع هذا الكتاب ونشره واخص بالشكر فضيلة الأستاذ الكريم الحاج محمد علي بيضون وفقه الله للخير وسدد خطاه.. آمين.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله الطيبين وصحابته الغر الميامين والحمد لله رب العالمين.

د. ثائر إبراهيم الشمري

بغداد ١١/١٠/٢٠٠٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي تستفتح جميع الكتب بحمده، وتستمطر النعم والعطايا من كرمه وجوده، الموصوف بالالوهية والربوبية، والمتفضل على نبيه بأكمل دين الوسطية. والصلاة والسلام على نور الأسماء ورداء الكبرياء، ازار العظمة الإلهية وعين الاحاطة الذاتية، بصر الوجود وسر بصيرة الشهود، سيدنا وحبيبنا **محمد** خير البرية، المبعوث بالاعتدال والتوازن والوسطية. فصل اللهم على مولانا محمد نورك اللامع ومظهر سرك الهامع، الذي طرزت بجماله الاكوان، وزينت ببهجة جلاله الاوان. وعلى آله الطيبين الطاهرين، واصحابه الغر الميامين، وجميع الأولياء والعلماء والصالحين، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، أما بعد:

١- **تاريخ الموضوع**: يبدأ تاريخ المنهج الوسط من بعثة الرسول الأعظم سيدنا **محمد** - ﷺ - فقد كانت الدعوة إلى عبادة النار وتقديسها، والصلاة إلى الشمس وتعظيمها، والقول بقدم العالم وانكار وجود الخالق، وتناسخ الارواح، وعبادة الملائكة والابقار، وتأليه الاوثان والاحجار، وتكذيب الأنبياء واتهامهم بالكبائر، واستباحة جميع المحرمات، ورفض الذبائح هي حصيلة الافكار الخطيرة المنتشرة في مختلف أمم العالم.

في خضم هذه الافكار القلقة والاتجاهات المريضة، ومن بين الوثني الذي عكف دهورا طويلة على عبادة الاصنام، والملحد الذي لا يؤمن بالله تعالى، والمشرك الذي يشرك مع الله تعالى جاء سيدنا **محمد** - ﷺ - برسالة الإسلام الحنيف الذي تميز بخصائصه الفريدة وانظمته الربانية، وفي طليعتها الوسطية والتوازن والاعتدال. فدعا الناس جميعا إلى الإيمان بالله تعالى - خالق الكون ومبدعه - رافضا جحود الملاحدة، وأمر بتوجيه العبادة إليه تعالى وحده لا شريك له مستنكرا عبادة الهندوس والبرهمية والمجوس. ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥ ﴾.

لقد رفض الإسلام رهبانية النصارى وتبرأ منها فقال القرآن الكريم: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾. ورفض حرمانهم انفسهم من طيبات حياة الدنيا، وتعطيل حركتهم في الأرض لعمارتها وبنائها. كما رفض في الوقت ذاته الاتجاه المادي الدنيوي الصرف الذي عرف به اليهود. ودعا إلى التوفيق بين مطالب الروح ورغبات النفس، وإلى الجمع بين المادية والروحانية، والموازنة بين حقوق الدنيا وحقوق الآخرة، وسمع نداءات القلب واشواق الروح كما سمع حاجات الجسم وميولاته. وقد خاطب الله تعالى حبيبه سيدنا **محمدا** – ﷺ -: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾.

وكان الحد الوسط الطابع العام في حياة النبي ﷺ، والمنهج الملموس والخط الظاهر والسمة الواضحة في جميع افعاله وتصرفاته واخلاقه وشؤونه التربوية والسياسية والاجتماعية والعبادية وغيرها. وعلى هذا الاساس المتين انطلقت توجيهاته الحكيمة واقواله الكريمة، من قاعدة الوسطية وارضية التوازن واعطاء كل ذي حق حقه، بالقسطاس المستقيم، من غير وكس ولاشطط ولاغلو ولا تقصير. وعلى هذا الخلق العظيم والتصرف الحكيم ربى أهل بيته العظام واصحابه الكرام، فعاشوا في الأرض اشداء على الكفار رحماء بينهم.

٢- **أهمية الموضوع ومقدار الفائدة منه:** للحد الاوسط مساحة واسعة في جميع الانظمة الإسلامية، فله دور كبير واهمية خطيرة وحركة دقيقة في التنظيم الاقتصادي، والمناهج السياسية، والاساليب التربوية، والقوانين الفقهية — العبادية والعملية -. وله الوزن الثقيل بالحفاظ على ترتيب الفقه في توزيع الثروات والاموال في الوجوه المعلومة، مبتدئاً في القسمة بالاهم فالاهم من مصالح المسلمين مع مراعاة حق الأولوية.

وللوسطية تفرعات أخرى كثيرة، وشعب متعددة، فلها النفوذ المباشر في داخل شخصية الإنسان وصميم سلوكه وتصرفاته، وتغطي لونا كبيرا من مزاجه النفسي، وتحتل طابعا واسعا من ميله الباطني. فهي التي توازن في بنائها شخصية المسلم بين معاني الخوف من الله تعالى والفزع من عذابه، وموحيات الامن والطمأنينة والطمع برحمته.

وتتميز الوسطية برؤيتها الشمولية للكون والحياة، فهي لا تنسى الجانب العقلي وتنميته بالعلم والحضارة والتقدم، ولا تنسى حق المجتمع ودورها الكبير في اصلاحه وتوعيته ونصحه وحثه على العمل البناء، ولا تنسى مهمتها الثقيلة ووظيفتها الكبيرة في تزكية النفس الإنسانية وتربيتها التربية الروحانية الحقة.

وتتميز أيضاً برفضها تجزئة الإسلام، وتحذيرها من الاتجاهات الهدامة والافكار المنحرفة ورفضها كل اتجاه يبتعد عن خط الاعتدال والتوازن، والجمع بين الاصالة والمعاصرة، فهي لا ترضى ان يعيش المسلمون متقوقعين على الماضي والدوران في ساقيته، دون ان يظهر منهم الاهتمام المطلوب بقضايا العصر ومشكلات المجتمع والتطلع إلى دراسة المستقبل وايجاد المعالجات الحاسمة والحلول المناسبة.

وتهدف الوسطية إلى حماية العقيدة الإسلامية والحفاظ على قدسيتها وهيبتها، وتثبيت العمل بقوانين الإسلام وهي في حركتها الاجتهادية المتطورة المستمرة، واشاعة التيسير، وتحقيق العدالة ونشرها بين الناس حفاظا على مصالح المجتمع، وصيانة حضارة الإسلام من الوان التزييف والتحريف، والحفاظ على هوية الأمة الإسلامية والتأكيد على صلتها بأصالتها وحضارتها، وصيانة كيان الأمة الفكري والاخلاقي، واستقلال الفكر الإسلامي من مظاهر التقليد الاعمى.

٣- **الباعث على اختيار الموضوع:** من يتأمل طويلا في احوال مسلمي اليوم، ويسلط الضوء العلمي على ظروف الأمة الانية يجد فصائل متعددة، وفرقا كثيرة، واتجاهات مختلفة – متضاربة ومتناقضة – تؤدي كل واحدة منها حركتها على مسرح الساحة الإسلامية. واخطرها اثنان: التيار الخرافي القديم الذي يقوم على اساس الخرافة في الاعتقاد، والابتداع في العبادة، والجمود في الفكر والعقل، والتقليد الاعمى في الفقه، والمداهنة والنفاق في السياسة، والحقد على أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم –.

والتيار الظاهري الجديد الذي تميز بجدليته العقيمة في العقيدة، وشكليته في العبادة، وظاهريته في فهم النصوص، وجزئية اهتمامه، وجفاف روحه، وقسوة قلبه، وخشونته في دعوته، وضيق فكره، مع الشدة والصرامة، وسوء الظن بالعلماء والأولياء، والمسارعة إلى تكفير مخالفيه من غير تحفظ ولاضابط، واتخاذه القوة والعنفوان وسيلة إلى تحقيق اهدافه وتنفيذ خططه.

وقد سئمت كثيرا من محاورة كلا التيارين ومناقشتهما لبعدهما عن منهج التوسط والاعتدال والتوازن، فرمت البحث في معالجة هذه الازمة الخانقة، واظهار معالم طريق الحق والنور والرشاد، فجاء بحثنا المتواضع هذا محاولة جديدة في توحيد الصف وجمع الشمل.

٤- **المنهج المعتمد:** كانت طريقة معالجتنا في اجواء هذا الموضوع العظيم طريقة تحليلية صرفة، فقد ذكرت آراء اهم الفرق الكلامية كالخوارج والمرجئة والمعتزلة والاشعرية والماتريدية في الموضوع العقيدي، المطروح على مائدة الدراسة والبحث والمناقشة العلمية المتجردة، وقمت بذكر اهم الادلة واقوى الحجج المعتمدة في كل مسألة، ثم قمت بدراسة جميع هذه الآراء وتحليل ابعادها المستقبلية واثارها المصيرية المتعلقة بالأمة الإسلامية، بنظرة إسلامية جديدة، ورؤية واقعية حديثة. ودرست جميع أدلتهم وناقشتها مناقشة علمية دقيقة.

٥- **مخطط البحث:** احتوت رسالتنا هذه على اربعة فصول، تحدثت في الفصل الأول عن تعريف الوسط لغة واصطلاحا، وبينت الفرق بين كلمة الوسط — بفتح السين — وكلمة الوسط — بسكون السين — وقمت بالرد على الجاحظ والسيد محمد مرتضى الزبيدي صاحب كتاب تاج العروس عندما قالا في تعريف الوسط: هو الشيء الذي بين الجيد والرديء. وذكرت رد استاذي وشيخي الدكتور محمد رمضان عبدالله — أنعم الله عليه بالعمر والعافية — على هذا التعريف. ثم ذكرت كلاما موجزا عن عقائد الامم الضالة وافكارها الفاسدة التي كانت تحيط بارض الإسلام وقت اشراق نوره في أرض الجزيرة العربية. ثم اتيت بالعديد من الامثلة الإسلامية والصور الواقعية على وسطية الإسلام في مختلف انظمته العبادية والعملية والاقتصادية والسياسية والاخلاقية، مستدلا بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة. وقمت بالرد على فضيلة الدكتور أحمد الحوفي عندما نفى نفيا جازما وجود الوسطية، وعارض تفسيرات العلماء كلها.

وتكلمت في المبحث الثالث عن مميزات الوسطية وخصائصها، ومنها: التيسير والتخفيف، والموازنة بين الثوابت والمتغيرات، والاستقامة والثبات، والموازنة بين المصالح والمفاسد عند التعارض، ومراعاة التدرج الاصلاحي، والعمق التاريخي في الفكر الإسلامي.

وبينت في المبحث الرابع اهداف الوسطية واهميتها، ومنها: الحفاظ على هيبة العقيدة الإسلامية وحماية قدسيتها، واطفاء نار الصراعات القومية والمذهبية، وتحرير العقل من ترسبات الماضي، وتوحيد الكلمة وجمع الشتات، والتطور العلمي وتجديد البناء الحضاري، والكمال الروحي والإنساني.

وتحدثت في المبحث الخامس عن واجبات الوسطية، ومنها: تحذير المسلمين من الاتجاهات المنحرفة والحركات الهدامة والاحزاب المتعصبة، عدم ادخال الإسلام في حرب الصراعات الطائفية مع أهل الكتاب وغيرهم، وتنقية التاريخ من جميع الاخبار الكاذبة والقصص الدخيلة والافتراءات الباطلة، والاعتماد على منهج التدرج العلمي في النصيحة والارشاد والمعالجة، وكشف خطط الغزو الفكري والمؤامرات السرية المحيكة ضد الإسلام، الشعور الجماعي بعظم المسؤولية والاشتراك الكلي بحمل الامانة، ودراسة أزمات عقل المسلم وتحديد اسبابها وتشخيص علاجها، وعدم الدخول في صراع سياسي مع الحكام والسلاطين، وتجديد عمل الروح الإسلامي وتنقيته من خرافات الجاهلين وابتداع المبتدعين.

أما الفصل الثاني فقد خصصته لذكر بعض المسائل الإلهية، كالاختلاف في زيادة الإيمان ونقصانه، واختلافهم في مرتكب الكبيرة، والقضاء والقدر، والتحسين والتقبيح العقليين. فقد ذكرت في هذا الفصل جميع آراء المتكلمين من الخوارج والمرجئة والمعتزلة والاشعرية وماتريدية سمرقند وماتريدية بخارى وغيرهم، وقمت بمناقشة هذه الاراء مناقشة تفصيلية عميقة، ثم قمت بذكر أدلتهم ودرستها دليلا دليلا، وحللت جميع هذه المواقف برؤية عصرية حديثة.

أما الفصل الثالث فقد كان الحديث فيه عن اهم مسائل النبوات في العصر، حيث تناولت الحديث مفصلا عن بشرية الرسول الأعظم - ﷺ - تحت ضوء القرآن الكريم - بعد ان رجعت إلى التوراة والانجيل وصورت عقيدة الامم في انبيائها السابقين - عليهم الصلاة واتم التسليم - وذكرت في هذا الفصل أيضاً فضل سيدنا **محمد** - ﷺ - على جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة والجن والخلق أجمعين.

أما الفصل الرابع والأخير فقد تطرقت فيه إلى ذكر بعض القضايا السمعية كاختلاف المتكلمين في تعريف الميزان، واختلافهم في الموزون في الميزان، وعدد نفخات الصور مع ذكر جميع أدلتهم وتحليلها تحليلا علميا دقيقا.

٦- **أهم المصادر المعتمد عليها:** وكان من اهم المصادر التي اعتمدت عليها في تأليف مباحث هذه الرسالة مقالات الإسلاميين للشيخ الاشعري والتمهيد للقاضي الباقلاني وأصول الدين والفرق بين الفرق لأبي منصور البغدادي والارشاد لامام الحرمين الجويني والاقتصاد في الاعتقاد لحجة الإسلام الغزالي ونهاية الاقدام للشيخ الشهرستاني والتفسير الكبير لفخر الدين الرازي والجامع لأحكام القرآن والتذكرة للامام القرطبي وشرح المواقف للسيد الشريف الجرجاني وشرح النسفية والمقاصد لسعد الدين التفتازاني والحرية الجامعية للدكتور **عبدالله الهرشمي النقشبندي** والصحوة الإسلامية للدكتور يوسف القرضاوي.

٧- **صعوبات الموضوع:** لم تواجهني صعوبات في كتابة موضوعات الرسالة بفضل الله تعالى، سوى ما وجدته في كتابة الفصل الأول الذي تحدثت فيه عن مفهوم الوسطية، بسبب قلة المصادر التي درست هذا الموضوع الحيوي وبحثت فيه بحثا منهجيا علميا، والذي وقفت عليه عبارة عن شذرات متواضعة ومحاولات مشكورة، مبثوثة في كتاب أو كتابين.

٨- **الشكر والامتنان:** ويطيب لي بعد هذا البيان ان اتقدم بجزيل شكري وعظيم الامتنان إلى اعضاء لجنة المناقشة اساتذتي الافاضل لقبولهم مناقشة هذه الرسالة المتواضعة، حرصا منهم على تقويم اخطاء تلامذتهم واسداء النصح الامين إليهم، خدمة لديننا الإسلامي الحنيف، وابتغاء رضوان الله تعالى رب العاليمن، فجزاهم الله عنا خير ما جازى العلماء العاملين.

كما أتوجه بالشكر الجزيل والامتنان الكبير إلى شيخي واستاذي المشرف العلامة فضيلة الدكتور محمد رمضان عبدالله – رزقه الله العفو والعافية ونفعنا من بركات علومه– لما حفني به من رعاية أبوية حنونة صادقة، ولما احاطني به من توجيهات حكيمة، وارشادات مخلصة.

ولا يفوتني ان ابعث بفائق شكري وجميل ثنائي العطر إلى كل من سهل لي مهمة اعداد هذه الرسالة العلمية، واخص منهم بالذكر الذين امدوني بانفاسهم الزكية، وارواحهم الطيبة القوية، وعلومهم اللدنية، واخلاقهم العلية ساداتي الكرام حضرة الشيخ حمد الزوبعي وحضرة الشيخ الدكتور سعد الله أحمد عارف وحضرة الشيخ طارق

السامرائي — عاملهم الله تعالى بكرمه اللائق بذاته الأقدس - وإلى جناب الوالدين الحنونين الكريمين اللذين كانا نعم العون ونعم الوالدين، وإلى من كان مثلاً رائعاً في الاخوة الصادقة اخي الحبيب القريب الدكتور مراد عبدالله البرع. وإلى اختي العزيزة أم عمر وزوجتي الغالية أم عبدالله وعائلتي الكريمة.

ولا ازعم بعد هذا كله انني بهذا العرض قد بلغت الكمال — والعياذ بالله — ولكن كل ما أستطيع ان اقوله هو أنني لم آل جهدا في كتابة مباحث هذه الرسالة، بل لا يزال الباب مفتوحاً امام الباحثين والمفكرين للكتابة في هذا الموضوع العصري الذي يمثل حاجة المسلمين الحقيقية في العصر الحديث.

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل كله صالحا ولوجهه خالصا وان ينفعني به والمسلمين، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير، ربنا انا ظلمنا انفسنا ظلما كثيرا فاغفر لنا مغفرة من عندك وارحمنا انك أنت الغفور الرحيم، وصلى الله تعالى وسلم وبارك على حضرة خاتم انبيائه ورسله حبيبه سيدنا وسندنا وشفيع ذنوبنا **محمد** المصطفى الامين، وعلى آله الطيبين الطاهرين واصحابه الغر الميامين، ومن اهتدى بهديه واقتدى بسنته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول
ثقافة الوسطيـة

المبحث الأول: مفهوم الوسطية لغة واصطلاحاً
المبحث الثاني: مفهوم الوسطية في الإسلام
المبحث الثالث: مميزات الوسطية وخصائصها
المبحث الرابع: أهداف الوسطية وأهميتها
المبحث الخامس: واجب الوسطية ووظيفتها

المبحث الأول

مفهوم الوسطية لغة واصطلاحاً

ذكر ابن منظور –رحمه الله– في لسان العرب أن: وسَطَ الشيء ما بين طرفيه، ومنه قول بعضهم:

إذا رحَلْتُ فاجعلوني وسَطاً إني كبير لا أطيق العنَّدا

أي اجعلوني وسَطًا – بفتح السين – لكم، ترفقون بي، وتحفظونني فإني أخاف إذا كنت وحدي متقدما عليكم أو متأخرا عنكم ان تفرط دابتي أو ناقتي فتصرْعَني. فاذا سُكنت السين من وسْط صار ظرفاً، ومنه قول الهذلي:

ضروب لهامات الرجال بسيفه إذا عجمت وسْط الشؤون شفارها

فاستعمله ظرفا على وجهه، وحذف المفعول لأن حذف المفعول كثير[(١)].

والوسَط – بفتح السين – اسم لما بين طرفي الشيء وهومنه، كقولك: قبضت وسَطَ الحبل، وكسرت وسَطَ الرمح، وجلست في وسط الدار.

والوسَط – بسكون السين – ظرف، كما مر الآن في قول الهذلي: إذا عجمت وسْط – بسكون السين – الشؤون شفارها[(٢)].

والوسْط – بالتسكين – يقال فيما كان متفرق الاجزاء، غير متصل كالناس والدواب وغير ذلك. وفي الحديث الشريف (الجالس وسْط الحلقة ملعون)[(٣)]. وإنما لعن الجالس وسط – بالتسكين – الحلقة لأنه لا بد من أن يستدبر بعض المحيطين به، فيؤذيهم، فيلعنونه ويذمونه[(٤)].

واما إذا كان الشيء متصل الاجزاء: كالدار والرأس مثلا، فانه يقال فيه الوسَط –

---

(١) لسان العرب، مادة: وسط ٩/٣٠٥ وتاج العروس للزبيدي، مادة: وسط ٥/٢٣٨و٢٣٩.

(٢) لسان العرب، مادة: وسط ٩/٣٠٥.

(٣) رواه أبو داود في كتاب الادب، باب الجلوس وسط الحلقة ٤/٢٥٩(٤٨٢٦) والترمذي في كتاب الادب ٥/٨٤ برقم (٢٧٥٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح وأحمد في مسنده (٢٢١٧٧) و (٢٢٢٨٧) و (٢٢٣١٦).

(٤) لسان العرب: مادة: وسط ٩/٣٠٨.

بالفتح-[١].

ويأتي الوسط صفة، وان كان أصله ان يكون اسما من جهة أن أوسط الشيء افضله وخيره، كوسط المرعى خير من طرفيه، وكوسط الدابة للركوب خير من طرفيها لتمكن الراكب. ومنه قول الراجز:

إذا ركبت فاجعلوني وسطاً

ومنه الحديث النبوي الشريف: (**خيار الأمور أوساطُها**)[٢].

ومنه قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾[٣] أي: على شك، فهو على طرف من دينه، غير متوسط فيه ولا متمكن.

فلما كان وسط الشيء أفضله وأعدله، جاز ان يقع صفة، وذلك في مثل قول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[٤] أي: عدلا. فهذا تفسير الوسط وحقيقة معناه: اسم لما بين طرفي الشيء وهو منه[٥].

وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾: فيه قولان: وسطاً

---

(١) لسان العرب: مادة: وسط ٣٠٨/٩ و ٣٠٩ وكذلك ذكر الراغب الاصفهاني - رحمه الله - في كتابه المفردات، قائلا: وسط - بالفتح - الشيء: ما له طرفان متساويا القدر. ويقال ذلك في الكمية المتصلة كالجسم الواحد، إذا قلت: وسطه صلب. ويقال في الكمية المنفصلة كشيء يفصل بين جسمين نحو: وسْط - بالتسكين - القوم كذا. المفردات في غريب القرآن للحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصبهاني، مكتبة الانجلو المصرية، المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٧٠م، ص٨١٩ وسوف اعتمد على طبعة أخرى للمفردات أشير إليها ان شاء الله تعالى.

(٢) رواه ابن السمعاني في ذيل تاريخ بغداد بسند مجهول عن سيدنا علي (عليه السلام) مرفوعا به وهو عند ابن جرير في التفسير من قول مطرف بن عبدالله واخرجه الحافظ البيهقي: المقاصد الحسنة للحافظ السخاوي، ص ٢١٥ برقم (٤٥٥) وروى الديلمي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - مرفوعا: (... خير الأعمال اوسطها ...) الفردوس بمأثور الخطاب ٢١٢/٢ (٣٠٣٦) وهو في اتحاف السادة المتقين ٣٣٦/٧.

(٣) الحج: الآية (١١).

(٤) البقرة: الآية (١٤٣).

(٥) لسان العرب، مادة: وسط: ٣٠٦/٩ والقاموس المحيط ٥٤٩/٤ والمصباح المنير مادة: وسط ٩٠٧/٢.

عدلاً، وسطاً خياراً، واللفظان مختلفان والمعنى واحد، لأن العدل خير والخير عدل. وقيل في وصف النبي - ﷺ - أنه كان من اوسط قومه أي: خيارهم[١].

ومما اثار انتباهي ودهشتي ان الجاحظ[٢]، وصاحب كتاب تاج العروس للسيد **محمد** مرتضى الزبيدي[٣] قالا في تعريف الوسط: الشيء الذي بين الجيد والرديء. واستدل الزبيدي على هذا التعريف بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

والحق أن هذا الكلام - الوسط: شيء بين الجيد والرديء - بعيد جدا عن الدقة العلمية، بل ضعيف، لماذا؟ لأنه ليس بين الجيد والرديء وسط.

وقد حدثني شيخي واستاذي فضيلة الشيخ الدكتور محمد رمضان عبدالله - حفظه الله واطال عمره - في تعريف الوسط، وردا على الجاحظ والزبيدي، واليك نص كلامه:

الوسَطُ - بفتح السين - في المكان يقصد به مركز الدائرة. واما الوسط - بسكون السين - فهو ما لا يكون في الطرف، سواء كان في مركز الدائرة أو فيما حوله، بشرط ان لا يكون في الاطراف. فاذا قلت: جلست في وسَط الغرفة مثلا، فهذا يعني انك جلست في مركز هذه الدائرة، أي: ان تكون في وسط الغرفة تماما.

فهو مكان محدود، لا يجوز حذف - في - منه، فلا يجوز أن تقول: جلست وسَط الغرفة.

واما الوسط - بسكون السين - فهو مكان مبهم لأنه يطلق على مركز الدائرة وعلى ما حوله، بشرط ان لا يصل إلى الاطراف.

ولذلك يجوز حذف - في - منه، فتقول: جلست وسْط الغرفة، لأن الوسْط مكان مبهم، فيجوز حذف -في - من المكان المبهم، لا المحدود، لأن النحاة اتفقوا، بصرييهم وكوفييهم على ان - في - تحذف من الزمان المبهم، والزمان المحدود، والمكان

---

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٢/٢٥١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تاج العروس للزبيدي، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي، دار صادر - بيروت، سنة ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م، مادة: وسط ٥/٢٣٨.

المبهم فقط، لا المكان المحدود[١].

ثم قال – حفظه الله -: فلذلك نحن لا نرتضي ما ذهب إليه الجاحظ ومن تبعه في قوله: الوسط هو ما بين الجيد والرديء، لأنه ليس بين الجيد والرديء وسط. انتهى.

الوسطية اصطلاحاً:

لا يبتعد مفهوم الوسط في الاصطلاح عن مفهومه في اللغة. فوسَط الشيء – بفتح السين -: ما له طرفان متساويا القدر[٢].

وهو في الاصل: اسم المكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي افراط وتفريط، كالجود بين الاسراف والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن، ثم اطلق على المتصف بها، مستويا فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كسائر الاسماء التي وصف بها[٣].

ويعبر عن الوسطية أيضاً بعبارة أخرى فنقول: هي التوازن [ونعني بها التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغى على مقابله ويحيف عليه][٤].

والحد الاوسط هو الحد الذي يقوم على اساس الانصاف والعدل والتسوية، بعيدا عن الغلو والتقصير، والافراط والتفريط، مراعيا ظاهرة التوازن الدقيقة، ومبدأ القسمة الحقة، سالكا الطريق القويم، والمنهج المستقيم.

والوسطية ترفض التحيز إلى أحد الطرفين، لأنها تعتمد الاعتدال والتوازن قاعدة لها في الحكم على سائر الاطراف على حد سواء، من غير جنوح إلى الغلو وميل إلى التقصير. ومن هنا كانت الوسطية علامة الأمة الإسلامية، وصفة الأمة المهدية، وسط الامم الزائغة، والسبل المنحرفة، والاقوام الضالة، والافكار الجائرة. وسنتكلم ان شاء الله تعالى كلاما موجزا عن عقائد هذه الامم الضالة وافكارها الفاسدة التي كانت تحيط بارض الإسلام، وقت اشراق نوره في أرض شبه الجزيرة العربية.

---

(١) إلى هنا انتهى ما نقله شيخي الدكتور من حاشية النازلي على اظهار الاصرار للبركوي.

(٢) المفردات في غريب القرآن للاصفهاني، المطبعة الفنية، ص ٨١٩.

(٣) تفسير البيضاوي مع حاشية الكازروني ١/١٩٥، دار صادر وهو مع حاشية الشهاب ٢/٢٥١.

(٤) الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوي، دار المعرفة – الدار البيضاء، ص١٢٧.

إذن – وبعد هذا التصور العلمي الدقيق عن مفهوم الوسطية في اللغة والاصطلاح، اقول: عندما نطلق لفظة – الوسطية – فانه يحضر في ذهن السامع، العدل، والتوازن، والتسوية، والانصاف، والاستقامة، والخير فان جميع هذه المعاني تنطبق على كلمة الوسطية[(١)]. واضيف إليها شيئا آخر وهو – الامثل –، لقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[(٢)].

فإن معنى قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أي: أمثلهم تفكيرا، واشرفهم قدْرا، وأكثرهم قدوة[(٣)]. ولذلك سمينا رسالتنا هذه – الوسطية في العقيدة الإسلامية – ونعني بذلك ان عقيدة الإسلام – التي سوف ابين نماذج منها بعد هذا الفصل – هي العقيدة المثلى لجميع العقائد، وهي القدوة الحسنة، والاسوة الكاملة لمن اراد السعادة في الدنيا، ورام النجاة في الآخرة.

ولاشك هذا المعنى السابق لا ينطبق على عقيدة الإسلام إذا اردنا تفسير الوسط بانه شيء بين الجيد والرديء. كما ذكر الجاحظ وغيره.

---

(١) وانظر ان شئت هذه المعاني في: تفسير الماوردي بتحقيق خضر محمد خضر، مطابع مقهوي – الكويت، ط١، ١٤٠٢هـ–١٩٨٢، ١/١٦٤ والكشاف للزمخشري مع حاشية الجرجاني عليه، دار الفكر، ط١، ١٣٩٧هـ–١٩٧٧م، ١/٣١٧ وتفسير النسفي، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ١/٧٩، وتفسير ابن كثير، دار المفيد، بيروت – لبنان، ١/١٩١ وتفسير روح البيان للشيخ البروسوي، دار الفكر، ١/٢٤٨ ومواهب الرحمن للشيخ عبدالكريم المدرس، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٤١٠هـ –١٩٩٠م، ١/٢٨١ والتفسير الفريد للدكتور محمد الجمال ١/١٣٠ وتفسير الطبري بتحقيق محمود محمد شاكر، ٣/١٥٢.

(٢) القلم: الآية (٢٨).

(٣) قال الدكتور محمد سيد طنطاوي في تفسير اية القلم: وهنا تقدم إليهم اوسطهم رأيا، واعدلهم، وامثلهم تفكيرا، فقال لهم ... الخ التفسير الوسيط، مطبعة السعادة، ١٤٠٩هـ– ١٩٨٨م، ط٢، ١٩/٦٤. وانظر في تفسير هذه الآية: تفسير النسفي ٤/٢٨٢ ومواهب الرحمن للشيخ المدرس ٧/ ٣٨٢ وقال برهان الدين البقاعي في تفسير آية البقرة: ١٤٣: وسطا: أي: شريفة، خيارا لأن الوسط العدل. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد – الدكن – الهند، ١٣٩٠هـ–١٩٧٠م، ٢/٢٠٦ وسوف اذكر رأي ابن قتيبة والفراء وغيرهما في تفسير الوسط.

استعمالات الوسطية:

تحدث الراغب الاصفهاني – رحمه الله – عن مدى استعمالات الوسطية فقال: [الوسَط – بفتح السين – تارة يقال فيما له طرفان مذمومان، يقال: هذا اوسطهم حسبا، إذا كان في واسطة قومه وارفعهم محلا. وكالجود الذي هو بين البخل والسرف، فيستعمل استعمال القصد المصون عن الافراط والتفريط فيمدح به، نحو: السواء والعدل والنصفة. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[(١)]. وعلى ذلك: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[(٢)].

وتارة يقال فيما له طرف محمود وطرف مذموم، كالخير والشر، ويكنى به عن الرذل. نحو قولهم: فلان وسط من الرجال، تنبيها أنه خرج من حد الخير][(٣)].

وقريبا من هذا اشار ابن منظور – رحمه الله – حيث قال: [كل موضع صلح فيه بين – بسكون الياء – فهو وسط – بسكون السين - وان لم يصلح فيه بين فهو وسَط بالتحريك][(٤)].

زيادة بيان وتفصيل:

إذا جئت تدرس طبيعة الافعال وتتأمل في أنواعها واشكالها وصورها، وجدت من هذه الافعال افعالا متناقضة[(٥)]، وافعالا أخرى متضادة[(٦)]، فتجد مثلا: الاقتصاد والشح، والفراسة والظن، والنصيحة والتأنيب، والتواضع والمهانة، والتوكل والعجز، والاحتياط

---

(١) البقرة: الآية (١٤٣).

(٢) القلم: الآية (٢٨).

(٣) المفردات في غريب القرآن ص ٨١٩وص٨٢٠ وانظر: الكليات لابي البقاء الحسيني الكفوي الحنفي (ت –١٠٣٤هـ) مكتبة المثنى، ص ٣٧٤.

(٤) لسان العرب مادة: وسط ٣٠٥/٩.

(٥) التناقض: هو اختلاف القضيتين بالايجاب والسلب بحيث يقتضي لذاته صدق احداهما، وكذب الأخرى، كقولنا: زيد إنسان، زيد ليس بإنسان: التعريفات للجرجاني ص ٦٨ وعلم المنطق لأستاذي الدكتور محمد رمضان ص٦٨.

(٦) الضدان: صفتان وجوديتان، يتعاقبان في موضع واحد، يستحيل اجتماعهما، كالسواد والبياض والفرق بين الضدين والنقيضين ان النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان كالعدم والوجود، والضدين لا يجتمعان، ولكن يجوز ان يرتفعا كالسواد والبياض: التعريفات للجرجاني ص ١٣٧.

والوسوسة، والثقة والغرور، والانتصار والانتقام.

وتجد مجموعة أخرى مثل: الجود والبخل والسرف، والشجاعة والتهور والجبن، وسلامة القلب والتغفل والبله. وغير هذه الافعال التي تدخل الوسطية فيها حكما عادلا، ومنهجا سويا، وحلا سليما. ومن هنا يعتقد الاصفهاني وابن منظور ومن وافقهما ان الوسطية تستخدم في حقلين اثنين:

١- فتارة تطلق الوسطية على شيء محاط بطرفين مذمومين، كالجود مثلا. فانه وسط بين البخل والسرف. فلا البخل مقبول في اخلاق الإسلام، لأن: (**البخيل بعيد من الله بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار ...**)(١). ولا السرف مقبول أيضاً، لأن الله تعالى لا يحب المسرفين وقد نهانا عنه فقال: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾(٢).

٢- وتارة تطلق الوسطية على شيء له طرفان أحدهما محمود والثاني مذموم. وذلك مثل: الاقتصاد والشح، والنصيحة والتأنيب، والاحتياط والوسوسة، والخير والشر... الخ. بيد ان الوسطية إذا اطلقت هنا – داخل هذه الدائرة – كانت كناية عن الذم لا المدح.

فاذا ذكر الاقتصاد والشح مثلا في مجلس من الناس، وقلت: فلان وسط. أردت أنه خرج من مبدأ الاقتصاد والفضيلة إلى غيرهما. وكذا لو ذكرت حقوق الدنيا وحقوق الآخرة مثلا، ثم قلت في رجل كان ميله إلى الدنيا أكثر من الآخرة: فلان وسط. فانك تعني أنه من أهل الدنيا.

ويمكن ان يحمل على هذا رأي الجاحظ والزبيدي.

والذي اراه ان الإطلاق الأول هو الصحيح المعمول به عند المحققين، لأن كلام الراغب في الإطلاق الثاني للوسطية كناية وليس حقيقة، والحقيقة اولى بالاتباع، والإطلاق الأول للوسطية حقيقة فهو اذن الأولى في الإطلاق والاستخدام.

ومن جهة ثانية ان الوسطية تطلق بين طرفين متنافرين، هي ثالثتهما، لا بين

---

(١) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة ٣٠٢/٤ (١٩٦١) والطبراني في الاوسط والبيهقي في سننه: الجامع الصغير: ٢/ ٦٧ برقم (٤٨٠٤).

(٢) الأعراف: الآية (٣١).

شيئين هي أحدهما. فاذا قلنا مثلا: الإسلام وسط[١]، فهذا يعني أنه بين دين صحيح كامل غير محرف وبين دين وضعي فاسد وهو باطل قطعا، لأنه يلزم ان يكون هناك دين غير محرف اكمل من الإسلام، والإسلام بينه وبين الوضعي الفاسد. والله تعالى يقول: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾[٢] ويقول: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[٣] ويقول: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[٤] والله تعالى اعلم بالصواب.

(١) هذا إذا قلنا: الوسط شيء بين الجيد والرديء — أو — بين طرف محمود وآخر مذموم.

(٢) النساء: الآية (٤٦) والمائدة: الآية (١٣).

(٣) آل عمران: الآية (١٩).

(٤) المائدة: الآية (٣).

المبحث الثاني

مفهوم الوسطية في الإسلام

افكار متضاربة في اتجاهات سابقة:

قبل الوقوف على مفهوم الوسطية في حضارة الإسلام، ومعرفة اهتمامه بها ومنحها رعايته الحكيمة، أرى من الضروري جدا ان اقف على ما ورّثه لنا تاريخ المذاهب السابقة والامم الماضية من انتاجات فكرية وجهود بشرية، سبقت في ظهورها مجيء الإسلام الحنيف.

فوجدت من خلال المراجعة العلمية المتواضعة لتراث امم العالم افكارا عديدة ومذاهب كثيرة واتجاهات فكرية مختلفة، يمكنني ان ارجعها إلى محورين رئيسين: افكار تخص العقيدة، وافكار تخص الشريعة والاخلاق، وهاهي اضعها بين يديك بشكل مختصر، مبتدئاً بالافكار التي تخص نظام العقيدة والإيمان:

١- الدعوة إلى عبادة النار وتقديسها: قال بذلك أصحاب الغنوصية[١] التي تمثل في الفكر الشرقي القديم مكانة الهلينية في الفكر الغربي القديم. وبهذا قال أيضاً المجوسية أحد مذاهب الغنوصية والبرهمية.

٢- الصلاة إلى الشمس: فكر أنشأه المجوس.

٣- ان خالق العالم ومبدعه اثنان: أحدهما اله الخير[٢]، والثاني اله الشر[٣]. أو النور والظلام، وكلاهما قديمان غير محدثين، واليه ذهب الغنوصية والثنوية.

٤- القول بقدم العالم، وانكار وجود الخالق، وانكار البعث، والجنة والنار. واصحاب

---

(١) الغنوصية: مصطلح للفلسفة الشرقية التي كانت ذائعة قبل نزول الإسلام، وتقوم في مجموعها على فهم بشري، يشكل نظرية مختلطة من عدة مذاهب وعقائد، ومعارضة كل المعارضة لعقيدة الإسلام والتوحيد القائم على اساس الفطرة: كتاب الإسلام والدعوات الهدامة بقلم الاستاذ انور الجندي ص١٣.

(٢) ويسمى يزدان.

(٣) ويسمى أهرمن: شرح النسفية في العقيدة الإسلامية للدكتور عبدالملك السعدي، ط١، العراق — بغداد، ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م، ص٥١.

هذا الاتجاه هم: الدهرية[١]، والفلاسفة اليونان[٢]، والملحدون[٣]، والباطنية[٤]، والثيوصوفية[٥].

٥- ان التراب والهواء والماء والنار هي الأصل في كل شيء صار في هذا العالم.

٦- تناسخ الارواح، أي انتقال الروح من جسد إلى جسد اخر بعد موت الأول. وهو فكر اعتقده البرهمية والهندوس.

٧- التثليث والتجسد: التجسد هو انكار وجود الخالق العظيم وهو الله تعالى والآخرة أيضاً، بحجة انهما غير محسوسين. وهو فكر اعتنقه البرهمية[٦].

٨- عبادة الملائكة واعتقادها الهة: وهذه عقيدة الصابئة[٧].

٩- وحدة الوجود: وأصله الفلسفة اليونانية[٨].

---

(١) الدهري: هو من قال بقدم الدهر واسند الحوادث اليه: شرح رمضان افندي على شرح النسفية للعلامة التفتازاني، ص ٢٤٤.

(٢) انكر فلاسفة اليونان البعث – أو الحشر – الجسدي ولم ينكروا وجود الخالق.

(٣) الملحد هو الذي ينكر وجود الله تعالى ولايؤمن به وهو الجاحد: شرح النسفية للسعدي.

(٤) الباطنية: هم الذين يجعلون لكل ظاهر باطنا، ولكل تنزيل تأويلا: الملل والنحل للشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٧هـ–١٩٦٧م، ١/١٩٢.

(٥) الثيوصوفية: كلمة يونانية، معناها الحكمة الإلهية، لأن ثيوس – اله – وصوفيا – حكمة-: الإسلام والدعوات الهدامة، ص ٥١.

(٦) البرهمية: جماعة ينتسبون إلى اكبر الديانات الهندية. وبراهما هو اسم الله عز وجل في اللغة السنسكريتية. وهو الاله الموجود بذاته، لا تدركه الحواس ويدركه العقل: دائرة معارف القرن العشرين ٢/١٥٥ وللهنود تثليث اوجدوه من ثلاثة الاف سنة، مكون من براهما وهو الاله الخالق، وفيشنو وهو الاله الحافظ، وسيفا وهو الاله الملاشي: المدخل لدراسة الاديان والمذاهب ١/٥٣.

(٧) الصابئة: قوم يعتقدون بتأثير النجوم والكواكب ويقرون بنبوة سيدنا يحيى بن زكريا – عليه السلام- وقال فيهم الحسن البصري: انهم كالمجوس يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة الصلوات الخمس. وقال سفيان الثوري: هم قوم بين المجوس واليهود والنصارى وليس لهم دين وقيل: ليس لهم نبي ولاعمل ولاكتاب إلا قول: لا اله إلا الله ولم يؤمنوا برسول قط، وقال الرازي: هم قوم يعبدون الملائكة ويقرأون الزبور ويصلون إلى القبلة: تفسير ابن كثير ١/١٠٤ و ١٠٥.

(٨) المقصود بوحدة الوجود هو تأليه جميع الموجودات المخلوقات في هذا العالم وجعل الكون كله هو الله تعالى، من غير تفرقة بين وجود واجب الوجود ووجود ممكن الوجود، لذلك يسمى هذا الفكر بوحدة الوجود: انظر: الإسلام والدعوات الهدامة، ص ٥٥ ومابعدها.

١٠- الحلول: وأصله الفلسفة اليونانية أيضاً[١].

١١- عبادة الابقار والأغنام وتأليه الأوثان والأحجار: وهو عمل الهندوس في الهند.

١٢- الإيمان بكل ما تشاهده العين وتراه، وهو الوجود الحق، والكفر بكل ما هو غير مشاهد ولا يمكن للعين ان تبصره وعده خرافة وخيالا ووهما: وهو فكر الماديين.

١٣- الكون كله وهم، لا حقيقة له، وإنما هو خيال باطل، وكذا حرارة النار وبرودة الثلج ووجود الأرض والسماء وهكذا: ويقول بهذا العنادية[٢].

١٤- رفع حضرات الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام- من مقام البشرية إلى رتبة الالوهية أو البنوة للاله، كما صنع المسيحيون مع نبي الله سيدنا عيسى – عليه الصلاة والسلام – وكذا اليهود مع سيدنا العزير – عليه الصلاة والسلام-[٣].

١٥- تكذيب الأنبياء واتهامهم بالكبائر والنقائص، ونعتهم بالموبقات والفساد، وهو عمل اليهود في كتبهم وعقيدتهم المحرفة[٤].

وأما القضايا التي يهتم ببحثها الجانب التشريعي والنظام الاخلاقي فهي:

١- استباحة جميع المحرمات، وشيوع النساء على الإطلاق، وكذا الأموال، واباحة نكاح جميع الأخوات والزنا بهن وبغيرهن: وقد حمل لواء الدعوة إلى هذه الافعال الشنيعة الغنوصية والبرهمية والثيوصوفية والقرامطة[٥].

٢- رفض الذبائح، والنهي عن اراقة الدماء، والزهد في اكل اللحوم: وهذا مقرر أيضاً عند الغنوصية والبرهمية.

٣- منع الاغتسال بالماء تعظيما له، واستعمال بول البقر بدلا عنه: وهو عمل المجوس[٦].

---

(١) معنى الحلول اتحاد الخالق بالمخلوق، نتيجة العبادة المتواصلة الكثيرة، بحيث لايمكن التمييز بينهما: انظر: الإسلام والدعوات الهدامة، ص ٥٩.

(٢) سموا بذلك لعنادهم وعدم اعترافهم بالواقع المشاهد: شرح النسفية للسعدي، ص١٩.

(٣) وقد تحدثنا عن ذلك حديثا مفصلا في الفصل الثالث وذكرنا ما قرره القرآن الكريم عنهم.

(٤) سوف يأتيك تفصيل القول في ذلك في الفصل الثالث ان شاء الله تعالى.

(٥) القرامطة: جعلت لهم ترجمة في ملحق التراجم في نهاية الرسالة، ص٣٠٠.

(٦) يمكنك أيها الباحث الكريم مراجعة مزيد من تفصيل هذه الافكار والمعتقدات الباطلة في المصادر الآتية: الملل والنحل للشهرستاني وهو بهامش الفصل لابن حزم، المطبعة الادبية، دار الندوة

=

الأهداف والغايات:

كانت هذه الصور السريعة والمشاهد المختصرة هي حصيلة الافكار الخطيرة التي انتشرت ولا تزال منتشرة في مختلف امم العالم، ومبعثرة في مختلف بقاع الأرض، ولايشك الباحث العلمي المنصف في شدة مخاطر هذه الاتجاهات الهدامة، والافكار القاتلة، والعقائد الفاسدة، والمبادئ الجائرة في كل مجتمع نظيف شريف يرمي إلى الرقي والنقاء، والطهر والصفاء.

أما أهداف هذه الافكار، فيمكن توضيحها من خلال دراستها والتأمل فيها، فنقول:

١- الغاء الواجبات الإلهية.
٢- التحلل من الالتزام بقواعد الأخلاق وضوابطه الشريفة.
٣- التشجيع والترغيب في الوقوع في المنهيات والمحرمات.
٤- الانشغال باللذات الشهوانية وعدم الوقوف على حد معين.
٥- رفض التمييز بين الطهر والفساد، والخير والشر.
٦- تعويق الفكر الإنساني عن حركة الابداع العلمي والبناء الحضاري.
٧- القضاء على الحياء وتهوين الرذيلة بكل صورها.

= الجديدة، بيروت – لبنان، ١٣٢٠هـ، ط١، ٣/٢١٧و٢١٨و٢١٩و٢٢١و٢٣٣ وغيرها واليهودية د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، ط٨، ١٩٨٨م، ص١٥٣ ومابعدها و ص ١٩٤ ومابعدها والمسيحية د.أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، ط٨، ١٩٨٤م، ص١٣٥ وما بعدها وص١٤٤ وما بعدها ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام د.علي سامي النشار، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م والمدخل لدراسة الاديان والمذاهب للاستاذ عبدالرزاق محمد اسود، الدار العربية للموسوعات، ١/٣٧و٤٣و٥٣و٥٦و١١١ وغيرها وتاريخ الديانتين اليهودية والمسيحية للدكتور سعدون الساموك والدكتور رشدي عليان، مديرية دار الكتب – جامعة الموصل، ١٩٨٨م، ص ٢١ ومابعدها وص٤٠ وما بعدها وص ١٢١ وما بعدها والإسلام والدعوات الهدامة ص ٦٣ ومابعدها وص ١٤٢ ومابعدها وص٢١٥ ومابعدها.

الوسط: خصيصة أمة الإسلام:

في خضم هذه الافكار القلقة، والاتجاهات المريضة، بين الوثني الذي عكف دهورا طويلة على عبادة الاصنام، والملحد الذي لا يؤمن بالله تعالى، والمشرك الذي يؤمن بالله تعالى ولكنه يشرك معه غيره. بعث الله رسوله رحمةً للعالمين سيدنا **محمد**- ﷺ - برسالة الإسلام الحنيف، الذي تميز بخصائصه الفريدة، وانظمته الربانية وفي طليعتها الوسطية، والتوازن والاعتدال.

١- ففي الوقت الذي كان النصارى يعظمون فيه نبي الله عيسى - عليه السلام - ويجعلونه في مقام الالوهية أو في مرتبة البنوة للاله، وفي الوقت الذي كان اليهود يكذبون الأنبياء - عليهم السلام - ويلصقون بجنابهم اشنع صور الفساد والرذيلة من الزنا وشرب الخمر والسكر وغير ذلك - في خضم هذه الظروف - جاء الإسلام وسطا لا إفراط فيه ولا تفريط.

فأقر ببشرية الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام مقرونة بالوحي الإلهي، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[1]، ومن صفات الأنبياء من يشابههم البشر فيها كأكل الطعام وشرب الماء وزواج النساء. مع التعظيم الكامل والثناء العطر والتوقير الجسيم والادب اللائق بحضراتهم. فقد قال الله تعالى في القرآن الكريم، آمرا بتعظيم نبيه وحبيبه سيدنا **محمد** - ﷺ -: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ ﴾[2].

٢- في الوقت الذي كان الملاحدة والطبيعيون يخنقون صوت الحق في صدورهم، ويتغافلون عن نداء الفطرة في ارواحهم، متحدين منطق العقل السليم والبرهان الصحيح، وفي الوقت الذي كان الهندوس يعبدون الابقار والاغنام، والبرهمية والمجوس يعبدون النار ويقدسونها ويصلون إلى الشمس. جاءت رسالة الإسلام وسطا لتصحيح هاتين الصورتين المتناقضتين.

فقد دعا الإسلام إلى الإيمان بالله تعالى، خالق الكون ومبدعه، ورفض جحود

---

(١) الكهف: الآية (١١٠).

(٢) الفتح: الآية (٩).

الملاحدة، وأمر بتوجيه العبادة إليه تعالى وحده لا شريك له، مستنكرا عبادة الهندوس والبرهمية والمجوس. فقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝ ﴾(١). وقال سبحانه: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ ﴾(٢).

٣- في الوقت الذي دعت الكنيسة فيه ابناءها المسيحيين إلى الإيمان بالآخرة وحسابها وجنتها ونارها، ورغبت في إهمال الدنيا وشجعت على الزهد في جمالها وزخرفها، مركزة على ما تسميه بمطالب الجانب الروحاني، كان اليهود على طرف مناقض لها تماما.

فقد كانوا يعيشون في حياة مادية صرفة، وانغماس كامل في وسط الشهوات وحب النساء والخمر، وبعد كلي عن الآخرة، واهمال واضح لنداءات القلب واشواق الروح.

فلما جاء الإسلام العظيم برسالته الخالدة هدى الناس إلى الوسطية المتوازنة، واعطى كل ذي حق حقه. فرفض رهبانية النصارى التي تبرأ منها القرآن الكريم صراحة فقال: ﴿ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾(٣). ورفض حرمانهم انفسهم من طيبات الحياة الدنيا، وتعطيل حركتهم في الأرض لعمارتها وبنائها. فقال سبحانه ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ ﴾(٤).

كما رفض في الوقت ذاته الاتجاه المادي الدنيوي الصرف الذي كان موجودا عند اليهود، الذين ما كان همهم في الدنيا إلا المغالاة في اشباع اجسادهم المنهومة. فدعت الوسطية الإسلامية إلى التوفيق بين مطالب الروح ورغبات النفس، وإلى الجمع بين المادية والروحانية، والموازنة بين حقوق الدنيا وحقوق الآخرة. موجهة الناس بقول الله تعالى لحبيبه سيدنا **محمد** - ﷺ -: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ

---

(١) البينة: الآية (٥).
(٢) الزمر: الآية (١١).
(٣) الحديد: الآية (٢٧).
(٤) الأعراف: الآية (٣٢).

مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾[١].

فكان منهج وسطية الإسلام هو ترقية حياة المسلم ورفعها، في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها، باطلاق كل نشاط في عالم الاشواق، ولكن في قصد وتناسق واعتدال، بعيدا عن الافراط والتفريط.

٤- إن وسطية الإسلام تدعو إلى التوازن بين إطلاق المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية. وتدعو إلى التوازن بين مجال المشيئة الإلهية الطليقة ومجال المشيئة الإنسانية المحدودة، أي: التوازن بين القضاء والقدر — أو — الجبر والاختيار[٢]. وتوازن وسطية الإسلام بين عبودية الإنسان المطلقة لله تعالى ومقام الإنسان الكريم في الكون[٣].

٥- وقد بنى الإسلام شخصيات ابنائه على الوسطية والتوازن بين معاني الخوف من الله تعالى والفزع من عذابه، وبين موحيات الامن والطمأنينة والطمع برحمته.

فكما ان الله تعالى قال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾[٤] قال أيضاً: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾[٥].

ومثلما قال في محكم كتابه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾[٦]. وقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[٧] قال أيضاً: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤﴾[٨] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

---

(١) القصص: الآية (٧٧).

(٢) القضاء: علم الله ازلا بصفات المخلوقات، والقدر: ايجاده تعالى الاشياء على وجه الاحكام. وقد ذكرنا ذلك مفصلا في الفصل الثاني وسوف يأتيك ان شاء الله تعالى في ص١٤٦.

(٣) لقد تحدث سيد قطب — رحمه الله — عن هذه الفقرة العقيدية حديثا طويلا جميلا في كتابه: خصائص التصور الإسلامي، دار الشروق، ط٧، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ص١٣٦ ومابعدها. وانظر أيضاً: الإسلام والتنمية الاجتماعية للدكتور محسن عبدالحميد، دار الانبار، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م، ص٢٩.

(٤) البقرة:الآية (٢٣٥).

(٥) البقرة: الآية (١٨٦).

(٦) ق: الآية (١٦).

(٧) البقرة: الآية (١٩٦).

(٨) البروج: الآية (١٤).

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝٩٦﴾[١] وقال: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٢٠٧﴾[٢].

وهدف الوسطية في هذا المجال بين الخوف والطمع، والرهبة والانس، والفزع[٣] والطمأنينة هو ان يبقى السائر إلى الله تعالى حذرا من مزالق الطريق الكثيرة، وهذا والله هو عمدة عمل السادة الصوفية، المعتصمة بحبل الكتاب والسنة المباركة.

٦- وتمتد وسطية الإسلام لتشمل الجانب التشريعي أيضاً. ولعل اوضح دليل نذكره في هذه الفقرة لبيان وسطيته في العبادات والتكاليف هو الآيتان الآمرتان بصلاة الجمعة. حيث قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠﴾[٤].

ففي هاتين الايتين الكريمتين تبرز بشكل واضح موازنة الإسلام العجيبة: [بيع وعمل للدنيا قبل الصلاة، ثم سعي إلى ذكر الله وإلى الصلاة وترك للبيع والشراء وما اشبهه من مشاغل الحياة. ثم انتشار في الأرض وابتغاء الرزق من جديد بعد انقضاء الصلاة، مع عدم الغفلة عن ذكر الله تعالى كثيرا في كل حال فهو اساس الفلاح والنجاح][٥].

٧- وتتجلى لنا صورة الوسطية الإسلامية في كل مرفق من مرافق الحياة وحركتها، حتى في كيفية الاكل والشرب، فقد قال الله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[٦]. فالاعتدال في الاكل والشرب، والتوسط في اشباع الحاجات الإنسانية المباحة ابرز صفة، واظهر سمة، يتميز بها التشريع الإسلامي عن غيره من التشريعات

(١) مريم: الآية (٩٦).

(٢) البقرة: الآية (٢٠٧).

(٣) الفزع جنس الجزع: المفردات، المطبعة الفنية، ص ٥٧٠ ومعنى الفزع هو الخوف والقلق والذعر. وسيأتيك في الفصل الرابع الفرق بين الفزع والصعق إن شاء الله تعالى.

(٤) الجمعة: الآيتان (٩-١٠).

(٥) الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوي، دار المعرفة، ص ١٣٨.

(٦) الأعراف: الآية (٣١). والاسراف: هو انفاق المال الكثير في الغرض الخسيس. وقيل: هو صرف الشيء فيما ينبغي زائدا على ماينبغي، بخلاف التبذير فانه: صرف الشيء فيما لا ينبغي: التعريفات للجرجاني ص ٢٣وص ٢٤.

والقوانين. حتى قال بعض السلف: [جمع الله الطب كله في نصف آية][١]. ويقصد بذلك الآية السابقة: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ... ﴾ .

وكان حضرة الرسول الأعظم سيدنا **محمد** – ﷺ – يؤكد دوما في كل توجيهاته القولية والروحية على تطبيق مبدأ الحد الاوسط في مجالات الحياة كافة، لاسيما في مجالات الاكل والشرب والتصدق واللبس، فكان يقول – ﷺ -: (**كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة**)[٢]. أي: ولا تكبر.

٨- ويستمر امتداد الوسط والاعتدال في روضة الإسلام حتى يشمل نظامه الاخلاقي السامق، معبرا عن بعض جزئياته وهو النهي عن البخل، والنهي عن التبذير بقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾[٣].

فالآية الكريمة توجه دعوتها إلى المسلم لالتزام التوازن بين الشح والتبذير، والتقيد بمبدأ الاعتدال بين هاتين الصفتين المذمومتين، وذلك ليتحقق عنده الجود والكرم[٤]، النتيجة الحتمية لتطبيق ظاهرة الوسطية.

وبسبب شدة اهتمام الأولياء الصالحين بتعميم التوسط في حياتهم كلها، مدحهم الله تعالى واثنى عليهم في كتابه المجيد، فقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾[٥].

وقد بينت الآية السابقة عاقبة الميل والجنوح إلى أحد الطرفين المذمومين، وترك

---

(١) الوعي الإسلامي – مجلة إسلامية – العدد ٢٩٠، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، ص ١٠٩.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب اللباس، باب قول الله تعالى «قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده» ٢٥٢/١٠ والنسائي في كتاب الزكاة ٥/ وابن ماجة في كتاب اللباس، باب البس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة ٣٧٨/٢ وأحمد في مسنده (٦٤٠٨) والحاكم في مستدركه: الجامع الصغير للسيوطي، دار الفكر، ط١، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، ٢٩٣/٢ (٦٤٠٢) والكنز الثمين، عالم الكتب، ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص ٤٠٤ برقم (٢٥١٦).

(٣) الإسراء: الآية (٢٩).

(٤) الجود: صفة، هي مبدأ افادة ماينبغي لا لعوض. والكرم: هو الاعطاء بالسهولة: التعريفات ص ٧٩ وص١٨٤.

(٥) الفرقان: الآية (٦٧).

السبيل الوسط بينهما: ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ أي: فتصير ملوما مذموما عند الله تعالى وعند الناس بسبب ميلك عن الجادة القويمة إلى البخل والشح أو إلى اسراف المال واتلافه، فتكون متحسرا نادماً.

٩- ومن صور الوسطية الإسلامية هو التفرقة بين الاضاعة والعجلة، وتمييز المبادرة من بين هذين الوصفين المذمومين. وبيان ذلك هو ان المبادرة قائمة على اساس الفكر الهادئ، والنظر الشمولي، والحكمة الراسخة[١]، فهي اذن اغتنام وقوع الشيء في اوانه، وانتهاز فرصة وقت الفعل لتنفيذه، وقطف ثمرته حين نضوجه.

اما العجلة فهي الاستعجال بطلب الفعل قبل أوانه، واخذ الشيء قبل موعده، لغاية في نفس صاحبه أو لشدة حرصه عليه. وقيام العجلة على قلق واضح في التفكير، وتذبذب في الرأي، وبعد عن أرضية الاستقرار، وقصور جلي في النظر، وفقدان الفهم الدقيق، وحرمان الفقه العميق، واعتماد الرؤية السطحية، وعدم التبين من الشيء والتحقق من هويته.

[ولهذا كانت العجلة من الشيطان، فانها خفة وطيش، وحدة في العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم، وتوجب له وضع الاشياء في غير مواضعها، وتجلب عليه انواعا من الشرور، وتمنعه انواعا من الخير، وهي قرين الندامة، فقل من استعجل إلا ندم][٢] ويؤيد هذا قول الرسول الأعظم – ﷺ –: **(التأني من الله، والعجلة من الشيطان)**[٣].

ولذلك كانت المبادرة الوسط بين العجلة والاضاعة، وعلى اساس ضوء ذلك نجد ترغيب الرسول الكريم – ﷺ –فيها واضحا حيث يقول على سبيل المثال: **(بادروا**

---

(١) الحكمة: يستفاد منها ماهو الحق في نفس الأمر بحسب طاقة الإنسان، وقيل: الحكمة هي كل كلام وافق الحق، وقيل: الحكمة هي الكلام المعقول المصون عن الحشو، وقيل غير ذلك: التعريفات للامام الجرجاني ص٩١.

(٢) الروح لابن قيم الجوزية، مكتبة الشرق الجديد، ط١، ١٩٨٥م، ص ٢٥٨.

(٣) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة ٣٢٢/٤ (٢٠١٢) والديلمي في الفردوس ٧٨/٢ (٢٤٤٠) وابن أبي شيبة وابو يعلى في مسنده والبيهقي في سننه: المقاصد الحسنة ص ١٦٥ (٣١٢) وهو في: فيض القدير للمناوي ٢٧٧/٣ والكنز الثمين للعلامة المحدث الغماري ص ٢٣٦ (١٥٠٧).

الصبح بالوتر)[١] فلا افراط وعجلة، ولا تفريط واضاعة،وانما تأن ومبادرة.

١٠- وللحد الاوسط دور كبير، واهمية خطيرة في التنظيم الاقتصادي والمناهج السياسية، حيث يقوم بالحفاظ على ترتيب الفقه الإسلامي في توزيع الثروات والاموال في الوجوه المعلومة، مبتدءا في القسمة بالاهم من مصالح المسلمين مع مراعاة الأولوية.

ومن تفحص أصحاب السياسة ودرس طرقهم في الحكم وجدهم ثلاثة أصناف:

أ- صنف لا يخاف من الله تعالى ويعتقد ان مايفعله كله حلالا، من ظلم الناس وفساد في الأرض وغير ذلك.

ب- وصنف عنده شيء من خشية الله تعالى، وتمييز بعض الحلال من الحرام، بيد أنه يظلم ويحكم بغير ما انزل الله تعالى لاعتقاده ان السياسة لا تدوم له بغير هذا الطريق، ولا تتم له إلا بقتل هذا أو ظلم ذاك.

ج- وصنف يخشى بكله من الله تعالى، ويميز الحلال من الحرام، ويجهد نفسه للحكم بما انزل الله تعالى من التشريعات والقوانين، ويقوم بصرف المال إلى الرعية وتوجيه المنافع إليهم، مع تمام العفة وكمال النزاهة ودوام المراقبة. وهذا الصنف الثالث هو الذي يمثل التيار الوسط، والنموذج الامثل، والقدوة الاكمل، الذي به تسعد الرعية مع صلاح الدين والدنيا[٢].

وقد وجه سيدنا رسول الله – ﷺ – حكام الأمة بهذه التوجيهات الحكيمة، القائمة على قاعدة الحكم بالعدل والانصاف والتسوية، انطلاقا من طابع الوسطية وتعميم التوازن، واعطاء كل ذي حق حقه بالقسطاس المستقيم، من غير وكس ولاشطط، ولاغلو ولا تقصير.

١١- وللوسطية تفرعات كثيرة وشعب عديدة، فهي تنفذ في داخل شخصية الإنسان وصميم سلوكه وتصرفاته، وتغطي لونا كبيرا من مزاجه النفسي، وتحتل طابعا واسعا من

---

(١) رواه مسلم عن ابن عمر – رضي الله عنهما – في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: صلاة الليل مثنى مثنى والوتر ركعة من آخر الليل، دار القلم، ط١، ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م، ٦/٢٧٨ (١٤٩) وهو بشرح النووي والكنز الثمين ص ٢١٩ (١٤٠٣).

(٢) انظر: السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية لابن تيمية، مكتبة المعارف – بغداد، ط٥، ١٩٩٠م،ص٦١.

ميله الباطني.

فالغضب على سبيل المثال ينقسم الناس في مدى قوته إلى ثلاث درجات:

١- **التقصير والتفريط.**

٢- **الاسراف والافراط.**

٣- **الاعتدال والتوازن.**

وعلى هذا فالغضب تارة يكون مذموما وتارة يكون محموداً. والغضب المذموم اما ان يكون صاحبه مقصرا فيه، واما ان يكون مسرفا ومكثرا فيه والوسط في ذلك هو المحمود، وهو الغضب الذي يخضع لسلطة العقل وقيادة الدين، فينطلق في ميدان الدفاع عن الدين والعرض والمال، وينطفئ حيث يحسن الحلم والعفو[١].

الوسط: وصف امة الإسلام

كان الناس قبل ظهور الإسلام في جزيرة العرب على قسمين: قسم تتغلب عليه ظواهر المادية المحضة، ولاهم له إلا اشباع حظوظه الجسدية كاليهود والمشركين، وقسم تحكم عليه تقاليده الروحانية الخالصة فترك الدنيا ومافيها من زينة وزخارف ولذات كالنصارى والصابئة وبعض أصحاب الرياضات الخليطة.

أما الإسلام فقد امتاز عن غيره من الاديان بالعدل بين نداءات الروح ونوازع النفس، والتوازن بين حقوق الإنسان الروحية وحقوقه المادية. فتميزت الأمة الإسلامية بمبدأ الوسط في حياتها كلها حتى اصبح الوسط والاعتدال وصفا لها، به تعرف. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾[٢].

وقال ﷺ في تفسير: «**وسطا**» أي: عدلا – وفي رواية أخرى – قال – ﷺ-:

(١) انظر هذا الموضوع مفصلا في كتاب: احياء علوم الدين ١٦٠/٣ وما بعدها لعبقري الإسلام الإمام الغزالي – طيب الله روحه وثراه –.

(٢) البقرة: الآية (١٤٣).

(**الوسط العدل**)[١]. وبه فسر المفسرون واللغويون كابن عباس[٢]، والطبري[٣]، والفراء[٤]، والثعالبي[٥]، وبرهان الدين البقاعي[٦]، وابن قتيبة[٧]، وابن منظور[٨]، وغيرهم[٩].

فقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي: جعلناكم امة معتدلة: [تعرفون الحقين وتبلغون الكمالين ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ ﴾ بالحق ﴿ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ الجسمانيين بما فرطوا في جنب الدين، والروحانيين إذ افرطوا وكانوا من الغالين][١٠]. [تشهدون عليهم بانهم خرجوا عن جادة الاعتدال، وجنوا على ارواحهم بجنايتهم على اجسادهم وقواها الحيوية، تشهدون على هؤلاء وهؤلاء، وتسبقون الامم كلها باعتدالكم وتوسطكم في الأمور كلها، ذلك بان ما هديتم إليه هو الكمال الإنساني الذي ليس بعده كمال، لأن صاحبه يعطي كل ذي حق حقه][١١].

فالتوسط بين اشواق الروح وهواتف النفس والجمع بين المادة والروح، اصبح المنهاج العام لطبيعة الأمة الإسلامية، وطريقها المشروع في بناء الحضارة الإنسانية، ومحور فكرها الاصيل في صراعها مع الافكار العلمانية[١٢]. وهو الأمر الذي تقبله الفطرة

---

(١) تفسير الطبري، بتحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٥٢/٣ والدر المنثور ٣٤٩/١ و ٣٥٠.

(٢) تفسير الطبري ١٥٢/٣ والدر المنثور ٣٥٠/١.

(٣) تفسير الطبري ١٥٢/٣.

(٤) معاني القرآن، عالم الكتب – بيروت، ١٩٨٠م، ط٢، ٨٣/١.

(٥) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المطبعة الثعالبية، الجزائر، ١٣٢٥هـ، ١٦٨/٣ و١٦٩.

(٦) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دائرة المعارف العثمانية، الهند، ٢٠٦/٢.

(٧) تفسير غريب القرآن، بتحقيق السيد أحمد صقر، ص ٦٤.

(٨) لسان العرب، مادة: وسط ٣٠٩/٩.

(٩) تفسير النسفي ٧٩/١ والتفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي ٦٤/١٩.

(١٠) تفسير المنار ٤/٢.

(١١) تفسير المنار ٥/٢.

(١٢) العلمانية: هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالدنيا وحدها، وترفض تدخل الدين في شؤون الدولة لاسيما في مجال التربية والتعليم: =

الإنسانية بكل رحابة صدر للوصول إلى المثل العليا. وإلى مبدأ الاعتدال حظ القرآن الكريم من خلال مخاطبته للرسول الأعظم -ﷺ- فقال: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾(١).

اذن القرآن الكريم عندما قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ اراد ان يحدثنا عن حقيقة هذه الأمة في الكون وفي الحياة، وعن وظيفتها وحركتها في الأرض، وعن مكانها العظيم ومنزلتها السامية في هذه البشرية، وعن دورها الاساسي المتين في رفع حياة الناس، فتكوّن لنفسها شخصيتها الخاصة، وارضيتها الصلبة القوية، وترتفع بذاتيتها المستقلة(٢). وما قدمناه من الامثلة السابقة خير دليل واقوى برهان واوضح حجة لبيان ان هذه الأمة الكريمة المباركة قامت بالاساس على مبدأ التوسط في جميع شؤونها، متخذةً حد التوازن والاعتدال ضياء مشرقا تستضيء به في انظمتها التشريعية والسياسية والاخلاقية والتربوية والاقتصادية وغيرها.

وكان نبي هذه الأمة سيدنا **محمد** -ﷺ- اول من طبق الوسط في حياته الشريفة، فقد قالت أم المؤمنين سيدتنا عائشة -رضي الله عنها-: ما خير رسول الله -ﷺ- بين أمرين إلا اخذ ايسرهما ما لم يكن اثماً، فاذا كان اثما كان ابعد الناس عنه(٣). وقال -ﷺ- في حديث الرهط: (**أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**)(٤). وعلى هذا النهج الوضيء سار أهل بيته الكرام

=

صراع الافكار في المجتمع الإسلامي للدكتور محسن عبدالحميد، ط١، مطبعة وزارة التربية، ١٤١٩ هـ-١٩٩٨ م، ص ٩. وانظر أيضاً: قضايا إسلامية للشيخ متولي الشعراوي، دار الشروق، ط٢، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، ص٤٠.

(١) القصص: الآية (٧٧).

(٢) للشهيد سيد قطب - رحمه الله - كلام نفيس في تفسير هذه الآية - آية الوسط - في كتابه القيم: في ظلال القرآن ١٦/٢ وانظر أيضاً: الرسالة الإسلامية للدكتور السيد محمد علوي المالكي، ص٨٠.

(٣) متفق عليه: اللؤلؤ والمرجان (١٥٠٢).

(٤) صحيح البخاري بهامش فتح الباري، باب: الترغيب في النكاح (٥٠٦٣) ١٠٤/٩.

واصحابه العظام، وقد شهد لهم بذلك ﷺ — فقال: (**ما خير عمار بين أمرين إلا اختار ارشدهما**)[١].

– فهم خاطئ ورؤية عجيبة –

مما لا شك فيه ان طريق العلم مفتحة أبوابه لكل باحث ودارس، وله كل الحق في أن يأتي بشيء جديد مبني على أسس علمية وقواعد متينة وأدلة صحيحة. ومما لا شك فيه أيضاً ان الباحث المسلم لا يأتي بشيء يناقض ما قرره القرآن الكريم ورسمه ودعا الناس إليه، وحضهم على التمسك به. إذ كيف يؤمن بانه من عند الله تعالى ربه وخالقه، ويخالف بظاهر الفاظه بعض انظمته.

اقول هذا لأنني فوجئت وانا اكتب مباحث هذه الرسالة ببحث لفضيلة الاستاذ الدكتور أحمد الحوفي كان بعنوان: نظرية الوسطية في الاخلاق عند ارسطو وعلماء المسلمين[٢]. حيث وجدت فضيلة الدكتور ينفي نفيا جازما ان تكون الشجاعة — مثلا — وسطا بين التهور والجبن[٣]، أو ان يكون الكرم وسطا بين البخل والاسراف. ووجدته أيضاً يعارض تفسيرات العلماء كلها لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ...﴾ الآية. ويعتقد أيضاً ان نقطة الوسط بين الرذيلتين لا يمكن تحديدها، فكيف تعرف ؟ ويرى أنه ليس في الايات القرآنية مايفهم منه ان الكرم وسط بين رذيلتين، بل الذي يفهم ان القرآن نهى عن رذيلتين، هما: البخل والاسراف وبين هاتين الرذيلتين درجات من الكرم. على الرغم من أنه يفسر آية الوسطية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ

---

(١) بحثت عن هذا الحديث الشريف فلم اجده في: صحيح البخاري ومسلم وابي داود والنسائي والترمذي وابن ماجة وموطأ مالك ومسند الإمام أحمد وسنن الدارمي وفردوس الديلمي ولكن أخرجه الحافظ ابن كثير بسنده من حديث عمرو بن شمر عن جابر الجعفي عن أبي الزبير عن حذيفة مرفوعا: البداية والنهاية ٧/٢٦٩.

(٢) مجلة الوعي الإسلامي — الكويتية — ص٣٩.

(٣) التهور: هو هيئة حاصلة للقوة الغضبية، بها يقدم على امور لاينبغي ان يقدم عليها — الإنسان — كالقتال مع الكفار إذا كانوا زائدين على ضعف المسلمين: التعريفات ص٧١.

اما الجبن: فهو هيئة حاصلة للقوة الغضبية، بها يحجم عن مباشرة ماينبغي ومالاينبغي: التعريفات ص ٧٣.

جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ بالاعتدال.

ونحن نقول: ان فضيلة الدكتور – عفى الله عنه – ناقض نفسه بنفسه، لأن قوله بين البخل والاسراف درجات من الكرم. هو الوسط الذي نتحدث عنه ونشرحه. بالاضافة إلى ان ما ذهب إليه يخالف جميع ما قد تقرر في معاجم اللغة ومصادرها الموثوقة، وماثبت من هدي النبي الرسول الأعظم – ﷺ – وهدي اصحابه الكرام – ﷺ –.

وقوله بنفي الوسط يصطدم اصطداماً مباشرا مع جميع الحقائق الإسلامية التي سقناها بالاضافة إلى افتقار ما توصل إليه من ادلة وبراهين يمكن ان يعتمدها في رأيه الشاذ هذا. لهذا فاني لا أرى حاجة في تفصيل الجواب وتسويد أكثر من هذا القدر، والله تعالى أعلم.

المبحث الثالث

مميزات الوسطية وخصائصها

تمتاز الوسطية في الإسلام بمميزات عديدة وسمات فريدة، بسبب ما حفت به من اهتمام كبير ورعاية دقيقة، ومن جملة تلك المميزات والخصائص ما يأتي:

١- الوسطية ارسخ قاعدة واصلب أرضية:

تمثل الوسطية في الإسلام ارسخ قاعدة واصلب أرضية في بناء الحضارة ونشر الدين، والنهوض بالمجتمع إلى المثل العليا. فتقيم بينهم العدل والقسط، وتضع لهم الموازين والقيم، ولها القول الفصل في وزن تفكير الناس وشعورهم وعقائدهم وتصوراتهم وارتباطاتهم وعلاقاتهم. وهذه هي وظيفة امة الوسط الإسلامية، صاحبة الاستعداد الكامل للطاعة المطلقة للقيادة الراشدة.

والسبب في كون الوسطية تمثل ارسخ قاعدة واصلب أرضية يعود إلى كتاب الله تعالى القرآن الكريم الذي اعتمدت عليه، ومنه انطلقت. قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ ﴾(1).

فالله تعالى شرع للناس العدل وأمر به، واعطى كل ذي حق حقه حتى ينتظم بهذه العدالة أمر العالم ويستقيم، ونهى عن الجور والطغيان. ولما كان الوسط هو العدل، والعدل هو الذي أمر به الوحي السماوي، فهو اذن يمثل أمر الوحي السماوي، لذلك قلنا ان الوسطية تمثل ارسخ قاعدة، واصلب أرضية إذ لا توجد قاعدة متينة وارض قوية مثل قاعدة القرآن الكريم وارضيته.

٢- مراعاة التدرج الاصلاحي:

ونعني بهذا رعاية سنة التدرج اتباعا لمنهج الإسلام في دعوته الناس إلى العقيدة الصحيحة، وفيما يشرعه لهم ايجابا أو تحريما. فالصلاة مثلا اول ما فرضت ركعتين، والصيام أول ما فرض على التخيير، والزكاة فرضت بمكة من غير تقيدها بنصاب ولا

---

(١) الرحمن: الآيات (٧، ٨، ٩).

حول وإنما تركت لضمائر المؤمنين وحاجات اخوانهم اليها. ثم اخذ الإسلام يتدرج في تفصيلات هذه الفرائض وغيرها شيئا فشيئا كلما ازداد المجتمع الإسلامي استعدادا لها.

وهذا هو منهجه أيضاً في بيانه المحرمات فإنه لم يأت بتحريمها دفعة واحدة. وإنما كان الرسول الأعظم (ﷺ) يعمل ليل نهار جاهدا نفسه الزكية من اجل تهيئة المناخ الملائم،واعداد المسلمين روحيا وذهنيا لتقبلها، واخذهم بقانون التدرج في تحريمها. ومانحريم شرب الخمر على خطواته المبينة في القرآن الكريم إلا اوضح دليل للتدرج.

لذلك فإنا نقول: ان الوسط في الاصلاح هو التدرج الحكيم الواقع بين الاهمال الكلي لقضايا المجتمع وأمراضه وسلبياته، وبين الهجوم المفاجئ في دعوتهم وتحميلهم عواقب اعمالهم جملة واحدة، وتكليفهم بالمسائل الشرعية دفعة واحدة.

بل لا بد من: [تعيين الهدف، ووضع الخطة، وتحديد المراحل، بوعي وصدق، بحيث تسلم كل مرحلة إلى ما بعدها بالتخطيط والتنظيم والتصميم، حتى تصل المسيرة إلى المرحلة المنشودة والأخيرة التي فيها قيام الإسلام.. كل الإسلام][1]. وهذه الطريقة التدريجية -الوسطية- هي التي وضع أصولها وبين قواعدها الرسول الأعظم – ﷺ – لاخراج الناس من ظلام الغفلة وقسوتها، إلى نور الذكر والعبادة وبركتها[2].

٣- العمق التأريخي في الفكر الإسلامي:

أي ان الوسطية تمتاز بقدم نشأتها في حركة الفكر الإسلامي في جبهة الصراعات الحضارية وفي مجال التجديد الإسلامي. فقد ظهرت في بطن التاريخ اتجاهات إسلامية عديدة ومدارس فكرية ومذهبية كثيرة، ولايزال الباب مفتوحا في العصر الحديث لتسجيل مئات التيارات والفصائل الجديدة التي لا تضرب في التاريخ إلى غور بعيد، بخلاف الاتجاه الوسطي فإنه عريق وأصيل.

٤- الرؤية الشمولية للكون والحياة:

فالوسطية لا تميز في حركتها وفي وظيفتها بين أي نظام من انظمة الإسلام، ولا

---

(١) في فقه الأولويات للدكتور يوسف القرضاوي، ط٢،١٤١٦هـ-١٩٩٦م، مكتبة وهيب، ص٩٣.

(٢) وقد نبهنا القرآن الكريم إلى ضرورة الالتزام بمبدأ التنظيم الحركي في كل مرحلة من مراحل الدعوة والنصيحة والتوجيه والجهاد، فقال سبحانه: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾. النحل: الآية (١٢٥).

بين أي قانون من قوانين الحياة، ولا تكرس دراستها لهذا الجانب على حساب ذلك الجانب، وإنما تقوم في وظيفتها بتسليط الضوء على جميع الاحكام والشعب والابعاد والجوانب، وتعطي كل ذي حق حقه.

فالوسطية لا تنسى الجانب العقلي وتنميته بالحضارة والتقدم والتكنولوجيا ودفعه إلى ساحة المنافسة الحضارية، والتسابق العلمي، والبناء العصري، والرؤية الجديدة، والنهوض السريع.

والوسطية لا تنسى حق المجتمع ودورها الكبير في اصلاحه بالعدالة والحقوق والامتيازات، وتوجيه النصح الامين، وتوعيته بمهمته ووظيفته وواجبه، وحثه على العمل البنّاء.

والوسطية لا تنسى مهمتها الثقيلة في تزكية النفس الإنسانية وتربيتها التربية الروحانية الحقة. فالعدل الإسلامي يلزم أصحاب الوسطية بإعطاء الجوانب الروحانية حقوقها الشخصية بالسلوك على يد مرشد روحاني كامل، قد منح — بتوفيق الله تعالى وفضله — اجازة الاستقلال في تشغيل طاقات الناس الروحانية، وتدريبهم على عمل الروح الإسلامي. وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالاستفادة من هذه الطاقات العظيمة التي يتسببون بها للوصول إلى حضرة قدسه سبحانه فقال: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾[1] وقال أيضاً: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ...﴾[2].

والعجب كل العجب ان أكثر علماء المسلمين ووعاظهم في هذا الزمان اهملوا هذا الجانب الخطير في حياتهم مع إيمان بعضهم بضرورته وقيمته في الدعوة والجهاد وفي كل شيء في الحياة.

٥- رفضها تجزئة الإسلام:

فبناء على رؤية الوسطية الشمولية للكون والحياة، وعدم اهمالها أو تعطيلها لاي نظام أو جانب أو اتجاه مشروع، فهي إذن ترفض تقطيع الإسلام وتجزئته.

وذلك لأن الإسلام قانون الهي ومنهج كامل ونظام ملائم لحياة كل البشر، حياتهم الدينية والدنيوية، وحياتهم الروحانية والمادية، في السلم والحرب، وفي الضراء والسراء.

(١) الفرقان: الآية (٥٩).

(٢) الكهف: الآية (٢٨).

فالإسلام كله بناء واحد لا تفتت مركباته، وجسد واحد لا تقطع. أوصاله، فلابد من العمل به كله، عقيدة وشريعة وسلوكا روحيا. وفصل أي جزءٍ أو اهمال أي جانب فيه يؤدي حتما إلى نقص واضح في الرؤية، وتعصب في الاتجاه وتطرف في القول، وبعد كبير عن تحقيق هدف الإسلام.

لذلك قال - ﷺ -: **(من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له)**[(١)].

اذن هناك صلة اكيدة، وعلاقة متينة، وترابط وثيق بين انظمة الإسلام الحضارية واحكامه الشرعية. حيث ربط الرسول الأعظم - ﷺ - بين الصلاة- اعظم اركان الإسلام بعد الشهادتين- وبين وجوب ترك المعاصي والمنكر.

٦- **تحذيرها من الاتجاهات الهدامة والافكار المنحرفة:**

فالوسطية ترفض كل اتجاه يميل عن خط الاعتدال. وفي عهدنا. وفي عصرنا الحاضر يوجد صنفان متناقضان[(٢)].. يعمل كل واحد منهما على تجميد الإسلام وصبه في قوالب حجرية، لا تقبل المرونة، ولا تسمح بالتغير، ولا تفتح بابا للحوار والنقاش العلمي، وتقف الوسطية وسطا بينهما:

أ- صنف يتمسك بأقوال الاقدمين من ائمة المذاهب واتباعهم - ﷺ - لا يحيد عنها،

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس عن سيدنا ابن مسعود - ﷺ - ولكن بهذا اللفظ: (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده صلاته من الله إلا بعداً) ٦٢٢/٣ (٥٩٤٤) ورواه الطبراني في المعجم الكبير عن ابن عباس ورمز له السيوطي بالضعف: الجامع الصغير ٦٤٤/٢ (٩٠١٤) وقال الحافظ الهيثمي في طريق ابن عباس: فيه ليث بن أبي سليم - وهو - ثقة لكنه مدلس. وقال الزيلعي: فيه يحيى بن طلحة اليربوعي وثقه ابن حبان وضعفه النسائي وصحح الحافظ العراقي سند الحديث: فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي ٢٢١/٦. قال الحافظ العراقي: اخرجه علي بن معبد من حديث الحسن مرسلاً باسناد صحيح. وقال في رواية الطبراني: وإسناده صحيح: المغني عن حمل الاسفار ١٣٧/١ ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير والبيهقي: الدر المنثور ٤٦٥/٦ وذكره القرطبي في تفسيره ٢٣١/١٣ وابن كثير في تفسيره أيضاً وبين طرفه وجميع الفاظه: ٣/ ٤١٥. وغير ذلك والله تعالى اعلم.

(٢) وقد تحدث عن هذين الصنفين بشكل مفصل الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي في كتابه: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي ص٦٤ وما بعدها.

ولا يرضى بها بديلا، رافضا كل اجتهاد جديد مهما كانت الحاجة اليه، ظانين ان كتب الاقدمين تحوي كل شيء من الفروع الحديثة، وفيها اجابة عن كل سؤال، غافلين عما طرأ على الحياة من تغير هائل وتطور كبير بعد الانقلاب الصناعي والتواصل العالمي.

ب- وصنف يدعي التمسك بالنصوص وخصوصا من السنة المباركة، رافضا بعنف اقوال المتقدمين والمتأخرين، جاعلا من نفسه مذهبا خامسا، يحكم على المذاهب كلها ولا تحكم عليه، ويقول عن الائمة العظام بل عن الصحابة الكرام — ﷺ —: هم رجال ونحن رجال، وهؤلاء هم الظاهرية الجدد.

ويتميز هذا الصنف بجهله طبيعة النصوص الجزئية ودلالاتها وطرق ورودها: اهي عامة أم خاصة، مطلقة أم مقيدة، محكمة أم متشابهة، أصلية أم فرعية، قطعية أم ظنية ؟

وقد انتهى الجمود الفكري عند هذا الصنف إلى عدم ربط النصوص الجزئية بغيرها من النصوص والقواعد الكلية، فانتهوا إلى ما انتهى إليه الخوارج من قبل، فسقطوا في هوة تكفير أهل القبلة، واخراج الناس من الملة بالجملة[1]. فعادوا اولياء الله الصالحين المتمسكين بالكتاب والسنة، وكفروا كل من خالفهم ولو في جزئية من عقيدتهم وتصورهم.

أما الوسطية التي تقف معتدلة بين هذين الطرفين المذمومين فإنها ترفض اتجاه كل واحد منهما وتحذر الناس منه، وان كان الصنف الثاني اشد خطرا على حضارة الإسلام من الأول.

٧- الخلود والبقـــــاء:

ولما كانت الوسطية قائمة على الرؤية الشمولية العامة للكون والحياة، ورفضها تجزئة الإسلام وتقسيمه، وتحذيرها من الافكار الهدامة والاتجاهات المنحرفة، كان عمرها طويلا، واستمرارها في مناهج الحياة المثالية خالدا، واثرها في الفرد والمجتمع باقيا، بخلاف التطرف والتعصب والغلو فإنه يكون دائما قصير العمر مهما نال شهرة، وشغل اذهانا،

(١) الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي ص٦٥ وانظر: الدرر السنية للعلامة الشيخ أحمد زيني دحلان ص٥٥ وغيرها.

واحتل ساحة واسعة، وغطى اعلاما عريضا.

فالتمسك برأي معين، أو جانب معين، أو جزئية من الإسلام معينة، ورفض ما سواها وتخطئته واتهامه، لا ينتظر له البقاء طويلا، ولايرجى له طول العمر. لماذا ؟ لأنه يصطدم مع الفطرة الإنسانية ونواميس الوجود. وبالوسطية ميز الله تعالى الإسلام وامته عن أصحاب الديانات المنحرفة والفلسفات المعقدة، كاليهود والنصارى الذين لم تخل مناهجهم من غلو أو تفريط.

والدليل على قصر عمر سوى الوسطية وهلاكه وحرمانه من الخلود والبقاء في الأرض، وفقا لسنة الله تعالى هو قول الرسول الأعظم – سيدنا **محمد** ﷺ -:(**إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين**)(١). ومعنى الحديث الشريف: اياكم والتشديد في الدين ومجاوزة الحد، فإن سبب هلاك الامم التي سبقتكم مثل اليهود والنصارى هو افراطهم وتفريطهم في الشيء مدحا أو ذما. والغلو في العقيدة كالغلو في الشريعة لدخولهما في اسم واحد وهو الدين. فالخارج عن منهج الوسطية – اذن – قصير العمر، فإن المنبت لا أرضا قطع، ولاظهراً أبقى.

٨- الجمع بين الاصالة والمعاصرة:

لما كان عمر الوسطية طويلا، واثرها في النفوس عالقا، وفي صفحات القلوب خالدا، كان من الواجب البحث عن اسباب وادامة هذا الاثر والحفاظ عليه والجمع بين النظرة التراثية والنظرة المستقبلية - بعد تحديد المفاهيم بعدا عن الخلط والتحريف – وسيلة مهمة من وسائل ادامة هذا الأثر.

وتوضيح ذلك ان الوسطية الإسلامية لا ترضى ان يعيش المسلمون متقوقعين على الماضي والدوران في ساقيته، دون ان يظهر منهم الاهتمام المطلوب بقضايا العصر ومشكلات المجتمع والتطلع إلى دراسة المستقبل وايجاد المعالجات الحاسمة والحلول المناسبة.

بل المفهوم الحقيقي للوسطية هو الذي يجمع في روضته الأصول والمنابع الأولى مع المعايشة الدائمة الجادة للعصر الجديد ومواكبة تطوره العلمي والصناعي، حتى نكون

---

(١) رواه النسائي في كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى ٢٦٨/٥ وابن ماجة في كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي ٢٤٣/٢ وأحمد في مسنده (١٧٥٤) و (٣٠٧٨) والحاكم في مستدركه ورمز السيوطي له بالصحة: الجامع الصغير ٤٤٨/١ (٢٩٠٩).

عدولا بين امسنا، ويومنا، وغدنا. فنقتبس من الامس[١]، ونعمل لليوم، ونتهيأ للمستقبل[٢]. وهذه هي الوسطية بحقيقتها وجوهرها.

ومن الانصاف العلمي والامانة الإسلامية ان اقول اني وجدت هذه الوسطية واضحة وضوح الشمس في كبد السماء في شخصيات لامعة في سماء العلماء الزاهية، ومنهم العلامة الدكتور **حضرة الشيخ عبدالله بن مصطفى الهرشي** – ﷺ – الذي كان بحق مجددا رائعا لحضارة **خاتم النبيين** – ﷺ –.

٩– الموازنة بين الثوابت والمتغيرات:

ومن اهم مميزات مفهوم الوسطية في الإسلام هو الجمع بين الاشياء الثابتة التي لا تقبل التغير والتطور مهما طرأت حوادث واستجدت امور، وبين الاشياء الأخرى التي يمكن ان يحدث فيها تطور وتغير.

ولكن أين هي الثوابت حتى نتجنب ادخال التطور فيها، واين هي المتغيرات التي يمكن ادخال التغير فيها ؟

الجواب على ذلك باختصار ان الثوابت تتلخص فيما يأتي[٣]:

أ– أركان الإيمان:

فالإيمان بالله تعالى – جل جلاله وعم نواله – لا يتغير ولا يقبل التطور اطلاقا، بل الإيمان بحضرته سبحانه – ذاتا وصفاتا وافعالا – ثابت،فهو واحد أحد صمد فرد. وكذا الإيمان بملائكته الكرام وأنبيائه ورسله العظام – عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام – وكتبه المقدسة واليوم الاخر ومشاهد القيامة، وكذا الإيمان ببقاء الروح وخلوده وطاقاته، والقضاء والقدر خيره وشره.

---

(١) والتجربة صورة من صور الاستفادة من الماضي، لذلك قال–ﷺ– (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين)رواه البخاري في كتاب الادب، ٥٢٩/١٠ (٦١٣٣) ومسلم في كتاب الزهد والرقائق، ٣٣٥/١٨ (٢٩٩٨) وابو داود باب في الحذر من الناس، في كتاب الادب، ٢٦٨/٤ (٤٨٦٢) وابن ماجة في باب العزلة ٤٧٦/٢ وأحمد (٥٦٩٣) و (٨٥٧٢) والدارمي في سننه كتاب الرقائق، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، ٣٢٠/٢.

(٢) ولا نعرف اليأس والتوقف، لذلك قال– ﷺ–: (لو كان في يد أحدكم فسيلة وقامت الساعة فليغرسها) أو كما قال. رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٢٤٣٥).

(٣) انظر: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي ص٥٥ وما بعدها.

ب- أركان الإسلام:

ونعني بها بعد الشهادة لله بالألوهية ولحضرة رسوله الكريم -ﷺ- بالنبوة والرسالة، اقامة الصلاة ودفع الزكاة واداء مناسك الحج وصيام شهر رمضان المبارك. فهذه العبادات الكريمة ثابتة مستقرة، ترفض أي تغيير أو تطوير في أصولها وجوهرها، سواء عاش الناس في القرن الأول أو العشرين، وسواء كانوا يعيشون في الاكواخ البسيطة المتواضعة أو في عمارات ناطحات السحاب.

ج- أمهات الاخلاق وأصولها العملية:

في جانبيها الايجابي والسلبي، وفي أنواعها الثلاثة، أعني علاقة الإنسان بربه من حيث الاخلاص لحضرته والرجاء في رحمته والخشية من عذابه.وعلاقة الإنسان بنفسه من حيث تزكيتها وتنقيتها وإعطاؤها حقوقها المشروعة وتربيتها التربية الروحانية اللازمة(١)، وما تثمر هذه التربية من الحياء والصبر والعفة والشجاعة وغيرها. وعلاقة الإنسان بالاخرين من حيث مساعدتهم في الخير ورعاية الامانة وأداءها بأمانة والتعامل بالصدق والصفاء وغيرها.

فهذه الاخلاق الايجابية ثابتة على هذه الصورة، مستقرة على هذه الهيئة، خالدة إلى يوم القيامة، من غير تطوير ولا تغيير. وكذا الاخلاق السلبية مثل: القتل وشرب الخمر والسرقة والزنا والخيانة وشهادة الزور والكذب وغيرها.

د- الأحكام القطعية:

وهي الاحكام التي ثبتت بالنصوص، وأجمعت عليها الأمة، واستقر عليها الفقه مثل: قطع يد السارق وجلد الزاني إذا كان غير محصن واباحة الطلاق وتحريم الربا وتوريث الأولاد للذكر مثل الانثيين وغيرها مما ثبت بنصوص قطعية.

وأما الأمور التي تقبل التغير والتطور فيمكن تلخيصها أيضاً فيما يأتي:

أ- الأحكام الشرعية المبنية على العرف فقط.

ب- الأحكام الثابتة بالاجتهاد فيما لا نص فيه، عن طريق القياس أو الاستصحاب

---

(١) كان من أروع ما كتب في الثقافة الروحية بشكل موسوعي عصري دقيق، هو كتاب: معالم الطريق في عمل الروح الإسلامي للدكتور عبد الله مصطفى.

أو الاستحسان أو غيرها.

ج- **الاحكام الثابتة بالنصوص الظنية.**

فهذه الاحكام والأمور التشريعية تخضع للاجتهاد في كل عصر، وتقبل التغير في كل ظرف، بناءً على رعاية المصلحة، فينبغي إذا تغيرت المصلحة أو تغير العرف – الذي بني عليه هذا الحكم – أن يتغير الحكم، فانه يدور مع علته وجوداً وعدماً. والأمثلة على هذه الاحكام التشريعية كثيرة في مكتبتنا الإسلامية الزاخرة.

ووسطية الإسلام بهذا التوازن العجيب التي تجمع فيه بين الثبات والتطور في تناسق بديع، بين الثبات على الاهداف والغايات، والمرونة في الوسائل والأساليب، بين الثبات على الأصول والكليات، والمرونة في الفروع والجزئيات، بين الثبات على القيم الدينية والمثل الاخلاقية، والمرونة والتطور في الشؤون الدنيوية والقضايا العملية، رعاية لفطرة الإنسان وطبيعة الكون.

أقول بهذه المفاهيم الدقيقة عن الوسطية يستطيع أن يحيا المجتمع الإسلامي حياته الطبيعية ويعيش بين المجتمعات الأخرى آمناً مطمئناً، معززاً مكرماً، مستمراً في رقيه، ثابتاً على أصوله، معظما لقيمه، مهتما بغاياته، متطوراً في معارفه، متقدماً في أساليبه، مبدعا في بنائه، خادماً لحضارته، متوسعاً في تكنولوجيته، متعمقاً في علومه، قوياً في شخصيته، مستقراً في استقلاله، طليقا في سمائه، نشيطا في حركته.

فبالثوابت يقضي المجتمع الإسلامي على كل عوامل الانهيار والفناء، وينهي كل أسباب ذوبانه في أخلاق وعادات المجتمعات الأخرى وتقاليدها، وبالثوابت يُحيي ماضي الأمة التليد ويحفظ وينمي ما بقي من حضارة خاتم النبيين – ﷺ –.

وبالمرونة يستطيع هذا المجتمع أن يسابق المجتمعات المتقدمة علمياً، وان ينافس الحضارات الكافرة، وأن يرتقي من عصر الصناعة الأول إلى عصر الصناعة الثاني(١) وان

---

(١) عصر الصناعة الأول هو العصر الذي كانت الالة تعمل فيه لتوفير الجهد البدني للانسان، فوجدت الساحبات وظهرت السيارات واخترعت الماكنات. واما عصر الصناعةالثاني فهو العصر الذي كانت الالة تعمل فيه لتوفير الجهد الذهني والتعب الفكري والشد العصبي للانسان، فوجدت الحاسبات، وظهرت الخازنات، وانتشرت الالكترونات، فهو عصر الكومبيوتر والحاسوب: انظر الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي ص١٢٣.

يقفز إلى اعلى المجالات المتحضرة، دون ان يفقد خصائصه العظيمة، ومن غير ان ينسى مقوماته الذاتية.

١٠- التيسير والتخفيف:

والسبب في كون وسطية الإسلام متميزة بالتيسير والتخفيف هو ان هذه الوسطية منهج رباني شرّعه الله تعالى خالق البشر لأمة الإسلام، والله تعالى اعلم بمقدرة الإنسان وطاقاته، ومستوى تعلمه، وحدود امكانياته، ومدى صبره،وكثرة اعبائه، وشدة ضعفه، وتعدد مشاغله، وضغط الحياة ومتطلباتها عليه، لذلك جاءت الوسطية في رحاب الشرع الشريف ملاءمة لفطرته، منسجمة مع طبيعته، رحيمة بحاله، موافقة لقدرته. ولذا نجد ان القرآن الكريم ميسر للذكر والتعبد به، والعقيدة ميسرة للفهم والتصديق، والشريعة الغراء ميسرة للتطبيق والتنفيذ، من غير ارهاق ولاعنت ولاعسر.

والنصوص الداعية إلى التيسير أكثر من ان تحصى، فقد دل بعضها على ان التيسير والتخفيف احب إلى الله تعالى وإلى حضرت رسوله الكريم - ﷺ - من التشديد والتعسير والتنفير. قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾(١).

والكتاب المجيد صريح في توجيه الناس إلى التخفيف وتطبيعهم عليه، لماذا ؟ لأنه قانون الله تعالى حيث يقول سبحانه ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾(٢) ويعلن القرآن الكريم صراحة في أكثر من موضع عن ارادة الله تعالى في رفع الحرج والارهاق فيقول: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾(٣).

وقد طبق سيدنا **محمد** - ﷺ- هذا المنهج القرآني العظيم في حياته كلها، فها هو يقول: (**خير دينكم أيسره**)(٤) ويقول (**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**)(٥).

---

(١) البقرة: الآية (١٨٥).

(٢) النساء: الآية (٢٨).

(٣) المائدة: الآية (٦).

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٥٣٧١) و(١٨٢٠٨) و (١٩٤٥٨) والبخاري في الادب المفرد والطبراني في الكبير وفي الاوسط وابن عدي في الكامل وقد صححه السيوطي في الجامع الصغير ١/٦٢٦ (٤٠٦٧).

(٥) رواه البخاري في كتاب العلم، ١/١٦٣ (٦٩) ورواه في كتاب الادب أيضاً، ١٠/٥٢٤ (٦١٢٥)

والحقيقة انا نعيش في عصر أكثر من غيره حاجة ماسة إلى اشاعة التيسير بين الناس بدل التعسير، ونشر التبشير بدل التنفير، بسبب الضغوط النفسية والمضايقات الفكرية، والتصادمات المذهبية، والصراعات الحضارية، والمظالم الاجتماعية، والخنوقات السياسية، وبسبب الخواء الروحي، والتحجر القلبي، وغياب المرشد المربي. بالاضافة إلى الازدواجية الشخصية والغزو الثقافي، وضعف الفهم الشمولي، وتعسر نهوض العامل الاقتصادي، وغير ذلك الكثير.. الكثير.

ومن اجل هذا كله وغيره تمتاز الوسطية بالتيسير والتخفيف، لأن التيسير في التكاليف مدعاة إلى الاستجابة، والاعتدال والتخفيف في العبادة مدعاة إلى الاستدامة، والثبات والاستقامة، ولا سيما مع حديثي العهد بالإسلام أو حديثي العهد بالتوبة وضعفاء الإيمان.

١١- الاستقامة والثبات:

ولما كانت الوسطية متميزة بالتيسير والتخفيف كان اصحابها والملتزمون بها أكثر الناس استدامة على تطبيق شرعة خاتم النبيين سيدنا **محمد** ﷺ ودفاعا عن هذا الدين الحنيف، وأكثرهم ثباتا على الحق، واصرارا على تطبيق العدل، وشعورا بثقل المسؤولية، والتزاما باداء الواجبات، وتذوقا لطعم الإيمان وحلاوته، وأكثرهم جنيا لثمراته.

والسبب في كون الوسطية عمود الاستقامة وركن الاستدامة، هو ان الوسطية بمفهومها الشمولي العام، ونظرتها الكلية للكون والحياة والإنسان، ودراستها للمتقابلات والمتضادات الكونية العامة، تقوم على اساس التوازن بين الاشياء، والتعادل بين القوى والطاقات، والاعتدال بين الميولات المادية والاشواق الروحية بالاضافة إلى التيسير الذي ذكرناه آنفا.

وبعبارة توضيحية ان الوسطية درست التركيب الروحي للانسان واقامت في كيانه

=

ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير ١٢/٢٨٤ (١٧٣٢) وابو داود في كتاب الادب، ٤/ والإمام أحمد في مسنده(٢٠٢٩) و (٢٤٢٥) و(٣٢٦٩) و (١١٨٨٣) و(١٢٦٩٨) و (١٨٧٥١) و (١٨٨٦٨) والنسائي وذكره السيوطي في الجامع الصغير ٢/٧٦١ (١٠٠١٠) والغماري في الكنز الثمين ص٦٧٣ (٤٥٧٦).

وشخصيته معادلة دقيقة حكيمة، كالتعادل الموجود بين الشهيق والزفير. فإنك لو اخذت تنظر إلى عملية الشهيق والزفير مثلا وتأملت في ابداع الخلاق الحكيم لوجدت حركة تعادلية عجيبة، إذ لو اختل هذا التعادل بينهما بان طال الشهيق واصبح أكثر من الزفير، أو بالعكس بأن اتسع الزفير وامتد أكثر من الشهيق، فجارى كل منهما صاحبه، لتوقفت حياة الإنسان وتعطلت عن الحركة والبناء.

وهكذا كيان الإنسان الروحي له شهيق وزفير، أي له عقل وقلب، له فكر واحساس، له نظر وشعور. ولكل منها حقوقه ورغباته واتجاهاته، فلما درست وسطية الإسلام هذه الحقائق الإنسانية الدقيقة، والمبادئ الثابتة في طبيعة الإنسان، قامت بتوظيف كل آلة فيه وظيفتها الخاصة، واعطت كل اداة فيه مهمتها الملائمة، ومنحت كل جانب فيه حقوقه المشروعة. موازنة بين القوى، معادلة بين الطاقات، معتدلة في توجيه الرغبات. وعلى هذا الاساس – اساس اعطاء كل ذي حق حقه من غير افراط ولا تفريط – تحققت الاستقامة في الإنسان المسلم.

وقد وجدنا من خلال دراستنا لسياسة حضرة الرسول الأعظم – ﷺ- وشدة اهتمامه بتربية الرعيل الأول أنه كان يدربهم على مبدأ الوسط في شؤون حياتهم كلها، واعطاء كل ذي حق حقه.

وكان – ﷺ – حريصا جداً على تطبيع حركتهم بطابع الاعتدال والتوازن في الكون كله، حتى إذا ما وجد من خلال مراقبته الدقيقة ميلا إلى جانب دون آخر نبه عليه ووقف عنده وحذر منه.

وخير مثال ودليل يوضح لنا هذه الحقيقة الراسخة في منهاج الرسول التربوي والتعليمي – ﷺ – هو حديث انس – رضي الله عنه – عندما قال: جاء ثلاثة رهط[1] – بسكون الهاء – إلى بيوت النبي– ﷺ – يسألون عن عبادة النبي– ﷺ - فلما اخبروا – عنها – كأنهم تقالوها وقالوا: اين نحن من النبي– ﷺ – وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدهم: اما انا فأصلي الليل ابدا، وقال آخر: وانا اصوم ولا افطر، وقال آخر: وانا

(١) الرهط: هو ما دون العشرة من الرجال، ليس فيهم امرأة. ورهْط بسكون الهاء افصح من فتحها. وقيل:الرهط من سبعة إلى عشرة، ومادون السبعة إلى الثلاثة نفر: المصباح المنير للفيومي، مادة رهط، ٣٢٩/١.

اعتزل النساء فلا اتزوج ابدا. فجاء رسول الله- ﷺ - إليهم، فقال: (**انتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ اما والله اني لاخشاكم لله واتقاكم له، لكني اصوم وافطر، واصلي وارقد، واتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**)[1].

وانما كانت الاستقامة من معاني الوسطية وافرازاتها، لأن الوسطية تدعو إلى المنهج المستقيم الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله في دعاء المؤمنين: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾[2] فصراط المؤمنين المستقيم يقع بين اليهود المغالين والنصارى المقصرين، حيث افرط كل منهم في أكثر القضايا العقيدية والمسائل الإيمانية. فاليهود مثلا عادوا الأنبياء الكرام حتى قتلوهم، بينما عظمهم النصارى حتى الهوهم.

والى الوسطية دعا أصحاب المدارس الروحانية الإسلامية الكبرى على امتداد التاريخ وتغير الاحداث، كحضرة الشيخ معروف الكرخي وبشر الحافي والحارث المحاسبي والجنيد البغدادي والإمام الغزالي وعبد القادر الكيلاني والسيد أحمد الرفاعي وعمر السهروردي وغيرهم – رحمهم الله تعالى وجزاهم عن المسلمين الجزاء الاوفى -. فقد بنى كل واحد من هولاء الكرام منهجه التدريسي، ونظامه التعليمي، ودوره التربوي، وسلوكه الروحي، على حسن الاستقامة، وسر الاستدامة، مراعيا فطرة الإنسان، وطبيعة ميولاته، ومقومات شخصيته.

وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[3].

اللهم احشرنا مع أوليائك المستقيمين، وأحبابك الصالحين، واسلك بنا مسالكهم، آمين يا رب العالمين، يا أرحم الراحمين.

١٢- الوسطية دليل القوة والصلابة:

وإنما كانت الوسطية في المسلم دليلا واضحا على قوة شخصيته وصلابة إيمانه، لأن الوسطية إذا تغلغلت جذورها في الإنسان وتمكنت قواعدها من الرسوخ في ذاته،

---

(١) متفق عليه: اللؤلؤ والمرجان برقم (٨٨٥).

(٢) الفاتحة: الآية (٦).

(٣) فصلت: الآية (٣٠).

اضفت عليه قوة كبيرة تنطبع في اتجاهه العقيدي والتشريعي والفكري والسلوكي. فاذا تكلم كان واثقا من قوله، وإذا تحرك في الأرض للبناء والرقي كان مطمئنا في حركته، وإذا اتجه كان واضحا في هدفه، وإذا عمل كان راسخا في عمله، وإذا بنى كان متيقنا من اتقانه.

تلك الثقة الكبيرة تجعل من المسلم رجلا قويا في حياته، وانسانا متميزا في مجتمعه، بسبب اعتماده الوسطية التي تملك عقله، والاعتدال الذي يعمر فؤاده، فلا يعرف التردد إليه سبيلا، والتذبذب إليه طريقا. وصاحب المنهج الوسط هو الذي لا تزحزحه العواصف العاتية عن موقفه، فلا يميل إذا مال الناس، ولا يجنح إلى شيء جنح إليه الناس، بل يبقى راسخا في مكانه، ثابتا على أرضيته، بروحه المستقل وفكره النقاد.

وقد نهانا حضرة **الرسول الاكرم** - ﷺ - عن الميل الدنيوي فقال: (**لا يكن أحدكم إمّعة، يقول: انا مع الناس، إن احسن الناس احسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا انفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن اساءوا أن تجتنبوا إساءتهم**)[١].

وصاحب المنهج الوسط هو الذي يتحلى بقوة يقينه في شخصه، ويتذوق روعة الإيمان وحلاوته في قلبه، ويكون كالطود الاشم، لا تجرفه غمار مجتمعه السائدة، ولا تطوه لجج حياته الصاخبة، بل يكون وثيق العزم، مجتمع النية، باذلا قصارى جهده لبلوغ مآربه. ولذلك فاز بخيرية **الرسول الاكرم**- ﷺ - ومدحه وثناءه في حديثه القائل: (**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**)[٢].

وسر قوة المؤمن هو نقده لعيوب مجتمعه الفاشية، وجرئته الادبية في الحملة عليها، ودراسته العلمية لمشكلات العصر وأمراضه، وتشخيصه سلبيات ابناء وقته وعيوبه،

---

(١) بحثت عن هذا الحديث فلم اجده في: صحيح البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي وابن ماجة والدارمي وموطأ مالك ومسند الإمام أحمد ولكني وجدته في سنن الإمام الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الاحسان والعفو، ٣٢٠/٤ (٢٠٠٧) وقال عنه الترمذي: هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه، وهو في الفتح الكبير للنبهاني برقم (٣٧٠٧).

(٢) رواه مسلم في كتاب القدر، ٤٥٥/١٦ (٢٦٦٤) وابن ماجة في المقدمة، باب في القدر، ٤١/١ وفي كتاب الزهد ٢/ ورواه الإمام أحمد في مسنده (٨٤٣٦) و (٨٤٧٣) ورواه النسائي: الكنز الثمين ص ٦٠٢ (٣٩٩١).

وتحديده علاجه واسباب شفائه. يعلن كل ذلك من غير ان يتهيب كبيرا أو يستحي من قريب، بل لا تأخذه في الله لومة لائم. بإرادة مصممة لا تعرف الخور، وحسن استقامة وتوازن لا يعرف الجور.

وهذا بخلاف المتطرف فإنه يكون ضعيفا في نفسه، هزيلا في شخصيته، تستعبده الاعراف القاتلة، وتتحكم في اعماله التقاليد السائدة.

١٣- الوسطية دليل الامان والاطمئنان:

وتمثل الوسطية ساحل الامان والبعد عن الاخطار والمخاوف. فقد جرت سنة الله تعالى في هذا الكون ان تكون الاطراف في كل شيء عادة متعرضة للفساد والهلاك، بينما يحظى الوسط بالحفظ والحماية والصون.

ومن جال فكره في معركة ما ونظر في مراتب الصفوف، وتأمل مواقع الجنود، وجد الحجابات المتقدمة أكثر الجيش تعرضا للاخطار والاذى، لتطرفها وبعدها عن مركز الامان.

وقد صور لنا سيدنا **محمد** - ﷺ - تعرض المتطرف للاخطار والهلاك، بأروع اسلوب بياني ساحر، وبأبلغ مثال عقلاني عندما قال: «**انما يأكل الذئب من الغنم القاصية**»(١). أي: الشاردة النائية، التي ابتعدت عن اخواتها واصبحت متطرفة عنهن.

١٤- الموازنة بين المصالح والمفاسد عند التعارض:

وهذه الصفة اعظم مزية تتميز بها الوسطية وتزداد شأنا كبيرا في ربوع الشريعة الغراء. وبيان ذلك بشيء من التوضيح، هو ان: [من ارتاد رياض فقه الإسلام وشريعته وقوانينه وجد حق اليقين ان احكامها وقواعدها هي القائمة على رعاية مصالح الإنسان في حياته الموقتة في دار الدنيا ثم في حياته الدائمة في دار الخلود.

والمصالح ثلاثة اصناف:

أ- ماقام الدليل الشرعي على الاعتداد بها. - وتسمى المصلحة المعتبرة -

ب- ماقام الدليل الشرعي على عدم الاعتداد بها. - وتسمى المصلحة الملغاة -

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب في التشديد في ترك الجماعة ١/١٤٧ (٥٤٧) والنسائي في كتاب الإمامة، باب التشديد في ترك الجماعة ٢/١٠٦ وأحمد في مسنده (٢٦٢٤١) و (٢٦٢٤٢) و (٢٠٧١٩).

ج- مالم يقم دليل شرعي على خصوص الاعتداد أو عدم الاعتداد بها. - وتسمى المصلحة المرسلة - ولا نزاع بين فقهاء المسلمين في الاخذ بأول الاصناف الثلاثة، ولا في ترك ثاني الاصناف](١).

فعلى صاحب الوسطية ان يكون مالكا عقلية أصولية يوازن بها بين المصالح والمفاسد أو بين المنافع والمضار إذا اجتمعتا في أمر من الأمور. وليعلم ان العبرة للأغلب والأكثر، فإن للأكثر حكم الكل، فإذا كانت المفسدة أكثر من المصلحة، والمضرة أغلب من المنفعة الموجودة في ذلك الأمر، وجب منع ذلك الأمر لغلبة مفسدته، ولا تعتبر المنفعة القليلة الموجودة فيه.

-وخير انيس في العلوم مثال: فقد ذكر ذلك القرآن الكريم في قضية الخمر والميسر في معرض اجابته عن سؤال السائلين عنهما، فقال لحبيبه **محمد**- ﷺ -: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾(٢). والعكس بالعكس فإنه إذا كانت المنفعة الموجودة في ذلك الأمر هي الأكبر الأغلب، فيجاز الأمر ويشرع ولا عبرة بالمفسدة القليلة الموجودة فيه.

أي ان وسطية الإسلام تقوم بتحليل كل فعل ودراسة كل تصرف وما يتولد منه من نتائج وما يظهر منه من افرازات وآثار، فتضع سلبياته ومفاسده في كفة، وايجابياته ومنافعه في كفة، وعندئذ يكون الحكم. ولا بأس بذكر مثال ثان لهذه الفقرة وهو مثال السفه عند العلماء، لأهمية موضوع الموازنة ودوره الكبير في ساحة الفكر الإسلامي وعمله الاساس في تحقيق الحد الاوسط.

فإن حكم تصرفات السفيه(٣)، المحجور عليه في الأمور القابلة للفسخ، كالبيع والشراء والاجارة مثلا، لا تكون محرمة على الإطلاق، ولا جائرة على الإطلاق، بل

---

(١) علم أصول القانون للعلامة الدكتور عبدالله مصطفى، شركة الفكر للتصميم والطباعة المحدودة، ط١، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م، بغداد، ص ٢٤٣.

(٢) البقرة: الآية (٢١٩) والعلة في تحريم الخمر هو الإسكار.

(٣) السفه في اللغة: الخفة، وفي اصطلاح الفقهاء: عبارة عن التصرف في المال على خلاف مقتضى الشرع والعقل، مع قيام العقل: الوجيز في أصول الفقه للاستاذ الدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط١، ص١١٨.

تكـــون موقوفة على اذن القيم أو المتولي وذلك إذا كانت مترددة بين النفع والضرر. فما كـــان مـــنها ضررا محضا وقعت باطلة كالهبة، وما كان منها نفعا محضا وقعت صحيحة نافـــذة[١]. تقدر ذلك كله عقلية حكيمة راشدة، توازن بين درجة المفسدة وخطورتها، وحجم المصحلة واهميتها.

وهذه العقلية الأصولية الدقيقة هي الوسطية العظيمة التي نتحدث عنها، التي لا تتقيد حركتها في المثالين المذكورين آنفا، بل تمتد فروعها في انظمة الإسلام وقوانينه ومبادئه ومجالات دور الإنسان واعماله وتصرفاته كافة. سواء كان المسلم في المسجد أو في البيت أو في الدائرة أو في الشارع أو في أي وظيفة أو مكان عرض له أمر اجتمعت فيه مصلحة ومفسدة.

ولايفوتني هنا ان اذكر ما صنعته عقلية امير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب — ﷺ — تلك العقلية العملاقة الكبيرة في حل مشكلة تقسيم أرض سواد العراق[٢] والشام على المسلمين الفاتحين، الذين اصروا على تقسيمها مستدلين بآية الغنائم: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ...﴾ [٣].

فمنع سيدنا عمر(ﷺ) تقسيم الأرض المفتوحة على الفاتحين، درءا للمفاسد التي ستنجم عن هذا التقسيم في مستقبل الأمة، ورعاية للمصلحة العامة، واستطاع بتوفيق الله تعالى وتأييده ان يوازن بين حجم مصلحة التوزيع ودرجة مفسدته واضراره بالمجتمع، بعقلية أصولية وسطية متفتحة. وذلك عن طريق تخصيص عموم آيات الغنائم بآيات

(١) بعد موافقة القيم، بحيث إذا اجازه جاز واذا الغاه بطل، وانت إذا تأملت تجد ذلك مراعى في جميع ابواب الشريعة الإسلامية الغراء، بدون استثناء، حفظا للاموال من التلف وصيانة لها من الهلاك.

(٢) سواد العراق: قراها ومزارعها، سميت سوادا لكثرة خضرتها، والعرب تقول لكل اخضر: اسود: النظم المستعذب ٢/٢٦٥. وقد حدد القفال الشافعي أرض السواد ما بين عبادان والموصل طولا، وما بين القادسية إلى حلوان عرضا: حلية العلماء بتحقيق الدكتور ياسين درادكة، ط١، ١٩٨٨م، ٧٢٦/٧ وقضية تقسيم أرض العراق والشام تجدها في كتاب: الاموال لابي عبيد القاسم بن سلام، ط١، القاهرة، ١٣٨٨ هـــ ص٥٩.

(٣) الأنفال: الآية (٤١).

الحشر- ٨ و٩ و١٠.

١٥- الموازنة بين العزيمة والرخصة:

وهذه الخصيصة العظيمة هي أيضاً من اهم مميزات الوسطية وخصائصها. والعزيمة اسم لما طلبه الشارع أو أباحه على وجه العموم، دون ان ننظر إلى ما قد يطرأ على المكلفين من اعذار، أي هي احكام اصلية شرعت ابتداء لتكون قانوناً عاماً لجميع المكلفين في احوالهم العادية كالصلاة وسائر العبادات الأخرى.

اما الرخصة: فهي الاحكام التي شرعها الشارع بناء على اعذار المكلفين، ولولاها لبقي الحكم الاصلي، فهي اذن حكم استثنائي من أصل كلي، دفعاً للحرج عن المكلف[١].

فمن ظن أنه غير قادر على الصوم – مثلا – بسبب وجود المرض الذي مثله يفطر فيه ولايصوم معه، من غير ان يجرب نفسه ويختبر قدرته وطاقته في الصوم، فهل يأخذ بالعزيمة ويصوم، أو يأخذ بالرخصة ويفطر ؟

هنا يظهر دور الوسطية ويتبين لنا واجبها في دقة الموازنة ودراسة الترجيح، فان قيل يأخذ بالعزيمة ويصوم على الإطلاق، قلنا: المشقة هنا حقيقية فكيف يأخذ بالعزيمة إذ يخشى ان صام ان يدخل عليه فساد لا يطيقه طبعا أو شرعا، ويكون ذلك محققا لا مظنوناً.

وان قيل: بل يأخذ بالرخصة على الإطلاق، قلنا: كيف يأخذ بالرخصة ويفطر على الإطلاق وهو لم يعرف بعد عدم قدرته على الصوم فعلا.

والجواب على ذلك هو أنه يأخذ بالعزيمة ابتداء ويصوم إلى ان يظهر له حين تلبسه بالصوم ما يمنعه عن الاستمرار فيه، فيتبين له عدم قدرته، فيأخذ بالرخصة عندئذ ويفطر ولا حرج عليه وهذه الموازنة العلمية الدقيقة هي التي تدعو إليها الوسطية وتقوم عليها في حركتها في الحياة وسعيها في مناكب الأرض وسياحتها في نواميس الكون.

---

(١) للعزيمة والرخصة تعريفات كثيرة، انظرها مع ما ذكرنا هنا في: التلويح ١٢٧/٢ والمستصفى للامام الغزالي – قدس سره – ٩٨/١ والوجيز ص ٥٠ وأصول الفقه للعلامة الشيخ محمد الخضري بك، التجارية الكبرى، ط٦، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م، ص٧٠ وغيرها من امهات كتب أصول الفقه وكل الامثلة التي ذكرناها هنا مبثوثة في هذه المصادر الأصولية.

وقد ضرب لنا القرآن الكريم امثلة كثيرة في ضرورة الموازنة بين الاخذ بالعزيمة والأخذ بالرخصة، كاباحته التلفظ بكلمة الكفر مع اطمئنان القلب بالإيمان إذا اكره على ذلك الإنسان بالقتل: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾(١). كما اباح الشارع الحكيم اكل الميتة عند الجوع الشديد الذي فيه تلف النفس، وشرب الخمر عند وجود الظمأ الشديد الذي يخشى فيه الهلاك. ولكن من غير افراط ولا تفريط، وإنما بتوسط واعتدال. وما أعظم قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾(٢). وذلك لأن حفظ الحياة ضروري والله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾(٣) ويقول أيضاً: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾(٤).

١٦- الوسطية وصية الله تعالى في القرآن الكريم:

فالوسطية تمثل الصراط المستقيم الذي علمنا الله تعالى ان نسأله الهداية إليه كلما قرأنا فاتحة الكتاب في صلواتنا اليومية أو في خارجها فنقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾(٥) وذكر الصراط المستقيم في قوله تعالى: ﴿ وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾(٦). وهو الذي اوصانا الله تعالى أن نتبعه فتتوحد كلمتنا وتجتمع صفوفنا، ولانتبع السبل والمناهج التي يدعو إليها شياطين الجن والانس، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣ ﴾(٧).

وبالوسطية اوصى سيدنا رسول الله - ﷺ - فقد جاء عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: خط رسول الله - ﷺ - خطاً بيده، ثم قال: (**هذا سبيل الله مستقيما**)، ثم خط عن يمينه وشماله، ثم قال: (هذه السبل، ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾) (٨).

---

(١) النحل: الآية (١٠٦). (٢) البقرة: الآية (١٧٣).

(٣) النساء: الآية (٢٩). (٤) البقرة: الآية (١٩٥).

(٥) الفاتحة: الآية (٦). (٦) الأنعام: الآية (١٢٦).

(٧) الأنعام: الآية (١٥٣).

(٨) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (٤١٤٢) و (٤٤٣٧) وقال الشيخ شاكر: اسناده صحيح ورواه الحاكم وصححه (٢٣٩) ووافقه الذهبي ٣١٨/٢.

فالصراط المستقيم هو الخط الوسط بين الخطوط الأخرى الواقعة عن يمينه وشماله. وهو مركز الدائرة التي ترجع إليه الأطراف المتباعدة.

ومن كلمات سيدنا الإمام علي – عليه السلام والرضوان -: عليكم بالنمط الاوسط، يلحق به التالي، ويرجع إليه الغالي[١].

اللهم اجعلنا من أهل الوسط والاستقامة، ولا تجعلنا من أهل التفريط والندامة.

---

(١) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف للدكتور يوسف القرضاوي، دار الشروق، ص٦٢.

المبحث الرابع

اهداف الوسطية واهميتها

الوسطية منهج رباني كامل، ولهذا المنهج الرباني اهداف عديدة يطمح القائمون به إلى تحقيقها، وغايات سامقة يأمل العاملون به الوصول اليها. ولو جئنا ندرس هذه الاهداف ونستعرضها لالفيناها موسومة بالشمول والموسوعية والعموم، ذلك لأن الوسطية نفسها لا تترك نظاما من انظمة الحياة ولاقانونا من قوانين الكون ولا جانبا من جوانب حضارة الإسلام إلا وتركت فيه اثرا واضحا ومعلما بارزا ودورا عمليا ملموسا. لذا تنوعت اهدافها وتعددت غاياتها، فلها اهداف ترمي تحقيقها في مجال العقيدة وأخرى في الشريعة وأخرى في حضارة الإسلام وفكره، ولها اهتمام ملحوظ في قضية توحيد الصف والكلمة، ولها عناية كبيرة في التطور العلمي والتكنولوجي ونهوض العامل الاقتصادي، وكذا في مجال التربية الروحية الإسلامية والتزكية النفسية الضرورية، كما ان لها هدفا عاما هو اسعاد كل الإنسانية وتأمين الحياة الرخية لهم. ولنشرع الآن في تفصيل القول في هذه الاهداف الكبيرة.

١- حماية قدسية العقيدة والحفاظ على هيبتها:

لقد ارادت الحركة العلمانية الخبيثة بكل ما اوتيت من قوة اقتصادية وهيمنة سياسية واعلامية خطيرة ان تحطم قدسية العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين، وتمتص مدى هيبتها وتذيب قوة آثارها، حتى لا تتوحد الاجيال الجديدة على قاعدة متينة وارضية صلبة وافكار سليمة، لتحدد مواقفها الصامدة تجاه الاحداث المتغيرة والاوضاع المتبدلة.

فقامت بانشاء تيارات فكرية متصارعة على مسرح العالم الإسلامي، باسم الدفاع عن الكتاب والسنة تارة، وباسم حماية التوحيد من ضلالات الصوفية تارة أخرى. فأخذت هذه الفصائل العلمانية الخطيرة توجه سهام اعتدائها إلى مراكز قوة المسلمين ومصدر طاقاتهم الروحانية وسر تقدم حضارتهم في العالم، فعمدوا إلى فصل المسلمين عن نبيهم - ﷺ - وعزله في الماضي المندثر بحجة الحفاظ على التوحيد، وقطع الصلة الروحية بحضرته وعدها خرافة وضلالة. ولا يخفى على كل لبيب ما لهذه الحركات الهدامة من مصالح ذاتية وارتباطات عضوية وعلاقات سياسية بمكاتب غربية سرية.

لقد كان غرض هذه الافكار العلمانية - كما قال حضرة الشيخ عبدالله مصطفى

— حفظه الله هو [تزوير الدين أو اصطناع دين مزور أو مذاهب دينية، كما صنع الروس «بالبابية» والانكليز ثم الأمريكيون «بالبهائية»][(١)].

وقامت فرق أخرى منهم على طرف مقابل، محاولة نشر الاساطير والخرافات المرتبطة ارتباطا وثيقا بالوثنية اليونانية والفارسية والهندية. لأنهم يعرفون جيدا ما لهذه الاساطير من اثر سيء في زعزعة العقيدة الإسلامية في قلوب المسلمين.

ومن هنا يدرك جيدا أصحاب الوسطية واجبهم الكبير ودورهم الخطير في تصحيح الاتجاهات العقائدية المنحرفة، فلا سب لحضرات الأنبياء الكرام — عليهم الصلاة والسلام — ولصق انواع الخلاعة وصور الفساد بجنابهم كما صنع اليهود، ولا تأليههم وعبادتهم وجعلهم ابناء الله تعالى كما فعل النصارى، ولا دين مستحدث جديد ينكر قوة الروح وخلوده وبقاءه وآثاره العظيمة.

وانما هدف الوسطية هو تجديد بناء العقيدة الإسلامية على الاسس النبوية الكريمة التي تربى عليها الرعيل الأول. اسس علمية وحركية، لأن العقيدة الإسلامية ليست مسائل نظرية جافة، ولا أقوالا لسانية جامدة، ولانظريات كلامية خاوية، لا حياة فيها ولا حركة كما هو شأن العقائد الوضعية وليست هي — أيضاً — امورا وهمية أو تصورات خيالية، بل هي روح وعمل، وحركة وتفاعل مع قوانين الحياة وسنن الكون.

لقد ركزت الحركات الهدامة عملها ونشاطها في عزل عمل الروح عن اسس العقيدة وتناول اركان الإيمان تناولا نظريا صرفا، مجردا من تدخل الروح وتأثيره في ترسيخ هذه الاركان في القلوب والامتزاج بها[(٢)].

وانما كان حماية العقيدة وحفظ الإيمان النقي طليعة اهداف الوسطية لأن [الإيمان هو النجاة دائما، وبه يمكن تغيير الإنسان من داخله، واصلاحه من باطنه، فالإنسان لا يقاد كما تقاد الأنعام، ولا يصنع كما تصنع الالات من حديد أو نحاس أو معدن.

انما يُحرك من عقله وقلبه، يُقنع فيقتنع، ويُهدى فيهتدي، ويُرغب ويُرهب

---

(١) الحرية الجامعية للدكتور عبدالله مصطفى الهرشي، طبع بمطابع التعليم العالي، ط١، ١٤١٠هـ—١٩٨٩م، ص٤٠.

(٢) لهذا الموضوع كلام في غاية الاهمية في كتاب: معالم الطريق في عمل الروح الإسلامي. د.عبدالله مصطفى ص ١٩ وص ٢٠.

فيرغب ويرهب. والإيمان هو الذي يحرك الإنسان ويوجهه ويولد فيه طاقات هائلة لم تكن لتظهر بدونه، بل هو ينشئه خلقا جديدا، بروح جديدة، وعقل جديد، وعزم جديد، وفلسفة جديدة][(١)]. ورؤية للحياة والكون جديدة، وتصور للعقيدة والمبادئ جديد. ولنا في التغير الروحي الهائل الذي أحدثه سيدنا موسى – عليه السلام – في كيان سحرة فرعون اوضح مثال لبيان اتصال عمل الروح باركان الإيمان.

ان اهم مايجب ان ينتبه إليه أصحاب الوسطية اليوم هو دراسة البداية الصحيحة في بناء الإنسان المسلم [بناء حقيقيا لا صوريا، نبني عقله وروحه وجسمه وخلقه، بناء متوازنا لا طغيان فيه ولا افساد في الميزان، نبنيه عقليا بالثقافة، وروحيا بالعبادة، وجسميا بالرياضة، وخلقيا بالفضيلة، وعسكريا بالخشونة، واجتماعيا بالمشاركة، وسياسيا بالتوعية، ونعده للدين والدنيا معا، وليكون صالحا في نفسه مصلحا لغيره، حتى ينجو من خسر الدينا والآخرة الذي ذكره الله تعالى في سورة العصر: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝ ﴾[(٢)]. ولايتم ذلك إلا في تصور كلي للوجود، وفلسفة واضحة للحياة][(٣)].

ولانغفل عمل الفرق المحدثة في بلورة العقيدة في صورة نظرية مجردة، للدراسة الذهنية، والمعرفة الثقافية، وعرضها عمدا بعيدا عن صورتها الروحية الحقيقية. فعلينا ان ندرك خطأ هذه المحاولات الفكرية وخطرها الجسيم في تحويل العقيدة الإسلامية الحية عن طبيعتها الاصلية هذه، الحركية والواقعية والروحانية، إلى نظرية صرفة، مجردة من التفاعل والنمو والعمق والتأثير.

وذلك لأن اظهار العقيدة الإسلامية بمنأى عن روحانيتها العميقة وتجسيدها للناس بالفاظ جافة وحروف هامدة وكلمات خامدة، يحدث نفورا واضحا في النفوس، وصدودا بينا في الافكار، وإيمانا خاويا مريضا قلقا في القلوب. فيتعامل المسلمون معها كما تعامل ابناء الكنيسة من قبل مع تحريفات القساوسة الجافة، وشعاراتهم العاجزة عن اجابة اسئلة ابنائهم المحيرة، وعن اشباع حاجاتهم الروحية، حتى ضاع بعضهم في احضان

---

(١) في فقه الأولويات للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي ص ٢١٠.

(٢) العصر: الآيات (١، ٢، ٣).

(٣) في فقه الأوليات ص ٢١١.

الشيوعية الكافرة، وآخرون في الفرويديونية الاباحية الفاسدة.

فحتى نحافظ على قدسية عقيدتنا الإسلامية ونحمي هيبتها من الضعف، علينا ان نحدد اسلوب عرضها، ونبدل طريقة بيانها، بتصويرها للالوهية والكون والحياة والإنسان تصويرا شاملا كاملا، متمثلا في تنظيم حي، وتفاعل روحي، وامتزاج فكري، وحركة واقعية، وتشغيل دؤوب لطاقات الإنسان الخاوية، وذلك ليتم بناء المسلم المثالي، البناء التكويني المؤلف من عقيدة راسخة في القلوب، ثابتة في الاذهان في صورة منظمة حية، لا في هيئة نظرية صورية أو شكلية.

وصدق الله العظيم عندما قال: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[(١)]. وقال سبحانه: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[(٢)].

٢- تثبيت قوانين الإسلام في حركتها الاجتهادية المتطورة المستمرة داخل حدود شرعته الغراء:

ان قوانين شريعتنا الإسلامية الغراء تتصف بالتوازن والاعتدال والتناسق في أصولها وقواعدها ومناهجها التشريعية العامة. وهي شريعة لا تعرف الجمود والانغلاق. بل هي شريعة مفتوحة ابوابها للاجتهاد المستمر الذي يقوم به أصحاب الاختصاص من العلماء الراسخين، بناء على مراعاتها الدقيقة لتطور الحياة الاجتماعية، وإيمانا بحركة الكون المستمرة وتغيرات الحياة المتنوعة.

فشريعة الإسلام اذن شريعة كونية [بمعنى انها متصلة بناموس الكون العام، ومتناسقة معه. ومن ثم فان الالتزام بها ناشئ من ضرورة تحقيق التناسق بين حياة الإنسان، وحركة الكون الذي يعيش فيه، بل من ضرورة تحقيق التناسق بين القوانين التي تحكم فطرة البشر المضمرة والقوانين التي تحكم حياتهم الظاهرة. وضرورة الالتئام بين الشخصية المضمرة والشخصية الظاهرة للانسان][(٣)]. لذلك اصبح العمل بشريعة الله تعالى واجبا لتحقيق ذلك التناسق العظيم والتوازن الدقيق.

---

(١) الأعراف: الآية (١٩٨).

(٢) الحج: الآية (٤٦).

(٣) معالم في الطريق للشهيد سيد قطب — رحمه الله — ط١٠، دار الكتاب الإسلامي، قم — ايران، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص١١١.

وبالاضافة إلى ذلك يمكن القول بان المنهج التشريعي بصفته «الربانية» يمثل لنا المنهج الوحيد المبرأ من نتائج الهوى الإنساني وضعفه وقصوره وطمعه في النفع الذاتي عن طريق التشريع والتسنين، محاباة لمصلحته أو لمصلحة اسرته أو عشيرته أو بطانته. وهو المنهج الذي لا نلمس اي اثر له في بقية الاديان السماوية الأخرى كالمسيحية مثلا التي كانت ولا تزال تعاني قوانينها الكنسية من فقدان شريعة ثابتة وقواعد راسخة تستند إلى الوحي الإلهي الامين. وإنما كانت تقوم على آراء بشرية وضعية، وأفكار زمنية قديمة، ومعالجات مريضة، وعقائد وهمية، قد اكل عليها الدهر وشرب.

ولذلك عمدت الحضارة الاوربية الكافرة برجال دينها واطباءها واساتذة جامعاتها ومستشرقيها وجواسيسها وسياحها إلى [عزل القانون الإسلامي عن مجتمع الناس وحياتهم. وذلك بالاستعاضة عنه تشريعا، والحيلولة بينه وبين المحاكم ووزارات الحكومة قضاء وادارة، وابعاده عن المعاهدة العالية تدريسا وفقها، والتشهير به على أنه شريعة غير ملائمة للعصر الحديث](١).

وقد ظهرت بالاضافة إلى محاولات العزل القانوني هذه طبقة علمية مسلحة في مجتمع الإسلام، ضيّقت درب الاجتهاد الفقهي والابداع القانوني إلى ابعد الحدود، وحرّمت الترجيح بين اقوال الفقهاء واغلقت الباب دونه.

وفي الوقت ذاته ظهرت في مجتمعنا محاولات اجتهادية خطيرة، وفي صور متنوعة، بعيدة عن الالتزام بضوابط الاجتهاد وشروطه، ونائية عن الاخذ بقواعده وأصوله(٢). فغدا الناس انفسهم امام ثلاث اتجاهات: **عزل القانون الإسلامي والاجتهاد فيه، تمويع امكانية الاجتهاد وتحريم الترجيح، مطلق الاجتهاد والفتوى من غير ضابط ولا شرط.**

---

(١) الحرية الجامعية للعلامة الدكتور عبدالله مصطفى ص٣٦.

(٢) مثل عبدالله العلايلي في كتابه: اين الخطأ، دار العلم للملايين – بيروت، ط١، ١٩٧٨م، ص ٧٧ وص٨٠ ومابعدها الذي ينكر فيه رجم الزاني المحصن، ويجيز الاستعاضة عن قطع يد السارق باي وسيلة ردع أخرى. ومثله الالباني في تحريمه الاقتداء بأحد المذاهب الأربعة وتعديه على صحيحي البخاري ومسلم، انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة واثرها السيء في الأمة، المكتب الإسلامي ٢/٤٠٦ و٤٠٧ وغيرهما وآداب الزفاف في السنة المطهرة، المكتب الإسلامي، ط٨، ١٤٠٧هـ –١٩٨٧م، ص٦٢ وراجع أيضاً: تنبيه المسلم إلى تعدي الالباني على صحيح مسلم للاستاذ محمود سعيد ممدوح ص ٤٤ وما بعدها.

وها هنا وفي خضم هذه الاتجاهات المتناقضة المتضاربة تظهر لنا جليا اهمية الوسطية ومعالجتها الشافية، برؤيتها الدقيقة، ومواقفها الجادة، ونظرتها الشمولية، ودراستها العلمية الموضوعية، وحلولها المناسبة الحاسمة.

فهي ابتداء تجيز الاجتهاد وتفتح بابه امام المتخصصين من العلماء الراسخين، لأن القرآن الكريم دعا في كثير من آياته إلى التفكير والتعقل والاجتهاد. وشجع الناس على استعمال الفكر والنظر فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(١). وقال أيضاً: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... ﴾(٢).

وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾(٣). وقد حول الرسول الأعظم — ﷺ — هذا المنهج القرآني الواضح إلى واقع عملي حياتي ملموس في حياة الأمة، وسرعان ما ادرك الصحابة تلك الحقيقة فاجتهدوا في زمانه، وما أخذ الرسول الأعظم — ﷺ — باجتهاد الحباب بن المنذر — رضي الله عنه — في منزل بدر(٤). وغيره إلا شاهد على صحة ما قلناه.

لكن الوسطية وان فتحت باب الاجتهاد امام المتحققين من العلماء، فهي لا تفتحه على الإطلاق — كما رأينا قبل قليل في العلايلي وغيره — لكل من هب ودب. بل هي من اجل ان تحافظ على قوانين الإسلام من الانحراف والتزييف وصيانة لأصالتها الإسلامية ومجدها الحضاري وعمقها التليد، تقيد الاجتهاد بضوابطه الدقيقة وقواعده الأصولية، التي منها ما يستند إلى الأصول اللغوية، والنصوص القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، ومجموعة كبيرة من القواعد الأصولية والفقهية(٥). [ولقد استطاع فقهاؤنا في

---

(١) الرعد: الآية (٤).

(٢) آل عمران: الآية (١٩١).

(٣) محمد — ﷺ —: الآية (٢٤).

(٤) القصة بتفاصيلها موجودة في سيرة ابن هشام ٢/٦٢٠ بتحقيق الثلاثة: السقا والابياري وشلبي، دار الفكر — بيروت. وحياة محمد — ﷺ — للاستاذ محمد حسين هيكل ص ١٧٠ والسيرة النبوية لابي الحسن الندوي، المكتبة العصرية، بيروت ١٣٩٩هـ —١٩٧٩، ص٢٤٤.

(٥) يمكنك ان تراجع شروط الاجتهاد في: اعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم الجوزية بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط١، ١٣٧٤هـ—١٩٥٥م، ١/٤٦. وصفوة

=

تاريخنا الفقهي الطويل ان يواجهوا أحداث الحياة المتغيرة، مستنبطين لها الاحكام الدقيقة المناسبة، وموجدين لها الحلول العملية، المستندة إلى تلك الأصول – العملية – والقواعد – الكلية -][(١)].

فحتى نحافظ على حركة قوانين الإسلام لا نغلق باب الاجتهاد على الإطلاق فنسلمها إلى الموت ونصبغها بالجمود ونمنعها من التجديد والتطور ونقيدها عن الحركة فنبعدها عن منهجيتها الربانية، ولانفتحه – إذا فتحناه – على الإطلاق من غير شرط ولاقيد، حتى لا يتلاعب بهذه القوانين بحسب الاهواء النفسية والمصالح الذاتية والمنافع الشخصية، فتخرج من طبيعتها الإسلامية. وإنما الحق هو ان نكون وسطا بين هذين الطرفين المتضادين فنفتح باب الاجتهاد ولكن بضوابطه وقيوده.

٣- التيسير في تطبيق الشريعة والتخفيف في حمل الواجبات:

تهدف الوسطية إلى تيسير أمر حمل وتطبيق التكاليف الشرعية على الناس لأن الوسيطة منهج رباني، أي: منهج يعلم منزله وهو الله سبحانه وتعالى بعلمه الازلي مقدرة الإنسان وقوة طاقاته وامكانية تحمله الواجبات والتكاليف. وهو القائل على لسان المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ...﴾[(٢)]. وهذه ارادة الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[(٣)]. لذلك حرص القرآن الكريم كثيرا على ان تكون أوامره ميسرة تطبيقاتها، سهلة تنفيذاتها، رعاية لفطرة الإنسان المحدودة.

وأيضاً فانما تهدف الوسطية إلى اشاعة التيسير وبث التبشير لانها تعرف أنه ما تطرف أحد عن الوسطية ونأى عن الاعتدال وابتعد عن التوازن إلا ولقي انواعا من التعسير والوانا من التشديد الذي يصطدم مع الفطرة الإنسانية اصطداما مباشرا. فاما ان يغالط نفسه ويكون صاحب ازدواجية قاتلة في شخصيته، واما ان يعاني من أمراض

=

اللآلئ للشيخ عبدالكريم المدرس، ط١، بغداد، ١٤٠٦هـ –١٩٨٦م، ص ٤٤٨. وأصول الفقه للشيخ محمد الخضري بك، ص ٣٦٧.

(١) منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام للاستاذ الدكتور محسن عبدالحميد، ص ٧٢.

(٢) البقرة: الآية (٢٨٦).

(٣) البقرة: الآية (٢٨٦).

نفسانية مستعصية كالكئابة والانفصام الشخصي، واما ان يتحلل من الالتزام بشرعية الإسلام شيئا فشيئا حتى يخرج من اختناقه الحاد، ويفر من سجنه الضيق، الذي ادخل نفسه فيه.

واذا درسنا هدف الوسطية هذا مع نتائجه البعيدة، وامتداداته الشمولية، ظهرت لنا ضرورة الدعوة اليه، لأن الإسلام لما كان خاتم جميع الاديان السماوية فلابد من وصفه بما يناسب خلوده وبقاءه بين البشرية إلى يوم القيامة ألا وهو التيسير والتبشير. فان التيسير في تطبيق الشريعة هو سبب دوام الإسلام في الأرض وخلوده في نفوس الناس وسر استقامته وانتشاره. لذلك كان ولايزال الهدف الذي تطمح الوسطية إلى تحقيقه ونشره وتعميقه.

ولطالما ظهرت في بطن التاريخ فرق – كالخوارج مثلا – اتسمت بالتعصب وتميزت بالتشديد، قد ودعها التاريخ تحت رماله، واندثرت بين آثار الموتى.

ان هدف التيسير الذي تصبو الوسطية إلى تحقيقه هو المنهج الذي يلائم الفطرة الإنسانية الخيرة، المنهج الذي يعينها على الانفلات من القيود الطارئه عليها، ويحررها من ربقة الشهوات المقيدة.

ولا بد لنا ونحن نتحدث عن التيسير وضده التعسير من القول بان كثيرا ما يقرن بالتشديد والتعسير مصطلح آخر وهو التعصب. فما يكاد يوصف فلان بالتشديد إلا وقرن بوصف آخر يلازمه دوما وهو التعصب، الذي يلغي التفكير الحر والقدرة على التساؤل والنقد الصريح، ويشجع قيم الخضوع والطاعة والاندماج.

وأرى ان سبب انتشار التعصب بين الناس هو ان التعصب يمثل حاجة ماسة لدى انسان ضعيف الثقافة، شاعر بالنقص والتأخر، فيتعصب لهذا الرأي – مثلا – لكي يحتمي به من وصف الامية أو الجاهلية، ويعفي نفسه من ثقل التفكير والتحليل في ظله. ويترتب على ذلك ان المتعصب لا يفكر فيما يتعصب له – هل هو مقبول اولا – بل يقبله ويأخذ به على ما هو عليه. لذلك ينشأ التطرف عنده والابتعاد عن مبدأ الوسطية والاعتدال.

وعلى كل حال فان علاج هذا الموضوع هو ان الوسطية وسطية في تيسيرها، أي: انها تقف بين الغلو والافراط من جهة، وبين التسيب والانحلال بدعوة التخفيف والتبشير الإسلامي من جهة أخرى.

وصدق سيدنا رسول الله – ﷺ – حيث قال: (**خير دينكم ايسره**)[١]. وقال: (**احب الدين إلى الله الحنيفية السمحة**)[٢]. وقال: (**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**)[٣].

٤– تحقيق العدالة المشروعة ونشرها بين الناس حفاظا على مصالح المجتمع:

[جاء الإسلام وفي العالم ركام هائل من العقائد والتصورات، والفلسفات والاساطير، والافكار والاوهام، والشعائر والتقاليد، والاوضاع والاحوال، يختلط فيها الحق بالباطل، والصحيح بالزائف، والدين بالخرافة، والفلسفة بالاسطورة. والضمير البشري – تحت هذا الركام الهائل – يتخبط في ظلمات وظنون، لا يستقر منها على يقين، والحياة الإنسانية – بتأثير هذا الركام الهائل – تتخبط في فساد وانحلال، وفي ظلم وذل، وفي شقاء وتعاسة لا تليق بالإنسان، بل لا تليق بقطيع من الحيوان][٤].

ومن الانصاف ان نقول ان بعض الامم التي كانت موجودة قبل الإسلام كانت تعرف معنى العدل والظلم ولكنها ما كانت تعرف حدود كل منها معرفة دقيقة، فكانت تلك الحدود متداخلة فيما بينها، شأنهما في ذلك شأن أكثر المعاني المجردة إذ ذاك[٥]. فأحيانا يكون العدل ظلما واحيانا ينقلب الظلم عدلا. فلما جاء الإسلام نظر إلى مبدأ العدالة نظرة

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري في الادب المفرد والطبراني في الكبير وهو حديث صحيح: الجامع الصغير ٦٢٦/١ (٤٠٦٧) وقد تقدم الحديث في مبحث مميزات الوسطية متنا وتخريجا.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأيمان، باب الدين يسر ٩٣/١ والإمام أحمد في مسنده (٢٠٠٣) و (٢١٢٦٠) والبخاري في الادب المفرد والطبراني في المعجم الكبير: الجامع الصغير ٣٧/١ (٢٠٨).

(٣) رواه البخاري في كتاب العلم ١٦٣/١(٦٩) وفي كتاب الادب ٥٢٤/١٠ (٦١٢٥) ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير ٢٨٤/١٢(١٧٣٢) وأحمد في مسنده (٢٠٢٩) و (٢٤٢٥) و (٣٢٦٩) و (١١٨٨٣) و (١٢٦٩٨) وقد تقدم الحديث في مبحث مميزات الوسطية متنا وتخريجا وهو في الجامع الصغير ٧٦١/٢ (١٠٠١٠).

(٤) خصائص التصور الإسلامي للشهيد سيد قطب، دار الشروق، ط١٠، ١٤٠٠هـ–١٩٨٠م، ص٢٦.

(٥) روح الدين الإسلامي لعفيف عبدالفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢٥، ١٩٨٥م، ص٢٩٩.

واقعية منضبطة، واستطاع ان يترجم العدالة إلى حقيقة اجتماعية تقوم على معايير محققة محددة. ورفض ان تكون العدالة في منظوره وفكره ثوبا فضفاضا، أو مصطلحا جميلا لا اثر له في واقع الناس. وقام بتصحيح المفاهيم الخاطئة عن العدالة باعتبارها الوقاء الذي يمنع اسباب النزاع والخلاف بين الناس في مجريات حياتهم العادية، وباعتبارها محطة الدعوة إلى التفاهم سلفا على الحلول والمعالجات الجذرية لمشكلات العصر.

ومن امارات دراسة الإسلام للعدالة – دراسة شمولية واسعة – ان حضارة الإسلام لا تحصر تحقيق العدالة بين المسلمين فقط، وفي داخل المجتمع الإسلامي، بل هي شديدة الاهتمام بتحقيق العدل بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب والمشركين أيضاً، لأن حق الحياة الرخية المطمئنة مكفول للجميع، ولان العدالة هي الحقيقة الجذرية الأولى في دعوة **خاتم النبيين** – ﷺ –.

ومن مظاهر دعوته –ﷺ – في العدالة، المساواة في الإنسانية، باعتبار ان الاصل البشري واحد، يرجع إلى بنية واحدة تتكون من حقائق خلقية واحدة لا تؤثر فيها الاعراض الخارجية من الطول والقصر والالوان واللغة وغير ذلك[1]. ولان البشرية كلها من أصل واحد فالاختلاف الحاصل بين افراده لا يؤثر في تشويه تلك الحقيقة، فالرجال والنساء والحكام والمحكومون وسائر اصناف الناس، انما هم مظاهر تكاملية اندماجية لايجاد المجتمع الحضاري المتعاون، حتى يستطيع تسخير الحياة على الوجه الاكمل.

وانطلاقا من هذه العدالة العظيمة، لا يسخر انسان اخاه ولايظلمه ولايحقره ولا يستلب حقوقه الأساسية من حيث هو إنسان الحضارة الذي كرمه الله سبحانه وتعالى وفضله على كثير ممن خلق. قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[2].

والعدالة في الحقوق المدنية والمسؤولية والجزاء جزء مهم في حضارة الإسلام، حفاظا على آدمية البشرية كلها. قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ

---

(١) قال سيدنا رسول الله – ﷺ –: (كلكم بنود آدم، وآدم خلق من تراب) رواه البزار عن سيدنا حذيفة بن اليمان – رضي الله عنه – وهو حديث حسن: الجامع الصغير للسيوطي ٢٨٨/٢ (٦٣٦٨).

(٢) الإسراء: الآية (٧٠).

شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾(1). وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ...وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ ...﴾(2).

وقد اكدت السنة النبوية هذه القضية تأكيدا قاطعا، وطبّقها سيدنا رسول الله — ﷺ — تطبيقا شاملا، بل كانت حياته الكريمة كلها تجسيدا حيا واقعيا لها. وقد قال عليه الصلاة والسلام: (**يوم من امام عادل افضل من عبادة ستين سنة، وحد يقام في الأرض بحقه ازكى فيها من مطر اربعين صباحا**)(3).

ومن صور الحقوق المدنية التي شرعتها عدالة الإسلام هي الملكية الخاصة [بشرط ألا تكون مطلقة، وان توجه للصالح العام، بمعنى ان تكون وظيفة اجتماعية أو ولاية عامة يتولى بها المالك اختصاص الانفاق على المصلحة العامة](4).

ولاننسى مساواة الإسلام بين الرجل والمرأة في حقوق العمل والتثقيف والتعليم والتربية. وحق العمل وإنْ كان مشروعا للمرأة مثل الرجل لكن بشرط عدم اصطدامه مع طبيعتها وواجباتها التربوية والبيتية، في اطار الحشمة الكاملة وعدم الخروج على الزي الإسلامي.

وفي المجال الاقتصادي فرض الإسلام تكافؤ الفرص الاقتصادية للجميع من غير تفريق بين جنس أو طبقة أو لون أو دين، وذلك من اجل ايجاد التنمية الاجتماعية الشاملة. وحرم سلب حقوق الغير واضافتها إلى الآخرين لأنه يؤدي حتما إلى سوء توزيع الثروات. ومنع التعسف في استعمال الحقوق، لأن التعسف هو الطريق الاقوى للاستغلال(5).

---

(1) النساء: الآية (١٣٥).

(2) النساء: الآية (٥٨).

(3) عن ابن عباس — رضي الله عنهما — رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن: الترغيب والترهيب ٦٧/٣.

(4) مصنفة النظم الإسلامية للدكتور مصطفى كمال وصفي، مطبعة الامانة، القاهرة، ط١، ١٣٩٧ هـ-١٩٧٧م، ص ٤٥.

(5) راجع الإسلام والتنمية الاجتماعية للدكتور محسن عبدالحميد، دار الانبار، بغداد، ط١، ١٤١٠ هـ-١٩٨٩م، ص ٤٠ ومابعدها.

وفي تحقيق هذا التناسق الوظيفي العملي المطلق بين حياة البشر كافة، صيانة كبيرة لحياة المجتمعات الإنسانية من فساد الظلم، حيث ينشأ من تطابق حركتهم مع قوانين الإسلام، ومن توافق حركتهم مع دوافع فطرتهم الصحيحة، سلام آمن، وعدل دائم، وارتباط على المحبة قائم، وسلوك على منهج موحد. فلا معركة بين المرء وكيانه، ولا خلاف بين انسان الحضارة واخيه، لأن شريعة الله تعالى تنسق في يسر وهدوء بين كل الحقوق والمسؤوليات والاستحقاقات، بتوازن عجيب بين حركة الإنسان الظاهرة وفطرته ورغباته المضمرة. فلا طغيان ولا اسراف، بل اعطاء كل ذي حق حقه.

٥- صيانة حضارة الإسلام من التحريف والتزييف:

قديما جرت محاولات فكرية غربية في التشكيك و [التشهير بالحضارة الإسلامية على انها الحضارة – التي – تسببت في استحداث الرق (والعبودية) ونشرها من حول الأرض، وان مقوماتها لم تعد تصلح للعصر الحديث](١). وقد دأبت دول الحضارة الغربية على تعمية الحقائق وتضليلها وطفق علماؤها يتطبعون بالطابع الاستعماري إلى حد الانخلاع عن مزايا نشدان الحقائق في العلم، ويتأدبون مكانها بأدب التحريف والغش والدس والتشويه وتخبئة حقائق العلوم(٢).

ولم تكتف الحضارة الغربية بتشويه الحضارة الإسلامية في اعين المسلمين فحسب، بل فتحت لها جبهة أخرى تجاه الغرب أيضاً. فقد استطاعت ان تروّج الكثير من الشبهات الكاذبة والافتراءات الباطلة عن حضارة الإسلام في المجتمع الغربي.

وذلك لانها لا تخشى من شيء خشيتها من دخول المفاهيم الصحيحة عن الحضارة الإسلامية إلى المجتمع الغربي، إذ عند ذاك يدخل الناس في دين الله افواجا وتخسر الحضارة الغربية جل انصارها، وتبقى خاوية على عروشها إذ يبدد ضياء الشمس ظلام الليل. لذلك عمل المستشرقون على تشويه حقيقة الإسلام في عقول الاوربيين واقنعوهم: ان الإسلام نظام جامد لا يصلح لحكم المجتمعات، وانه يحب القتل وسفك الدماء(٣).

ومن المؤسف حقا ان كثيرا من العلمانيين المسلمين – بسبب جهلهم بحقيقة

---

(١) الحرية الجامعية للاستاذ الدكتور عبدالله مصطفى، ص ٣٥.

(٢) راجع المصدر نفسه، ص ٢١٧.

(٣) المسلمون امام تحديات الغزو الفكري للشيخ ابراهيم النعمة، مطبعة الزهراء، الموصل، ط٢، ص٢٦.

الإسلام ومبادئه – ظنوا ان الطريق لنهضة الأمة هو اتباع الانماط الغربية في الادارة والحكم، فتعاونوا مع غير المسلمين في ابعاد الإسلام عن شؤون الحكم، وبذلك قاموا بدور خياني لتحريف نهضة الأمة(١).

فما هو اذن واجب الوسطية تجاه هذه الهجمات الشرسة؟

لقد ادركت الوسطية هذه التحديات الفكرية وخطورة هذه الصراعات الحضارية، لذلك فهي تعمد دوما إلى حفظ حقائق الإسلام وصيانة حضارته العريقة من كل الوان التشكيك وحيل التحريف وصور التشويه والتزييف. والذي نراه ان مفتاح الصيانة واسلوب الحفظ يكون باتباع المراحل الآتية:

١- استقراء تاريخ كل علم في تاريخ الحضارة الإسلامية وربط آثاره العصرية وتطوره الحالي بذلك الاساس القديم، بكل انصاف وامانة سواء ظهرت آثاره العصرية على ايدي الحضارة الإسلامية أم على ايدي الحضارة الغربية. أي: يجب ان يميز ابناء عصرنا بين تطور العلوم والصناعات على ايدي الحضارة الغربية، وبين أصل نشأتها وحركة ابداعها على ايدي الحضارة الإسلامية.

٢- صياغة العلوم الخاصة كعلم الطب والهندسة مثلا، باللغة العربية الفصيحة التي كان يدرس بها عبر تاريخ الحضارة الإسلامية منذ القدم. لأنه يضفي عليها طابع الاستقلال والاصالة. ولا بأس بدراسة ما طورته الحضارة الغربية بلغتها في ذلك الاختصاص اعترافا بحقوقها العلمية. ولطالما كان يقرأ اساتذة الحضارة الغربية وتلاميذها [علوم الطب من مصادرها الإسلامية الاصل باللغة الإسلامية الأم لغة الكتاب والسنة والعلم والادب الإسلامي الجميل. فلقد كانت العربية لغة التلقي في مجال الطب وغيره من العلوم، كما كانت قبل ذلك لغة الشعر في الاندلس الزاهية](٢). وهذا ما دعا إليه استاذ الجيل حضرة الدكتور عبدالله مصطفى الهرشمي – جزاه الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء –.

٣- ربط تقدم الحضارة الإسلامية بترغيب الإسلام في طلب العلم وتشجيعه على الاستزادة منه، وبيان دور الإسلام ودفعه في تطور العلوم وتقدمها. اعتمادا على كثير من النصوص الإسلامية المبثوثة في ثنايا الكتاب المجيد وسنة **خاتم النبيين** – ﷺ –.

---

(١) صراع الافكار للاستاذ الدكتور محسن عبدالحميد، ص ٣٧.

(٢) الحرية الجامعية، ص ٣١٢.

٤- الاعتماد على الوحي الامين (الكتاب والسنة) في حل المسائل العلمية ومعالجة القضايا العملية.

٥- اعلان نظرة الإسلام المتوازنة إلى الكون والحياة والإنسان.

٦- الكشف العلمي الدقيق عن نتائج الاخذ بالحضارة الإسلامية، مقارنة مع نتائج الاخذ بالحضارة الغربية.

٧- اظهار فضل الحضارة الإسلامية على غيرها من حضارات الامم وثقافات الشعوب، اختراعا وتجاربا حقلية ومختبرية وتأليفا وتدوينا.

٨- غربلة التاريخ من جميع الدسائس والتحريفات وصور التزييف واساليب التشويه البراقة، الملتصقة بحضارة الإسلام.

لقد استطاع الغرب الحفاظ على كيانه عندما اخذ حضارة الإسلام وتأثر بها، ولم يذب أصله وفكره في بوتقة العالم الإسلامي، بل سعى جاهدا إلى ان يصوغ هذه الحضارة العريقة صياغة تتفق مع عقائده وافكاره.

ويستطيع المسلمون في العصر الحديث اليوم ان ينهجوا هذا النهج نفسه، فيستفيدوا من حضارة الغرب مما لا بأس به شرعا، من غير ان يذوبوا في بوتقة المجتمع الغربي وعاداته وتقاليده واخلاقه، بل يظل المسلم محافظا على هويته الإسلامية، وشخصيته المستقلة، معتزا بفكره وثقافته وحضارته واصالته. فيأخذ من حضارة الغرب ما ينفع ومايفيد، ويترك فيها مايضر ومايبيد.

وهذا هو منهج الوسطية المتوازنة، لا ترفض كل ما في الحضارة الغربية، ولا تأخذ كل ما فيها، بل تأخذ منها مايخدم عقيدة الإسلام وشريعته الغراء وروحه السمحاء وحضارته العصماء. فنتوسط حينئذ بين الرافضين لها كليا وبين المتشبثين بها الآخذين منها كليا. وبذلك نصون حضارتنا الإسلامية من كل تحريف وتزييف.

٦- الحفاظ على هوية الأمة الإسلامية والتأكيد على صلتها بأصالتها وحضارتها:

واذا وفقنا الله تعالى لصيانة حضارة الإسلام وحفظها من كل تحريف وتزييف فقد حافظنا على هويتنا الإسلامية. والحفاظ على الهوية الإسلامية ضرورة من اهم ضرورات منهاج الوسطية. ذاك لأن المجتمع الغربي له عاداته وتقاليده واخلاقه ونظرته للحياة والكون والإنسان، وله مزاجه ومقاييسه ومناخه ومشكلاته. وموقفه المعارض للدين بات معروفا واضحا. بسبب عجز ذلك الدين المحرف عن تلبية حاجات الناس الروحية.

لذا اسس الغربيون حضارتهم على الحضارة الإسلامية، وبنوا ثقافاتهم على قواعد الثقافة الإسلامية، فنقلوا علوم المسلمين ومعارفهم ودرسوها وطوروها. من غير ان تفقد الحضارة الغربية هويتها الكافرة بل ظلت على ما كانت عليه، محتفظة بعقيدتها على ما فيها من وهن وانحراف وخرافة.

وصور اعتداء المجتمع الغربي على الهوية الإسلامية كثيرة وعديدة. ومنها انهم لم يقصروا في اجراء محاولات القضاء على اصالة الأمة وتحطيم هويتها الإسلامية واهدافها السامية، وتركها في الساحة حائرة من غير بديل جديد. لكن المجتمع الغربي وحضارته ثبت عجزهما في قطع الأمة عن تاريخها وأصولها، لأن جذور الإسلام كانت ومازالت عميقة في كثير من مفاصلها. لكن استطاعا نتيجة لسوء التوجيه (الروحي) والتربية الاخلاقية (وغياب أصحاب الطاقات الروحانية) ان يسلما الاجيال المتأخرة والمحاصرة إلى فوضى فكرية عارمة، وتصادم الاخلاقيات القديمة والحديثة، فنتجت من ذلك حالة مؤلمة من الضياع الفكري والخواء الروحي والتسيب المنهجي والتربوي(1).

ولم يغب عن ادراك الوسطية ما صنعه الغرب في [تشكيك المسلمين بجانب الدين خاصة من حضارتهم، والايماء إليهم بان الديانة الإسلامية هي علة العلل المفضية إلى حال تخلفهم وانحطاط شأنهم دولا وشعوبا](2). ولم يغب عن وعي الوسطية ما فعله المستشرقون من اثباتهم عظمة ماضي الأمة الإسلامية ومجدها التليد وتاريخها الحضاري الزاهي، ثم نسبته إلى غيرها، إلى الفرس والرومان واليونان(3).

اننا ندرك جيدا اهداف الحضارة الغربية الكافرة، انها تريد مسخ شخصية الأمة الإسلامية، وقبر منابع الاصالة والابتكار والابداع فيها، وتحريف مقومات امتنا الحضارية، واثارة العجز في نفوس المسلمين. وبهذا يتوقف النمو الحضاري، ويتعثر التقدم العلمي، وتخيب آمال البحث التكنولوجي. إذ يشعر المسلم بالتخلف وعدم القدرة على مسايرة حضارة الغرب ومسابقتها.

---

(١) صراع الافكار ص ٣٥وص٣٦.
(٢) الحرية الجامعية ص ٣٦.
(٣) انظر تفصيل ذلك في: مناهج المستشرقين للدكتور سعدون الساموك والدكتور عبدالقاهر العاني، مطبعة التعليم العالي، ١٩٨٩، ص ١١ وما بعدها.

ان الحضارة الغربية تسعى ليل نهار من اجل نقل المسلم من عقيدته الروحانية الصافية، وشريعته الغراء، وقيمه النبيلة، وفكره الثاقب، إلى عقيدة الغرب وقانونه وفكره وثقافته ونمط عيشه، **حتى ينقطع المسلم عن قوته المعنوية وطاقته الروحية التي تمده بأسباب القوة والنصر، وتبعث فيه سر الشجاعة وقوة البسالة.** لتصبح الأمة الإسلامية ضعيفة عاجزة عن المقاومة والدفاع عن كيانها ووجودها وهويتها(١). قال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾(٢).

لقد هضمت الوسطية اساليب الغرب الماكرة في محو هوية المسلمين الاصيلة، واستطاعت ان تضع الخطوط العامة وان ترسم السبل العلمية الكافية للوقوف عليها والدفاع دونها. فاوضحت ان المسلم لا يمكن ان يتلقى شيئا في حقائق العقيدة، أو في أمر من امور العبادة، أو في صورة من النظام الاخلاقي والسلوكي، أو فيما يخص الجانب الاقتصادي أو الاجتماعي، إلا من معين الوحي الامين – الكتاب المجيد والسنة المباركة – عن يد أمينة موثوقة، ترجمت مبادئ عقيدة الإسلام إلى حركة تفاعلية في معترك الحياة.

اما في مجال العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء والاحياء وعلوم الطب وانواع الصناعة وطرق الزراعة، ومايشبه هذه الانشطة العملية في الحقول العلمية والتجارب الفنية، فمن الممكن ان يأخذها المسلم عن المسلم وعن غير المسلم، وان ينتفع بها سواء كان بجهد المسلم أو غيره. لأن مثل هذه العلوم لا تتعلق بتحديد اعتقاد المسلم في الحياة والكون والإنسان، ولاعلاقة لها أيضاً في سن القوانين والشرائع والانظمة، ولافي المجال الاخلاقي والتربوي.

اذن يجب علينا ان نتوسط بين المنغلقين كليا عن الحضارة الغربية فلا يريدوا ان يأخذوا منها شيئا، وبين المنفتحين إليها كليا، ونفرق بين الكليات الثابتة والفرعيات المتغيرة.

علما – كما ذكر الشيخ أبو الاعلى المودودي (رحمه الله) – ان الذي يجعل الأمة قوية غالبة بين الامم ليس هو منازلها ولا ملابسها ولا مراكبها ولا مرافق حياتها الناعمة ولافنونها اللطيفة ولامصانعها الحديثة ولاكلياتها العلمية، بل هو المبادئ التي تقوم

(١) انظر: المسلمون امام تحديات الغزو الفكري ص ٨.

(٢) البقرة: الآية (١٢٠).

عليها حضارتها ورسوخ هذه المبادئ في القلوب وهيمنتها على الأعمال[1].

والحقيقة نحن لا ننكر ولانستهين بدور المصانع الحديثة والكليات العلمية والبرامج التكنولوجية في تقوية الأمة وتحضرها وتقدمها بين الامم، بيد ان استقامة المبادئ، والإيمان القوي بها، وهيمنتها الكاملة على الحياة العملية تمثل القاعدة المتينة والعماد المحكم في البناء الحضاري. وعلى اساس هذه المعالجة الوسطية الحكيمة تستطيع الأمة ان تحافظ على هويتها الإسلامية، وتنتفع بالحضارة الغربية بقدْر محدود، لا يكون سببا في ذوبانها وانصهارها.

[ان الذين يريدون لنا ان نذوب في حركة قومية، أو في كتلة دولية، أو في اتجاه عالمي – على فرض ان هناك اتجاها عالميا – انما يرتكبون جريمتهم في حق البشرية كلها، قبل أن يرتكبوها في حق الإسلام أو الوطن الإسلامي.

ان مهمتنا ان نتميز وان نحمل الشعلة للضالين في شعاب الأرض وفي متاهات الصحراء.

ان مهمتنا ان ننقذ البشرية من الحمأة الآسنة التي تتمرغ فيها اليوم، لا ان نذوب معها في تلك الحمأة الآسنة والله تعالى معنا، والبشرية كلها ستعرف يوما ان نبؤة الله تعالى حق: «وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس»[2]][3].

٧- صيانة كيان الأمة الفكري والاخلاقي، واستقلال الفكر الإسلامي من مظاهر التقليد الاعمى:

ان صيانة كيان الأمة الفكري والاخلاقي هو غير الحفاظ على هوية الأمة الإسلامية كما قد يتوهم. ذلك لأن الثاني يُعنى بالحفاظ على هوية الأمة من كل جديد يظهر على الساحة، سواء على يد الغربيين أم على يد غيرهم. والأول يُعنى بكل شيء ظهر في الماضي وسحب إلى الحاضر وبكل مايظهر ويوجد في مستقبل الأمة، لذا فهو اعم من الثاني.

وتوضيح ذلك بالتفصيل هو ان العلمانيين اهتموا كثيرا بنقل الثقافة الغربية وآدابها

(١) انظر: نحن والحضارة الغربية للشيخ أبي الأعلى المودودي، دار الفكر، ص ٢٥٩.

(٢) البقرة: الآية (١٤٣).

(٣) نحو مجتمع إسلامي للشهيد سيد قطب، دار الشروق، ص ١٣.

وفنونها وانماط حياتها الاجتماعية إلى المجتمع الإسلامي. فنشرت هذه الثقافة الميوعة المزرية واللامسؤولية الخطيرة بين أبناء جيلنا الجديد، فكانت النتجية انهيار فكر الأمة من جهة، وانتشار التقليد الأعمى والفساد الخلقي من جهة أخرى. حتى فقد هذا الجيل كثيرا من المعاني السامية والقيم الفاضلة(١).

لقد أحدث هذا التقليد الاعمى للثقافة الغربية وفكرها ازمة جذرية عنيفة، وثورة نفسية فكرية، فكان الشك أو الجحود لأسس حضارتنا وثقافتنا ومعتقداتنا وقيمنا ومفاهيمنا وتاريخنا. والمصيبة ان موجة الشك هذه قد غمرت ولا تزال طبقة كبيرة من المثقفين والمتعلمين.

وهذا في الحقيقة أمر طبيعي لأن ابناء الإسلام كانوا في زمن جاءهم فيه النور من نافذة واحدة هي نافذة الغرب، وكان الإسلام محجوبا عنهم بحواجز من مخلفات العصور وتشويهها. ولذلك كانت ثورة الثقافة الغربية في نفوس بعض الناشئين اشد تأثيرا وأكثر وقعا من الثقافة القديمة – عصر الانحطاط – بسبب شدة الصدام والصراع الذي حدث في نفوسهم بين الصورة المشوهة الضيقة الافق التي تلقفوها في بيئتهم الثقافية، وعرفوها على انها هي الإسلام، والصورة الحية الناضرة الواسعة الافق التي واجهتهم بها الحضارة الغربية(٢).

ان الثقافة الغربية الغازية وحضارتها الصناعية الغاشية التي تحيط اليوم بكل البشرية، تحطم اهم ما في كيان الإنسان وتحارب اركان شخصيته، ومقومات انسانيته، في نفس الوقت الذي تقدم له الكثير من الراحة والرفاه(٣). وما اصوات الجرائم البشعة، والانحرافات الخلقية المروعة، وقلب الأوضاع الاجتماعية الهادئة إلى ثورات صارخة، إلا نتيجة اكيدة واثر معلوم من آثار الانسياق الاعمى لفكر الغرب وثقافته، وفقدان الشخصية وعبودية الفكر. ومن هنا يأتي هدف الوسطية في صيانة ثقافة الأمة وحفظ كيانها عن طريق الربط العلمي الموضوعي بين التقدم والاصالة.

---

(١) انظر: صراع الأفكار، ص ٣٧.

(٢) انظر: الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الافكار الغربية للاستاذ محمد المبارك، ط٣، دار الفكر، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م، ص ١٠١.

(٣) انظر: المستقبل لهذا الدين للشهيد سيد قطب، ص ١٠٦.

والخطوة الأولى من اجل تحقيق هذا الهدف هو ان الإسلام وقف من قضية التقليد الاعمى موقفا حازما حاسما، فمنعه ورفضه، لأن التقليد يمنع الاصالة ويمحو كيان الأمة. فقال - ﷺ -: (**خالفوا المشركين: احفوا الشارب ووفروا اللحى**)(١). وقال أيضاً - ﷺ -: (**خالفوا اليهود، فانهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم**)(٢). وقد اخبر حضرة الرسول الأعظم - ﷺ - عن قضية التقليد هذه فقال: (**لتركبن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع، وحتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم، وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه**)(٣).

لكن رفْضُ الوسطية للتقليد الاعمى حفاظا على كيان الأمة لا يعني أنها تعمد إلى الصناعة الغربية فتحرمها، أو إلى التسهيلات الحضارية فتلغيها. وإنما تروم تغيير النظرة إلى هذه الحضارة، ودراسة سبل الاستفادة الشرعية منها، ومنحها قيمتها الحقيقية بلا مبالغة وبلا بخس. وذلك من اجل النهوض بالروح الإنساني للمؤمن، وتسليمه زمام قيادتها والسيطرة على توجيهها والتحكم فيها.

[وحين يصبح الروح الإنساني المؤمن هو المسيطر، فيومئذ سيصبح متمتعا بحريته - وفي اطار عقيدته - قادرا على الاختيار. فالاختيار هو العنصر الهام الذي يفتقده الروح

---

(١) رواه البخاري عن سيدنا عمر - رضي الله عنه - في كتاب اللباس ١٠/٣٤٩ (٥٨٩٢) ومسلم في كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة ٣/١٥١ (٥٤) والترمذي في كتاب الادب ٥/٨٨ (٢٧٦٣) والنسائي في كتاب الطهارة باب احفاء الشارب واعفاء اللحى ١/١٦ ورواه أيضاً في كتاب الزينة والإمام أحمد في مسنده (٤٤٢٥) وهو في الجامع الصغير للسيوطي ١/٥٩٨ (٣٨٧٨).

(٢) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الصلاة في النعل ١/١٧٢(٦٥٢) والحاكم في مستدركه والبيهقي في سننه وصححه السيوطي في جامعه ١/٥٩٨(٣٨٧٩).

(٣) رواه البخاري في كتاب احاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني اسرائيل ٦/٤٩٥ (٣٤٥٦) ورواه البخاري أيضاً في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ١٣/٣٠٠ (٧٣٢٠) ومسلم في كتاب العلم، باب اتباع سنة اليهود والنصارى ١٦/٤٦٠ (٢٦٦٩) وابن ماجة في باب افتراق الامم ٢/٤٨٠ والإمام أحمد في مسنده (٧٩٩٠) و (٩٤٤٣) و (١٠٢٣٠) و(١٠٤٠٧) و (١١٣٧٢) و (١١٤١٥) و (١١٤٦٢) والديلمي في الفردوس ٣/٤٣٨ (٥٣٤٦) والحاكم في المستدرك: الجامع الصغير ٢/٤٠١ (٧٢٢٤) والكنز الثمين ص٤٥٩ (٢٩٥٣).

الإنساني الآن. وهو مجبور مقهور ذليل الآلة؛ المنبثقة من دورتها الآلية][1].

وحين يتحرر المسلم من رق الحضارة الغربية يستطيع ان يستبعد كل العناصر الضارة فيها، وينمي كل العناصر الصالحة المتفقة مع الحاجات الإنسانية. وعندئذ يحرر كرامته الإسلامية من الأوضاع المنافية ويصون كيانه ويحفظ ثقافته ويحمي حضارته. وهذا هو هدف الوسطية المنشود.

يجب ان نُفهِمَ ابناء جيلنا مقومات حضارتنا الإسلامية، ويجب علينا ان نفرق لهم بينها وبين صورها واشكالها. فنقول لهم: ان مقومات حضارة الإسلام ودعائمها ثابتة راسخة، لا تتغير ولا تتبدل، وهي في الوقت ذاته لا تتعارض مع أي تقدم علمي أو بحث تكنولوجي أو تحضر صناعي، ما دام هذا التقدم وهذا البحث وهذا التحضر يقدم الخدمات والتسهيلات لتحقيق خلافة الإنسان في الأرض.

فأصول الحضارة الإسلامية وقيمها الثابتة ترحب بالحضارة الصناعية في كل وقت وحين وتشجع على تطورها وتقدمها، وتفتح لها باب الدخول ولكن في صورها المتنوعة واشكالها المتغيرة. فلا مانع من انضمامها في حدود تركيبها المادي والتشكيلي. لأن اشكال الحضارة الإسلامية فقط هي التي تقبل التغير، فتقبل دوما درجة التقدم الصناعي والعلمي والاقتصادي. وهذه هي مرونة التشريع الإسلامي لتبقى حضارته في تقدم ورقي دائم. من غير توقف أو تأخر. وبهذا الموقف المتوازن، وبهذه العقلية الرشيدة، نحمي استقلال الفكر الإسلامي من مظاهر التقليد القاتلة ونبقي الأمة على كيانها وأصولها وجذورها.

٨- اطفاء نار الصراعات القومية والطائفية والمذهبية وتحرير العقل من ترسبات الماضي:

لقد ثبت في اذهان اليهود ان اقوى الوسائل وافضل السبل في نجاح خططهم الماكرة في ابعاد الإسلام عن شؤون الحياة المختلفة، هي اثارة القوميات المختلفة والجاهليات القديمة والطائفيات المقيتة، التي تشعل نار الصراعات المذهبية وتزيد من لهيب المعارك الطائفية وتضاعف هوة الفروقات القومية. ونتيجة هذه النيران الملتهبة جسيمة وخطيرة، وفي مقدمتها الاضرار المباشر بوحدة الأمة الإسلامية، وكثرة المجازر

---

(١) المستقبل لهذا الدين، للشيهد سيد قطب — رحمه الله - دار الشروق، ص ١٠٧.

الدموية، وهلاك الاموال، وضعف الاقتصاد، والتأخر العلمي، والتقزيم الحركي لفاعلية الفكر إلى غير ذلك من الآثار الوضيعة والنتائج السيئة.

ويذكر المفكر الإسلامي الرائد الدكتور عبدالله مصطفى الهرشمي (ﷺ) شيئا من سياسة (فرّق تَسُد) اليهودية وهي [اثارة الفتن بين الشعوب، واثارتها بين فئات شعب واحد، ولا سيما بين ملل الاديان وفيما بين أهل المذاهب الدينية](1). و[دس الكراهية بين المسيحيين وبين المسلمين واضرام نار البغضاء والفتن بينهم في بلادهم. وماكانت كارثة الاتراك والارمن إلا بعض تلكم الفتن](2).

اننا ندرك جيدا ابعاد التعصب الاعمى للعشيرة والقبيلة والقوم والمذهب والجنس واللون، إنه تعصب جاهلي متخلف ولم يعرفه التاريخ إلا في زمن انحطاط البشرية الروحي. وقد سمى سيدنا رسول الله - ﷺ - العصبية القبلية والقومية باسم يفوح منه التقزز والاشمئزاز فقال: (**... إنها منتنة**)(3).

لذلك لما جاء الإسلام الحنيف ووجد الناس يتجمعون على آصرة الجنس أو على آصرة الأرض أو على آصرة المصالح والمنافع القريبة، وهي كلها عصبيات لا علاقة لها بجوهر الإنسان إذا درست دراسة علمية، وإنما هي عبارة عن اعراض طارئة على جوهر الإنسان الكريم. فلما جاء الإسلام ووجد الناس بهذا المستوى من التفكير الجاهلي اراد ان يعالج هذه القضية بقول حاسم وفكر حازم، محددا علاقات الناس بعضهم ببعض تحديدا صحيحا. فقال: إنه لا لون ولا جنس ولا نسب ولا أرض ولامصالح ولامنافع هي التي تجمع ابناء المجتمع الإسلامي أو تفرقهم. وإنما هي عقيدتهم وعلاقتهم بربهم سبحانه وتعالى هي التي تحدد علاقاتهم بعضهم ببعض(4).

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ

---

(1) الحرية الجامعية، ص ٣٩.

(2) المصدر نفسه.

(3) رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن ٨/ ومسلم في كتاب البر والصلة ١٦/٣٧٥ (٦٤) والترمذي في كتاب تفسير القرآن ٥/ وأحمد في مسنده (١٤١٠٥) و (١٤٦٨٨).

(4) انظر: هذا الدين، ص٨٤.

لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾[1]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾[2].

وموقفنا الوسط في إطفاء نار الصراعات القومية وفي إيقاف شرارات المعارك الطائفية، يتضح في اننا لا ننكر القومية العربية الاصيلة وماضيها العريق ومواقفها الإنسانية الكريمة، ولا ندعو في الوقت نفسه إلى العصبية القبلية المقيتة فنتعصب لها. كما اننا لا ندعو إلى الدخول في جبهة الصراعات الطائفية مع المسيحيين، ولا ندعو في الوقت نفسه إلى تقليدهم في سلوكهم وثقافتهم.

ان الحد المعتدل يجمع في روضته البيضاء حب آل بيت **النبي الكريم** وحب اصحابه الكرام – على نبينا وآله واصحابه الصلاة والسلام -. فنحب الآل من غير بغض الصحابة، ونحب الصحابة من غير تقصير أو تهاون في حب الآل. وندعو الناس جميعا إلى تحرير عقولهم من كل ترسبات الماضي السحيق، وذلك بسحب الفكر من التاريخ وحوادثه ومناسباته إلى الوحي الامين.

وتعليل ظاهرة تميز الرعيل الأول – جيل الصحابة – في تاريخ البشرية كله يعود إلى وحدة الاصل التي استقى منه ذلك الجيل الفريد دون غيره وهو القرآن الكريم. وبسبب دخول اسرائيليات اليهود وفلسفة اليونان وخيالات الفرس وحقد الشعوبية وغير ذلك من رواسب حضارات الامم وثقافات الشعوب في تفسير القرآن الكريم، مختلطة مع علم الكلام والفقه، اختفت بسبب ذلك امارات الجيل الفريد، بل اختفى كله، لاختلاف طبيعة الاصل المعتمد عليه مع اختلاف طريقة الاخذ منه والتلقي من نبعه الفياض.

وبهذا نكون قد توصلنا إلى حل متفق عليه، ومرضي عند جميع الاطراف المؤمنة، وهو في الوقت ذاته سلاح القضاء على فتن الطائفية والعنصرية والمذهبية.

٩- توحيد الكلمة وجمع الشتات:

ان من اهم ما تبغي الوسطية تحقيقه في اهدافها هو توحيد كلمة المسلمين وجمع صفوفهم المبعثرة تحت راية واحدة. فهي تدعو إلى الوحدة الفكرية، والوحدة المنهجية،

---

(١) الحجرات: الآية (١٣). (٢) النساء: الآية (١).

والوحدة الحركية.

ونحن نعرف جيدا ان اعداء الإسلام يعلمون خطورة هذه الوحدة على اهدافهم ومطامعهم، لذا فنحن نراهم يجهدون انفسهم ليل نهار من اجل تفرقة الأمة الإسلامية الواحدة إلى أحزاب وجماعات وعناصر وفئات.

وقد باتت تحركات اعداء الإسلام واضحة في تحقيق هدفين خطيرين[١]:

اولهما: قطع صلة الإسلام في الوقت الراهن وفي المستقبل بالإسلام الماضي، واعني قطع التفكير الإسلامي في الحال وفي المستقبل بمصدر الوحي حتى يفقد الإسلام صلابته وذاتيته المستقلة.

وثانيهما: تفكيك الوحدة الإسلامية، لأن الإسلام الراهن إذا فقد ارتباطه بالوحي- أو المصدر الأول — امن اعداءه مصالحهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولم يعد يخشى العصبية الإسلامية التي تستطيع ان تتحداه وتغلق الباب بوجهه.

ومن صور تفكيك الوحدة الإسلامية [الدعوة إلى نبذ الفصحى بالاستعاضة عنها باللهجات الدارجة في الاقطار العربية][٢] [ولو قدر لهذه الدعوة الخبيثة ان تنجح لماتت اللغة العربية، وهجر القرآن الكريم، وانقطعت الصلة بالتراث[٣]، وانفصمت العرى بين الاقطار العربية افنصاما لا مرجى بعده][٤]. ومنها — أيضاً- تشكيك المسلمين باصالة بعض الشخصيات الإسلامية اللامعة في سماء المسلمين كالشيخ الاشعري والإمام الغزالي — رضي الله عنهما — وغيرهما. وطمس حرية البحث العلمي، والاستهانة بحضارة المتقدمين، وتجزئة الإسلام إلى محاور متعددة مبعثرة غير مترابطة. واثارة الفتن والاختلافات الفكرية، وتفخيم شأن الخلافات الفرعية، وتقزيم الاجماع والاتفاق، وبث الاشاعات الكاذبة عن أصحاب الطرائق الروحانية الإسلامية — الصوفية-. وايجاد فكر منحرف في فهم الإسلام

(١) انظر: حصوننا مهددة من داخلها للدكتور محمد محمد حسين، دار الارشاد، ط٣، سنة ١٣٩١ هـ-١٩٧١م، ص ٣٨٥.

(٢) الحرية الجامعية، ص ٤١.

(٣) التراث: قانون اجتماعي تمر به المجتمعات عندما تقف امام التحولات الحضارية والانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى: حول قضية التراث للدكتور محسن عبدالحميد، مكتبة القدس — بغداد، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، ص٣.

(٤) الحرية الجامعية لاستاذ المثقفين الدكتور عبدالله مصطفى، ص ٤١.

– عقيدة وشريعة وسلوكا روحياً– يتسم بالتعصب والغلو والتشديد، والموالاة الكاملة لكل رأي أو قول شذ عن جماعة المسلمين. إلى غير ذلك من الصور العديدة.

ولما ادركت الوسطية كل هذه الاخطار التي تحيط بالأمة ومايحوكه اليهود ومن والاهم من اجل الاحاطة بها، جعلت توحيد الكلمة وجمع الشتات طليعة اهدافها التي يروم تحقيقها.

ومن اجل تحقيق هدف التوحيد الإسلامي ارى ضرورة الانتباه إلى الفقرات الآتية:

أ- الدعوة الجادة إلى دراسة اللغة العربية الفصيحة والتمسك بها، ورفض الاستعاضة عنها باللهجات العامية الدارجة.

ب- تجديد دراسة الإسلام وعرضه بصورة عصرية جديدة، وذلك بقصد الوصول إلى الفهم الشمولي العام، لكافة انظمته العبادية والاخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وكان من منهج الإمام الشهيد حسن البنا – رحمه الله – نشر الإسلام بصورته الشمولية العامة، والتأكيد على ضرورة الالتزام بكل نظام من انظمته[١]. دون حصره في مجال أو تقييده في جانب. ولذلك يرى الدكتور محسن عبدالحميد ان سبب ابتعاد المسلمين عن دينهم وتفرقهم واختلافهم وتأخرهم يعود إلى جهلهم بالمنهج الشمولي في فهم الإسلام[٢].

ج- ترك طرح التفرعات العقائدية، مثل عذاب القبر، أهو على الروح والجسد أم على الروح فقط؟ وأمثالها. والاختلافات الفقهية في المسائل الجزئية، والقضايا الفرعية، والاكتفاء بالأصول المتفق عليها، وسحب اذهان العامة من ميدان المتخصصين من طلاب الشريعة إلى الفهم الشمولي العام. وتوعيتهم باساليب الغزو الماكرة، وتعليمهم اتخاذ المواقف الصحيحة لسد كل ثغرة ومعالجتها.

د- اعادة دراسة التاريخ الإسلامي، وغربلته من كل الشوائب والدسائس. وقد قام

(١) انظر: مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، انتشارات ادب – ايران، ٢/١٦٦ وما بعدها.

(٢) انظر: الفهم الشمولي في فهم الإسلام للدكتور محسن عبدالحميد، شركة الرشد للطباعة والنشر – بغداد، ١٩٩٤م، ص٢ ومابعدها.

الدكتور ابراهيم علي شعوط بهذه المهمة العملاقة[1]. ولايزال الطريق امامنا طويلا.

هـ- تحذير الناس من منهج التطرف والتعصب والتكفير، وهذا اخطر منهج يتحرك في ساحة المسلمين اليوم[2]

و- الاهتمام الفعلي الجاد بالتربية الروحية، ومعالجة الأمراض القلبية. ولعل هذه الفقرة هي اهم فقرة بعد الثانية لتحقيق الوحدة الإسلامية المنشودة. ذاك لأن الاختلافات الفرعية في القضايا العقيدية والفقهية لم تكن حديثة النشأة، بل كانت موجودة في صدر الإسلام على عهد الرعيل الأول، ولم تشكل في تلك الازمنة المباركة أي خطر على حضارة الإسلام، لكن لما تغيرت النفوس وضعف الاهتمام بالجانب الروحاني اخذ الانشغال بهذه المسائل الجزئية يشكل خطرا واضحا على وحدة الأمة وترابطها. وذلك بسبب الاعراض عن تنمية الطاقات الروحية، وعدم الالتفات إلى غفلة القلب وأمراضه.

والعجيب انا نجد في الوسط الثقافي والتعليمي من يشعر بمشكلة أمراضه القلبية ويعاني من خواء الروح، وينتبه إلى هذا الخطر الأكبر في حياته اليومية. ولكنه بدلا من ان يعالج هذه القضية بالانتظام في سلك روحاني إسلامي، منضويا تحت يد حنينة رحيمة، تمد قلبه بالنفحات وتنمي ما اضمر فيه من طاقات، نراه يعالج الموضوع بغير علاجه، بمزيد من الابحاث الفكرية والنظريات الفلسفية، وكأن المسألة هي مجرد مسائل نظرية تقرأ فينتهي الأمر.

ان المسلمين اليوم بعد هذا الوعي الذي حصل عندهم في الفترة الأخيرة، بأمس

---

(١) في كتابه: اباطيل يجب ان تمحى من التاريخ، المكتب الإسلامي، ط٦، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ص ٥٣ وغيرها.

(٢) وقد ذكر الدكتور يوسف القرضاوي اسباب التطرف ومساوئه الخطيرة في كتابه: الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف من ص ٢٣ إلى ص ١٢٧، ولطالما نصح ابن تيمية — رحمه الله — المسلمين بتأويل كل قول وعدم حمله على الكفر وعدم تكفير صاحبه المسلم في رسالته القيمة: قاعدة في جمع كلمة المسلمين، تحقيق حماد سلامة، مكتبة المنار، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ص١٨ ومابعدها وانظر: التطرف الديني للاساتذة الدكاترة سعدون الساموك وقحطان الدوري ورشدي عليان، ص٤٦ وما بعدها وص ٥٩ ومابعدها وهي بحوث علمية جيدة.

الحاجة الى: [القوة الهائلة التي تدفع إلى التنفيذ، وهيهات ان يكون أمر التنفيذ بيد الفكر أو العقل وحده. والقوة الهائلة التي يحتاجونها انما هي قوة الاخلاق][(١)] المنبعثة من قوة الروح وصفائه ونقائه. لأن الإسلام ليس نظرية مجردة عن الروح، بل هو واقع حركي حيوي في جميع انظمته وقوانينه ومعالجاته.

ولذلك فاني ارى ان جمع كلمة المسلمين وتحقيق وحدتهم يتمان بادخال التفاعل الروحي واشراكه في عقيدة المسلمين في الذات الإلهية، وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان والارتباطات المتناسقة بين هذه الحقائق والذوات. وفي الأوضاع السياسية والانظمة الاجتماعية والقوانين الاقتصادية، وفي أصول النشاط الفكري والثقافي، وفي كل حركة وفي كل سكون.

١٠- التطور العلمي وتجديد البناء الحضاري:

لقد تحدثنا سابقا في مبحث مميزات الوسطية عن تميز الوسطية الإسلامية بين مجموعة الثوابت ومجموعة المتغيرات. لذا فهي حريصة جدا على تقدم عجلة التطور العلمي، والاسراع المنظم في تجديد البناء الحضاري على ايدي المسلمين، لأن حضارتهم العريقة حضارة علمية. لاسيما بعد ان احرزت البشرية اليوم تقدما هائلا ونجاحا كبيرا [في عالم الصحة والعلاج من الأمراض الجسمية. فكشفت من الادوية ووسائل التشخيص والعلاج مايعد انتصارات رائعة. وبخاصة بعد كشف مركبات السلفا والبنسلين والمايسين. ولقد حققت في عالم الصناعة والانتاج مايشبه الخوارق، وماتزال في طريقها صعدا في هذا المجال. ولقد احرزت انتصارات باهرة في كشوف الفضاء، والاقمار الصناعية، ومحطات الهواء، ومراكب الفضاء][(٢)] وماظهر اخيرا من شبكات الانترنيت والستلايت، وانواع الكومبيوترات الحديثة.

ان العلم الحديث الذي توسع بسرعة هائلة في هذه المدة القصيرة استطاع ان

---

(١) باطن الاثم الخطر الاكبر في حياة المسلمين للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دمشق – سوريا، ط٣، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م، ص٩٤. وانظر: تربيتنا الروحية للشيخ سعيد حوّى، دار الكتب العربية، ط١، ص ١١٨ والاغتراب الروحي لدى المسلم المعاصر، للاستاذ اديب ابراهيم الدباغ، مكتبة الرشد، بغداد،١٩٩٥م، ص ٤ ومابعدها وهي رسالة قيمة جدا.

(٢) هذا الدين للشهيد سيد قطب، انتشارات ادب – ايران، ط٤، ص ٢٥.

يكتسب سلطة كبيرة، وحاكمية قطعية، وهيمنة واسعة على بني الإنسان. لكننا نقف هنا في هذا المكان ونتساءل: ما الذي أحدثه هذا العلم الجديد في مجال التربية والسلوك ؟ ما هي آثار الحضارة المادية الاوربية في حياة اصحابها النفسية والاخلاقية؟

والجواب على ذلك لا يتطلب منا مزيدا من التعب والعناء لاننا نعلم علم اليقين ان المجتمع الاوربي ما ازداد من تطوراته المادية الهائلة إلا انحطاطا وسقوطا، وقلقا فكريا، واضطرابا نفسيا(١).

وسبب ذلك كما اعتقد هو أن العلم الأوربي الحديث الذي ولد وسط حركات وانتفاضات عصر النهضة، تغذى ونما بمذهب — الراسيونالزم — وهو المذهب الفلسفي الذي ينكر الوحي السماوي ويحاول تفسير كل شيء بواسطة العقل، وينكر الأمور التي لا يستطيع العقل بلوغها أو ادراكها. لذا لم يدخل العلم المادي الحديث في نزاع وصراع مع الفلسفة القديمة فقط، بل دخل مع الإيمان والعقيدة كذلك. مع ان العلم الصحيح والدين الصحيح لا يتضادان، ولا ينفي أحدهما الاخر، بل على العكس يسيران جنبا إلى جنب، تربط بينهما الصداقة والمحبة، لأن أحدهما يخاطب الذكاء والآخر يخاطب الوجدان(٢).

اذن فكيف تستطيع الوسطية تحقيق هدفها؟

الجواب على ذلك: هو ان الوسطية تطلب العلم وتشجع على تطوره وتقدمه ولا تقبل الجهل والجمود والتخلف، وتدعو إلى الإيمان والعقيدة وترفض الجحود والالحاد. أي أنها تطلق ما من شأنه الحركة والتغير، وتثبت ما من شأنه الثبات والبقاء. وباطلاق المتغيرات وتثبيت الثوابت، تتحقق النهضة الإسلامية الجديدة، من غير توقف على درجة معينة من التقدم الصناعي والنماء الاقتصادي والتطور العلمي.

وسيدنا رسول الله — ﷺ — يشجعنا على طلب العلم والنهضة والازدهار

---

(١) راجع آثار الحضارة الغربية على الاخلاق في: الأمراض الجنسية للدكتور نبيل الطويل، ط١، ١٣٩٣هـ، ص ٩٠ و ص٩١ والمخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام للاستاذ محمد محمود، دار الثقافة للطباعة، مكة المكرمة، ط١، ١٣٨٤هـ، ص٧٨ ومابعدها واخلاقنا أو الدمار للشيخ ابراهيم النعمة، مطبعة الزهراء — الموصل، ط٣، ص ٤١ ومابعدها.

(٢) موقف الدين من العلم للدكتور علي فؤاد، دار الانبار، ط٣، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ص١٤٥.

وحتى لو كان في ابعد مكان عنا، كالصين مثلا فيقول: (**اطلبوا العلم ولو في الصين**)[١].

١١- الحفاظ على ثروات الأمة الطيبة من الاسراف والضياع:

ان حد الاعتدال ومنهج التوازن اقوى طريق وافضل اسلوب للحفاظ على ثروات الأمة وصيانتها. ذلك لأن المنهج المعتدل يتوسط بين طرفين متقابلين، فهو لا يرضى بالبخل والاحتكار ولا بالاسراف والتبذير. وحتى نحافظ على ثروات الأمة، ونحقق قيام الوسطية فيها لا بد لنا من مراعاة الملاحظات الآتية:

أ- ترشيد استخدام الموارد الانتاجية.

ب- توزيع الموارد والامكانيات والقوى الانتاجية بين فروع الإنتاج المختلفة بصورة متوازنة.

ج- تخصيص الموارد الانتاجية على اساس اشباع الحاجات، وتحقيق متطلبات المجتمع الحياتية.

د- منع التعسف في استعمال الحقوق، لأن التعسف هو الطريق الاقوى للاستغلال، لاسيما إذا ساندته سلطة اجتماعية معينة.

ه- منع الاسراف والتبذير والسفه، لأن للمال في الإسلام وظيفة اجتماعية كبيرة، وهو صلاحه لحاجات الخلق. فينبغي وضعه في مواضعه النافعة، والاسراف والتبذير يمثلان نمطا استهلاكيا لم يُقدّر فيه سالكوه وظيفة المال في نظر الإسلام، وعلاقة الجماعة ومصالحها به، حالا أو مستقبلا.

و- التكامل الاقتصادي بين الشعوب الإسلامية حاجة ماسة وضرورة حتمية للحفاظ على ثروة الأمة. ولن يتيسر التكامل الاقتصادي بين الشعوب الإسلامية إلا بالاستعانة بالاحكام الإسلامية وأصولها. وبدون ذلك لن يتأتى ايجاد التكامل الاقتصادي وتطبيقه على الوجه الصحيح. لأن التكامل الاقتصادي جزء لا يتجزأ

---

(١) رواه البيهقي في شعب الايمان وابن عبدالبر في جامع العلم والديلمي وغيرهم، وقد جاء الحديث بطرق كثيرة وبالفاظ عديدة واختلف المحدثون في الحكم عليها، فبعضها ضعيف وبعضها موضوع: المقاصد الحسنة ص ٨٣ (١٢٥) وص ٢٨٢(٦٦٠).

من النظام الإسلامي الاشمل، ولايتأتى تطبيق الإسلام في جزء وتعطيله في جزء[1].

وسبب اهتمام الوسطية بثروات الأمة هو لأن لأموال الأمة دورا خطيرا وعملا كبيرا جدا في تقدم الأمة وتحضر ابناءها وتوعيتهم، والوسطية تهدف دوما إلى بلوغ هذه الغاية النبيلة، فهي لذلك تقوم بصيانة هذه الاموال وحراستها وحفظها، لانها الطاقات المهمة التي تدخل سببا ضروريا في تنوير اذهان المسلمين وتوسيع مداركهم.

١٢- الكمال الروحي والإنساني:

من يقرأ تاريخ العالم قبل مجيء الإسلام ويطلع على احوال الامم والشعوب، يجد ان الناس كانوا قبل ظهور الإسلام على قسمين: قسم تقضي عليه تقاليده بالمادية المحضة فلاهم له إلا اشباع حظوظه الجسدية كاليهود والمشركين، وقسم آخر تحكم عليه تقاليده بالروحانية الصرفة وترك الدنيا ومافيها من اللذات الجسمانية كالنصارى والصابئة.

فاراد الله تعالى ان يخص امة الإسلام بمزية عظيمة اكراما لحضرة خاتم الأنبياء والمرسلين **سيدنا محمد** – ﷺ – فجمع لها في دينها الحقين: حق الروح وحق الجسد، فهي اذن امة روحانية جثمانية. وان شئت قلت: أنه سبحانه اعطاها جميع حقوق الإنسانية، لأن الإنسان جسم وروح. فيه رغبات حيوانية وفيه صفات ملكية. فكأن معنى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي: امة وسطا تعرفون الحقين وتبلغون الكمالين، لتكونوا شهداء بالحق على الناس الجسمانيين بما فرطوا في جنب الدين، وعلى الروحانيين إذ افرطوا وكانوا من الغالين.

تشهدون على الماديين المقصرين وعلى الروحانيين الغالين، تشهدون على هؤلاء وهؤلاء وتسبقون الامم كلها باعتدالكم وتوسطكم في الأمور جميعها، ذلك بان ما هديتم إليه هو الكمال الإنساني الذي ليس بعده كمال، لأن صاحبه يعطي كل ذي حق حقه،

(١) يمكنك مراجعة ما تقدم مفصلا في: مصنفة النظم الإسلامية للدكتور مصطفى كمال وصفي، مكتبة وهبة، ص ٦٢٥ وما بعدها والإسلام والتنمية الاجتماعية للدكتور محسن عبدالحميد ص ٤٨ وغيرها والحاجات الاقتصادية في المذهب الاقتصادي الإسلامي للاستاذ أحمد عواد محمد الكبيسي، مطبعة العاني، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م، ص ٢٠٠وص٢٠٣وص٢٦٤وص٢٦٥ وص٢٦٩ وغيرها.

فالمسلم الوسط هو المسلم المثالي الذي يؤدي حقوق ربه، وحقوق روحه، وحقوق جسمه، وحقوق ذوي القربى، وحقوق سائر الناس[١].

ويجب على المسلمين ان يجددوا نظرتهم إلى حضارتهم الإسلامية العريقة، ويعلموا ان الحضارة الإسلامية — بعقيدتها وشريعتها واخلاقها — لم تكن حضارة روحانية صرفة، لا علاقة لها بالكون واسراره، ولا اتصال لها بحاية الإنسان ومعاشه واسباب رزقه. كما انها لم تكن حضارة مادية محضة، لا ارتباط لها بوحي السماء، ولاعناية لها بأمراض النفس الإنسانية ومعالجتها، ولا اهتمام لها بتنمية الروح وطاقاتها.

وانما كانت حضارة مهتدية بهداية الإسلام، وجدت لسير الحياة وعمارة الأرض وتنمية ما فيها من خيرات وثروات، مع تهذيب الاخلاق البشرية وتزكية النفس الإنسانية، وتكميل الصفات الخيرية، وهذا هو هدف الوسطية، لاسعاد الإنسانية.

وقد يتوهم بعض الدارسين والمثقفين اني عندما ادعو إلى الاهتمام بالقضايا الروحانية وضرورة العناية بمعالجة القلب من أمراضه وقسوته وغفلته، اني ادعو إلى التصوف ولبس الصوف، والتقوقع في التكايا والانزواء على النفس، والانطواء على الذات، والاختلاء عن الدنيا والحياة.

والحق اني لا ادعو إلى هذا كله، لا أدعو إلى هجر الدنيا بالجسد، ولا إلى لبس الصوف، ولا إلى عدم الاختلاط بالناس والاحتكاك بهم. بل اني أدعو إلى الالتزام الكامل بحضارة الإسلام — عقيدة وشريعة وسلوكا روحيا — من غير عزل أو ترك أي جزء فيها، ومن غير اهمال أو تقصير في أي ركن منها، ولا سيما في نظامها الروحي السامق. فالالتزام بهذا النظام والاهتمام بتزكية النفس تعبير واضح عن التزامه بحضارة الإسلام واهتمامه بها. وفصل هذا النظام، أو التهوين في الاهتمام به، تقليل من شأن الحضارة الإسلامية، واعراب عن قصور في الفهم وضعف في استيعاب مقاصد الشريعة الغراء وادراك اهدافها.

اللهم ارزقنا الفهم السديد والاستيعاب الكامل لمقاصد شريعتنا الإسلامية الغراء، ووفقنا واعنا لتحقيق اهداف الوسطية الإسلامية، وبثها في ربوع البلاد الإسلامية المؤمنة، انك على كل شيء قدير وبالاجابة جدير يارب العالمين، ياأرحم الراحمين -آمين —.

(١) تفسير المنار ٢/٥، دار المعرفة، بيروت — لبنان، ط٢، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

المبحث الخامس
واجب الوسطية

بعد ان اطلعنا على تعريف الوسطية لغة واصطلاحا، وعرفنا مميزاتها وخصائصها، ووقفنا على اهدافها ومراميها، علمنا جيدا مدى اهميتها وضرورة وجودها ولزوم تمثلها ودرجة فعاليتها. فالوسطية موطن امل المسلمين في تجديد واعادة بناء الدولة الإسلامية، ومعقد رجاء المؤمنين في اعادة عز الإسلام والمسلمين، وهي علاج لكل الأمراض، الأمراض الفكرية والأمراض النفسية، ودواء لجميع الاسقام، الاسقام الروحية والاسقام الذهنية.

وهي الحلول الحاسمة التي تنتظرها العقول الواعية، والقيادة الحازمة التي تتأملها الافكار الناضجة، والمعالجات الشافية التي ترتقبها النفوس المتألمة، والدعوة الراشدة التي تستقبلها الظروف المتأزمة. ومن هنا كان على أصحاب الوسطية ان يدركوا عظمة مسؤوليتهم، وخطورة واجباتهم، وثقل الامانة التي يحملونها على اكتافهم.

انهم يحيطون بمستقبل الأمة ومصيرها، ويدافعون عن كيانها وشخصيتها، ويحرسون ذاتيتها، ويصونون هويتها، ويحفظون كرامتها وهيبتها، فعليهم ان يعلموا ان الأمة بفارغ الصبر تنتظرهم. وعليهم ان يأخذوا بالواجبات الآتية:

١- إبراز الوسطية بمقوماتها وخصائصها وأهميتها وأهدافها، مقرونة بالامثلة الكثيرة والادلة العديدة، اعتمادا على أحدث الوسائل الإعلامية الحديثة.

٢- انشاء جيل يحمل راية الوسطية ويدعو إليها ويدافع عنها.

٣- الحوار العلمي، والجدل العقلي مع الاتجاهات المعارضة وتنويرهم بمفهوم الوسط الإسلامي. ويجب هنا على أصحاب الوسطية معرفة شروط المناظرة وآدابها، وأقسامها وأشكالها، حتى يكون حوارهم مع المخالفين حوارا بناء، ونقاشا علميا هادفا، وجدالا هادئا مثمرا[(١)]. لانا إذا [كنا لا نملك اليوم القدرة على تجميع

(١) فليدرس أصحاب الوسطية في هذا الفن: آداب البحث لعضد الدين الايجي – رحمه الله – (ت ٧٥٦هـ) وهو مطبوع في: مجموع مهمات المتون، دار الفكر، ط٤، ١٣٦٩هـ-١٩٤٩م، ص ٢٨١ أو رسالة الآداب في علم آداب البحث والمناظرة للشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية الكبرى، ط٧، ١٣٧٨هـ-١٩٥٨م.

قوى امتنا الكبرى، من المحيط إلى المحيط، فلنجتهد – على الاقل – في تجميع قوى الفصائل الكبرى في الصحوة الإسلامية، القابلة للحوار والتفاهم، وذلك بازالة النتوءات، وتقليص التطرفات، وتقريب المفاهيم، وتنسيق المواقف، والوقوف صفا واحدا في القضايا المصيرية، - بحيث – يتعاون الجميع في المتفق عليه، ويتسامحون في المختلف فيه، فهذا التفاهم والتعاون والتجمع فريضة دينية، وضرورة حيوية، فاذا لم تجمعنا الفكرة الواحدة فلتجمعنا المحنة المشتركة. على نحو ما قال شوقي:

فإن يك الجنس يا ابن الطلح فرقنـــا   ان المصائب يجمعن المصابين][1]

٤- توحيد الصفوف الإسلامية: من الفرق والاحزاب والفصائل والطرائق الروحانية ويجب هنا على أصحاب الوسطية عدم الدخول في خوض الفتن الفكرية الداخلية القاتلة، ومنها التعرض لخلافات الصحابة – ﷺ – فالواجب عدم اثارة مثل هذه القضايا الخطيرة – كالخلافة مثلا – والتعرض لها من قريب أو بعيد، لاسيما مع عوام المسلمين، وترك دراستها وبحثها للمتخصصين.

ويجب عليهم أيضاً ان يسعوا جادين من اجل توحيد جبهة قتال المسلمين وتحديد قبلة معركتهم. وذلك بسحب الناس من الاشتغال والتطاحن في الأمور الجانبية إلى العدو الحقيقي. ولطالما رأيت في مساجدنا وفي غيرها، اقواما يقيمون الدنيا ويقعدونها في معارك يومية، يحمى وطيسها، في مسائل جزئية أو في خلافات فرعية، مهملين معركة الإسلام الكبرى مع اعدائه الحاقدين عليه، الكارهين له، الطامعين فيه، الخائفين منه، والمتربصين به. من غير وعي بحال الأمة، ولا تبصر في مستقبلها.

٥- ان يفرقوا للناس بين اختلاف التنوع واختلاف التناقض، وبين تعدد التخصص وتعدد التضارب: وهنا أقول يجب على أصحاب الوسطية ان يقولوا للناس جميعا: لا بأس في اننا نختلف فيما بيننا في الجزئيات والتفاصيل، لا بأس في ان نختلف في الفروع، أو في المواقف والاجتهادات، فهذا الاختلاف تقتضيه طبيعة الدين وطبيعة البشر وطبيعة الكون والحياة. ولامانع من ان تتعدد الجماعات العاملة

(١) فقه الأولويات ص ٢٢٧.

للإسلام ما دام تعددها تعدد تنوع وتخصص، لا تعدد تضارب وتناقض. لماذا ؟ لأن تعدد التنوع يؤدي إلى مزيد من الاثراء والنماء، وتعدد التناقض يؤدي إلى التآكل والفناء[1].

٦- عرض الإسلام مشروعا حضاريا لازما، عرضا عصريا حديثا، يتصف بالتكاملية والشمول، وباسلوب علمي ميسر، بحيث يناسب مدارك المثقفين، وأفهام عوام الناطقين[2].

٧- تحذير المسلمين من الاتجاهات المنحرفة، والحركات الهدامة، والاحزاب المتعصبة[3]: وعليهم – في الوقت نفسه – ان يشجعوهم على قراءة الكتب الإسلامية الامينة، وتكوين الثقافة الجيدة عن حضارة الإسلام، وعن مسيرة **الرسول الأعظم** – ﷺ –[4].

٨- توعية المسلمين باسباب تأخر الأمة وتخلفها، وباسباب تقدم الحضارة الغربية وتطورها: فلماذا سقط المسلمون المؤمنون وتأخروا؟ ولماذا نهض الكافرون المشركون وتقدموا؟

---

(١) فقه الأولويات ص ٢٢٦.

(٢) فليقرأوا مثلا: معالم في الطريق ص ٢٤ ومابعدها وص ١٠٨ ومابعدها وخصائص التصور الإسلامي، دار الشروق، ط٧، ١٤٠٠هـ –١٩٨٠م، ص ٤٧ ومابعدها وهذا الدين ص ٣ ومابعدها وكلها للشهيد سيد قطب والصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم للقرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١١هـ–١٩٩٠م، ص٥١ وما بعدها والخصائص العامة للإسلام للقرضاوي أيضاً ص ٩ ومابعدها.

(٣) ينظر في هذا المجال في: الإسلام والحركات الهدامة للاستاذ انور الجندي ص ٤٥ وما بعدها ومعالم الطريق في عمل الروح الإسلامي ص ١٣٠ ومابعدها وص ١٣٨ ومابعدها وحصوننا مهددة من داخلها للدكتور محمد محمد حسين، دار الارشاد، ط٣، ١٣٩١هـ –١٩٧١م، ص ٢٢وص ٢٣ وص ٢٤ وص ٣٤ وص ٥٨ وص ٨٦ وص ١١٥ وص ١٤٣ وغيرها وجاهلية القرن العشرين لمحمد قطب، دار الشروق، ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م، ص ٥٥ ومابعدها.

(٤) ومن افضل ما كتب في السيرة النبوية الشريفة في العصر الحديث هو: فقه السيرة للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، وكتاب: محمد ﷺ الإنسان الكامل للدكتور السيد محمد علوي المالكي الحسني، دار الشروق، ط٤، ١٤٠٨هـ–١٩٨٧ وحياة محمد ﷺ، للاستاذ محمد حسين هيكل.

٩- اشاعة رغبة الإسلام في التقدم الصناعي والتقدم العلمي، واشاعة رفضه للجمود الفكري، والتخلف العقلي: مع بيان موقف الإسلام من قضية الاخذ والاستفادة من بعض ما في الحضارة الغربية، وتعريف المسلمين بفضل آباءهم واجدادهم وما انتجته عقولهم العملاقة فكان لها الفضل الأكبر على تقدم عجلة التطور الصناعي الاوربي[١].

١٠- اشاعة محبة الإسلام الخير لعموم بني الإنسانية.

١١- اظهار عظمة الإسلام في انظمته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

١٢- عدم ادخال الإسلام في نار الصراعات الطائفية مع أهل الكتاب وغيرهم.

١٣- تنقية التاريخ من كل الاخبار الكاذبة والقصص الدخيلة والافتراءات الباطلة: وعلى أصحاب الاتجاه الوسطي تصحيح ما أخطئ فهمه في سير اعلام الأمة، كالشيخ الاشعري والإمام الغزالي[٢].

١٤- عدم فتح باب الجدال والنقاش مع الجهلاء والعوام في كل مسألة خلافية، عقيدية كانت أم فقهية.

١٥- متابعة اخبار العالم، وتحليل كل خبر يذاع: لاسيما التي تتصل منها بدين المسلمين وثقافتهم ووحدتهم ومستقبل اقتصادهم.

١٦- عدم الدخول في صراع سياسي مع الحكام والسلاطين: وهنا يجب ان يعلم ان عدم الدخول مع الحكام والأمراء والقادة السياسيين في جبهة يذهب ضحيتها كثير من الأبرياء، لا يعني جواز مداهنتهم أو موافقتهم على ظلمهم، بل يكونوا في حد الوسط والاعتدال، فلا صراعات ولامداهنات.

١٧- الاعتماد على منهج التدرج العلمي في النصيحة والارشاد والمعالجة: وعليهم هنا

---

(١) ومن الكتب التي تحدثت عن آثار المسلمين في الدراسات الاوربية الحديثة، وماقدمته من تقدم وابداع في علوم الفلك والرياضة والطب والعلوم الطبيعية وغيرها هو كتاب: الفكر الإسلامي للدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، ط١٩٧١،٣م، ص ٦٤ ومابعدها.

(٢) ويقرأ في هذا: تبيين كذب المفتري فيما نسب للامام أبي الحسن الأشعري، لابي القاسم علي بن الحسن بن هبة بن عساكر الدمشقي، مطبعة التوفيق، سنة ١٣٤٧هـ والخوالد من آراء حجة الإسلام الغزالي للدكتور صلاح الدين عبداللطيف الناهي، دار الجيل – بيروت، ط١، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م، ص ١٥١ وغيرها.

استخدام اسلوب التيسير المعتدل مع سائر الناس، وان يكونوا واقعيين في دعوتهم وحركتهم، فانا نهينا عن التكلف.

18- أن يفرقوا للناس بوضوح بين الثوابت التي لا تقبل التغير، وبين المتغيرات التي لا ترفض التطور.

19- ان يوازنوا بين المصالح والمفاسد عند تعارضهما في اثناء عملية العلاج العلمي لعيوب المجتمع.

20- ان يوازنوا بين الاخذ بالعزيمة والاخذ بالرخصة(1).

21- كشف خطط الغزو الفكري: فعلى أصحاب الوسطية ان يقفوا على مخططات اليهود وغيرهم في صراع البلاد والشعوب الإسلامية، فكريا وثقافيا، والاطلاع الدقيق على جميع حيلهم وخدعهم في التسلل إلى افكار المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم، وفضح هذه التسللات الخفية، والخطط الماكرة للمسلمين، بشكل واضح وبوضع هادئ(2).

22- الاعتماد على الكتاب والسنة في حل المسائل العلمية، ومعالجة القضايا العملية، وربط العصر المتقدم بحضارة المسلمين وعمق ثقافتهم واصالتهم، أي: على أصحاب الوسطية ان يمدوا جسورا عريضة بين ماضي حضارتهم التليد، وتطور عصرهم الجديد، وذلك بقراءة أحداث العالم وتطورات العصر قراءة إسلامية جديدة(3).

23- تجديد عمل الروح الإسلامي وتنقيته من خرافات الجاهلين، وابتداع المبتدعين.

---

(1) وتدرس هاتان الفقرتان (19-20) في كتب أصول الفقه دراسة تفصيلية موسعة.

(2) ومن احسن ما كتب في هذه المحطة هو: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة للمفكر الإسلامي مالك بن نبي، مطبعة دار الجهاد – القاهرة، ط1، 1379هـ-1960م، ص 11 ومابعدها وانظر له أيضاً: مشكلة الافكار في العالم الإسلامي، مطبعة دار البيان – مصر، ط1، 1391هـ – 1971م، ص 123 ومابعدها وكتاب: الحرية الجامعية للاستاذ الدكتور عبدالله مصطفى ص 35 وما بعدها.

(3) ومما ينفعهم في هذا الاتجاه هو كتاب: رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر لمحمد قطب، دار الوطن للنشر – الرياض، ط1، 1411هـ -1991م، ص 121 ومابعدها.

وأفضل كتاب يمكن لأصحاب الوسطية الاعتماد عليه في هذا المجال هو كتاب: معالم الطريق في عمل الروح الإسلامي. فقد استطاع مؤلفه العلامة الدكتور عبدالله مصطفى الهرشمي — جزاه الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء — ان ينقح فكر الإسلام في عمل الروح، وتنظيفه من كل الترسبات والزيادات الطارئة عبر الزمن، وتطهيره من جميع الانحرافات المحدثة عبر تاريخه الطويل. وارجاعه إلى منابعه الاصيلة — إلى الكتاب والسنة — وذلك بصياغة علمية رصينة، وباسلوب عصري جديد.

٢٤- دراسة أصول العمل الجماعي وفقهها[١].

٢٥- كشف زيف الحضارة الغربية، والتمييز بين ما هو اصيل في عيونها وماهو دخيل عليها[٢].

٢٦- الاطلاع الدقيق على جميع الشبهات المثارة حول الإسلام، والمراقبة الدائمة لجميع الانحرافات المحدثة على أرضية التفكير الإسلامي المعاصر[٣].

٢٧- دراسة أزمات العقل المسلم، وتحديد اسبابها، وتشخيص علاجها[٤].

---

(١) ويمكنك ان ترجع في هذه الدراسة إلى كتاب: احياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالي — رحمه الله — ٢٨٧/٢ و٢٨٨ والى كتاب: المنطلق لمحمد أحمد الراشد، نشرادب — إيران، ١٣٧٠ هـ، ص ١٤٣ ومابعدها وص ١٥٥ ومابعدها.

(٢) وافضل كتاب كشف زيف الحضارة الغربية وفضح مساوئها، بأرقى الاساليب الادبية، واجمل الصور الفنية، في قصة واقعية، من واقع الحياة العصرية، هو كتاب: الحرية الجامعية لاستاذ جيلنا حضرة الدكتور عبدالله مصطفى الهرشمي النقشبندي — ﷺ وأرضاه —.

(٣) ومن اروع ما كتب في توضيح هذه الشبهات والرد عليها هو كتاب: شبهات حول الإسلام لمحمد قطب، دار الشروق، ط١١، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، من ص ١٧ ومابعدها وشبهات وانحرافات في التفكير الإسلامي لتوفيق علي وهبة، دار الفكر العربي، ط١، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨ م، ص٢١ ومابعدها وشبهات واباطيل خصوم الإسلام والرد عليها للشيخ محمد متولي الشعراوي، دار القلم، ص ١٩ ومابعدها.

(٤) وكان ممن بحث في هذه الدراسة بشكل علمي ناقد هو الدكتور عبدالحميد أحمد في كتابه: ازمة العقل المسلم، مكتبة المنار، الزرقاء — الاردن، ص ٥٠ ومابعدها والدكتور محسن عبدالحميد في كتابه: ازمة المثقفين تجاه الإسلام في العصر الحديث، مطبعة وزارة التربية، بغداد، ط٣، ١٤١٨ هـ-١٩٩٨م، ص ٧ ومابعدها وص٣٥ ومابعدها والاستاذ محمد المبارك في كتابه: جذور الازمة =

٢٨- دراسة فقه الأولويات، وفهم مقاصد الاحكام، والاهتمام بهذه الدراسة أمر ضروري جدا. فقد بلغ من جهل امتنا في هذا العصر ان [اصبحت تصغر الكبير، وتكبر الصغير، وتعظم الهين، وتهون الخطير، وتؤخر الأول، وتقدم الأخير، وتهمل الفرض، وتحرص على النقل، وتكترث للصغائر، وتستهين بالكبائر، وتعترك من اجل المختلف فيه، وتصمت عن تضييع المتفق عليه. كل هذا يجعل الأمة اليوم في امس الحاجة – بل في اشد الضرورة – إلى «فقه الأولويات» لتبدأ فيه وتعيد، وتناقش وتحاور، وتستوضح وتتبين، حتى يقتنع عقلها، ويطمئن قلبها، وتستضيء بصيرتها، وتتجه ارادتها بعد ذلك إلى عمل الخير وخير العمل][(١)].

٢٩- التثقيف بشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودراسة وسائل تغيير المنكر وتحديدها[(٢)].

الشعور الجماعي بعظم المسؤولية، والاشتراك الكلي بحمل الامانة.

=

في المجتمع العربي الإسلامي، دار الفكر، بيروت – لبنان، ص ٩ ومابعدها.

(١) فقه الأولويات ص ٢٤، وانظر: الشباب والتغيير لفتحي يكن، ط١٤، ١٤١٤هـ–١٩٩٣م، من ص ٣٧ إلى ص٤٤.

(٢) ومن الممكن الانتفاع في توضيح هذه النقطة بـ: فهم الإسلام في ظلال الأصول العشرين للامام الشهيد حسن البنا تأليف جمعة امين، دار الدعوة، مصر، ط٢، ١٤١١هـ–١٩٩١م، ص ٧٢ ومابعدها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للدكتور محمد عبدالقادر، دار الفرقان، عمان – الاردن، ط١، ١٤٠٢هـ–١٩٨٢م، ص ٢٣ ومابعدها وأصول الدعوة للدكتور عبدالكريم زيدان ص ٤٧٩ ومابعدها.

الفصل الثاني

تطبيقات الوسطية في المسائل الإلهية

المبحث الأول: زيادة الإيمان ونقصانه

المبحث الثاني: مرتكب الكبيرة

المبحث الثالث: التحسين والتقبيح العقليان

المبحث الرابع: القضاء والقدر

المبحث الأول

زيادة الإيمان ونقصانه

اختلف المتكلمون وغيرهم – رحمهم الله تعالى – في قضية زيادة الإيمان ونقصه وعدمهما على قولين: الأول هو أن الإيمان يزيد وينقص. وهو مذهب جمهور أهل السنة[1]، ومنهم الاشاعرة[2]، واهل الحديث[3]، ومذهب الحسن البصري[4]، والإمام الشافعي[5]، والمعتزلة[6]. بل هو قول سيدنا عمر[7]، وابنه عبدالله[8]، وأبي الدرداء وابن مسعود – رضي الله عنهم – وغيرهم[9]. وذكر الحافظ ابن حجر – رحمه الله – ان هذا القول هو مذهب السلف نقلا عما صرح به عبدالرزاق في مصنفه عن سفيان الثوري ومالك بن انس والاوزاعي وابن جريج ومعمر وغيرهم، وهؤلاء هم فقهاء الامصار في عصرهم. وذكر أيضاً ان ابا القاسم اللالكائي نقل في كتاب السنة هذا القول عن الشافعي وأحمد بن حنبل واسحق بن راهويه وابي عبيد وغيرهم من الائمة، وروى بسنده الصحيح عن

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ١/٢٦١ ومابعدها وتنوير القلوب في معاملة علام الغيوب للعلامة الشيخ محمد امين الكردي الاربلي، ص ٨٣.

(٢) شرح النسفية للتفتازاني مع حاشية رمضان افندي ص ٢٦٢ وما بعدها وأصول الدين للبغدادي، ص ٢٥٢ والمسايرة، ص ٣٥٢ وشرح جوهرة التوحيد ص٦٥ وما بعدها والنظام الفريد، ص ٦١ ومابعدها والوسيلة للشيخ عبدالكريم المدرس، ص ٤٨ وانظر: شرح المقاصد للتفتازاني ٥/ ٢١٠ و ٢١١ والكوكب الازهر، ص ١٢٤.

(٣) جوهرة التوحيد، ص ٦٥ والنظام الفريد للعلامة الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد، ص٦١.

(٤) الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة للحافظ البيهقي – رحمه الله – ص ١٠٠.

(٥) الاعتقاد للبيهقي ص ٩٥ وفتح الباري لابن حجر ١/٤٧ وحلية الأولياء ٩/١١٥ والنظام الفريد ص ٦١.

(٦) أصول الدين للبغدادي ص ٢٥٢ والنظام الفريد ص ٦١ و ص٦٢ والوسيلة في شرح الفضيلة ص ٤٨.

(٧) شرح العقيدة الطحاوية للقاضي علي بن أبي العز الدمشقي ٢/٤٨١.

(٨) تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب ص ٨٣.

(٩) شرح العقيدة الطحاوية ٢/٤٨٠ ومابعدها وفتح الباري ١/٤٨ وانظر: شرح الإمام النووي على صحيح مسلم ١/٢٦١.

البخاري قال – أي: البخاري رحمه الله –: لقيت أكثر من الف رجل من العلماء بالامصار فما رأيت أحدا منهم يختلف في ان الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص. وحكاه فضيل بن عياض ووكيع عن أهل السنة والجماعة، وقال الإمام الشافعي: الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص(١).

قلت: وقد ذكر الاصفهاني في حلية الأولياء عن الربيع بن سليمان قول الشافعي – رحمه الله –: الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية(٢). وذكر أيضاً نحو هذا عن مسعر بن كدام – رضي الله عنه – حيث كان يقول: الإيمان يزيد وينقص(٣).

وأما القول الثاني فهو عكس القول الأول، أي: الإيمان لا يزيد ولاينقص. وهو مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة – رحمه الله – واصحابه(٤) وكثير من العلماء(٥)، واختيار امام الحرمين الجويني(٦). والحنفية يعنون بقولهم هذا أصل التصديق. اما الإيمان من جهات أخرى كالعمل الصالح واليقين مثلا، فان الحنفية ومعهم امام الحرمين الجويني لا يمنعون من الزيادة والنقصان فيه، بل هو عندئذ يتفاوت بتفاوت المؤمن به، لا بسبب تفاوت ذات التصديق(٧).

وقد ظهر لي موقف آخر للإمام الشافعي – رحمه الله – يجعل الإيمان فيه على قسمين: أصل وهو القسم الذي لا يقبل الزيادة والنقصان، وفرع تحصل فيه الزيادة

---

(١) فتح الباري ٤٧/١ وانظر أيضاً: شرح سنن ابن ماجة للامام أبي الحسن السندي، ٣٨/١.

(٢) حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم الاصفهاني ١١٥/٩.

(٣) حلية الأولياء ٢١٨/٧.

(٤) الفقه الاكبر للامام أبي حنيفة، ص ٢٣ وأصول الدين للبغدادي، ص ٢٥٢ وشرح النسفية بحاشية رمضان، ص ٢٦٢ ومابعدها والمسايرة، ص ٣٢٥ والنظام الفريد ص ٦١وص٦٢ وشرح جوهرة التوحيد، ص ٦٦ وشرح الفقه الاكبر للقاري، ص ٧٠ ومابعدها وص١١٢ وشرح الفقه الاكبر للماتريدي، ص١٠ والوسيلة في شرح الفضيلة، ص ٤٨ والقول الموفي، ص٨٠.

(٥) النظام الفريد، ص ٦٢ وانظر: شرح النسفية للدكتور عبدالملك السعدي، ص ١٦٧ ومابعدها.

(٦) كتاب الارشاد إلى قواطع الادلة في أصول الاعتقاد لامام الحرمين الجويني – رحمه الله– ص ٣٩٩ و ص ٤٠٠. وانظر النظام الفريد ص ٦٢ وشرح الفقه الاكبر للقاري ص٧٠ وص١١٢.

(٧) المسايرة، ص ٣٢٧ وشرح الفقه الاكبر للقاري، ص ١١٤.

والنقصان(١).

بيان سبب تمسك الفريق الأول بقولهم (جواز الزيادة والنقصان):

١- لتفاوت مراتب الإيمان. فإيمان المقلد غير إيمان الإمام. وكذا الإيمان **الاستدلالي** الذي ينقسم إلى درجات عديدة بحسب تركب البراهين من الأوليات أو البديهيات أو المقدمات اليقينية النظرية. وهناك الإيمان **الشهودي الوهبي** الذي اكرم الله تعالى به انبيائه الكرام – عليهم الصلاة والسلام – وهناك الإيمان **الكشفي الكسبي** الذي خص الله تعالى به اوليائه الصالحين، وهو على درجات بحسب نصيب كل واحد منهم من الفيض القدسي(٢).

٢- ولاتفاق الجميع على تفاوت علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين(٣).

٣- ولأن طاعة بعض الناس ازيد من طاعات بعض، ومتى كانت الطاعة حقيقية الإيمان لزم البتة ان نصير إلى أنه يزيد وينقص(٤). والحقيقة هذا عند المعتزلة فقط لانهم يجعلون العمل بالجوارح جزءا من اركان الإيمان وحقيقته، في حين ان الطاعات كلها هي من كمال الإيمان لا من اصله، وهذا أمر متفق عليه بين الاشاعره والحنفية، لأن الكل يذهب إلى ان حقيقة الإيمان هي التصديق بالقلب.

٤- ولقول بعض المحققين كالقاضي عضد الدين – رحمه الله – بانا [لانسلم ان حقيقة التصديق لا تقبل الزيادة والنقصان، بل تتفاوت قوة وضعفا، للقطع بان تصديق آحاد الأمة ليس كتصديق النبي – ﷺ – ولذا قال سيدنا – ابراهيم – الخليل – عليه الصلاة والسلام: ﴿...وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (٥)](٦).

---

(١) الفقه الاكبر للامام الشافعي مع شرح الكوكب الازهر، ص ١٢٣.

(٢) الوسيلة في شرح الفضيلة، ص ٤٨.

(٣) الوسيلة، ص ٤٨. واليقين هو طمأنينة القلب على حقيقة الشيء، وقيل: هو رؤية العيان، وقيل: هو تحقيق التصديق بالغيب بازالة كل شك وريب، وقيل: هو رؤية العيان بنور الايمان، وقيل: هو العلم الحاصل بعد الشك وقيل غير ذلك، انظر: التعريفات للجرجاني، ص ٢٥٩.

(٤) النظام الفريد، ص ٦٥.

(٥) البقرة: الآية (٢٦٠).

(٦) شرح الفقه الاكبر للقاري، ص ١١٣.

[أي: ليزداد – قلبي طمأنينة، والا فأصل الطمأنينة كان حاصلا. وعليه يظهر ان لا إيمان كإيمان النبي – ﷺ – وان إيمان أبي بكر أقوى من إيمان غيره من الأمة][١].

ومن الجدير بالذكر ان معنى زيادة الإيمان ونقصانه عند الفريق الأول – جمهور أهل السنة – هو ان بعض افراده – أي: بعض اجزاء الإيمان وشعبه – يكون اقوى من بعض في الجزم، كما ان الجزم بكون الواحد نصف الاثنين اقوى منه بكون العالم حادثا[٢].

بيان سبب تمسك الفريق الثاني بقولهم (وهو نفي الزيادة والنقصان):

١- لان التصديق إذا لم يكن على وجه التحقيق يكون في مرتبة الظن والترديد، والظن لا يفيد الاعتقاد عند ارباب التأييد، لقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾[٣]. فاذا نقص شيء من التصديق صار كفرا وخرج صاحبه من دين الإسلام.

٢- ولانه لا يتصور زيادة الإيمان إلا بنقصان الكفر، ولا يتصور نقصان الإيمان إلا بزيادة الكفر، فكيف يجوز ان يكون الشخص الواحد في حالة واحدة مؤمنا وكافرا[٤]. والله تعالى يقول: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾[٥].

---

(١) تنوير القلوب، ص ٨٣. فايمان آحاد الأمة ليس كايمان النبي – ﷺ –، ولاكايمان سيدنا أبي بكر – رضي الله عنه –، والتصديق بطلوع الشمس ليس بقوة التصديق بحدوث العالم.

(٢) تنوير القلوب، ص ٨٣.

(٣) النجم: الآية(٢٨).

(٤) شرح الفقه الأكبر للقاري ص ٧٠ و ص ٧١. وأرى هذا الكلام ضعيفا جدا إذ لايلزم من زيادة الإيمان وجود نقص في ضده وهو الكفر، لعدم اجتماعهما في محل واحد أصلا. ومن كانت عنده شعبة واحدة من الكفر – كأن لايؤمن بالشفاعة أو الحساب مثلا – فانه يعد كافرا لا مؤمنا حتى ولو ادعى الزيادة في إيمانه. كما لا يلزم من نقصان الإيمان وجود زيادة في الكفر لما ذكرنا. وكلامنا فيمن آمن ولم يحمل شيئا من الكفر وشعر بزيادة ايمانه أو نقصانه.

(٥) الأحزاب: الآية (٤).

أدلة القائلين ومناقشتها:

اعتمد القائلون بجواز زيادة الإيمان ونقصانه وهم جمهور أهل السنة على ادلة عديدة من آي الذكر الحكيم والسنة المباركة والآثار.

١- فقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾[(١)] وقال سبحانه: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾[(٢)] وقال: ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾[(٣)].

فالآيات الكريمات واضحة في دلالتها على زيادة الإيمان [وبثبوتها — أي: الزيادة — يثبت المقابل، فان كل قابل للزيادة قابل للنقصان ضرورة][(٤)].

وقد اعترض السادة الاحناف — رحمهم الله تعالى — فقالوا: ليس المراد هنا في الآيات هو ذات التصديق أو حقيقته، وإنما المعنى ان الإيمان يكثر من جهة النور والضياء[(٥)]. أو معناه ازدادوا يقينا[(٦)]. وان الزيادة هنا باعتبار زيادة المؤمن — اسم مفعول - به. أي ان الصحابة — ﷺ — كانوا قد آمنوا بالجملة، فكلما اتاهم فرض جديد آمنوا به فازدادوا بذلك إيمانا مع إيمانهم السابق، وبذلك تأول الزيادة[(٧)]. أو المراد بالزيادة هو الثبات على الصراط[(٨)].

والذي يظهر لي — بعد التأمل العلمي في هذه الاعتراضات — ان وجوه الاعتراضات هذه كلها ضعيفة. وها نحن نناقش كل وجه:

أ- لو كان معنى الزيادة كما ذكرتم هو زيادة نور وضياء واشراق[(٩)]. فنحن نسأل: كيف يزداد الإيمان ضياء ونورا من غير زيادة في أصله وتغير في حقيقته، لانا نعلم يقينا ان النور كلما كثر دل على كثرة مصدره والعكس

---

(١) الأنفال: الآية (٢).

(٢) مريم: الآية (٧٦).

(٣) سيدنا المدثر — ﷺ -: الآية (٣١).

(٤) فتح الباري ١/٤٧.

(٥) شرح الفقه الاكبر للماتريدي — رحمه الله — ص ١٠ وانظر: المسايرة ص ٣٢٩.

(٦) شرح الفقه الاكبر لعلي القاري — رحمه الله — ص ٧٠ وانظر: المسايرة ص ٣٢٩ ومابعدها.

(٧) شرح الفقه الاكبر للقاري ص ١١٢ وص ١١٣ وشرح الطحاوية ٢/ ٤٧٩.

(٨) تأويلات أهل السنة للامام الماتريدي — رحمه الله — ص ٢٧.

(٩) المسايرة ص ٣٢٩ والنظام الفريد ص ٦٤.

بالعكس. فان قيل: لا، هو مثل النار، تُأخَذ منها شعب عديدة وأجزاء كثيرة، فيزداد النور مع بقاء الاصل على حاله. قلنا: هذا قياس مع الفارق لأن مصدر النور الثاني ليس هو الأول وإنما هو الجزء الثاني، مع ان جهة النار قد تعددت بينما الإيمان ثابت في محله ومكانه.

ب- ولو كان معنى الزيادة هو زيادة في يقينهم — مع قولهم بتفاوت مراتب اليقين[1] لقلنا: اليقين بزيادته ونقصه يتحرك في داخل دائرة الإيمان، فكلما ازداد اليقين وارتقى من علم اليقين إلى عين اليقين — مثلا — امتدت دائرة الإيمان واتسعت، وكلما قل اليقين ونقص تقلصت دائرة الإيمان وقلت، وهذا دليل ظاهر على زيادة الإيمان ونقصه، إذ من غير الممكن ان يزداد اليقين من غير ان تتسع دائرة الإيمان وتبقى على حدودها. كما لا يمكن ان يضعف اليقين مع بقاء الإيمان على امتداده السابق.

ج- ولو كان المراد بالزيادة هو الزيادة باعتبار المؤمن به. قلنا: هذا ضعيف جدا من وجهين: اولهما: حتى لو كان هذا الكلام صحيحا فهو لا يمنع حصول الزيادة فان الزيادة بالفرض أو التشريع الجديد دلت على زيادة جديدة في الإيمان. ومن قال ان هذه الزيادة مقصورة على جيل دون جيل، أو محدودة في زمن معين دون آخر، باعتبار ان الاصل هو امكانية وقوع الزيادة. وثانيهما: هل في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾[2]. زيادة أمر شرعي جديد حتى به يزدادوا إيمانا. وهل في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾[3] زيادة مشروع جديد.

د- وأما تأويلهم الزيادة بالثبات على الصراط. فهو من ابعد الاشياء التي قد يتصورها خيال الإنسان، ولايخفى على الباحث ما في هذا التأويل من تعسف كبير.

٢- وعن جندب بن عبدالله قال: كنا مع النبي — ﷺ — ونحن فتيان حزاورة، فتعلمنا

(١) شرح الفقه الاكبر للقاري، ص ٧٠.

(٢) آل عمران: الآية (١٧٣). (٣) الفتح: الآية (٤).

الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به – أي بسببه – إيمانا[١].

٣- وعن أبي هريرة وابن عباس – رضي الله عنهما – قالا: الإيمان يزيد وينقص[٢]. وعن أبي الدرداء قال: الإيمان يزداد وينقص[٣].

٤- واعتمدوا أيضاً على وصف النبي – ﷺ – النساء بنقصان العقل والدين. حيث قال: (**... وما رأيت ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن**)[٤]. ولكني أرى الاستدلال بهذا الحديث الشريف على زيادة الإيمان ونقصانه ضعيفا، لأن الإيمان [ليس هو مجموع الدين، انما الدين ثلاثة اجزاء: الإيمان جزء، والأعمال جزآن، لانها فرائض ونوافل][٥].

٥- وعن معاذ بن جبل – رضي الله عنه – قال رسول الله – ﷺ -: (الإيمان يزيد وينقص)[٦]. والحديث لا يحتاج إلى شرح فهو صريح الدلالة على زيادة الإيمان ونقصانه.

٦- وقال – ﷺ -: (**يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من إيمان، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من إيمان – والبرة هي القمحة، دون وزن الشعيرة – ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من إيمان**)[٧] والذرة هي الهباء الذي يظهر في شعاع الشمس مثل رؤوس الابر[٨].

---

(١) رواه ابن ماجة في باب الايمان عن أبي عمران الجوني ٣١/١.

(٢) رواه ابن ماجة في سننه في باب الايمان ٣٨/١.

(٣) رواه ابن ماجة عن مجاهد في باب الايمان ٣٨/١.

(٤) رواه البخاري في باب ترك الحائض الصوم (٣٠٤) ٤٠٥/١ ومسلم برقم (٧٩) و (٨٠).

(٥) فتح الباري للحافظ ابن حجر ١٠٣/١.

(٦) رواه الديلمي في الفردوس ١١١/١ برقم (٣٧٧).

(٧) رواه البخاري عن سيدنا أنس – رضي الله عنه – في باب زيادة الايمان ونقصانه (٤٤) ١٠٣/١. قلت: وجَعْلُ البخاري – رحمه الله – هذا الباب بهذا الاسم دليل على انه يقول بزيادة الايمان ونقصانه وموافقة المحدثين.

(٨) وقيل في الذرة: هي اقل الاشياء الموزونة، وقيل هي النملة الصغيرة. وقيل غير ذلك. انظر: فتح الباري ١٠٤/١.

ويكاد يكون هذا الحديث اقوى ادلة القائلين بجواز زيادة الإيمان ونقصانه. لذا قال الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد [وهذا الحديث يكاد يكون صريح الدلالة على زيادة الإيمان، وإلا لما كرر الطوائف التي تخرج من النار، ألا ترى أنه — عليه الصلاة والسلام — قد جعل في قلب بعض الناس وزن ذرة، وجعل في قلب بعض آخر وزن برة من إيمان، ووزن البرة ازيد من وزن الذرة، وجعل في قلب بعض آخر وزن شعيرة من إيمان، ووزن الشعيرة ازيد في بعض البلدان من وزن البرة، فدل ذلك على تفاوت الناس في إيمانهم الذي في قلوبهم وهو التصديق](١).

٧- وعن سيدنا عمر بن الخطاب — ﷺ —: قلنا: يارسول الله الإيمان هل يزيد وينقص؟ قال: (**نعم، يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة، وينقص حتى يدخل صاحبه النار**)(٢).

٨- ولو كان الإيمان لا يزيد ولاينقص لكان إيمان آحاد الناس، بل لكان إيمان المنهمك في الفسوق والمعصية مساويا لإيمان الأنبياء والملائكة والصديقين، وهذا مما لا ينبغي ان يذهب إليه أحد(٣).

أدلة النافين ومناقشتها

اعتمد الحنفية ومن وافقهم على عدم زيادة الإيمان ونقصانه، على مايأتي:

١- قالوا: ان الإيمان كان يزيد في عهد الصحابة — ﷺ — بزيادة ما يجب الإيمان به، لا بزيادة الأعمال. فالقوم كانوا قد آمنوا في الجملة ثم يأتي فرض بعد فرض فكانوا يؤمنون بكل فرض خاص. وهذا هو معنى الزيادة في قوله تعالى: «...زادتهم إيمانا» وفي غيره. وهذه الزيادة في الإيمان لا يمكن ان تتصور في غير عصر النبي — ﷺ —(٤).

أقول: لقد تقدم الاعتراض على هذا قبل قليل. ويضاف إليه اعتراض آخر: وهو

---

(١) النظام الفريد، ص ٦٣.

(٢) رواه أبو اسحاق الثعلبي في تفسيره عن مالك عن نافع عن ابن عمر: المسايرة، ص ٣٢٦.

(٣) النظام الفريد ص ٦٢ وانظر بقية ادلتهم الكثيرة في شرح النسفية مع حاشية رمضان ص ٢٦٣ ومابعدها وشرح الطحاوية ٤٧٩/٢ ومابعدها والوسيلة ص ٤٨ وشرح الجوهرة ص ٦٥ وتنوير القلوب ص ٨٣ والمسايرة ص ٣٢٥ ومابعدها والكوكب الازهر ص ١٢٤ وأصول الدين للبغدادي ص ٢٥٢ وكتاب الإيمان للدكتور محمد نعيم ياسين ص١٥٥ ومابعدها.

(٤) انظر: شرح النسفية للتفتازاني وحاشية رمضان ص ٢٦٣.

ان الاطلاع على تفاصيل الفرائض ممكن أيضاً في غير عصر النبي - ﷺ - ولا خفاء في ان الإيمان التفصيلي ازيد من الإيمان الاجمالي، بل اكمل منه، والزيادة كما يمكن ان تتصور في ذلك الزمان ممكن ان تتصور في هذا الزمان أيضاً.

وتقرير النظر في هذا الدليل انا لا نسلم ان زيادة الإيمان لا تكون إلا بزيادة مايجب الاتيان به كما ذكرتم. ولم لا تكون زيادته بحسب كونه اجماليا وتفصيليا.

والجواب على هذا الاعتراض: هو أنا لا نسلم ان الإيمان التفصيلي اكمل من الإيمان الاجمالي وازيد منه، بل الاجمالي والتفصيلي على السواء، ولو كان التفصيلي ازيد لكان الإيمان ناقصا ولم يكن إيمانا اصلا، ولان نقصان ذات الشيء يستلزم تغيره وتبدله[1].

والذي يبدو لي ان الجواب على هذا الاعتراض ضعيف جدا، لأنه يناقض قولهم في ان المراد بزيادة الإيمان في الآيات هو زيادة الإيمان في تفصيل ما اجمل الإيمان به من الفرائض. وما الدليل على ان الإيمان الناقص كفر؟

ثم ماذا تقولون في رجل مؤمن بلغ مقام الاحسان - اعلى درجات الإيمان - ثم شاء القدر وانخفض من مقامه واستمر في نزوله إلى ان وقف على وجه قوي من التحقيق والجزم. ويؤيد هذا ان الإمام الجنيد - رضي الله عنه - سئل ذات مرة: ايزني العارف؟ فقال: وكان أمر الله قدرا مقدورا.

٢- وقالوا: اخبار الله تعالى لا يتصور فيه الزيادة والنقصان، لأن ما لا يتناهى لا يتزايد في ذاته فتصديقه أيضاً لا يتزايد في ذاته ولايتناقص[2].

أقول: هذا الدليل ضعيف أيضاً لأنه قياس مع الفارق. إذ لا يصلح قياس الإيمان - عمل المخلوق المحدث - على كلام الله تعالى الازلي القديم. ولا سيما وان مشايخ الحنفية من أهل سمرقند ذهبوا إلى ان الإيمان مخلوق، على الرغم من اتفاقهم مع البخاريين على ان افعال العباد كلها مخلوقة لله تعالى. وما إيمان العبد إلا فعل قلبي من افعاله، والله

---

(١) حاشية رمضان افندي على شرح النسفية، ص ٢٦٣.

(٢) حاشية العلامة زين الدين قاسم الحنفي على كتاب المسامرة، ص ٣٢٦. وانظر: المسايرة ص ٣٢٧ وشرح الفقه الاكبر للماتريدي، ص ١٠ وشرح الفقه الاكبر للعلامة علي القاري ص ٧٠ و ص ٧١ وشرح النسفية للدكتور السعدي ص ١٦٨ وما بعدها والقول الموفي شرح الفقه الاكبر لأبي حنيفة، للشيخ محمد بن ياسين بن عبدالله ص ٨٠ و ص٨١.

تعالى اعلم.

رأي العلامة الشعراني

لقد حاول العلامة الشيخ عبدالوهاب الشعراني – رحمه الله – ان يجمع بين قول الجمهور في ان الإيمان يزيد وينقص وبين قول السادة الحنفية في ان الإيمان لا يزيد ولاينقص فقال: [الوجه الجامع بينهما – هو – ان يحمل قول من قال أنه لا يزيد ولاينقص على إيمان الفطرة، ويحمل قول من قال أنه يزيد على ما بين الفطرة إلى طلوع الروح، فان كل انسان لا يموت إلا على ما فطر عليه](١).

وهذا القول وان كان مقبولا من بعض الوجوه، بيد ان الحنفية لا يعنون بعدم زيادة الإيمان ونقصانه غير إيمان المكلف المدرك، فهم لم يفرقوا بين الفطرة وغيرها. لذا فإيمان الفطرة خارج عن محل النزاع.

رأي الباحث:

بعد هذا الاطلاع العلمي المفصل على رأي الجمهور ورأي الحنفية وادلة كل منهما، علينا قبل أن نحاول ايجاد حد وسط بين الفريقين ان نقف وقفة سريعة على معنى الإيمان عند الاشعرية وعند الحنفية. فأقول معنى الإيمان عندهما جميعا هو التصديق القلبي فقط. وهذا ما اجمع عليه أهل اللغة كما قال الشيخ الاشعري(٢). والباقلاني(٣). وغيرهما(٤). استدلالا بقول الله تعالى اخبارا عن كلام اخوة يوسف – عليه السلام – لأبيهم: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾(٥) أي: ما أنت بمصدق لنا(٦). والباء

---

(١) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الاكابر ١٠٨/٢.

(٢) اللمع ص ١٢٣.

(٣) التمهيد ص ٣٤٦ والانصاف ص ٨٥.

(٤) كالخليل بن أحمد الفراهيدي في كتاب العين ٣٨٩/٨.

(٥) سورة سيدنا يوسف – عليه السلام –: الآية (١٧).

(٦) انظر: جامع البيان للطبري ١٦٢/١٢ وتفسير الماوردي ٢٥١/٢ واللمع للاشعري ص ١٢٣ والانصاف ص ٨٥ والتمهيد ص ٣٤٦ وأصول الدين للبغدادي ص ٢٤٧ والارشاد للجويني ص ٣٩٧ والكشاف للزمخشري ٣٠٨/٢ وتفسير النسفي ٢١٤/٢ وتفسير ابن كثير ٤٧١/٢ وشرح العقيدة الطحاوية ٤٧١/٢ وشرح النسفية مع رمضان ص ٢٥٥ ومواهب الرحمن ٣٥٨/٤.

لاعتبار معنى الاعتراف(١).

والإيمان عند المحدثين والفقهاء والمعتزلة واحد: تصديق بالجنان، واقرار باللسان، وعمل بالاركان(٢).

تحديد سبب الخلاف:

وعندئذ يمكننا بسهولة ان نحدد سبب الخلاف بين الجمهور والحنفية من جهة، والاشعرية والحنفية من جهة أخرى.

فاما الأول فان من قال الأعمال جزء من حقيقة الإيمان فعنده هو الإيمان قابل للزيادة بزيادة الأعمال، وقابل للنقصان بنقصان الأعمال، لأن زيادة الجزء تستلزم زيادة على الكل، ونقصانه يستلزم نقصان الكل. ومن قال الإيمان هو مجرد التصديق القلبي وليست الأعمال جزءا منه، قال الإيمان لا يزيد ولاينقص.

اما سبب الخلاف بين السادة الحنفية والسادة الاشعرية فيتضح لي في قبول التصديق الزيادة والنقصان وامكانية ذلك.

فالحنفية لا يعتقدون بان التصديق يقبل الزيادة أو النقصان، لانهم ان قالوا بقبوله الزيادة، قالوا بقبوله النقصان بالضرورة لأن كل من قبل الزيادة قبل النقصان بالمقابل لا محالة. والتصديق عند الحنفية لا يقبل النقصان لأنه لا يمكن ان يتصور قبول النقصان إلا ويصير كفرا. لكن ممكن ان يتفاوت التصديق عند الحنفية قوة وضعفا، لا زيادة ونقصانا إلا في مراتبه اليقينية.

ولذا فانا نلمس بشكل واضح حرج الحنفية وخوفهم من اطلاق اسم الزيادة أو اسم النقصان على التصديق. ولكن من اجل ان لا يصطدموا مع ادلة الزيادة الكثيرة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة، جوزوا اطلاق لفظ القوة والضعف على التصديق. فقالوا التصديق لا يزيد ولاينقص ولكن ممكن ان يتفاوت في القوة والضعف.

والغريب ان بعض الحنفية يفسر الزيادة بالقوة، والنقصان بالضعف، ولايفرق بينهما – على عكس ما صنع اول الأمر – ومع ذلك فهو لا يقول بزيادة الإيمان ونقصانه. بدليل ان بعضهم فسر قول الإمام علي – عليه السلام والرضوان –: لو كشف

(١) انظر رسالتنا الماجستير: الكبيرة والاثار المترتبة عليها عند المتكلمين ص ١٧٤.

(٢) انظر: الكبيرة للباحث ص ١٦٩.

لي الغطاء ما ازددت يقينا. بان المراد بالزيادة والنقصان هنا هو القوة والضعف[(١)].

وانا هنا أسأل: إذا كان لا فرق بين الزيادة والقوة، والنقصان والضعف فلماذا لا يقبل التصديق عند السادة الحنفية - رحمهم الله - لفظ الزيادة مثل ما قبل لفظ القوة، ولماذا لا يقبل لفظ النقصان مثل ما قبل لفظ الضعف.

وعلى نفس قولهم في ان التصديق لا يقبل النقصان لأنه يصير كفرا، فمن قال: يقبل التصديق الضعف ولايصير كفرا، مع أنه لا دليل على صحة الأول. على فرضية صحة عدم قبول التصديق النقصان.

والغريب الآخر ان بعض الحنفية - جزاهم الله خيرا - تارة يفرق بين مراتب اليقين ودرجاته - علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين[(٢)] - وتارة أخرى يجوز حصول التفاوت في مراتب الإيمان دون مناقب الايقان إلا باختلاف علم اليقين وعين اليقين[(٣)].

وهنا نسأل: إذا جاز حصول التفاوت في مراتب الإيمان، والإيمان هو التصديق - على ما ذكرتم - فلماذا لا تجوزوه في التصديق، فيقال: إيمان هذا ازيد من هذا، وإيمان هذا انقص من هذا ؟

واذا نظرنا إلى اليقين بالنسبة إلى التصديق وجدنا ان الاصل هو التصديق. فكيف يجوز دخول الزيادة على الفرع دون الاصل، فيكتمل الفرع بما يفتقر إليه الاصل.

ولايمانع بعض الحنفية من زيادة اليقين ونقصانه على الرغم من جعله اليقين مضمون التصديق، فيتفاوت اليقين قوة في نفسه من اجلى البديهيات إلى اخفى النظريات القطعية. وهو مع هذا كله لا يجوّز دخول الزيادة والنقصان في التصديق، محل اليقين وموطنه.

اما السادة الاشعرية - رحمهم الله - على وجه الخصوص، والجمهور عموما، فانهم لم يروا بأسا من دخول الزيادة والنقصان على التصديق، لأن التصديق - كما يظهر لي - في نظرهم على مراتب عديدة ودرجات كثيرة، فليس حصول كل نقص في التصديق يؤدي بصاحبه إلى الكفر - والعياذ بالله تعالى - وإنما التصديق على درجات عديدة

---

(١) شرح الفقه الاكبر للعلامة القاري - رحمه الله - ص ٧٠و٧١و١١٢ وما بعدها.

(٢) شرح الفقه الاكبر للقاري ص ٧١.

(٣) نفس المصدر ص ١١٣.

ومنازل متفاوتة فهم لا يمنعون زيادته، ولا حتى نقصانه، مهما بلغ هذا النقصان ما دام يحمل فيه صاحبه حد الجزم والاذعان والمطاوعة.

فاذا نقص التصديق حينئذ وفقد الجزم، أو ضعف وحل محل الشيء المفقود من التصديق الشك أو الريب، صار عندئذ كفرا وانعدم الإيمان.

ومع هذا كله وعلى فرضية عدم قبول الاحناف ما قدمناه، ومن اجل ان نوافق ونجمع بين القولين، بين الجمهور والحنفية بحد وسط، اقول في هذا الموضوع: كلما قوي التصديق واشتد ازداد الإيمان قوة، ونقص ضعفا، وكلما ضعف التصديق وخوي نقص الإيمان قوة، وازداد ضعفا.

واعتقد اننا بهذا الحد الوسط حققنا الجمع والتوفيق بين الفريقين اما الاحناف فانهم يقولون بقوة التصديق وضعفه ولايمنعون ذلك. واما الجمهور فانهم يقولون بزيادة الإيمان ونقصانه كما تقدم.

وان سألت عن ادلة الزيادة والنقصان فأقول: تقدم ذكر ذلك واضحا في ادلة الجمهور المصرحة بزيادة الإيمان، كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾(١).

وان سألت عن ادلة القوة والضعف فأقول: قال **سيدنا رسول الله** – ﷺ –: (**المؤمن القوي خير واحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير ...**)(٢). وقال أيضاً – ﷺ –: (**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الإيمان**)(٣).

وانت ترى في هذين الحديثين الشريفين كيف استخدم **حضرة الرسول الاكرم** – ﷺ – لفظتي – (**القوة والضعف**) – مع – الإيمان – ومما تقدم من ادلة الجمهور رأيت – أيضاً – كيف استخدم القرآن الكريم لفظة – (**الزيادة**) – التي تقابلها لفظة –

(١) الفتح: الآية (٤).

(٢) عن أبي هريرة – رضي الله عنه – رواه الإمام مسلم في: كتاب القدر، الباب ٨، برقم (٢٦٦٤) ١٦/٤٥٥. وهو بهامش شرح النووي. ورواه الديلمي في الفردوس عنه أيضاً ٤/١٨٧ (٦٥٨٠) وقد تقدم ذكر هذا الحديث الشريف متنا وتخريجا.

(٣) رواه مسلم في: كتاب الإيمان، باب ٢٠، برقم (٧٨) ٢/٣٨١.

(النقصان) — مع — الإيمان.

ولان القرآن الكريم لم يصرح بنقصان الإيمان كما صرح بزيادته قال البعض: يزيد التصديق ولاينقص. والله تعالى اعلم.

اللهم ارزقنا يقين العارفين، وإيمان الأولياء الكاملين، وتصديق عبادك الواصلين، وحسن الخاتمة يا أرحم الراحمين.

المبحث الثاني

مرتكب الكبيرة

لمرتكب الكبيرة صلة قوية ومساس قريب جدا بقضية الإيمان، لذا خصصنا هذا المكان من الرسالة لدراسة آراء المتكلمين وبيان مواقفهم العقدية الإسلامية تجاه مرتكب الكبيرة، وما سنذكره من تحليل علمي هنا يؤكد بوضوح صلة هذا الموضوع بقضية الإيمان. علما انني قد قدمت - بفضل الله تعالى وحسن توفيقه — هذا الموضوع مفصلا محللاً تحليلا علميا في رسالتي الماجستير (الكبيرة والآثار المترتبة عليها عند المتكلمين) فقمت باستعراض آراء كل الفرق الإسلامية التي بحثت في هذا الموضوع ودرسته. لكني هنا سأكتفي ببيان اربع فرق كلامية اشتهرت آراؤها في هذه المسألة، مراعيا الاختصار والايجاز، وبأسلوب علمي جديد، مسلطا الضوء على تحقيق هدف الرسالة وهو اظهار الحد الوسط في آراء المتكلمين، ومبينا أكثرها اعتدالا وتوازنا.

رأي الخوارج:

ذهبت أكثر فرق الخوارج إلى ان مرتكب الكبيرة كافر، وبذلك قال بعض الاباضية[١]. ومنهم من قال: كافر مشرك كالحسينية وغيرها[٢]. ومنهم من قال: مشرك فقط كالبيهسية والاخنسية وغيرها[٣].

واختلف الخوارج في المراد بلفظ الكفر، فمنهم من قال: هو كفر نعمة، لا كفر شرك وملة وبه قالت النجدات وايدتها الاباضية، لكنهم مع ذلك يقولون بخلوده في نار جهنم[٤].

ومنهم من قال: هو كفر شرك وملة، يخرج به مرتكب الكبيرة عن ملة الإسلام،

---

(١) كتاب المعتمد في أصول الدين ص١٨٨ وما بعدها والملل والنحل للشهرستاني ١/١٣٤.

(٢) مقالات الإسلاميين للشيخ الأشعري ١/١٨٤ والملل والنحل ١/١٣٦.

(٣) المواقف بشرح السيد الشريف ٨/٣٩٤ ومقالات الإسلاميين ١/١٨١ والفرق بين الفرق ص١١٧ والملل والنحل ١/١٣٢.

(٤) الفرق بين الفرق للبغدادي ص٧٣ وص١١٨ وأصول الدين للبغدادي أيضاً س٢٥٠ والارشاد ص٣٨٥ والملل والنحل ١/١٣٥ وشرح المواقف للسيد الشريف ٨/٣٩٤ والشيعة بين الاشاعرة والمعتزلة ص٤٢.

ويخلد في النار مع سائر الكفار، وهذا ما ذهب إليه الازارقة[١].

ادلة الخوارج على كفر مرتكب الكبيرة[*]

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[٢] وهذه الآية المباركة هي اشهر الادلة القرآنية التي اعتمدها الخوارج لتأييد رأيهم في تكفير مرتكب الكبيرة.

ووجه استدلالهم بهذه الآية، هو ان النص القرآني صريح الدلالة في تكفير كل من لم يحكم بما انزله الله سبحانه وتعالى من الاحكام الشرعية على حبيبه حضرة خاتم الأنبياء والمرسلين – ﷺ –. ولعلهم اعتمدوا في هذا الاستدلال على معنى العموم الذي افاده لفظ «من».

٢- قال سيدنا رسول الله –ﷺ– (**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**)[٣]. فلما كان الكفر كبيرة – بل هو اعظم الكبائر وكان ترك الصلاة كفرا – استدلالا بظاهر هذا الحديث الشريف – كان تارك الصلاة – مرتكب الكبيرة- كافرا.

مناقشة ادلة الخوارج:

من يدرس ادلة الخوارج ويتأمل معانيها ويتفحصها تفحصا علميا عميقا، يستطيع ان يقف على المقصود منها بإذن الله تعالى.

١- اما الآية المباركة فان حكمها انما يتناول من انكر بقلبه حكم الله تعالى وجحده بلسانه. بخلاف من عرف بقلبه كونه حكم الله تعالى، واقر بلسانه كونه حكمه سبحانه وتعالى، بيد أنه جاء بما يضاده. فالقول الدقيق في مثل هذا الصنف: هو

---

(١) أصول الدين للبغدادي ص٢٤٩ وص٢٥٠ والارشاد ص٣٨٦ والملل والنحل ١٢٢/١.

(*) قلت: على كفر مرتكب الكبيرة لأن الخوارج والمعتزلة لما اشتركا في القول بخلود مرتكب الكبيرة في النار، اشتركا أيضاً في نفس الادلة، لذا بعدا عن تكرار الادلة ومناقشتها سوف نرجئ ادلة الخوارج في التخليد إلى موضع ذكرها في المعتزلة.

(٢) المائدة: الآية (٤٧).

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده والترمذي ١٥/٥ (٢٦٢١) والنسائي في كتاب الصلاة ١/ وابن ماجة كتاب الصلاة ١/ وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه ورمز له السيوطي بالصحة: الجامع الصغير ١٩٦/٢ (٥٧٤٠).

أنه حاكم بما انزل الله تعالى، ولكنه تارك له. وعندئذ لا يلزم دخوله تحت حكم هذه الآية.

او ان معنى الآية: كل من لم يحكم بما انزله الله تعالى على وجه الاستحلال والاباحة فهو كافر. وهذا مما لا خلاف فيه عند الجميع(١).

٢- واما الحديث النبوي الشريف فالحقيقة ليس حجة للخوارج في تكفير مرتكب الكبيرة، لأن الضمير في قوله -ﷺ-:

(... بينهم..) يعود إلى المنافقين والمعنى: ان العمدة في اجراء احكام الإسلام على المنافقين هو تشبيههم بالمسلمين في حضور صلواتهم، وانقيادهم للاحكام الظاهرة، فإذا تركوا ذلك كانوا هم وسائر الكفار سواء.

قلت: ويؤيد هذا هو ان الخطاب جاء بصيغة الغيبة — بينهم — ولو كان الصحابة رضي الله عنهم هم المعنيون به لقال ﷺ —: العهد الذي بيني وبينكم، باستخدام كاف الخطاب(٢) وكان العلامة البيضاوي والمناوي ممن قال برجوع الضمير إلى المنافقين، والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر: جامع البيان ٢٥٢/١ وما بعدها وتفسير السمرقندي ٩٠/٣ وشرح الأصول الخمسة ص٧٢٢ وتفسير الرازي ٥/١٢و٦ والفصل ٢٣٠/٣ وتفسير النسفي ٢٨٥/١ وشرح النسفية بحاشية رمضان ص٢٤٤ والدر المنثور للسيوطي ٨٧/٣ وما بعدها وتفسير الخازن ٤٩٨/١ و٤٩٩ وتفسير الشربيني ٣٧٧/١ وروح المعاني ١٤٥/٦و١٤٦. وانظر: شرح المواقف ٣٣٤/٨.

(٢) انظر: الكبيرة والآثار المترتبة عليها عند المتكلمين ص٢٤٨ و ص٢٤٩. وفي الحقيقة هناك مجموعة كبيرة من الأحاديث الشريفة مع مناقشات المتكلمين والمحدثين لها يمكنك مراجعتها في: الوسيط للغزالي ٨٣٢/٢ وشرح النووي على صحيح مسلم ٤٣١/٢ وبداية المجتهد ٦٦٥/١و٦٦ وشرح النسفية مع حاشية رمضان ص٢٤٤ والمنهاج القويم ص٣٠٩ ومغني المحتاج ٣٢٧/١ وفيض القدير للعلامة المناوي ٣٩٥/٤ و١٠٢/٦ ودليل الفالحين ٥٧٨/٣ و٥٧٩ والميزان الكبرى ١٤٢/١.

رأي المرجئة[*]:

مرتكب الكبيرة في نظر المرجئة مؤمن، وقد امتنعوا عن تعيين القصاص الذي يستحقه على كبيرته فقالو: نرجئ (أي: نؤخر أو نؤجل) حكمه إلى الله سبحانه وتعالى. ويذكر ابن تيمية — رحمه الله — أن المرجئة كذبوا بالوعيد والعقاب بالكلية[١] حيث قالوا: ان أهل النار إذا دخلوا النار فانهم يكونون في النار بلا عذاب كالحوت في الماء، إلا أن الفرق بين الكافر والمؤمن هو أن للمؤمن استمتاعاً في الجنة، يأكل ويشرب، وأهل النار ليس لهم استمتاع أكل وشرب[٢].

وعقيدة المرجئة في صاحب الكبيرة أنه ما دام مقراً بـــ (لااله إلا الله محمد رسول الله) لم يضره وقوعه في الكبائر، وتركه الفرائض، وركوبه الفواحش[٣]. ولذلك نراهم دائماً يقولون لا تضر مع الإيمان معصية. كما لا تنفع مع الكفر طاعة[٤]. اما آيات العذاب والهلاك الواردة في القرآن الكريم فهي آيات وعيدية في ذنبين فقط هما (الكفر والشرك) وبقية المعاصي المقرونة مع إيمان فاعلها لا يجوز أن يرد فيها وعيد، ولايستحق

(*) يطلق الارجاء في اللغة على معنيين، الأول: هوالتأخير، تقول: ارجأت كذا، أي: اخرته. والثاني:هو اعطاء الرجاء، فتقول: ارجيت فلانا، أي اعطيته الرجاء وعلى هذا الاساس فالمرجئة مأخوذة من المعنى الأول وهو التأخير لانهم كانوا يؤخرون العمل عن النية وقصد القلب، ويجوز انها مأخوذة من المعنى الثاني لانهم يقولون: لا تضر مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة. وقيل: الارجاء هو تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة: لسان العرب مادة: رجأ ومختار الصحاح مادة: أرجأه ص ٢٣٣ والمصباح المنير مادة: ارج ١/ ١٥ والملل والنحل ١/ ١٣٩ وشرح الفقه الاكبر للقاري ص ٥٩ ودائرة معارف القرن العشرين ٧٢٣/٨.

(١) فتاوى ابن تيمية ٣٧٤/٣.

(٢) شرح الفقه الاكبر للقاري ص٥٩.

(٣) التنبيه والرد ص ٤٣.

(٤) مقالات الإسلاميين للاشعري ١/ ١٩٨ و ١٩٩ و٢٠٠ وما بعدها وأصول الدين للبغدادي ص٢٤٣ وشرح الأصول الخمسة ص٧٢٦ والفصل ٤/ ٢٠٥ والمواقف بشرح ألا يجي ٨/ ٣٩٨ واعتقادات فرق المسلمين للرازي ص٧٦ ونهاية الاقدام ص٤٧٤ والتنبيه والرد ص٤٣ وص ١٤٦ وكتاب البداية للعلامة الصابوني ص ١٤٠وكشف المراد ص٢٧١ والاتباع ص٥٩ والبرهان ص ٣٣ وص ٤٥ والفرق الإسلامية ص٨٥ والتبصير في الدين ص٩١ ومذاهب الإسلاميين ١/ ٦٥ ودراسات في الفرق ص٩٥.

عليها عقاباً، لا دائماً ولامنقطعاً[١]. لأن صور العذاب الواردة انما هي في شأن الكافرين فقط.

أدلة المرجئة:

١- قال الله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾[٢]. وقال سبحانه: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۝١٣١ ﴾[٣] ووجه الاستدلال بهاتين الآيتين المباركتين هو أن الله تعالى أوضح لنا أن الفضيحة يوم القيامة والعذاب على الكافرين، وهو مختص بهم، بخلاف المؤمنين.

٢- وقال سيدنا رسول الله - ﷺ -: (**مامن عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة**) فقال أبو ذر – وفي رواية أخرى أبو الدرداء – قلت: وان زنى وإن سرق ؟

قال: (**وإن زنى وان سرق**) قلت وإن زنى وإن سرق ؟ قال: (**وإن زنى وان سرق**) قلت: وان زنى وان سرق ؟ قال: (**وان زنى وان سرق**) ثم قال في الرابعة: (**على رغم أنف أبي ذر**)[٤].

مناقشة الأدلة:

١- حاصل ما قيل في تفسير الآيتين والرد على استدلال المرجئة بهما، هو أن النار وان أعدت للكافرين – كما صرح بذلك القرآن الكريم – فهي معدة لغيرهم من مستحقي العذاب من غير الكافرين، وهي نار واحدة، وانها يتفاوت عقابهم فيها.

---

(١) كتاب المعتمد ص١٢٢ والمعتمد المنتقد ص٩٢.

(٢) البقرة: الآية (٢٤).

(٣) آل عمران: الآية (١٣١).

(٤) متفق عليه / صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ٤٥٦ (١٥٤) ورواه أحمد ورجاله ثقات والطبراني في الكبير / مجمع الزوائد ٢٣/١ والنسائي في عمل اليوم والليلة ص٣١٨ (١١٢٥) و(١١٢٦) و(١١٢٧) و(١١٢٨) و(١١٢٩) و(١١٣٠) ورياض الصالحين للامام النووي (٤٦٩).

وإلى ذلك ذهب العلامة الرازي والألوسي والبروسوي وغيرهم[(١)]. أي: إن النار انما أعدت بالاساس للكافرين خاصة، فهي مطلقاً مخلوقة إليهم وبالذات، ولكن يطهر فيها غيرهم من المذنبين المؤمنين بالتبعية، والصفة ليست للتخصيص.

٢- وأما الحديث الشريف فالجواب عليه هو أني وجدت مذهب أهل السنة وما عليه أهل الحق من السلف والخلف أن من مات موحداً دخل الجنة قطعاً على كل حال. فان كان سالما من المعاصي، كالصغير والمجنون والتائب توبة صحيحة من الشرك، أو غيره من المعاصي – في حالة عدم حدوثه معصية أخرى بعد توبته، والموفق الذي لم يبتل بمعصية أصلاً، فكل هذا الصنف يدخلون الجنة ولا يدخلون النار اصلاً.

وأما من كانت له معصية كبيرة ومات من غير توبة فهو في مشيئة الله تعالى، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة أولاً، وجعله كاصحاب القسم الأول، وإن شاء سبحانه عذبه القدْر الذي يريده – جل جلاله – ثم يدخله الجنة خالداً فيها[(٢)].

وقال الإمام النووي – رحمه الله – في بيان معنى الحديث: [محمله على أنه غفر له، أو اخرج من النار بالشفاعة ثم ادخل الجنة.

فيكون معنى قوله –ﷺ–: (.. دخل الجنة) أي: دخلها بعد مجازاته بالعذاب][(٣)].

قلت: ولا بد من تأويل هذا الحديث الشريف بهذه الصورة، توفيقا بينه وبين النصوص الشرعية الأخرى التي اشارت بظاهرها إلى عذاب بعض العصاة المؤمنين، بعدا عن التناقض الموهوم. والله تعالى اعلم.

---

(١) تفسير الماوردي ١/ ٧٨ وتفسير الرازي ٢/ ١٢٢ وروح المعاني ١/ ١٩٩ وتفسير روح البيان ١/ ٨١.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١/٣٣١.

(٣) نفس المصدر ١/٣٣٣.

رأي المعتزلـــــة(*):

يقول المعتزلة: ان مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن لعدم وجود الأعمال الصالحة التي هي جزء من حقيقة الإيمان، ولانتفاء الكف عن المحرمات. وليس بكافر لأنه ليس بجاحد، ولا يكون عندئذ إلا في منزلة بين المنزلتين، أي: بين الإيمان والكفر، لا بين الجنة والنار(١). وهو فاسق، لا مؤمن، ولا كافر، ولا مسلم(٢).

رأي المعتزلة في تخليد مرتكب الكبيرة:

وبالاضافة إلى كون مرتكب الكبيرة عند المعتزلة غير مؤمن وغير كافر فهو خالد مخلد في نار جهنم. فقد ذكر الإمام أبو منصور البغدادي والإمام الجويني والاستاذ الاسفرائيني وتابعهم على ذلك الإمام الشهرستاني: ان المعتزلة اتفقوا على ان المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض.

واذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار مع الكافرين، لكن يكون عقابه اخف من عقاب الكفار(٣).

(*) المعتزلة: هم اتباع واصل بن عطاء (المولود ٨٠ هـــ – والمتوفى ١٣١هـــ) كان شيخ المعتزلة ورئيسهم، وهو اول من لقب بالمعتزلي، وكان تلميذا للامام الحسن البصري فلما خالفه في رأيه في مرتكب الكبيرة اعتزل شيخة البصري إلى سارية من سواري المسجد الذي كان يدرس فيه فلقب حينذاك بالمعتزلي.

وأصول الدين عند المعتزلة خمسة امور وهي: التوحيد،والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مقالات الإسلاميين ٢١٦/١ والفرق بين الفرق ص ٧٨-٧٩ وطبقات المعتزلة ص ٣٠٢ وشرح الأصول الخمسة ص١٢٢-١٢٣ وتاريخ الفرق الإسلامية للغرابي ص٧٣ وما بعدها.

(١) مقالات الأشعري ١٨٩/١ والتوحيد للماتريدي ص٣٣٤ والفرق بين الفرق ص١١٥ وشرح الأصول الخمسة ص١٣٧ ومابعدها و ص٦٩٥ وما بعدها والانتصار للخياط ص١٦١ وفضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص٣٥٠ والارشاد ص٣٨٦ والبداية للصابوني ص١٤١ وشرح المواقف ٣٣٩/٨ وتقريب المرام في شرح تهذيب الكلام ٢٦٤/٢ وتاريخ الجهمية والمعتزلة ص ٤٣ والعقد الثمين ص٨١ والمعتزلة لزهدي ص٥١-٥٢ والمعتزلة بين الفكر والعمل ص٤٤-١٤٤ وامام أهل السنة والجماعة أبو منصور الماتريدي ص٣٩٤.

(٢) التنبيه والرد ص٣٦.

(٣) انظر: مقالات الأشعري ١٨٩/١ والفرق بين الفرق ص١١٩ والتبصير في الدين ص٤٠ والارشاد =

دليلهم على المنزلة ومناقشته:

اعتمد المعتزلة في جعل صاحب الكبيرة بين الإيمان والكفر على: ان فسق مرتكب الكبيرة معلوم وفاقا، وإيمانه مختلف فيه، أي ان الأمة مجمعة على ان صاحب الكبيرة فاسق، واختلفوا في كونه مؤمنا أو كافرا، فنحن نترك المختلف فيه ونأخذ بالمتفق عليه.

ويرد عليهم: بأنكم لم تأخذوا بالمتفق عليه كما تدعون، لأن المتفق عليه عند المسلمين هو ان مرتكب الكبيرة اما مؤمن — وهو مذهب جمهور أهل السنة — أو كافر كفر اعتقاد- وهو قول الازارقة — أو كافر كفر نعمة — وهو قول الزيدية من الشيعة والنجدات من الخوارج ولم يقل أحد منهم بالواسطة بين الكفر والإيمان وبهذا كنتم قد أحدثتم قولا خالفتهم به ما أجمع عليه سلف الأمة من عدم وجود منزلة ثالثة تتوسط بين الإيمان والكفر[(١)].

أدلتهم[(٢)] على تخليد مرتكب الكبيرة في النار ومناقشتها:

١- قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[(٣)].

٢- وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾ ﴾[(٤)].

٣- وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ... ﴾[(٥)].

=

للجويني ص٣٨٦ والمسامرة ٢/١٧٥وفي علم الكلام ٢/١٦١والمعتزلة ص١٦٢.

(١) انظر: المواقف بشرح السيد ٣٣٩/٨ وشرح المقاصد للتفتازاني ٢٠٢/٤و٢٠٣ وشرح النسفية بحاشية رمضان ص٢٤٢ وشرح الفقه الاكبر للقاري ص٦٠ والوسيلة ص٦٦٢ والعقد الثمين ص٨١.

(٢) أي: ادلة الخوارج والمعتزلة كما واعدناك أيها الباحث في موطن ذكرنا لرأي الخوارج.

(٣) البقرة: الآية (٨١).

(٤) النساء: الآية (١٤).

(٥) النساء: الآية (٩٣).

مناقشة الأدلة:

١- لاحجة للمعتزلة ومن سبقهم في قولهم في خلود صاحب الكبيرة في النار لأن الاحاطة انما تصح في الحقيقة في شأن الكافر، اماغيره فهو حتى ولو لم يكن له سوى تصديق قلبه، واقرار لسانه فلا تحيط به خطيئته لكون قلبه ولسانه منزهين عن الخطيئة. واعني بهذا ان الاحاطة من كل وجه لا يتصور حصولها في حق المؤمن، لأنه بإيمانه يمنعها من كل وجه.

وأجاب العلامة الإيجي – رحمه الله – بأنا لا نسلم ان من له حسنات من الإيمان والطاعات فقد أحاطت به خطيئته، بل ان من احاطت به خطيئته لا يكون له حسنة اصلا، ومن كانت له حسنات كانت خطيئته من بعض جوانبه، لا محيطة به(١).

٢- وقال الإمام الرازي – رحمه الله – في رد استدلال المعتزلة بالآية الثانية: [اجمعنا على ان هذا الوعيد مختص بعدم التوبة، لأن الدليل دل على أنه إذا حصلت التوبة لم يبق هذا الوعيد، فكذا يجوز ان يكون مشروطا بعدم العفو، فإن بتقدير قيام الدلالة على حصول العفو امتنع بقاء هذا الوعيد عند حصول العفو](٢).

ونحن لا نسلم ان من ارتكب كبيرة ما فقد تعد حدود الله ورسوله – ﷺ – بل الحق ان يقال أنه تعدى بعض حدوده(٣).

٣- واما الآية الثالثة فمعناها: ومن يقتل مؤمنا مستحلا قتله فجزاؤه جهنم خالدا فيها. ولايستحل قتل المؤمن إلا الكافر الذي لا تجري عليه ظواهر الاحكام. وبذلك قال جمهور المفسرين، وأكثر المتكلمين كالجويني والشهرستاني والتفتازاني(٤).

---

(١) المواقف ٨/٣٠٥.

(٢) التفسير الكبير ٩/٢٢٨.

(٣) المواقف ٨/٣٠٥.

(٤) انظر: الارشاد ص٣٨٨ والبداية للصابوني ص١٤٤ ونهاية الاقدام ص٤٧٧ وتفسير النسفي ١/ ٢٩٦ وتفسير القرطبي ٥/٣٣٥ وشرح النسفية بحاشية رمضان ص٢٤٧ وما بعدها وتفسير الخازن ١/٤١٦ وروح المعاني للعلامة الآلوسي ٥/١١٧ وتفسير روح البيان ٢/٢٦١ وصفوة التفاسير ١/٢٩٦ ومواهب الرحمن للشيخ المدرس ٣/٣٢ و٣٣.

رأي أهل السنة والجماعة:

مرتكب الكبيرة في عقيدة أهل السنة والجماعة – ومنهم الأشاعرة – مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته. وعلى هذا القول مضى سلف الأمة من أهل البيت والصحابة[(١)]، مثل: سيدنا الإمام علي – عليه السلام والرضوان –[(٢)]، وسيدنا معاذ بن جبل –رضي الله عنه–[(٣)] وغيرهما.

واعلام التابعين[(٤)]. وهو ظاهر كلام الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله– حيث كان يقول في مرتكب الكبيرة: [يسمى مؤمنا ناقص الإيمان، ولانسلبه الاسم، بل نقول مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته][(٥)].

واهل السنة لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر غير الشرك، ولا يسلبون من الفاسق الملي اسم الإيمان بالكلية ويخلدونه في النار كما تقوله المعتزلة، بل يقولون: هو مؤمن ناقص الإيمان.

فلا يعطى الاسم المطلق، ولا يسلب عن مطلق الاسم[(٦)]. ومن مات من المؤمنين على أي كبيرة غير مكفرة بلا توبة، لا يقطع له بعفو ولا عقاب، بل هو في مشيئة الله تعالى[(٧)]. ان شاء الله تعالى ادخله الجنة من غير عذاب، وان شاء ادخله بعد العذاب فيخلد في الجنة.

وقد اطال كثير من المتكلمين القول في بيان رأي أهل السنة والجماعة – ومنهم الاشاعرة – في مرتكب الكبيرة، بيد اني ألفته لا يخرج عما ذكرت ولا يزيد عليه شيئا،

وانظر: التمهيد للعلامة الباقلاني ص٣٥٥. فمعنى الآية: من يقتل مؤمنا لأجل إيمانه فجزاؤه كذا وكذا ولاشك ان من يقتله لذلك لا يكون إلا مستحلا ولا يكون إلا كافرا فيخرج هذا القاتل عن محل النزاع.

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ١١٨.

(٢) تفسير القرطبي ١٦/٣٢٣.

(٣) شرح الفقه الاكبر للماتريدي ص١٨.

(٤) الفرق بين الفرق ص١١٨.

(٥) المعتمد للقاضي أبي يعلى الحنبلي ص١٨٨.

(٦) فتاوى ابن تيمية ٣/١٥١ و١٥٢.

(٧) شرح جوهرة التوحيد ص٢٤٥.

فآثرت عدم ذكر ما قالوه هنا مفصلا خشية الاطالة[1].

أدلتهم على إيمان مرتكب الكبيرة:

استطاع أهل السنة والجماعة ان يستدلوا على إيمان مرتكب الكبيرة بآيات كثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة، واليك بعض منها:

١- قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ...﴾ إلى ان قال سبحانه: ﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾[2]. ووجه استدلالهم بهذا النص هو أن الله تبارك وتعالى لم يخرج القاتل من جملة الذين آمنوا، بل جعله اخا لولي المقتول: ﴿ ...مِنۡ أَخِيهِ ...﴾ .

والمراد بالاخوة هنا هي اخوة الإيمان والعقيدة والدين. ويؤيد ما ذكرته قول العلامة ابن حزم (ت — ٤٥٦ هـ) — رحمه الله -: [ابتدأ الله — عز وجل- بخطاب أهل الإيمان، من كان فيهم قاتل أو مقتول. ونص تعالى على ان القاتل عمدا وولي المقتول اخوان — في الدين — وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾[3] فصح أن القاتل عمدا مؤمن بنص القرآن، وحكمه له بأخوة الإيمان، ولا يكون للكافر مع المؤمن بتلك الاخوة — صلة -][4].

قلت: وبهذا قال المتكلمون ومنهم العلامة الصابوني[5]، وابن تيمية الحراني[6]، والقاضي علي بن أبي العز الدمشقي[7] والعلامة الاذرعي[8]، وغيرهم من العلماء[9].

(١) ومع ذلك فيمكنك الرجوع إلى المصادر الآتية: العقل وفهم القرآن للمحاسبي ص٣٧٣ وما بعدها ومقالات الأشعري ٣٢٢/١ وأصول الدين للبغدادي ص٢٤٢ وتفسير الإمام الرازي ٣/ ١٥٥ و٧٠/٢٧ وتبيين كذب المفتري لابن عساكر ص١٥١ والملل والنحل للشهرستاني ١٠١/١ وأصول العقيدة الإسلامية ص١٢٤ وص١٣٥ وفتاوى ابن تيمية ٢٨٢/٣ والمعتقد المنتقد ص٩٢ وشرح جوهرة التوحيد ص ٢٤٥و٢٤٦ ومابعدها وتقريب المرام ٢٦٥/٢ ونشر اللئالي ص ٢١٤ ومابعدها والمدرسة الأشعرية للباحث محسن الراوي ص١٦٨.

(٢) البقرة: الآية (١٧٨).

(٣) الحجرات: الآية (١٠).

(٤) الفصل ٢٣٥/٣ و٢٣٦.

(٥) كتاب البداية س ١٤١.

(٦) الفتاوى ١٥١/٣.

(٧) شرح العقيدة الطحاوية ٤٤٢/٢.

(٨) أصول العقيدة الإسلامية ص ١٢٨و١٢٩.

(٩) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص٩٦ وكتاب الإيمان للدكتور محمد نعيم ص٢٢٢.

٢- وعن أبي ذر الغفاري - ﷺ - قال سيدنا رسول الله - ﷺ -: **(مامن عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، وان زنى وان سرق، وان زنى وان سرق، وان زنى وان سرق على رغم انف أبي ذر)**[١].

ويمكننا ان نستفيد من هذا الحديث الصحيح ان كل من مات على توحيد الله - تبارك وتعالى - دخل الجنة مهما ارتكب من ذنوب ووقع في سيئات. وبما أنه قد ثبت بالاجماع أنه لا يدخل الجنة إلا من كان مؤمنا، ثبت لدينا بالضرورة إيمان مرتكب الكبيرة سواء كانت كبيرته زنى أو سرقة أو غيرها، لأن ما ذكر في نص الحديث الشريف كان على سبيل المثال لا الحصر. والله تعالى اعلم.

ادلة أهل السنة على عدم خلود مرتكب الكبيرة في النار:

اعتمد أهل السنة في نفي تخليد مرتكب الكبيرة من المؤمنين في النار على مجموعة كثيرة من الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الصحيحة. ومن تلكم الادلة اخترنا لك قول الله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ ﴾[٢]. فهذه الآية المباركة تدل على عدم خلود صاحب الكبيرة في النار، لأن الإيمان نفسه عمل خير - بل هو افضل الأعمال - ولا يمكن ان يرى المؤمن جزاء إيمانه قبل دخول النار ثم يدخل بعد ذلك النار فيخلد فيها، لأنه باطل بإجماع الأمة، فتعين اذن ان يكون جزاؤه على الإيمان بعد خروجه من النار[٣]. وبخروجه من النار يبطل قول من ذهب إلى تخليده فيها مثل الخوارج والمعتزلة ومن وافقهما في قولهما هذا. والله تعالى اعلم.

---

(١) رواه مسلم وقد تقدم ذكرا وتخريجا في ادلة المرجئة على ايمان مرتكب الكبيرة.

(٢) الزلزلة: الآية (٧).

(٣) شرح النسفية للعلامة التفتازاني بحاشية رمضان افندي ص٢٥٢ وص٢٥٣ وشرح جوهرة التوحيد ص ٢٤٥ وص٢٤٦ والمدرسة الأشعرية ص١٦٩.

رأي الباحـــــث:

خلاصة آراء المتكلمين:

١- الخوارج: مرتكب الكبيرة فاسق كافر (نعمة وإيمان) — خالد في النار.

٢- المرجئة: مرتكب الكبيرة فاسق مؤمن، لا يعذب بالنار مهما ارتكب من الكبائر.

٣- المعتزلة: مرتكب الكبيرة فاسق لا مؤمن، ولاكافر، خالد في النار.

٤- الاشاعرة: مرتكب الكبيرة مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، وتوضيحه:

أ- مرتكب الكبيرة مؤمن إيمانا غير كامل.

ب- ليس كافرا كما قالت الخوارج.

ج- وليس منافقا في دينه وإيمانه.

د- وليس في منزلة بين المنزلتين كما قالت المعتزلة.

هـــ- تحت المشيئة الإلهية، من غير قطع بحاله بعد الحساب وقبل دخول الجنة، كما قطعت المرجئة.

و- القطع بدخوله الجنة وخلوده فيها، إما مباشرة بعد الحساب من غير عذاب يسبق، وإما من بعد عذاب يسبق.

آثار هذه الآراء من الناحية الفكرية:

١- من يتأمل كثيرا في رأي الخوارج ويطيل نظره في آثاره في كيان الأمة الإسلامية ونحن على ابواب القرن الواحد والعشرين، والمسلمون يعيشون في داخل ثورات من الفتن، وعواصف شديدة من المحن، وفي خضم الصراعات الحضارية، والزلازل الفكرية، والتفجرات الجنسية الفاضحة، وإلى انهيار الاخلاق الإسلامية، وغياب الهوية الايمانية الحقيقية، وإلى السقوط التربوي، وفساد النظام الاداري، وما يحاك للإسلام من معارك داخلية، وما ينسج له من مؤامرات ماسونية. اقول يجد هذا الرأي يضر بوحدة الأمة الإسلامية اضرارا بالغا، ويحطم فيها وحدتها، ويضعف فيها قوتها، ويغير فيها اتجاهها في جهادها، وينأى بها عن حقيقة حضارتها.

انه رأي يجعل المسلمين — على ضعف إيمانهم — اشتاتا مبعثرة، وامة ممزقة، يزرع بين ابناء الإسلام العداء والحسد والبغض والنفور، ويشجع العصاة منهم على الفساد والغفلة والفجور. ويقضي على ثلثي ابناء المسلمين بأنهم ابناء زنى،في حين صار من هؤلاء كثير من علماء الأمة وصالحيها ومصلحيها. فيولد ذلك

الشك في حضارة الإسلام ورجالها الاجلاء، واعلامها العظماء.

٢- وأما رأي المرجئة فإنه يزيد الطين بلة. ذاك لأن أكثر مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة اصبحت اسيرة تقاليد المجتمع الغربي واعرافه واخلاقه. بسبب الاحتكاك المباشر بالحضارة الغربية الكافرة، وغياب الوعي الكامل والفكر اليقظ لتحديد ما هو مفيد في الحضارة الغربية ويمكن الاستفادة منه، وماهو مبيد لأخلاق الأمة ويمكن الاستغناء عنه. فتحطم - بسبب الهجرات الجماعية لسلوكيات الغرب وافكاره - الكثير من المقاييس الصحيحة، واندثرت حقائق الأمة وغاب عن اذهان مثقفيها مسئوليتهم وواجبهم للنهوض بالأمة من جديد، ونسى ابنائنا المقلدون تاريخ عداء الغرب لآبائهم واجدادهم، واعتداءاتهم على حرمات امهاتهم واخواتهم، وحقدهم الدفين واستغلالهم لثرواتهم وسلبهم لخيراتهم وغصبهم لأموالهم.

لقد نسى ابنائنا كل ذلك فيأتي رأي المرجئة ليسهل بدوره قبول نظرية فرويد الجنسية الاباحية، التي تجعلنا ننكر ونهمل أكبر مقررات ديننا الإسلامي الحنيف، ما دام ارتكابنا للكبائر لا يمنعنا من دخول الجنة ولا يدخلنا في النار. اذن فلا مانع من الدعوة إلى اطلاق الغرائز، وتحريرها من قيود الاخلاق وضوابط الدين الحنيف. الأمر الذي يشجع مجتمعاتنا المعاصرة على التقليد الاعمى والركض السريع وراء كل محرر جديد من الحياء والإيمان. فتزداد بذلك امتنا تدهورا وسقوطا، وانحلالا وضعفا. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾[1].

٣- وفي خضم هذا الضياع الخلقي والتعطيل الفكري والتوقف العقلي يأتي رأي المعتزلة ليزيد الأمة ضياعا وحيرة ودهشة،وذلك عندما يجعل مرتكب الكبيرة متذبذبا، لا هو من جملة المؤمنين الناجين، ولا هو من جملة الكافرين الهالكين، لا هو من الصالحين الفائزين المنعمين، ولاهو من الطالحين الخاسرين المعذبين، وإنما هو شيء بينهما لكنه مع ذلك خالد في النار مع الكافرين.

انه تناقض وتضارب، يجعلنا نجهل مصير الفاسق وكيفية التعامل معه. ونشر هذه

---

(١) سورة ق: الآية (٣٧).

الصورة الغامضة عن مرتكب الكبيرة تجعل الناس يموجون في امواج من القلق والتفكير والفوضى والحيرة. فيمل بعضهم من التفكير في هذه القضية ويتعب من السير الفكري بحثا عن الحقيقة حتى يقرر اخيرا غلق ملف الفاسق واعطائه حريته — مؤقتا- إلى وقت آخر في المستقبل المجهول، يمكن ان تبحث فيه القضية مرة أخرى. بينما يقرر الآخر عدم البحث والتدقيق فيه وجعله مؤمنا، ليواصل تقليده الاعمى وطلبه للمظاهر القاتلة والتقاليد الفاسدة.

٤- ولكنك عندما تنظر إلى رأي أهل السنة والجماعة في مرتكب الكبيرة وهو: مؤمن بما معه من الإيمان، وفاسق بسبب ما ارتكبه من الكبائر والعصيان. تجده رأيا معتدلا متوسطا، لماذا ؟

لانهم بقولهم فيه (مؤمن) يحافظون عليه من الضياع في احضان الماركسية والفرويديونية وغيرهما، حيث يجددون له انتسابه إلى دينه الحق ولايميزونه عن بقية اخوانه المؤمنين لأنه يشاركهم في عقيدتهم الإسلامية نفسها.

وبقولهم فيه (فاسق) يحمّلونه تبعات اعماله السيئة، ويصححون له ما انحرف في فكره وافعاله واخلاقه، وينبهونه على درجات ابتعاده عن طريق اخوانه المؤمنين، دون ان يعزلونه عنهم.

وبالمحافظة عليه من الضياع يحافظون على الأمة كلها لأنه يمثل جزءا من هذه الأمة العظيمة، وبالمحافظة على الأمة من الضياع والذوبان تتحقق الوحدة الإسلامية المنشودة، وتنهض حضارة الإسلام لترفع عن وجهها غبار الزمن الطويل وتصرخ في العالم صرختها، وتدوي في الآفاق دويها.

وبتحديدهم تبعات اعماله وواجباته واشعاره بتقصيره، وتعريفه بآثار اعماله، وبتنفيذهم عليه حكم الإسلام، يحافظون على المجتمع من الفساد التربوي والاخلاقي في انظمة الحياة كلها، الادارية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتعليمية وغيرها فيحدون من جريمة السرقة والزنا والرشوة وشرب الخمر والقتل وسائر الكبائر الأخرى. وبالتالي فإن هذا الرأي في مرتكب الكبيرة يبني مجتمعا إسلاميا راقيا، مجتمعا مترابطا قويا.

وهذا في الحقيقة هو رأي الباحث في مرتكب الكبيرة، حيث لا يعطي له الاسم المطلق، ولا يسلب عنه مطلق الاسم. أي لا يقول فيه كامل الإيمان ولا يسلب

عنه أصل الإيمان، وإنما هو يتوسط فيه فيقول: ناقص الإيمان.

لايقول فيه كامل الإيمان مثل المرجئة فيدعه يفعل ما يطيب لنفسه من الشهوات والمعاصي، ولايقول فيه كافر فيخلده في النار مع الكفار مثل ما قال الخوارج والمعتزلة وإنما يقول فيه مؤمن ناقص الإيمان لأنه يشهد ان لا إله إلا الله وان محمدا -ﷺ- رسول الله، ولانه يصدق بقلبه بأركان الإيمان الستة. وعندئذ تتحقق الوسطية.

وكان مما يتعجب منه ويسترعي الانتباه ويثير الدهشة والتساؤل هو ان المعتزلة يذكرون في كتبهم اجماع المسلمين على صحة الصلاة على من مات من أهل القبلة من غير توبة، والدعاء والاستغفار له، ودفنه في مقابر المسلمين، مع العلم بارتكابه الكبائر وبعد الاتفاق على ان ذلك لا يجوز لغير المؤمن - وهو دليل على عدم كفر مرتكب الكبيرة - فهم لا يقولون في مرتكب الكبيرة إنه مؤمن بل يخلدونه في النار.

ونحن نعتقد ان من آمن بالله تعالى فقد استمسك بالدين الحق الذي لا ينقطع خيره إلى الابد، لقوله تعالى: ﴿ ...فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(١) فكيف يمكن اذن انتفاع المؤمن بالله تعالى بخير هذا الدين وهو في نار جهنم مخلد. والله تعالى اعلم.

وصدق رسول الله -ﷺ- عندما قال: **(من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة) وفي رواية: (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة)**(٢).

(١) سورة البقرة: الآية (٢٥٦).

(٢) رواهما مسلم / صحيح مسلم بشرح النووى ١/ ٣٣١.

المبحث الثالث

التحسين والتقبيح العقليان

اختلف علماء الكلام في قابلية العقل وامكانيته، أيستطيع ان يدرك حكم الشرع الشريف دون وساطة الرسول -ﷺ- في هذا الفعل وذاك، ويكون هذا الادراك مناط التكليف فيترتب عليه ثواب وعقاب وحساب، أم لا يستطيع العقل ان يميز بين الحسن النافع من القبيح الضار إلا بواسطة الشرع ؟ فها هنا حصل خلاف كبير بين العلماء ونحن نجمله لك باختصار غير مخل ليتبين لنا جميعا صاحب المنهج الوسط في هذه القضية.

وقد اطلق على هذه القضية قضية التحسين والتقبيح العقلية. ومن الضروري بمكان ان نعرف للباحث المراد من لفظتي التحسين والتقبيح. فالحسن: هو موافقة الشيء غرض الفاعل، والقبيح: هو مخالفة الشيء غرض الفاعل(١). وهذا التعريف بهذه الصورة اولى من تعريف بعضهم بملائمة الطبع ومنافرته، لأن ملائمة الغرض اعم كما يظهر للمتأمل(٢). ومنهم من قال غير ذلك واطال كثيرا.

وخلاصة المسألة ان الحسن والقبح يطلقان على ثلاثة معان:

١- كون الشيء ملائما للغرض كالفرح ومنافرا له كالحزن، وهذا يدرك بالعقل بالاتفاق.

٢- وكون الشيء صفة كمال كالعلم وصفة نقص كالجهل،وهذا يدرك بالعقل بالاتفاق أيضاً.

٣- وكون الشيء متعلق المدح والذم كالعبادات والمعاصي، وهذا هو الذي حصل فيه الخلاف بين العلماء(٣). ولم ار أي خلاف لهم فيما عدا هذا، بل على العكس وجدت اتفاق الاشعرية والماتريدية والمعتزلة في ادراك العقل الحسن والقبح في ملاءمتهما غرض الفاعل ومخالفتهما له، وفي كون الحسن صفة كمال والقبح صفة

---

(١) المسايرة ص ١٥١.

(٢) انظر: المستصفى للامام الغزالي ٣٦/١ وميزان الأصول للسمرقندي ١٥١/١ والمسايرة ص١٥١ وارشاد الفحول للشوكاني ص٧.

(٣) تحقيق ميزان الأصول ١٥١/١ وارشاد الفحول ص ٧.

نقص. ومحل النزاع والخلاف يظهر لنا في كون الفعل متعلق المدح والثواب، والذم والعقاب. أي: هل يستطيع العقل ان يستقل بنفسه في ادراك حكم الشرع الشريف في الفعل قبل البعثة ونزول الوحي ؟ ويترتب عليه الجزاء؟

اقوال المذاهب الإسلامية:

المذهب الأول: قال المعتزلة: تنقسم الافعال إلى قسمين:

١- منها ما يستطيع العقل ان يستقل ويجزم بثبوت حكم الشرع فيه بالايجاب له، والثواب بفعله، والعقاب بتركه إذا ادرك العقل حسنه على وجه يستلزم تركه له قبحا، كشكر المنعم – جل جلاله وعم نواله- كما يستطيع ان يجزم العقل بثبوت حكم الشرع أيضاً في الفعل بالمنع منه والعقاب بفعله، والثواب بتركه إذا ادرك العقل قبحه على وجه يستلزم تركه له اجرا وثوابا.

وقول المعتزلة هذا مبني على ان للفعل في نفسه حسنا وقبحا ذاتيين يقتضيهما ذات الفعل كما ذهب إليه قدماؤهم، أو أن للفعل حسنا وقبحا ثبتا له من اجل صفة حقيقية فيه، توجبهما له كما ذهب إليه الجبائية(١).

فحسن الفعل أو قبحه أمران عقليان لا شرعيان، أي لا يتوقف ادراك ذلك على الشرع. اما حكم الله تعالى فإنه يكون موافقا لما ادركته عقولنا من حسن الافعال أو قبحها، فما رآه العقل حسنا فهوعند الله حسن، ومطلوب من الإنسان فعله، ويترتب على الفعل المدح والثواب، وعلى الترك الذم والعقاب. وما رآه العقل قبيحا فهو عند الله قبيح، ومطلوب من الإنسان تركه، ويترتب على الترك المدح والثواب، وعلى الفعل الذم والعقاب. وهذا النوع من الافعال التي يستطيع العقل ادراك حكم الله تعالى فيها يمثل معظم الافعال وأكثرها.

٢- ومن الافعال ما لا يستطيع العقل ان يستقل في ادراك الحسن والقبح فيها، فلا يحكم نتيجة ذلك على هذا النوع من الافعال بشيء حتى يرد الشرع كاشفا ومبينا. كحسن صوم آخر يوم من شهر رمضان المبارك، وقبح صوم اول يوم من

(١) انظر: المواقف للايجي وشرحه للسيد الشريف، دار الطباعة العامرة –مصر – سنة ١٢٩٢هـ، ٣٩٣/٢ وشرح العضدية للعلامة الدواني، المطبعة العثمانية – إستانبول – سنة ١٣١٦هـ، ٢/ ٢١٤.

شوال إذ لا استقلال للعقل في ادراك أي شيء منهما.

ويترتب على رأي المعتزلة هذا ان الإنسان مكلف قبل بعثة الرسل الكرام – عليهم الصلاة والسلام- أو قبل بلوغ الدعوة إليه – حتى ولو بعد البعثة – إذ عليه ان يفعل ما ادرك العقل حسنه، وان يترك ما ادرك العقل قبحه(١). وما يترتب على ذلك من ثواب اوعقاب. وقد بالغ بعض المتأخرين عندما قال في معرض بيانه مذهب المعتزلة في هذه المسألة: [وذهبت المعتزلة إلى ان الاحكام كلها ثبتت بالعقل](٢).

والحق الذي نراه هو ان المعتزلة ما قالوا كل الاحكام ثبتت بالعقل، وإنما قالوا أكثرها أو معظمها مما استطاع العقل ان يدرك وجه الحسن أو القبح فيها، ومالم يستطع العقل ادراكه من الافعال فان الشرع الشريف يأتي كاشفا ومبينا، وفيما سبق مثال وضح هذا النوع من الافعال والله تعالى اعلم.

ولذلك يقول أحد اعلام المعتزلة وكبارها وهو القاضي عبد الجبار الهمداني: [ان السمع لا يوجب قبح شيء ولا حسنه، وإنما يكشف عن حال الفعل عن طريق الدلالة كالعقل] ويقول أيضاً: [وكما ان النهي الوارد عن الله عز وجل يكشف عن قبح القبيح، لا أنه يوجب قبحه، والأمر الإلهي يكشف عن الحسن، لا أنه يوجبه فكذلك العقل يكشف عما هو واقع في نفس الأمر](٣).

ادلة المعتزلة ومناقشتها:

١- استدل المعتزلة على صحة مذهبهم: بأن شكر المنعم – سبحانه وتعالى – واجب عقلا، لأن كل عاقل إذا رجع إلى نفسه يرى عليه نعما جليلة ظاهرة وباطنة، ومن المعلوم ان من أنعم عليه بمثل هذه النعم ولم يلتفت إلى منعمه، ولم

---

(١) الارشاد إلى قواطع الادلة في أصول الاعتقاد للجويني ص٢٥٨ وما بعدها والمستصفى للامام الغزالي ٣٦/١ والابهاج في شرح المنهاج للشيخ السبكي ١٣٨/١ وما بعدها وارشاد الفحول ص٧ والمسامرة للكمال بن أبي شريف ص١٥٢ وما بعدها والمسايرة للكمال بن الهمام ص١٥٢ و١٥٣ والنظام الفريد بتحقيق جوهرة التوحيد للشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد ص٣٢ والوجيز في أصول الفقه للدكتور عبد الكريم زيدان ص٧٠.

(٢) النظام الفريد ص٣٢.

(٣) المغني في العدل والتوحيد للقاضي عبد الجبار المعتزلي، تحقيق الدكتور أحمد فؤاد الاهواني، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، مطبعة مصر، القاهرة، ط١٩٦٢،١م، ٦٤/٦.

يراع حقه، ولم يتقرب إلى مرضاته، ذمه العقلاء قاطبة، وشُكْرُ المنعم لا يتصور من الشاكر إلا بعد معرفة المنعم، ومعرفته انما تكون بالنظر، فالنظر اذن واجب، وكل ذلك احكام عقلية فوجوبه اذن عقلي(١)، لا سمعي.

وقد رُدّ هذا الدليل بأن شكر المنعم — جل جلاله وعم نواله — ليس بواجب قبل البعثة، لماذا ؟ لأنه لو وجب لحصل العقاب والعذاب بتركه، ولم يتوقف هذا التعذيب على بعثة الرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام — في حين ان الله تعالى يقول: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾(٢) —(٣) فبطل الاستدلال بهذا الدليل.

٢- ان الحسن والقبح لو لم يكونا معلومين قبل الشرع لاستحال ان يعلما عند وروده، لأنهما ان لم يكونا معلومين قبله فعند وروده بهما يكون واردا بما لا يعقله السامع ولا يتصوره، وذلك محال، فوجب ان يكونا معلومين قبل وروده.

ورد دليلهم هذا أيضاً: بأن الموقوف على الشرع ليس تصور الحسن والقبح، فإنا قبل الشرع نتصور ماهية ترتب العقاب والثواب، والمدح والذم على الفعل، ونتصور أيضاً عدم هذا الترتب. فتصور الحسن والقبح لا يتوقف على الشرع وإنما المتوقف عليه هو التصديق والإيمان، فأين أحدهما من الاخر(٤).

رأي الاشعرية وأدلتهم:

المذهب الثاني: قال الاشاعرة قاطبة: ليس للفعل نفسه حسن ولا قبح ذاتيان، ولا لصفة توجبهما، وإنما حسنه ورود الشرع بإطلاقه، وقبحه ورود الشرع بتحريمه.

وإذا ورد الشرع الشريف بالاذن لنا فيه أو بحظره حكمنا حينئذ بأنه حسن أو

---

(١) المواقف للايجي دار الطباعة العامة، سنة ١٣١١هــ، ١٦٧/١ وحاشية الشيخ العلامة اسماعيل الكلنبوي (ت-١٢٠٥ هــ) على شرح الدواني، دار الطباعة العامرة، سنة ١٣١٧ هــ، ١٨١/١.

(٢) سورة الإسراء: الآية (١٥).

(٣) منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي (ت — ٦٨٥هــ) رحمه الله وهو بشرح الابهاج ١/ ١٣٩ والابهاج في شرح المنهاج للسبكي ١٣٩/١ وانظر رد الإمام الغزالي عليه في المستصفى ١/ ٣٩ ورد الشيخ محمد عبده عليه أيضاً في حاشية الإمام محمد عبده على العقائد العضدية، وشرحه للدواني، المطبعة الخيرية، سنة ١٣٣٢هــ، ص٦٧.

(٤) ارشاد الفحول للشوكاني ص٨.

قبيح. وعلى هذا فالاشاعرة – رحمهم الله تعالى – يرون ان حال الفعل بعد مجيء الشرع بالنسبة إلى الوصفين المذكورين- الحسن والقبح – كحاله قبل وروده.

بمعنى ان الفعل كما أنه قبل نزول الوحي أو قبل بلوغ الدعوة، ليس لذاته حسن ولا قبح، فكذلك بعد ورود الشرع ليس لذاته حسن ولا قبح، وإنما الحاكم في حسن الفعل وقبحه – بالمعنى الذي تقدم – هو الشرع الشريف.

ولا يعني هذا أنه لا فائدة للعقل ما دام الشرع هو الذي يحدد حسن الفعل وقبحه، لأن العقل في نظر الاشاعرة آلة فهم الخطاب، ومعرفة صدق الناقل، والمقصود من كلامهم هو أنه لا يعرف قبل ورود الشرع الشريف ماينبغي ان يكون مأمورا به، أو منهيا عنه شرعا، فالشرع هو المثبت والمبين ولو عكسنا القضية فحسن ما قبحه وبالعكس لم يكن ممتنعا(١).

وخلاصة مذهب الاشاعرة في هذه المسألة هو ان الحسن ما جاء الشارع بطلب فعله، والقبيح ما جاء الشارع بطلب تركه، ولا يستقل العقل بمعرفة الله تعالى، ولا بإدراك أي حكم من احكامه من غير وساطة الرسول –ﷺ– وتبليغه.

والافعال إنما تستمد حسنها وقبحها من أمر الشارع الحكيم ونهيه، لا من حسن أو قبح في ذواتها.

وبنوا على مذهبهم هذا ان لا حكم لله تعالى في افعال العباد قبل بعثة الرسل – عليهم الصلاة والسلام – ولا يجب عليهم شيء، ولايحرم عليهم شيء، وحيث لا حكم فلا تكليف، وحيث لا تكليف فلا حساب ولا مدح ولا ثواب، ولا ذم ولا عقاب(٢) وقد وافق الاشاعرة في رأيهم هذا أئمة بخارى من السادة الحنفية(٣).

---

(١) الارشاد للجويني ص ٢٥٨ وما بعدها والمستصفى ٣٧/١ والابهاج للسبكي ١٣٨/١ والمسايرة ص١٥٣ وما بعدها وارشاد الفحول ص٧ والنظام الفريد ص٣٢ و ص٣٣ ومذاهب الإسلاميين ٥٦٣/١ و٦١٩ وميزان الأصول للامام السمرقندي ١٥١/١ والوجيزص٧١.

(٢) الوجيز في أصول الفقه ص٧١ وانظر: أصول الفقه للعلامة محمد الخضري، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، ط٦، سنة ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩م ص٢٣ وأصول الفقه للعلامة محمد أبي زهرة، دار الفكر العربي، ص٧٣.

(٣) المسامرة ص١٦٠ والمسايرة ص١٦٠ وفكرة القانون الطبيعي عند المسلمين للدكتور محمد شريف ص١٥٩.

أدلة الأشعرية ومناقشتها:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾(١). ووجه استدلال الاشعرية بهذا النص القرآني الكريم: هو أنه نفى العذاب مطلقا، في الدنيا والآخرة، وذلك نفي للازم الوجوب والحرمة، وانتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم.

واعترض على هذا الاستدلال: بأن العذاب المذكور في النص محمول على عذاب الدنيا، فهو مخصوص بالدنيا لا بالآخرة(٢).

واجيب على هذا الاعتراض: بان تخصيص العذاب في الآية بعذاب الدنيا خلاف مقتضى اطلاق لفظ العذاب، بلا موجب يقتضي هذا التخصيص.

بل قد ورد السمع دالا على ارادة عذاب الآخرة من الإطلاق، قال سبحانه في شأن الكفرة: ﴿ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٌ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٌ ﴾(٣). وفي آية أخرى: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٌ مِّنكُمۡ ﴾(٤). فإن هاتين الآيتين ونحوهما ترشدان إلى ان الأمر الذي قامت به الحجة عليهم، واستحقوا عذاب الآخرة بعصيانهم بعده، هو ارسال الرسل الكرام — عليهم الصلاة والسلام — لا ادراك عقولهم(٥).

فلو كانت الاحكام الإلهية مدركة بالعقل لترتب على الملتزم بها الثواب، وعلى العاصي العقاب، من غير ان ينتظر نزول الوحي الامين وبعثة الرسل الكرام — عليهم الصلاة والسلام — أو بلوغ الدعوة إلى الإنسان المبعث اليه. لكن الآية الكريمة واضحة في نفيها العذاب عن كل من لم يبعث إليه رسول يعلمه ما يجب عليه فعله وتركه. وهذا ما ذهب إليه الاشاعرة — عليهم الرحمة والرضوان — وأئمة بخارى من السادة الحنفية أيضاً.

رأي الماتريدية وأدلتهم:

المذهب الثالث: نقل المذهب الثالث عن الإمام أبي حنيفة — رحمه الله تعالى — واتباعه الماتريدية حيث قالوا: ان للاشياء حسنا ذاتيا وقبحا ذاتيا، وان الله تعالى لا يأمر بما هو قبيح في ذاته، ولا ينهى عن أمر هو حسن لذاته. والافعال عندهم تنقسم إلى ماهو حسن لذاته، وقبيح لذاته، وما هو بينهما وهو تابع لأمر الله تعالى ونهيه، وهو ذات

---

(١) الإسراء: الآية (١٥).
(٢) تفسير الماوردي ٢/٤٤٥.
(٣) الملك: الآية (٨).
(٤) الأنعام: الآية (١٣٠).
(٥) المسامرة ص ١٦٠ والمسايرة شرح المسامرة ص ١٦٠.

التقسيم الذي قرره الجبائي المعتزلي(١).

وذهب الاستاذ أبو منصور وعامة مشايخ سمرقند إلى ان معرفة الله تعالى واجبة بالعقل، فقالوا بوجوب الإيمان بالله تعالى ووجوب تعظيمه، وحرمة نسبه ماهو شنيع إليه تعالى، كالكذب والسفه، ووجوب تصديق النبي ﷺ. ورووا عن الإمام أبي حنيفة أنه قال: لا عذر لأحد في الجهل بخالقه، لما يرى من خلق السموات والأرض. وعنه أيضاً: لو لم يبعث الله تعالى رسولا لوجب على الخلق معرفته بعقولهم(٢).

والى هنا وفي هذا القدر يتفق الحنفية مع المعتزلة، ولكنهم يختلفون(٣) بعد ذلك عنهم في ان الحنفية يرون أنه لا تكليف ولا ثواب بحكم العقل المجرد، بل ان الأمر في التكليف والثواب والعقاب يعود إلى الشرع الشريف، وليس للعقل المجرد ان ينفرد بتقرير الأحكام لعدم قدرته على التكليف والحكم على الاشياء من غير ان يستعين بالشرع. فخلاصة مذهبهم اذن:

١- الحاكم والموجب حسن الفعل وقبحه هو الله تعالى.

٢- العقل آلة لمعرفة حسن بعض ما حسنه الله تعالى، وقبح بعض ما قبحه، وان لم يرد الشرع، اما بداهة كحسن الصدق وقبح الكذب، أو كسبا.

٣- كثير من الافعال ليس للعقل فيها مدخل.

٤- الشرع مثبت في الكل، والعقل مبين في البعض.

٥- اختلفوا في كون العقل دالا على حكم الله تعالى فيما يدرك حسنه وقبحه قبل ورود الشرع: فالبخاريون قالوا: لا يكون العقل دالا إلا بعد ورود الشرع. وذهب آخرون ومنهم الإمام الماتريدي إلى أنه يكون دليلا على حكم الله تعالى كوجوب الإيمان وحرمة الزنى(٤).

---

(١) أصول الفقه لابي زهرة ص ٧٢.

(٢) المسامرة مع المسايرة ص ١٥٧.

(٣) انظر الفرق بين الحنفية والمعتزلة مفصلا في: التوضيح على متن التنقيح ١/١٩٠ وميزان الأصول ١/١٥١ وحاشية قاسم الحنفي على المسايرة ص ١٥٧ والنظام الفريد ص ٣٣.

(٤) انظر: التوضيح على متن التنقيح ١/١٨٩ ومابعدها ومحصل افكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين لفخر الدين محمد بن عمر الرازي، مكتبة الكليات الازهرية، ص ٢٠٢ وميزان الأصول ١/١٥١ والمسامرة ص ١٥٤ وأصول الفقه لابي زهرة ص ٧٢وص73

=

والذي ظهر لي من خلال قراءتي مذهب الماتريدية ورأيهم في هذه المسألة، أن بعض الماتريدية الحنفية لم يرتض قول الإمام أبي منصور الماتريدي – رحمه الله – ومن ايده في ان معرفة الله تعالى ثابتة بالعقل، لماذا ؟ لأن العقل عندهم شرط للإيمان لا سبب للصحة مطلقا – وحملوا قول الإمام أبي حنيفة – رحمه الله -: لا عذر لأحد في الجهل بخالقه. على قيام الحجة. بمعنى إذا قامت عليه الحجة والادلة القاطعة فلا عذر له عندئذ في الجهل بخالقه العظيم – جل جلاله وعم نواله – وعدم الإيمان به سبحانه. وهم بجعلهم وجود العقل السليم شرطا للإيمان، يشبهونه بصفة البلوغ لشرط التكليف[1].

اذن امامنا اتجاهان: اتجاه مثله عموم الماتريدية وكثير من مشايخ العراق ومن وافقهم من المعتزلة في وجوب معرفة الله تعالى اعتمادا على ما قرره العقل، حتى قالوا بوجوب الإيمان على الصبي العاقل[2].

واتجاه آخر مثله الاحناف المتأخرون عامة، والبخاريون منهم خاصة عندما قالوا: لا تعلق لحكم الله تعالى بفعل المكلف قبل بعثة رسول اليه، وتبليغه حكم الله تعالى فيه. فلا يجب إيمان، ولايحرم كفر قبل البعثة[3] – كما قال الأشاعرة-.

أدلة الماتريدية:

يؤيد مذهب الماتريدية وجود آيات كثيرة تدل على أن الله تعالى أمر بما هو حسن ونص عما هو قبيح، وأن الحسن والقبح ثابتان للأفعال قبل الأمر والنهي، ومنها، قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ ﴾[4]، ومنها قوله تعالى: ﴿ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ

=

والنظام الفريد للشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد ص ٣٣ والوجيز في أصول الفقه ص ٧١.

(١) وإن شئت التأكد مما قلته لك هاهنا فيمكنك الرجوع إلى حاشية الشيخ قاسم الحنفي – رحمه الله – على المسايرة ص ١٥٧ وفكرة القانون الطبيعي عند المسلمين للدكتور محمد شريف ص ١٥٩.

(٢) انظر: شرح مرقاة الوصول إلى علم الأصول للعلامة الملا خسرو، المطبوع في هامش حاشية مرآة الأصول للفاضل محمد الازميري، دار الطباعة العامرة العثمانية، سنة ١٣٠٩ هـ، ٢٧٧/١.

(٣) التقرير والتحبير شرح العلامة المحقق ابن امير الحاج على تحرير الإمام الكمال بن الهمام، المطبعة الاميرية ببولاق مصر، ط١، سنة ١٣١٦هـ، ٩/١.

(٤) النحل: الآية (٩٠).

لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾(١).

فما أمر به الشارع الحكيم من عدل وإحسان ومعروف، ومانهاهم عنه من فحشاء ومنكر وبغي، وما أحل لهم من طيبات، وماحرم عليهم من خبائث، أقول: من تأمل في هذه الأوصاف الحسنة أو السيئة، ورجع إلى وضع الفعل وهيئته قبل نزول الوحي الأمين، وما كانت عليه هذه الافعال من قبول الناس لبعضها ونفورهم من بعضها الآخر، ليجد حتماً أن هذه الاوصاف كانت ثابتة للافعال قبل مجيء تصريح الشرع الشريف بحسن بعضها وقبح الآخر منها. وهذا وحده دليل كاف على أن الافعال تملك هذه الاوصاف – الحسن والقبح – في ذاتها، قبل أن يأتي الشرع مبيناً ما عليها من حسن أو قبح.

بمعنى آخر أن العدل والاحسان وغيرهما من الافعال الحسنة لو لم يكونا معروفين في نظر العقل وموزونين في ميزانه قبل الشرع لما أمر الله تعالى بهما، لماذا؟ لأن الله سبحانه لا يكلف نفساً شيئاً تجهله ولا تعرفه. وهكذا أيضاً القول نفسه في الافعال السيئة.

رَأي البَاحث

آثار مواقف المتكلمين:

١- إذا قلنا العقل هو الحاكم في الأشياء ومصدر معرفة خير الأفعال وشرها على الإطلاق، قلنا بحرية العقل المفتوحة بلا ضابط وباطلاقه في حركته بلا قيد أو حد، مع الاتفاق في أن الناس غير متساوين في الادراك والوعي والفهم. فاذا ما صادف عند البعض نفسا خبيثة، وهوى متبعاً، اعتنق فكراً منحرفاً وعقيدة باطلة، فصار ماركسياً أو فرويديونياً، أو وثنيا، أو هندوسيا، أو اباحياً، أو وجودياً.

ومن يتأمل أكثر في هذا الرأي ويدرس آثاره في مجال العقيدة، يجد أنه يبيح لنا وصف الله تعالى – رب العالمين – بما نشاء، بما تملي علينا عقولنا به، وبما أن الإنسان يعيش في عالم الموجودات المادية فتصوراته عن الله تعالى وأوصافه لصفاته العلية وأفعاله الكريمة لا تتجاوز ما ألفه واعتاده هذا الإنسان طول عمره بين هذه المخلوقات المادية، لعدم قدرته على تجاوز هذا الطوق ومغادرة قوانين الطبيعة ولوازم الترابية. لذلك وقع

(١) الأعراف: الآية (١٥٧).

الكثير في تشبيه الخالق بالمخلوق، وتجسيم صفات الخالق بنفس صفات البشر المخلوق كاليهود والنصارى. وكل ذلك أمر محتوم أكيد لاعتمادهم الكامل على خيالات العقل، وتسليمهم المطلق لأوهامه وتصوراته.

وهو بالاضافة إلى ذلك يمنع الحشر الجسدي والنشر والحساب، لماذا ؟ لأن العقل لا يصدق برجوع الحياة إلى جسم الإنسان بعد موته، إذ كيف يرجع روحه إليه وهو بعد دفنه يتحول إلى تراب وفناء. وهذا ما قالته فلاسفة اليونان، فهو إذن يقودنا إلى فكر وثني. وتحكيم العقل — بالشكل الذي رآه المعتزلة — يعني رفضه تصديق صعود الإنسان على أرض القمر من غير آلة مادية — تسمى مركبة فضائية — فكيف يصدق إذن عروجه إلى ما بعد سدرة المنتهى. وهو عروج رسول الله — ﷺ — الذي تم بجسمه وروحه الشريفين.

إنه يجعلنا نترك الصلاة والصيام والحج لأن فيها مشقة ظاهرة، ولانها حركات وأفعال، وصرف للمال، لا يعرف العقل فائدتها. وهو رأي يشجع القائلين باباحة ربا المصارف وغيرها، لأن العقل — في نظرهم — لا يمنع ذلك بل يحسنه ويمدحه. ويجوز اختلاط النساء بالرجال في كل الميادين لأن العقل يؤيد حقوقهما وتكريمهما معاً. وهذه في الحقيقة نغمة جميلة، يطرب لها الاباحيون من أبناء الحضارة الغربية، ويفرح بها العلمانيون من أبناء الحضارة الشرقية.

ويلزم من تحكيم العقل على الإطلاق أن يقال: إن الحرام ليس برزق، لأن الرزق شيء مملوك يأكله المالك، والحرام ليس مملوكاً فليس برزق. ويترتب على هذا أن الحيوان ليس مرزوقاً لأنه لا يملك ما يأكله، وأن ما يأكله ليس رزقاً. والحق أنه ومن عاش في الأرض —سواء كان يأكل حلالاً أم حراماً — مرزوقون، وكل مايأكلونه رزق من الله تعالى لعموم قوله سبحانه: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦ ﴾[١].

ويجب أن يعلم هنا أن نسبة الحرام إلى الله تعالى لا تضر لأن الله تعالى هو الفاعل المختار، لا يقبح أي شيء بالنسبة لحضرته، أما الحسن والقبح فهما وصفان يضافان إلى الإنسان الفاعل لا إلى الخالق العظيم.

---

(١) سورة سيدنا هود عليه السلام: الآية (٦).

ثم إنك لو فكرت في عدم جعل الحرام رزقاً لتسأل نفسك: إذن فمن الذي أعطاه؟ لا بد إذن من جهة أخرى تتحكم في الرزق، ويقود هذا إلى الشك، وإلى الإيمان بوجود قوة تتحكم في ثروات الكون وخيرات الأرض كأمريكا وبريطانيا. وهذا هو الذي تهدف اليهود إلى غرسه في أذهان العالم، وهي تنشر في نهاية قرننا العشرين عولمتها الخطيرة الطاغية(١).

وإذا أريد الدفاع عن هذا الموقف الذي نحلل أبعاده المستقبلية، بأن العقل قد يستقل في بعض الافعال لا كلها، قلنا: إذا كان العقل يستقل في بعض الافعال لادراك حسنها وقبحها، لاكلها، فهو إذن ناقص فكيف يكون حاكماً في بعض الافعال، يثيب على هذا ويعاقب على هذا، إذ لنقصه قد يحسِّن فعلاً قبحه الشرع الشريف وعاقب عليه، وقد يقبِّح فعلاً حسنه الشرع الشريف وأثاب عليه، وحينئذٍ لا يمكن التعويل عليه، ولا الركون اليه.

٢- لكننا في الوقت ذاته لا نستطيع إيقاف حركة العقل على الإطلاق، لأنه بجموده وتوقفه تموت خلافة الإنسان في الأرض ولا تتحقق، ويغدو الإنسان في الأرض لا فرق بينه وبين الحيوان، ولايحقق طاعة الله تعالى في اغتنام نعمة العقل التي كرّم بها بني البشر منذ أن خلقهم وأوجدهم. قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ

---

(١) العولمة: تفكيك الدول في العالم بمنظوماته وأنظمته، وإعادة بنائه من جديد. أو: هي أن تتنازل هذه الدول والمجتمعات عن أصالتها وثقافتها واختيارها الاقتصادي وحدودها الجغرافية. وقد ظهر هذا المصطلح في أميركا وظهرت حدوده في سنة ١٩٨٩ م في ولاية سان فرانسيسكو الأميركية. وتهدف العولمة إلى تعميم النمط الأميركي على العالم، أي: (أمركة العالم). وتعتمد العولمة على ثقافة الاختراق عن طريق الشبكة الفضائية العالمية من حيث لا تشعر الشعوب والأمم، حيث تنشر عن طريق شبكات الأنترنيت كل ما يحارب الحس الوطني والدين والتاريخ واللغة والتراث: من محاضرة للدكتور محسن عبد الحميد في جمعية الشبان المسلمين ببغداد سنة ١٩٩٩م. ومن رام التفصيل العلمي الدقيق في هذا الموضوع الخطير فليرجع الى: في الحداثة والخطاب الحداثي للاستاذ منير شفيق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء –المغرب، ط ١، ١٩٩٩م، ص٧١ وما بعدها والى كتاب: المسألة الحضارية – كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير، للاستاذ زكي الميلاد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط ١، ١٩٩٩م، ص٢٥ وما بعدها والى مجلة – عالم الفكر – ص٩ وما بعدها وص٣٩ وما بعدها، المجلد الثامن والعشرون.

وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[١].

فقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن صورة التكريم المذكور في الآية هي العقل[٢].

والذي يؤيد حركة العقل وقوة تفاعله مع نواميس الكون وأسرار الحياة هو مجيء الأمر القرآني بالتأمل والتفكير في خلق العالم، وابداع الطبيعة، وغاية الخلق وثمرة الوجود. فقد قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٣].وقال سبحانه أيضاً: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾[٤]. فالقرآن الكريم إذن يأمرنا بالنظر في دليل الصانع وصفاته، والأمر كما نعلم يفيد الوجوب.

وكان **سيدنا رسول الله** – ﷺ – يخلو بغار حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالي ذوات العدد، متأملاً في خالق الكون، وفي الوجود وأسراره، وفي الأرض وما أودع الله تعالى فيها من خيرات وثروات، وفي البحار ومافي بطونها من جواهر ونفائس وعجائب. وهذا كله يعطينا فكرة على أن العقل لو لم يكن مقتدراً على العمل والحركة والتأمل والتفكر والبحث من أجل ادراك وجوده، والوصول إلى الإيمان الحق بخالقه، لما أمره القرآن الكريم بالنظر والاعتبار،ولما كان –ﷺ – يتعبد في غار حراء المبارك. ومن غير المعقول أن الله تعالى الكريم إنما أعطى الإنسان قدرة الادراك والتفكر عند بعثة النبي الكريم –ﷺ- فقط، ولم يكن قد وهبه نعمة العقل قبل مجيء الشرع الشريف.

وإني أسأل من حجّر العقل ومنعه من التفكير والادراك قبل بلوغه نور الوحي الامين: الستم تطلقون لفظ الحسن والقبح على كون الشيء صفة كمال كالعلم، وصفة نقص كالجهل، وتقولون هذا مدرك بالعقل بالاتفاق، فما هو الدليل على ان العقل الذي يؤمن بأن العلم صفة كمال للانسان،وان الجهل صفة نقص له، ويفرق بينهما، ويدرك آثار العلم، ويفقه آثار الجهل، لكنه في الوقت ذاته لا يدرك نفع العلم فيحسنه، ولا يدرك اضرار الجهل فيقبحه ؟

ان إيمان العقل بأن العلم صفة كمال قائم في الحقيقة على اساس فهمه لمنافع

---

(١) الإسراء: الآية (٧٠).

(٢) تفسير الماوردي ٢/ ٤٤٥ و٤٤٦ وقيل غير ذلك.

(٣) سورة سيدنا يونس عليه السلام: الآية (١٠١).

(٤) الروم: الآية (٥٠).

العلم، وإن تصديقه بأن الجهل صفة نقص متوقف على اساس فهمه لاضرار الجهل، فكيف لا يكون فهمه لمنافع العلم، واضرار الجهل سببا لمدحه طلب العلم، وسببا في ذمه بقاء الجهل، فيحسن الأول، ويقبح الثاني.

من الناحية الفكرية:

واستطيع ان اقول: ان من يغوص في فهم هذا المذهب ويذهب به بعيدا، يصل إلى ان القول بأن العقل لا يدرك حسن جميع الافعال وقبحها على الإطلاق قبل مجيء الشرع الشريف، ويؤيد ما روجه الشعوبيون واعداء الإسلام على تاريخنا العربي الاصيل، وهو ان العرب قوم جهلاء لا فهم لهم، لهم ولا علم ولا عقل ولا ادراك. والعجيب اني وجدت كثيرا من المؤرخين المسلمين راحوا يتسابقون في ميدان الحط من شأن العرب في جاهليتهم، تارة بدافع خدمة الإسلام، وتارة بدافع العصبية الجنسية، وهذا ما افرح الفرس والرومان والترك والهنود الذين ساروا على نفس الطريقة.

فالعرب في نظرهم: [قوم تخلفوا بين جبال الجزيرة العربية، وتاهوا في صحاريها، فبيوتهم لا تتجاوز الخيام إلا إلى الكهوف والمغارات. عاشوا بين اغنامهم وابلهم، ينتقلون وراء مواقع المطر ومنابت الكلأ][(١)] هكذا صور الفرس والرومان وغيرهم العرب الاصلاء، بهذه الصورة القاسية. متجاهلين نشاطهم الثقافي والتجاري والصناعي والزراعي، ومعارفهم الجغرافية والتاريخية والفلكية والطبية[(٢)].

والحق اقول اني استطيع بإذن الله تبارك وتعالى ان افسد كل هذه الشبهات والتشويهات بحديث **رسول الله** -ﷺ-: **(إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)**[(٣)] وفي

---

(١) أباطيل يجب ان تمحى من التاريخ للدكتور ابراهيم علي شعوط ص١٩.

(٢) يمكنك مراجعة الادلة الكافية والبراهين الشافية على صحة نشاط العرب في الجاهلية في كل هذه المجالات الثقافية والتجارية وغيرها، وفي معارفهم التاريخية والادبية والجغرافية والفلكية والطبية وغيرها في كتاب اباطيل يجب ان تمحى من التاريخ من ص١٧ وما بعدها.

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات والبخاري في الادب المفرد برقم (٢٧٣١) والحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الايمان وهو حديث صحيح: الجامع الصغير للسيوطي ٣٩٥/١(٢٥٨٤) ورواه أيضاً الإمام أحمد في مسنده ٣٨١/١.

قال الحافظ الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح: فيض القدير ٥٧٣/٢ والكنز الثمين للمحدث الغماري ص١٧٨ (١١٣٨).

رواية أخرى: (**مكارم الاخلاق**)[١]. فقوله — ﷺ —: اتمم — أي اكمل البناء الاخلاقي الذي بناه العرب في جاهليتهم، فذم سفساف الأمور كالحسد والبخل والطمع، واتم ما كان ناقصا فيها. وهذا دليل على انهم كانوا يدركون بعض الافعال الحسنة فيمدحونها، وبعض الأعمال القبيحة فيذمونها. وما قول قس بن ساعدة: افضل المعرفة معرفة الرجل نفسه. وقول اكثم بن صيفي: البطر عند الرخاء حمق[٢]. وقول غيرهما من حكماء العرب الكثيرين، الادليل واضح، وبرهان لامع على قوة عقولهم وسعة ادراكهم، وبعد انظارهم، وكبير فهمهم.

العقل والإيمان:

العقل: طاقة روحانية اوجدها الله تعالى في ذات الإنسان ليميز بها طريق الحق فيتبعه، وطريق الباطل فيجتنبه.

وارى ان حال العقل وطبيعة تحركه قبل البعثة، وقبل اتصاله بوحي السماء ليس كحاله بعد البعثة. فالعقل قبل البعثة آلة لمعرفة حسن بعض الافعال وقبحها، كسبا أو بداهة[٣]، من غير ان يترتب على هذه المعرفة الجزئية لبعض الافعال أي حكم تكليفي.

أما بعد البعثة فالعقل آلة لمعرفة حسن بعض ما أمر به الشرع الشريف ورغب فيه، أو قبحه ونهى عن الوقوع فيه. ولشيخي الكريم حضرة **الشيخ طارق السامرائي** — ﷺ وأرضاه — تصور جديد عن معنى العقل لم أجده من قبل في كتاب، حيث يقول: العقل مجرد آلة لا يستطيع ان يدرك أي شيء من الافعال، وإنما تجلي الله تعالى على الإنسان هو الذي يكشف له — حسن الفعل أو قبحه — عن طريق العقل اهـ.

وما ذكرناه هنا هو عن دور العقل في مجالي (الشريعة والسلوك) اما عن دوره في

---

(١) رواه مالك في الموطأ والطبراني في الاوسط ولكن بلفظ: (ان الله بعثني بتمام مكارم الاخلاق) المقاصد الحسنة للسخاوي ص١٢٢ (٢٠٤) قلت: وهناك رواية ثالثة: (ان الله عز وجل بعثني بتمام محاسن الاخلاق) الفردوس للديلمي ١/١٧٧ (٦٦١) وشرح السنة ١٣/٢٠٢.

(٢) اباطيل يجب ان تمحى من التاريخ ص٤٣.

(٣) الأمر البديهي: هو الذي لايتوقف حصوله على نظر وكسب، سواء احتاج إلى شيء آخر من حدس أو تجربة أو غير ذلك، أو لم يحتج، فيرادف الضروري. وقد يراد به ما لا يحتاج بعد توجه العقل إلى شيء اصلا، فيكون اخص من الضروري كتصور الحرارة والبرودة، وكالتصديق بأن النفي والاثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان: التعريفات للامام الجرجاني ص٤٣.

مجال العقيدة فهل يستطيع العقل الإنساني ان يتحرك في ساحة الإيمان فيؤمن بمبدع هذا العالم وخالقه سبحانه قبل اتصاله ومعرفته بوحي السماء ؟

ارى ان الواجب الأول الملقى على عاتق عقل الإنسان السليم قبل وصوله نور النبوة هو الإيمان الاجمالي بخالق الكون ومبدعه، دون التعمق في تفصيلات جزئيات الإيمان ومفرداته الدقيقة. فيؤمن مثلا بأن هذا العالم مخلوق محدث لأنه يتغير، وان خالقا عظيما اظهره من حيز العدم إلى فسحة الوجود، وهذا الخالق العظيم لا بد ان يعتقد فيه أنه يتصف بكل صفات الكمال والجلال والجمال، وانه يسمع ويبصر ويعلم ويتكلم ويحيي.

واذا جئت تدرس طبيعة هذا الاعتقاد بهذا المنظار المتواضع، تجده ليس مما لا يطيقه العقل ولا يقدر عليه، بل هو أمر ميسور لكل من له لب وفهم من الناس، على الرغم من تفاوتهم واختلافهم في الادراك والوعي والفهم وقوة الاستيعاب. لكن من غير ان يزيد عليه صاحبه شيئا،ومن غير ان يحاول الغوص في فهم دقائق الأمور واسرارها، لأن الزيادة على هذا الحد تؤدي به إلى التشبيه والتجسيم، وتسلمه إلى الوثنيات والكفريات، كما وقع فيها فلاسفة اليونان وغيرهم ممن حاول التعرف على خالق الكون وصفاته قبل بلوغه نور الوحي السماوي، فبالغ في تعرفه حتى سقط في حفر الخرافة، وابتعد كثيرا عن خط الوسطية والاعتدال الذي ننشده.

اذن فمنهجنا الوسطي في هذا الموضوع هو اننا لسنا مع الذين يحرمون حركة العقل قبل البعثة على الإطلاق[١]، ويجمدونه كليا، فلا يعرف الإيمان ولا يقدر عليه، ولامع الذين يحملونه مطلق الإيمان[٢] فيوجبون عليه التصديق بالله تعالى وبسيدنا (**محمد**) -ﷺ- على وجه التحديد مع بعض الجزئيات الدقيقة. وإنما يكفيه ان يؤمن بحضرات الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام — إيمانا اجماليا. وكذلك في السمعيات ومايتعلق بالآخرة، لأنه ليس في سعة العقل الإنساني في البشر كافة ان يعرف من حضرة الله تعالى كل مايجب ان يعرف، ولا ان يفهم من الحياة الآخرة كل ماينبغي ان يفهم، من تحديد ثواب كل

(١) قال الأشعرية — رحمهم الله -: لا يتعلق له سبحانه حكم بافعال المكلفين، فلا يحرم كفر، ولا يجب ايمان اهـ: ارشاد الفحول ص٧. وهنا يجب ان يعلم ان تصديق حضرة النبي — ﷺ — التصديق الاجمالي ان توقف على مجيء الشرع الشريف لزم الدور، والله تعالى اعلم.

(٢) انظر: المسايرة والمسامرة ص١٥٧.

عمل صالح، وعقاب كل عمل طالح. فإذا ادرك هذا ادرك ضرورة انضوائه تحت القيادة النبوية. والله تعالى اعلم.

صفات الافعال والعلم بها:

تقدم مذهب المعتزلة والماتريدية في أن الافعال والأشياء تملك الحسن والقبح في ذاتها،وتقدم أيضاً مذهب الاشاعرة في أن الفعل ليس فيه حسن ولا قبح في ذاته، وإنما حسنه من تحسين الشرع له، وقبحه من تقبيحه.

أما الذي أراه فهو أن الافعال تنقسم إلى قسمين: أفعال يعلم حسنها وقبحها بداهة من غير حاجة إلى نظر ودليل، كحسن الصدق وقبح الكذب فإن العقل الإنساني لا يشك في نفع الصدق فيحسنه، ولا في ضرر الكذب فيقبحه وإنكار ذلك مكابرة ومباهتة. ومثل هذا النوع من الافعال لا يحتاج العاقل لمعرفته إلى إقامة الأدلة العلمية والحجج العقلية ليبرهن على صحة ما وقف عليه وانتهى اليه.

وأفعال أخرى لا يعلم حسنها ولا قبحها إلا بجهد ونظر واستدلال. فلو قيل لإنسان قبل أكثر من خمسة قرون من الزمان مثلا: ما تقول في صعود الإنسان على القمر؟ لظل يفكر ويطيل نظره حتى يجيبك على سؤالك، وقد لا يجيبك أصلا، فلا يعلم وقتئذٍ وصف هذا الفعل أهو حسن أم قبيح.

لذلك فالذي اراه في خط الوسطية في هذا الموضوع: هو أن الافعال ليست على الإطلاق لا يعلم حسنها ولاقبحها، وليست هي أيضاً على الإطلاق يعلم حسنها وقبحها. وإنما من الممكن أن يعلم وصفها بداهة أو كسباً وقد يتأخر العلم في بعضها إلى مجيء الشرع الشريف.وهي على عمومها إما أن تكون حسنة أو قبيحة في نفسها وهيئتها، وإما لعلة أو سبب جعلها حسنة أو قبيحة.

وقول سيدنا رسول الله – ﷺ -: (أتمم) في حديثه السابق: (**انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق**) دليل قوي على معرفة الناس صفات بعض الافعال الحسنة وبعض الافعال القبيحة، التي جاء يكمل معرفتهم بها حضرة الرسول الكريم – ﷺ-. فلولم تكن في نفسها حسنة أو قبيحة لما عرفها الناس، ولو كانت معرفتهم بها على الإطلاق لما تمم معرفتهم بها **حضرة الرسول الكريم** – ﷺ – ولما كانوا بحاجة إلى هذا التنقيح والتصحيح، وهنا تظهر لنا جليا فائدة البعثة النبوية الكريمة.

الادراك[(١)] والتكليف والجزاء:

مذهب المعتزلة أن الادراك سبب للتكليف وما يترتب عليه من جزاء، فما أدرك الإنسان من فعل أصبح مكلفا بفعله إن كان حسنا وبتركه إن كان قبيحا، ويثاب نتيجة ذلك على قدر التزامه بالحسن، ويعاقب على قدر وقوعه بالقبيح، سواء كان ذلك في مجال الإيمان والعقيدة أم في مجال الشريعة والسلوك.

ومذهب الاشاعرة على عكس ذلك تماما، فالإنسان عندهم قبل البعثة غير مكلف على الإطلاق، سواء كان فعله يخص العقيدة أم الشريعة والسلوك.

فنحن إذن بين فريقين، فريق يوجب – بسبب الادراك – التكليف على الإطلاق، وفريق ينفي التكليف على الإطلاق، والوسط بينهما هو أن نميز بين أفعال الإنسان الاعتقادية وبين أفعاله الشرعية والسلوكية. فنقول هو مكلف في مجال اعتقاده بالصورة التي أوضحناها سابقا، وغير مكلف في مجال الشريعة. والدليل على أنه مكلف بالإيمان هو أنه لو كان اعتقاده بالله تعالى متوقفا على مجيء الشرع الشريف وبعثة النبي الكريم – ﷺ – للزم ذلك حدوث الدور[(٢)]. باعتبار أن إدراك العقل حسن الافعال وقبحها متوقف على الشرع، وباعتبار أن قبول الشرع متوقف على ادراك العقل، فصار كل منهما علة للآخر.

والدليل على أنه غير مكلف بالأعمال الشرعية والسلوكية هو قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[(٣)] فلو كان الإنسان مكلفا قبل البعثة بالصدق – مثلا – لعذبه الله تعالى على الكذب يوم القيامة، لكن لأن الله تعالى نفى عذابه عن اعمال الإنسان الواقعة قبل البعثة، فقد رفع عنه التكليف، لماذا ؟ لأن انتفاء اللازم – وهو البعثة هنا –

---

(١) الادراك: هو إحاطة الشيء بكماله – وهو حصول الصورة عند النفس الطاقة – وهو تمثيل حقيقة الشيء وحده من غير حكم عليه بنفي أو اثبات، ويسمى تصورا، ومع الحكم بأحدهما يسمى تصديقا: كتاب التعريفات ص١٤.

(٢) الدور: هو أن يكون شيئان كل منهما علة للآخر. كقولك زيد أوجد عمرا، وعمر أوجد زيدا. وهذا باطل، لأنه يستلزم أن يكون كل واحد منهما سابقا صاحبه، متأخرا عنه في وقت واحد، وهذا يعني استلزام تقدم الشيء على نفسه وهو تناقض: المواقف ص١٧٧ والوسيلة في شرح الفضيلة ص٤٦١.

(٣) الإسراء: الآية (١٥).

يقتضي نفي الملزوم – وهو العذاب – وعدم وجود السبب يلزم عدم وجود المسبب، وحيث لا تكليف فلا ثواب ولاعقاب.

وطالما كنت أعجب من قول المعتزلة وهم يربطون بين الادراك والجزاء، وعندنا لا تلازم اطلاقا بين ادراك العقل حسن الفعل وقبحه وما يترتب عليهما من ثواب وعقاب، لماذا؟ لأن الثواب والعقاب أمران آجلان لا عاجلان، ولأنهما مبنيان على أصل التكليف، فاذا ثبت أن الإنسان غير مكلف – كما تقدم – ثبت أنه غير مثاب وغير معاقب. والله تعالى أعلم بالصواب.

المبحث الرابع

القضاء والقدر

- مقدمة -

إن مسألة القضاء والقدر والإيمان بهما من المسائل الكلامية الدقيقة التي أشغلت أفكار العلماء من هذه الأمة المبروكة ومفكريها، ولا تزال تشغل أفكارهم بالبحث والدراسة والمعالجة، لما لها من خطورة عقيدية وفكرية وخلقية على حركة الإنسان في هذا الكون.

والحقيقة هذه المسألة قديمة جدا، سبقت مجيء الإسلام فقد تناولها بالبحث والدراسة مفكرون من اليونان والرومان والهنود وغيرهم، فضلوا الطريق الحق. ولما جاء الإسلام وتطورت الحوادث وتقدم الزمن ضلت الطريق نفسه بعض الفرق الإسلامية، واهتدى إلى وجه الحق فيها المهتدون بنور الاعتدال والتوسط.

وقد أصبحت هذه المسألة عند كثير من الناس متكأ يتكئ إليها إذا ما أراد الانصراف عن عمل الخير والتقرب إلى عمل الشر، ولطالما زلت بها أقدام، وانحرفت بالخوض فيها عقائد وأقلام، وأصبحت موضع استفسار واستفهام من الناس، حتى راح البعض يبرر لنفسه شرب الخمر وسرقة الاموال وقتل الناس بذريعة أن الله تعالى قد كتب كل ذلك عليه، وأخذ البعض الآخر يتحلل من الواجبات ويتهاون بالمفروضات بحجة أن الله تعالى لم يكتب له التوفيق في ذلك.

لذلك فإنا نرى هذه المسألة تتجدد مع الزمن بين كل فترة وأخرى، من غير توقف ولا انتهاء، ويتجدد خوض الخائضين فيها من كل نحلة وملة. منتهزا موضوعها أعداء الإسلام فرصة لتوجيه مطاعنهم وسهام اعتداءاتهم إلى حضارة الإسلام الحنيف، بزعمهم أنه دين يدعو إلى الإيمان والتواكل والكسل وعدم الانتاج وترك عمارة الأرض بسبب إيمانهم بالقضاء والقدر. وقبل أن نشرع في هذه المسألة ونبين آراء الفرق الكلامية الإسلامية رأينا من الضروري أن نعرّف للباحث معنى القضاء والقدر بشكل موجز، زيادة في التوضيح والبيان.

تعريف القضاء والقدر:

١- عند الماتريدية: القضاء في نظر المدرسة الماتريدية هو ايجاد الله تعالى الاشياء على

وجه الاحكام والاتقان.

والقَدَرُ: هو علمه تعالى أزلا صفات المخلوقات. أي: بما تكون عليه من حسن وقبح، ونفع وضر. وخير وشر. وعلى أساس هذه النظرة يكون القضاء حادثا لأنه صفة للفعل الإلهي، ويكون القدر قديما لأنه راجع إلى صفة العلم الإلهي(١).

٢- عند الاشاعرة: اما الاشاعرة فقد ذهبوا إلى عكس ما ذهب إليه الماتريدية، حيث جعلوا تعريف القضاء للقدر وتعريف القدر للقضاء.

وقدموا القضاء على القدر لانهم يعدون القضاء اساسا، وانه يرجع إلى صفة العلم. اما القدر فهو عبارة عن المقدار الذي يخرج عليه الشيء وفق ما قضاه الله تعالى في علمه. ودليل الاشاعرة على تقدم القضاء هو قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾(٢) أي: ان جميع الاشياء مقدورة لله تعالى، محجوبة عن الخلق، بحيث متى تعلقت ارادته تعالى بوجودها وجدت بلا ابطاء، ولا يوجد شيء من هذه المقدورات إلا بمقدار معين تقتضيه الحكمة الإلهية، وتستدعيه المشيئة الربانية(٣) اما القضاء فهو [علم الله تعالى في الازل بالاشياء كلها على ما ستكون عليه في المستقبل](٤). [فالقضاء هو الاساس عندهم، والقدر تابع له طبقا لما في علم الله تعالى](٥) وبعد هذه الوقفة السريعة على معنى القضاء والقدر في عرف المتكلمين، ننتقل الآن إلى معرفة آراء

---

(١) انظر: رسالة في علم العقائد للعلامة رشيد الخطيب ص٢٣، وشرح العلامة البيجوري على جوهرة التوحيد٢/ ١٦ ورسالة في التوحيد والفرق المعاصرة للعلامة كمال الدين الطائي ص١٢٣ وشرح الفقه الاكبر للملا علي القاري ص١٢ وأصول الدين الإسلامي ص١٨١. وانظر قول الإمام أبي منصور الماتريدي في القضاء والقدر في شرحه الفقه الاكبر للامام أبي حنيفة -رضي الله عنه- ص١٣.

(٢) الحجر: الآية (٢١).

(٣) انظر: تفسير الإمام الرازي ١٧٤/١٩ وصفوة البيان ص٣٣٦ وانظر أيضاً: تفسير الماوردي ٢/ ٣٦٥ ومواهب الرحمن ٧٧/٥.

(٤) كبرى اليقينيات الكونية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص١٣٠، وانظر: كتاب التعريفات للجرجاني ص١٧٤ و ص١٧٧.

(٥) القضاء والقدر عند المسلمين للباحث اسماعيل القرني ص٣٩ وانظر: المواقف لعضد الدين الايجي ص٥٢٩ والوسيلة في شرح الفضيلة ص٥٥٣ ورسالة في علم العقائد ص٢٣ ونشأة الأشعرية وتطورها ص٢٨٢ وافعال العباد بين الجبر والاختيار للدكتور عبدالملك السعدي ص٥.

الفرق الكلامية الإسلامية تجاه هذه القضية، وبيان وجهة نظر كل مدرسة مع ذكر ادلتها ومناقشتها مناقشة تفصيلية.

رأي الجبرية في افعال الإنسان:

الجبرية(١) اتباع الجعد بن درهم والجهم بن صفوان، رأوا ان العبد لا فعل له ولا قدرة ولا اختيار، ونتيجة لذلك فلا تأثير له ولاكسب.

ولا فرق بين الاضطراري من افعاله وبين مايتوهم كونها اختياريا منها.

أما اضافة الفعل إليه فهو بمنزلة اضافته إلى الجمادات، كما يقال: جرى النهر. لا يزيد عليها إلا بالشعور، وهو افراط في نسبة الفعل اليه(٢).

وافعال العباد غير اختيارية على الإطلاق، بل هم مقهورون في افعالهم وارادتهم، وليس لإرادتهم أي دخل فيها ولاكسب، وكذلك ليس لقدرتهم أي تأثير في افعالهم(٣).

فمذهب جهم بن صفوان واتباعه في هذه المسألة هو نفي قدرة الإنسان، وانه ليس له قدرة ولا اختيار ولا ارداة بل هو مجبر في كل افعاله، والله تعالى هو الذي يخلق فيه افعاله، كما يخلقها في الحيوان والجمادات ونسبة الافعال إلى الإنسان إنما هي على سبيل المجاز لا الحقيقة، كما تنسب بعض الافعال إلى الجمادات والنباتات، فنقول مثلا: تغذى النبات، وتحرك الحجر ويبنى على ذلك ان الثواب والعقاب جبر، والتكاليف الشرعية التي بعث بها الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام – جبر أيضاً(٤).

---

(١) الجبرية من الجبر وهو اسناد فعل العبد إلى الله تعالى: كتاب التعريفات ص٧٤.

(٢) اللمعة في تحقيق مباحث الوجود والحدوث والقدر وافعال العباد للعلامة الشيخ ابراهيم بن مصطفى الحلبي المذاري مع حاشية الشيخ محمد زاهد الكوثري، مطبعة الانوار، ١٣٥٨هـ – ١٩٣٩م، ص٤٥.

(٣) الفرق الإسلامية للاستاذ محمود علي البشبيشي، المطبعة الرحمانية، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٠ هـ – ١٩٣٢م، ص٥٢.

(٤) الفرق بين الفرق للبغدادي، القاهرة، سنة ١٩١٠م، ص١٢٨ والملل والنحل للعلامة الشهرستاني وهو على هامش الفصل لابن حزم، مصر، ١٣٢١هـ –١٩٢٩م، ١/١٠٨ والتبصير في الدين للاستاذ الاسفرائيني بتحقيق الاستاذ عزت عطار الحسيني، دمشق، سنة ١٩٤٠، ص٩٦ وانظر أيضاً: شرح الفقه الاكبر للماتريدي ص١١ وشرح الفقه الاكبر للملا علي القاري ص٣٨ والوسيلة في شرح الفضيلة ص٦٢ والإنسان هل هو مسير أم مخير للدكتور فؤاد العقيلي ص١٤

=

وقال حجة الإسلام الإمام الغزالي – رحمه الله –: [والجبرية اعتمدوا على القضاء، ورأوا الخير والشر من الله تعالى، ولم يروا من انفسهم فعلا، إذ نسبوا الظلم إليه تعالى في ضمن ذلك، واضلوا سفهاءهم. فكانوا يعصون الله تعالى وينسبون إلى الله، ويبرئون انفسهم عن الذم واللوم كالشيطان حيث قال: ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[1]][2].

[والجبرية نفوا الاختيار بالكلية في افعال العباد، واعتمدوا على القضاء والقدر، فينبغي للباحث معهم ان يضربهم، ويمزق ثيابهم وعمائمهم ويخدش وجوههم، وينتف اشعارهم وشواربهم ولحاهم، ويعتذر بما اعتذر هؤلاء السفهاء في سائر افعالهم القبيحة الصادرة مهم][3].

أدلة الجبرية ومناقشتها:

يتبين لنا من خلال ما تقدم ان الجبرية لا يفرقون بين افعال الإنسان ولا يقسمونها إلى قسمين: افعال اضطرارية، وافعال اختيارية. وإنما يجعلون افعال الإنسان كلها اضطرارية اجبارية، وهو مقهور على فعلها، مضطر لا محالة على التلبس بها. وقد حاولوا الاعتماد على بعض النصوص لتأييد مذهبهم هذا، وها نحن نذكر اهم أدلتهم مع مناقشتها وتحليلها.

١– قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾[4] وهذا يدل على ان كل شيء في الكون يكون تحت حكم الله تعالى وارادته وسلطته وتصرفه. ومعنى الآية كما قال الزمخشري – رحمه الله –: [أي: هو الذي خلق الاشياء كلها، وهو الذي صرفها على حسب ارادته][5] فلا حكم اذن للانسان ولا حرية ولا اختيار ولا أمر، لأنه والكون من

=

وأصول الدين الإسلامي ص١٨٥ وافعال العباد بين الجبر والاختيار للدكتور عبدالملك السعدي ص١٨ وغيرها.

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦).

(٢) كتاب الاربعين في أصول الدين ص١١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الأعراف: الآية (٥٤).

(٥) الكشاف: ٨٣/٢.

أمر الله تعالى وخلقه وارادته وحده.

ويجاب على هذا: بأن الله تعالى اعطى بني الإنسان من جملة مخلوقاته شيئا من الحرية، ومنحهم بعضا من الارادة، ووهب لهم مقدارا معينا من التصرف والحركة، وهو في الوقت ذاته يثيب كل من اطاعه والتزم العمل الصالح، ويعاقب كل من عصاه وفعل الفعل الطالح قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝ ﴾[(١)] وكل افعال الإنسان وحركاته وتصرفاته لا تخرج عن أمر الله وخلقه وملكه.

٢- قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[(٢)] [ان الله تعالى علم واراد ازلا وجود افعال العباد، وتعلقت قدرته بوجودها فيما لا يزال، فما وقع من افعالهم فهو بقضائه وقدرته، وهم مجبرون في افعالهم][(٣)]. فالإنسان مجبور في كل تصرفاته وحركاته وافعاله لأن خالقه – جل جلاله –علم بعلمه الازلي القديم الذي احاط بكل شيء علما، كل ما سيفعله هذا الإنسان من خير أو شر، وهو سبحانه الفعال لما يريد.

ويجاب على هذا الدليل [بأن تعلق علم الله تعالى وارادته بأفعال العباد لا يجعلهم مجبورين في افعالهم – وتصرفاتهم – لأن صفتي العلم والارادة ليستا من صفات التأثير، فالله تعالى علم أولاً ان العبد يختار افعاله، ورجحت ارادته تعالى ازلا وجود هذه الافعال فيما لا يزال، وتعلقت قدرته تعالى بأفعال العبد بعد علمه بأن العبد يختارها ويصمم عليها، فَعِلْمُ الله تعالى بها ازلا، وبأن العبد يختارها ليس سالبا لاختيار العبد، وإنما هو محقق لاختياره][(٤)]. وحاصل الجواب ان علمه تعالى بمصير زيد واختياره في المستقبل افعاله لا دخل له في اجبار زيد على وقوعه فيها. كما ان هناك فرقا بين القدرة والارادة[(٥)].

---

(١) الزلزلة: الآيتان (٧-٨).

(٢) النور: الآية (٣٥)

(٣) الإنسان هل هو مسير أم مخير ص١٤.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) فالقدرة صفة ازلية يتأتى بها ايجاد كل ممكن واعدامه، وضدها العجز.
والارادة صفة ازلية تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه، من وجود أو عدم، ومقدار وزمان، ومكان وجهة، وضدها الاكراه. انظر: شرح الخريدة البهية للعلامة الشيخ أحمد الدردير، مع حاشية الصاوي عليه، مطبعة الاستقامة، مصر، ص٧٨ وأصول الدين الإسلامي ص١٤٩ و ص١٥٢.

وقد حاول الجبرية الاعتماد على أكثر عدد من النصوص القرآنية الكريمة للقول بأن الإنسان مجبور مقهور، ونفي قدرته واستطاعته الممنوحة له من خالقه — جل جلاله وعم نواله - ومنها قوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾[(١)] ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[(٢)] ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[(٣)] ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾[(٤)].

ويجاب على استدلالاتهم هذه [بأن هذه النصوص يجب تأويلها كي تستقيم مع النصوص التي تعارضها، التي تثبت للعبد عملا يستحق عليه العقاب والثواب والمدح والذم، لأن الله تعالى نفى الظلم عن نفسه، وانه لا يحاسب إلا على العمل الذي اكتسبه العبد، قال تعالى: ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[(٥)]][(٦)].

١- من الناحية العقلية ان كانت القدرة والارادة من الله تعالى، وبغيرها يمتنع الفعل، ومعهما يجب، فالفعل اذن هو بالحقيقة من الله تعالى، والملزوم في هذا ظاهر وكذا لازمه.

ويجاب: بأنه لا يلزم من كون آلة الفعل من الله تعالى ان يكون الفعل منه سبحانه، والا لكان الحداد فاعل السيف وصانعه هو القاتل للمؤمن فيذم أو للكافر فيمدح، واللازم كالملزوم في البطلان[(٧)].

رأي المعتزلة في أفعال الإنسان:

من خلال دراستنا لموقف المعتزلة ورايهم في موضوع افعال الإنسان، وجدنا انهم يختلفون مع الجبرية في رؤيتهم العامة لأفعال الإنسان، فالمعتزلة يقسمون الافعال إلى قسمين:

١- افعال اضطرارية (جبرية). ٢- افعال اختيارية ارادية[(٨)].

---

(١) التوبة: الآية (٥١). (٢) الصافات: الآية (٩٦).

(٣) الأنعام: الآية (١٠٢). (٤) القصص: الآية (٦٨).

(٥) النحل: الآية (١١١).

(٦) أصول الدين الإسلامي لعليان، والدوري ص١٨٦.

(٧) القضاء والقدر عند المسلمين ص٢٢٠.

(٨) الافعال الاضطرارية هي التي لا قدرة للإنسان ولا اختيار له فيها، كحركة ارتعاش اليد وحركة =

وهذا في الحقيقة هو مذهب أهل السنة والجماعة أيضاً، كما سوف نرى ذلك واضحا عند الحديث عن رأيهم.

وقد اجمع المعتزلة على امور مهمة منها:

١- ان العباد خالقون لأفعالهم – الاختيارية – مخترعون لها، وان الله تعالى ليس له في افعال العباد المكتسبة صنع ولا تقدير، لا بإيجاد ولا بنفي.

٢- وهم مع ذلك لم ينكروا العلم الازلي، فإن الله تعالى عندهم لم يزل عالما بكل مايكون من افعال خلقه، لا تخفى عليه خافية، فلم يزل عالما بمن سيؤمن وبمن سيكفر، وهذا القول يميزهم ويخرجهم عن دائرة القدرية الخالصة.

٣- ان الإنسان فاعل حر مختار، يعمل بالقدرة الحادثة التي منحتها اياه العناية الإلهية، ويتصرف بها ويوجهها حسبما يريد، وهذه القدرة تصلح لفعل الضدين: الفعل والترك.

٤- وقالوا بان أمرالله تعالى وارادته متلازمان[(١)] وان العبد هو الخالق لأفعاله – الاختيارية– والله تعالى خلق فيه القوة فقط، وهذه القوة تولد خلق افعاله بناء على نظرية التوليد عندهم[(٢)]. ومن قال في افعال الإنسان بان الله خالقها

=

الجهاز العصبي والهضمي وقد اتفقت الفرق الإسلامية جميعها على انها مخلوقة لله تعالى، وليس للعبد دخل فيها، فلا تكليف فيها ولا ثواب ولاعقاب عليها.

اما الافعال الاختيارية فهي التي للإنسان فيها قدرة واختيار، كالسير والكلام. وهذه الافعال هي محل الخلاف بين علماء الفرق الكلامية الإسلامية. انظر: كبرى اليقينيات الكونية د.محمد سعيد رمضان البوطي ص١٦٩ ورسالة في التوحيد والفرق المعاصرة للشيخ كمال الدين الطائي ص ١٢٧ عن أصول الدين الإسلامي ص١٨٥.

وتفرقة المعتزلة افعال العبد إلى اضطرارية واختيارية ذكرها التفتازاني في تهذيب الكلام ١٧٨/٢.

(١) انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي ص٩٤ والفصل مع الملل والنحل ٣٣/٣ والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص٣٧ والارشاد للجويني ص١٠٦ ونهاية الاقدام للشهرستاني ص٧٩ والانتصار للخياط ص١١٧ نقلا عن دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص٢٦١ وص٢٦٢ وانظر: تقريب المرام ١٧٨/٢ والمسايرة ص١٢٠ وما بعدها واللمعة ص٥٢ واليواقيت والجواهر ١٣٩/١ ومذاهب الإسلاميين ٤٤٩/١.

(٢) افعال العباد للدكتور السعدي ص١٥. والتوليد:هي ان يحصل الفعل من فاعله بتوسط فعل آخر،

=

ومحدثها. فقد عظم خطؤه[١] [وذلك لأن هذه الافعال متعلقة بالإنسان، فلا يصح ان تتعلق بالذات الإلهية، لأنه يستحيل ان يكون فعل واحد مفعولا لفاعلين ومقدوراً لقادرين في وقت واحد ومن جهة واحدة][٢].

وقال الإمام الهمام أبو حامد الغزالي —قدس الله سره -:[والقدرية[٣] انكروا قضاء الله تعالى، ورأوا الخير والشر من أنفسهم. أرادوا بذلك تنزيه الله عن الظلم وفعل القبيح، ولكنهم ضلوا إذ نسبوا العجز إلى الله تعالى في ضمن ذلك، ولم يدروا][٤].

والفعل في نظر المعتزلة صادر عن العبد بتأثير قدرته، وتخصيص مشيئته، سواء وافقتها المشيئة القديمة أو خالفتها، ولايتوقف تأثير القدرة الحادثة في الفعل على الداعي، ولا تتعلق القدرة القديمة بفعل العبد اصلا، لا موافقة، لاستحالة اجتماع مؤثرين على اثر واحد، ولا مخالفة، للزوم العجز في قدرة القادر سبحانه وتعالى[٥]. ولذا فالمعتزلة يرون ان الإنسان فاعل لأفعاله على جهة الحقيقة لا على جهة المجاز[٦].

ادلة المعتزلة ومناقشتها:

لقد حاول المعتزلة الاستدلال على صحة مذهبهم وهوان افعال العباد واقعة

كحركة المفتاح بحركة اليد، وحدوث جرح بسبب الاصابة بحجر أو بسهم اطلقه إنسان / مذاهب الإسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوي١/١٩٢.

(١) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص٣٣٣ وص٣٣٤.

(٢) القضاء والقدر عند المسلمين ص٢٤٤.

(٣) فرقة من المعتزلة سموا قدرية لانهم انكروا القدر الإلهي وقالو بحرية الارادة والاختيار، وتسميتهم بهذا الاسم من قبيل الاشتقاق من الضد، وقد حاولوا ان يؤيدوا قولهم بأن للعبد قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الاعتماد على قدرة الله تعالى، ولذلك سموا قدرية لانهم اسندوا افعال العباد إلى قدرتهم، وانكروا تدخل القدر الإلهي فيها: انظر الارشاد ص١٨٧ والفرق بين الفرق، القاهرة، ١٩١٠م،٦٨والملل والنحل للشهرستاني بهامش الفصل ١/٥٤ وانظر: اعتقادات فرق المسلمين للرازي بتحقيق الدكتور عزب ص١١ وتاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين للشيخ علي الغرابي ص٣٣.

(٤) كتاب الاربعين ص١١.

(٥) اللمعة ص٥٢ وانظر: الإنسان هل هو مسير أم مخير للدكتور العقلي ص٥٤.

(٦) القضاء والقدر عند المسلمين ص٢٤٥.

بخلقهم وايجادهم بالاستقلال عن خلق الله تعالى وقدرته، واهمها:

١- قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ...﴾[١] وهذه الآية المباركة في نظر المعتزلة دليل على ان العبد مستقل في افعاله، موجد لها، لأن الله تعالى علق فيها تحقيق الإيمان والكفر على محض مشيئة العبد لأن المتبادر من الشرط أنه علة تامة للجزاء[٢]. فدل على أنه مستقل في ايجادهما ولافرق بين فعل وآخر، فهو اذن الموجد لكل افعاله. ولو كان الله تعالى خالقا لأفعال عبده لما خيره بين الخير والشر والإيمان والكفر.

ويجاب على هذا الاستدلال: بأنا لو فرضنا ان مشيئة العبد مؤثرة وموجدة للافعال استقلالا، فإن مقصود المعتزلة لا يتم، لماذا ؟ لأن العقل والنقل يدلان على توقف مشيئته على مشيئة الله تعالى وارادته.

أما الأول: فلانه لولم تتوقف مشيئة العبد على مشيئة الله تعالى للزم الدور أو التسلسل[٣].

واما الثاني: فلانه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٤].ومع هذا التوقف لا يمكن ان يتصور أمر الاستقلال[٥].

٢- لوكان الله تعالى خالقا لأفعال عباده لما كلف أحدا من خلقه، ولما حاسبه وعاقبه. لأن الشرع عبارة عن أوامر ونواه،وهما في مجموعهما طلب والطلب لا بد ان تسبقه القدرة والحرية والاختيار، وإلا لأصبح الطلب تكليفا بما لا يطاق.

ويجاب على هذا: انكم لم تفرقوا بين «خلق الفعل» و «ايقاع الفعل» فإن نسبة خلق الفعل إلى الله تعالى لا تدل على أنه الزم العبد في ايقاعه أو جبره عليه، لأن الله تعالى يخلق

---

(١) الكهف: الآية (٢٩).

(٢) العلة التامة مايجب وجود المعلول عندها، وقيل: هي جملة مايتوقف عليه وجود شيء، وقيل: هي تمام مايتوقف عليه وجود الشيء. بمعنى انه لايكون وراءه شيء يتوقف عليه: كتاب التعريفات للامام الجرجاني ص١٥٤.

(٣) بمعنى ان مشيئة العبد لو كانت مستقلة عن مشيئة الله تعالى فلابد اذن من قدرة اوجدتها وخلقتها، ولا بد لهذه القدرة من علة خلقتها، ولهذه الثانية من علة ثالثة وهلم جرا فيلزم التسلسل وهو باطل.

(٤) الإنسان: الآية (٣٠).

(٥) روح المعاني، دار الفكر، المجلد ٨/٢٦٦.

الفعل بعد قصد العبد فعله وبعد توجهه اليه، لا قبله[١].

٣- لو كان الله تعالى موجدا لأفعال العباد لكان فاعلا لها، لأن معناهما واحد، ولو كان فاعلا لها لكان متصفا بها. وحينئذ يوجب هذا القول وصف الباري – جل جلاله –بما لا ينبغي، كالكافر والظالم والآكل والقاعد وغير ذلك من الفواحش التي لا يستطيع العاقل اجراءها على اللسان، بل احضارها بالبال[٢].

ويجاب على هذا: بأن الذي يتصف بالفعل هو من قام به الفعل، لا من خلقه، والا فان الله تعالى خالق للسواد والبياض، وسائر أوصاف الاجسام ولا يقال عنه: إنه أسود أو أبيض أو متحرك لأنه خلق ذلك. فكذا إذا خلق الزنى في الإنسان، ثم زنى ذلك الإنسان، فإنه لا يسمى حضرته العلية زانيا بل يسمى به من وقع منه الفعل[٣]. ولذلك قال الإمام التفتازاني – رحمه الله – [القبيح: فعل قبيح لا خلقه][٤].

٤- الكفر فعل من الافعال، فلو كان حاصلا بقضاء الله تعالى لوجب الرضا به، لأن الرضا بالقضاء واجب، واللازم[٥] باطل، لأن الرضا بالكفر كفر.

ويجاب على هذا: بأن الكفر مقضى، لا قضاء، والرضا المطلوب إنما يجب (بالقضاء)، دون (المقضى) غاية ما يقال: إن للكفر جهتين: فمن حيث كونه متعلق صفة القضاء الإلهي فهذا يجب الرضا به وبكل فعل لله تعالى ومن حيث ذات الكفر وكونه مكسوبا للعبد فلا نرضى به بل يحرم الرضا به[٦].

---

(١) تقريب المرام ٢/١٧٩ وافعال العباد للشيخ السعدي ص١٦ ودراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص٢٦٢.

(٢) تقريب المرام ٢/١٧٩ وشرح النسفية بحاشية رمضان افندي ص١٨٥ وافعال العباد بين الجبر والاختيار في القرآن الكريم ص١٠.

(٣) شرح النسفية بحاشية رمضان ص١٨٥-١٨٦ وتقريب المرام ٢/ ١٨١ وأفعال العباد ص١٦-١٧.

(٤) تهذيب الكلام للتفتازاني – مطبوع مع شرحه تقريب المرام – ٢/ ١٨١.

(٥) اللازم ما يمتنع انفكاكه عن الشيء، وهناك لازم بيّن ولازم غير بين، ولازم الماهية، ولازم الوجود وغيرها. وهناك اللزومية: وهي ما حكم فيها بصدق قضية على تقدير قضية أخرى، لعلاقة بينهما موجبة لذلك: كتاب التعريفات ص١٩٠.

(٦) الإنسان هل هو مسير أم مخير ص٦٠ وانظر: مذاهب الإسلاميين ١/٤٥٤ وما بعدها وشرح النسفية بحاشية رمضان افندي ص١٨٧.

رأي أهل السنة في أفعال الإنسان:

حاصل ما تقدم مذهبان، أحدهما قال بالاختيار الكلي للعبد في جميع أفعاله الاختيارية وانكر قضاء الله تعالى وقدره فيها بالكلية وهو قول المعتزلة. وثانيهما نفى الاختيار الكلي للعبد في جميع أفعاله، من غير تمييز بين الاضطرارية منها والاختيارية، اعتمادا على القضاء والقدر بالكلية وهو قول الجبرية.

أما أهل السنة والجماعة فقد راموا التوسط بين هذين المذهبين المتطرفين، والاعتدال والتوازن بينهما [فلم ينفوا الاختيار عن أنفسهم بالكلية، ولم ينفوا القضاء والقدر عن الله تعالى بالكلية، بل قالوا: أفعال العباد من الله تعالى من وجه، ومن العبد من وجه. وللعبد اختيار في إيجاد أفعاله](١).

والعبد في رأي أهل السنة(٢) له ارادة وقدرة تتعلقان بفعله، اما تعلق الارادة فهو من حيث الاختيار والقصد، وأما تعلق القدرة فهو من حيث الكسب والفعل والايقاع(٣). ولذلك فالمشهور في مذهب أهل السنة والجماعة أن أفعال الإنسان الاختيارية من حيث الخلق مخلوقة بقدرة الله تعالى وحدها، ولا أثر لقدرة العبد في إيجادها وخلقها وإبداعها، ومن حيث الانتساب والكسب فهي للعبد، فقالوا: فعل العبد الاختياري ابداع واحداث لله تعالى وكسب للعبد(٤).

وعلاقة العبد بأفعاله عبارة عن كونه محلا لها(٥). مع الاعتراف بارادته الداخلة تحت ارادة الله تعالى وكذا قدرته الداخلة تحت قدرة الله تعالى.

واراد بعضهم التعبير عن مذهبهم بكلمة موجزة فقال: لا جبر ولا تفويض أي: لا جبر مطلق محض كما قال الجبرية، ولا تفويض مطلق كما قال المعتزلة،ولكن أمر متوسط بين هذين الاتجاهين المتطرفين(٦).

---

(١) كتاب الاربعين للامام الغزالي ص١٢.

(٢) في رأي أهل السنة عموما وفي رأي السادة الأشعرية خصوصا.

(٣) اللمعة ص٤٧.

(٤) الانصاف للباقلاني ص٤٠ والتبصير للاسفرائيني ص١١٦ واحياء علوم الدين للغزالي ٦٨/١ والمواقف للايجي ص١٠٥ ودراسات في الفرق ص٢٦٣.

(٥) الإنسان هل هو مسير أم مخير ص١٨.

(٦) المصدر نفسه ص٤٧ وانظر: أصول الدين للبغدادي ص١٣٤ والارشاد للجويني ص١٨٧ وما =

معنى الكسب عند أهل السنة:

قال الإمام الجرجاني – رحمه الله – في تعريف الكسب: [هو الفعل المفضي إلى اجتلاب نفع، أو دفع ضر، ولايوصف فعل الله تعالى بأنه كسب لكونه منزها عن جلب نفع أو دفع ضر](١).

وذكر بعضهم في بيان معنى الكسب انه: [عبارة عن الاقتران العادي بين القدرة الإنسانية الحادثة والفعل، فالله تعالى قد اجرى العادة بخلق الفعل عند قدرة العبد وارادته، لا بقدرة العبد وارادته](٢).

فالمراد من قولهم: الفعل كسب للعبد هو مقارنة وجود الفعل لقدرة العبد واختياره، من غير ان يكون هناك تأثير منه أو مدخل في وجوده سوى كونه محلا. وهذا مذهب امام أهل السنة والجماعة الشيخ أبي الحسن الاشعري – رحمه الله تعالى(٣).

قلت: ومذهب ان فعل العبد ابداع واحداث لله تعالى، وكسب للعبد هو مذهب الشيخ الاشعري على المشهور من قوليه، ومذهب أكثر اتباعه ومنهم ابن فورك وجماعة من المدرسة الماتريدية، وجمهور السادة الصوفية، والمحدثين، وامام الحرمين الجويني على اول قوليه المذكور في كتابه «الارشاد» وهو المشهور، وفرقتي الضرارية والنجارية من المعتزلة(٤).

ادلة أهل السنة والجماعة:

لقد اعتمد أهل السنة في رأيهم هذا في افعال العباد على انها مخلوقة لله تعالى، وان العبد لا اثر له ولاقدرة في خلقها وايجادها واحداثها، على جملة كبيرة من الادلة النقلية

=

بعدها وشرح النسفية بحاشية رمضان ص١٩٤ وما بعدها وشرح الفقه الاكبر للقاري ص٤٤ وما بعدها والمسايرة ص١١٩ واليواقيت والجواهر ١٣٩/١ واللمعة ص٤٧ وتقريب المرام ١٦٦/٢ والنظام الفريد بتحقيق جوهرة التوحيد ص١٣٩ والوسيلة في شرح الفضيلة ص٥٦١ وعقائد السلف ص١٣٧ وشرح النسفية للشيخ السعدي ص١٠٥ وافعال العباد للسعدي أيضاً ص٢٤.

(١) كتاب التعريفات ص١٨٤.

(٢) دراسات في الفرق ص٢٦٣.

(٣) النظام الفريد ص١٣٩ وانظر: التمهيد للباقلاني ص٢٨٧.

(٤) اللمعة ص٤٧.

والعقلية، يطول بنا سردها كلها، ولكن منها مايأتي:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[١]. والشاهد فيها هو ان معنى الآية ان الله تعالى خلقكم وخلق اعمالكم – وذلك على اساس تقدير (ما) مصدرية- أو خلقكم وخلق الذي تعملونه – على تقديرها موصولة -.

٢- وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[٢] أي: خالق جميع الاشياء الممكنة[٣] وبما ان افعال العباد شيء ممكن من جملة هذه الممكنات التي خلقها الله تعالى – بصريح الآية- فهي اذن مخلوقة له تعالى، وذلك بموجب صيغة العموم في كلمة (كل)[٤].

٣- والدليل على صحة مذهب أهل السنة وهو ان العبد كاسب لأعماله هو قوله تعالى عن نفس الإنسان: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[٥]. فنفس الإنسان تكسب كل ما عملته من الأعمال الصالحة، وتكتسب كذلك كل ما اقترفته من الأعمال السيئة[٦] ودلالة الآية على معنى (الكسب) صريحة وواضحة.

٤- روى الإمام البخاري – رحمه الله – عن سيدنا حذيفة بن اليمان –رضي الله عنه– قال: قال النبي –صلى الله عليه وسلم-: **(ان الله يصنع كل صانع وصنعته)**[٧].

فاخبرنا عليه الصلاة والسلام ان الله تعالى يخلق كل العباد مع صناعاتهم وافعالهم.

---

(١) الصافات: الآية (٩٦).

(٢) الزمر: الآية (٦٢).

(٣) الممكنة فقط لأن قدرة الله تعالى تتعلق بالممكن فقط، والممكن: مايتصور العقل وجوده وعدمه على التعاقب والتوالي مثل العالم وجميع مفرداته واجزائه.

(٤) تقريب المرام ١/١٧٠ و ١٧١ والارشاد للجويني ص ١٩٨-١٩٩ وشرح الفقه الاكبر للقاري ص٤٥ وافعال العباد للسعدي ص٢٤ وشرح النسفية للسعدي ص١٠٦ والوسيلة ص٥٦٢.

(٥) البقرة: الآية (٢٨٦).

(٦) لقد عبر الكتاب المجيد عن عمل الخير بلفظ (الكسب) لأنه يحصل براحة واطمئنان وعبر عن عمل الشر بلفظ (الاكتساب) لأنه يحصل بجهد وعناء ومشقة.

(٧) كتاب خلق افعال العباد للبخاري، مطبوع في كتاب: عقائد السلف للدكتور علي سامي النشار وعمار جمعي الطالبي، مكتبة الآثار السلفية، ١٩٧١م، ص١٣٧.
وانظر: الاعتقاد للبيهقي ص٧٣.

٥- ومن الناحية العقلية، فعل العبد شيء ممكن في نفسه، وكل ممكن مقدور لله تعالى[١]، فينتج لنا ان فعل العبد مقدور لله تعالى. ولاشيء مما هو مقدور لله تعالى واقع بقدرة العبد لامتناع اجتماع مؤثرين على مقدور واحد.

وتوضيح ذلك، ان المقدمة الأولى (فعل العبد ممكن في نفسه) ظاهرة لا تحتاج إلى دليل. والمقدمة الثانية (كل ممكن مخلوق بقدرة الله تعالى) فدليلها ما مر من شمول قدرة خلقه تعالى للممكنات بأسرها، كقوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

واما قولنا: (لا شيء مما هو مقدور لله تعالى يقع بقدرة العبد) فدليل صحته هو امتناع اجتماع قدرتين مؤثرتين على اثر واحد، وعندئذ إذا ثبت هذا، ثبت ان فعل العبد ليس واقعا بقدرة العبد.

٦- لو كان العبد موجدا لأفعاله وخالقا لها، لكان عالما بتفاصيلها وجزئياتها، لكن الواقع ان العبد لا يعلم تفاصيل أفعاله، فإن الماشي مثلا إلى مكان ما لا يعلم عدد سكنات وحركات مشيه، ولا يعلم حركاته ولا سرعتها، ولا حركات اعضائه وعضلاته، ولا يعلم قدر ارتفاع قدمه عن الأرض وانخفاضه، فلا يكون اذن العبد موجدا لأفعاله.

والدليل على ان العبد لا يعلم تفاصيل افعاله هو ان النائم والساهي – مثلا – قد يفعل كل منهما باختياره فعلا معينا، وهو لا يشعر بكمية ذلك الفعل ولا بكيفيته، كانقلابه من جنب إلى جنب آخر وهو نائم، وكالمحرك منا لإصبعه فإنه محرك لكل اجزائها لا محالة، ولاشعور له بها. فكيف يتوهم أنه يعرف حركتها ويقصدها ؟!

٧- لو كان العبد خالقا لفعله باختياره وقدرته، استقلالا عن قدرة الله تعالى، لوجب ان يكون متمكنا من فعل كل عمل يقدم عليه، أو تركه، والا لم يكن قادرا عليه مستقلا بإيجاده.

ولوجب – أيضاً – ان يكون ثمة مرجح يرجح فعله على تركه، إذ لو لم يتوقف على المرجح – والفرض ان صدور الفعل عن العبد جائز لا واجب – للزم ترجيح أحد الأمرين المتساويين بغير مرجح، وهذا محال.

---

(١) أي: مخلوق بقدرة الله تعالى وحدها.

واذا لزم وجود المرجح، فهذا المرجح اما ان يكون من العبد نفسه وباختياره فيترتب على ذلك التسلسل(١) وهو باطل(٢)، واما ان يكون من الله تعالى وهو المطلوب(٣).

- **رأي الباحـــــث:**

أ- رأي الباحث في رأي الجبرية:

من يتأمل كثيرا في رأي الجبرية ويدرسه بفكره دراسة عميقة يصل إلى مايأتي:

١- انه رأي ينفي الفرق بين المحسن والمسيء، ويجعلنا لا نميز حسنات الإنسان الصالح من بين سيئات الرجل الفاسد، لماذا ؟ لأن كلا منهما كان مجبرا على مايفعله، مقهورا على ما ارتكبه، مسيرا فيما اقترفه. فالملتزم بأداء الصلاة وصيام رمضان ودفع الزكاة وحج البيت الحرام وغيرها من الواجبات والمفروضات، هو ومن يقع في شرب الخمر والزنا والسرقة واكل الحرام سواء. لأن كل واحد منهما مسلوب الارادة، مجبور على فعله هذا.

٢- ويبطل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لماذا ؟ لأنه لا فائدة بالأمر بالمعروف ولا بالنهي عن المنكر ما دام الإنسان مسلوب القدرة والاختيار.

٣- بل لا فائدة في تكليف الله تعالى لعباده بالتزام الخير والحق والكف عن الشر والباطل، ولايبقى أي معنى في هذا التكليف، لأن تكليفه تعالى اياهم مع سلب حريتهم وقدرتهم واختيارهم هو منتهى الظلم والقبح المنزه عنهما حضرة الله

---

(١) التسلسل: هو ان يستند الممكن في وجوده إلى علة مؤثرة فيه، وتستند تلك العلة المؤثرة إلى علة أخرى مؤثرة فيها، وهلم جرا إلى ما لا نهاية / أصول الدين الإسلامي ص٨١ فالتسلسل اذن — بعبارة أخرى — هو ترتيب امور غير متناهية: كتاب التعريفات ص٥٧.

(٢) لان هذا الترجيح إذا كان من داخل العبد نفسه، لا من علة خارجة، فلا بد له من ترجيح رجحه، وهذا الثاني لا بد له أيضاً من ترجيح وهكذا إلى ما لا نهاية.

(٣) النظام الفريد للعلامة محمد محيي الدين عبدالحميد ص١٤٠-١٤١ وانظر بقية الادلة وتوضيحها في: الارشاد للجويني ص١٨٨ وما بعدها والابانة للاشعري ص٥٩ وما بعدها وأصول الدين للبغدادي ص١٣٥ وتهذيب الكلام ١٧٢/٢ وما بعدها وشرح الفقه الاكبر للقاري ص٤٥ والوسيلة في شرح الفضيلة ص٥٦٢ والاعتقاد للحافظ البيهقي ص٧٣ وما بعدها وتقريب المرام ١٧٣/٢ وما بعدها وافعال العباد ص٢٤-٢٥ ودراسات في الفرق ص٢٦٧ وأصول الدين الإسلامي ص١٨٨ وانظر: حاشية الشيخ ابراهيم البيجوري على متن السنوسية ص٢٧.

تعالى. ولسان الحال يقول:

ألقـــاه في الـــيم مكتوفا وقال له ايـــــاك ايـــاك ان تبـــتل بالمـــاء

٤- واذا عدمت فائدة التكليف عدم الثواب على الطاعة وعدم العقاب على المعصية. ولاشك في ان هذا القول يشجع الاباحية على دعوى شيوع النساء والجنس الحرام، وشيوع المال وفساد الاخلاق ودمار التربية، وهلاك القيم النبيلة، وهدم الحياء وتمويع الضوابط وذوبان القيود. وهذا مايسعى اليهود إلى تحقيقه - ليل نهار — على أرض البلاد الإسلامية كما حققوه بامتياز كبير على أرض المجتمع الغربي الكافر.

٥- وببطلان فائدة التكليف، وفائدة الثواب والعقاب، تبطل — نتيجة ذلك — فائدة بعثة الأنبياء والرسل — عليهم جميعا افضل الصلاة والسلام - لماذا ؟ لأن حضرات الأنبياء والرسل — عليهم الصلاة والسلام — جاءوا بالقوانين الإلهية حتى يلتزم بها، فإذا بطل التكليف وبطل الثواب والعقاب فأي داع ووازع يبقى في نفوس العباد يحملهم —عندئذٍ — على التقيد بهذه القوانين والتأسي والاقتداء بأخلاق حامليها وسيرهم العلية. فهذا القول اذن يلغي دور النبي وحركته بين الناس ووظيفته الكبيرة في معترك الحياة والمجتمع الإنساني.

٦- وقول الجبرية — فوق هذا وذاك — يؤدي إلى اسقاط رجاء العبد وطمعه في رحمة الله تعالى، وامله في مغفرته. ويؤدي أيضاً إلى زوال خوف العبد وخشيته من خالقه العظيم — جل جلاله وعم نواله — وهذا والله أمر عظيم، ولو لم يكن في رأي الجبرية إلا هذا لكفى في فساده وبطلانه.

وتوضيح ذلك هو ان الإنسان إذا اعتقد أنه مجبور على معصية الله تعالى فهو اذن مجبور على عقابه سبحانه لا محالة، وإذا كان مقهورا على عقابه فأي رجاء يبقى عنده عندئذ في رحمة الله، واي طمع يبقى له في غفرانه. فيقنط وييأس من رحمة الله وهذا كفر، لأن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[1].

واذا اعتقد الإنسان أنه مجبور في جميع افعاله فهو لا يخاف من سوء عمله، لأنه مجبور مقهور على ارتكابه، والذي قهره عليه هو الله تعالى، فهو اذن لا يخاف من الله ولا يخاف

(١) يوسف: الآية (٨٧).

من سوء عمله، وإذا زال خوفه من الله تعالى فأي معنى يبقى للعبودية ؟ واي هيبة تبقى للربوبية؟ وهذا الاثر اشد من الأول واخطر.

٧- والجبرية بقولهم: الإنسان مجبور في جميع افعاله، يعطلون حركة العقل، ويجمدون طاقات الفكر، ويحولون دون الاستفادة من انطلاقاته واشعاعاته النيرة، التي ينشأ بها دولة الحضارة، ودولة العلم، ودولة التقدم والبناء. لاسيما ونحن نعيش اليوم عصر التسابق العلمي، والاستكشافات الحديثة، الجيولوجية والبايلوجية والتكنولوجية، والنووية والذرية وغيرها.

وبيان ذلك ان الجبرية لا يفرقون بين حركات الإنسان وحركات غيره من المخلوقات كالحيوانات، فالكل مقهور على افعاله، والإنسان واحد من ذلك الكل، اذن فما هي فائدة العقل الذي منحه الله تعالى للانسان، واين هو دوره في عمارة الأرض وتحقيق الخلافة، وما حكمة خلقه اذن، وما الفارق بينه وبين بقية الحيوانات، ومن سيقوم ببناء المستشفى للمرضى، وبناء المختبرات العلمية، والحقول التجريبية، وتحقيق اسهل واحدث وسائل الراحة والرفاه للناس والمجتمع.

وفوق هذا وذاك فإن الإنسان سيقيم الحجة على الله تعالى يوم القيامة،عندما يحاسبه على ذنوبه وسيئاته، ويقول له: يارب أنت اجبرتني على فعلها وارتكابها، فلم تحاسبني على الوقوع فيها ؟

٨- وفي خلال تدقيقي في أدلة الجبرية ولا سيما الثاني منها، وهو قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1]. وجدت ان الجبرية لم يفرقوا بين صفة (العلم) وصفتي (القدرة والارادة). وهذا أحد المآخذ عليهم.

٩- ووجدت أيضاً ان الجبرية في حالة الاستدلال لصحة مذهبهم ودعمه، يجترون الآيات والنصوص التي تدل على معنى الجبر، وقطع صلتها بأخواتها الاخريات التي تدل على معنى الاختيار والارادة.

وقد ادى بهم عملهم هذا في الاستدلال إلى الاعتماد الكلي على جميع الآيات المطلقة، سواء كانت تتحدث عن الهداية أم عن الضلالة، من غير حملها على آيات الهدى والضلالة الأخرى التي جاءت بصورة مقيدة. وكذا القول في الآيات العامة والآيات الخاصة. ولذلك

---

(١) البقرة: الآية (٢٩).

كانت سمة التطرف واضحة في هذه المدرسة[١].

١٠- واخيرا اقول: ان قول الجبرية في افعال الإنسان أنه مقهور مجبور في جمعيها. يسوغ للماركسي الاصرار على ماركسيته، والبوذي على بوذيته، والمبتدع على بدعته، والفاسق على فسقه، بذريعة ان الله تعالى لو لم يشأ ان يكونوا هكذا لما كانوا كذلك. وهي نفسها دعوة المشركين التي أبطلها الله تعالى ودحضها بقوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ ...﴾[٢].

ب- رأي الباحث في رأي المعتزلة:

من يتأمل طويلا في رأي المعتزلة، وهوان الإنسان خالق وموجد لأفعاله، ولا دخل لقدرة الله تعالى وارادته ومشيئته في ايجادها وخلقها، يصل إلى ما يأتي:

١- بقولهم هذا ينسبون العجز إلى الله تعالى، ويعطلون دور القدرة والخلق الإلهيين.

٢- وقولهم: فعل العبد يصدر بتأثير مشيئته وبتخصيصها فقط، سواء وافقتها مشيئة الله القديمة أم خالفتها، الغاء لمشيئة الله تعالى، مع وصفها بالعجز والحد. وهو مخالفة صريحة وظاهرة لقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾[٣].

والقولان — هذا والذي قبله — يدلان دلالة واضحة على وجود شريك وخالق آخر مع الله تعالى، له قابلية الخلق والاحداث بمشيئته المستقلة، كما ان الله تعالى يخلق كذلك.

٣- وبقولهم: الإنسان يعمل ويتحرك ويخلق افعاله بقدرة منحتها له قدرة الله تعالى وعنايته، يحدثون تناقضا بينا في مذهبهم. لماذا ؟ لأن أصل قدرة الإنسان الحادثة من قدرة الله تعالى، ولولا قدرته تعالى لماتحرك الإنسان وعمل وصارت افعاله الاختيارية، فكيف اذن يلغى دور هذه القدرة الاصل، ويمنع تدخلها في افعاله،

---

(١) وقد حاول بعض الباحثين المتأخرين الدفاع عن الجبرية أو تبرير قولهم بأن الجبرية ما ارادوا بقولهم هذا إلا التوحيد المطلق لله تعالى: تاريخ الفرق الإسلامية لمصطفى الغرابي ص٣٧ وص٣٨. والحق اقول ان هذه افتراضات واحتمالات لا تنهض بقولهم ولا تشفع له، بل يبقى قولهم قولا فاسدا ومذهبا باطلا.

(٢) الأنعام: الآية (١٤٨).

(٣) الإنسان: الآية (٣٠).

القائمة بالاساس عليها!

٤- ولو ذهبت بعيدا تتأمل في معاني قول المعتزلة: الإنسان خالق لأفعاله. تجد ان هذا القول يولد في نفس العبد الكبرياء، والاصرار، والفخر والتعالي على الناس. لماذا ؟ لأن الإنسان إذا اعتقد أنه هو الذي يخلق الخير للناس بإرادته ومشيئته وقدرته المستقلة، لا بفضل أحد عليه، يصيبه العجب بنفسه، والغرور بتصرفاته، فيتكبر على الخلق، وتنشأ فيه – نتيجة هذا الاعتقاد – جملة كبيرة من الأمراض النفسية، والصور الوهمية، ولا يخفى على الحكيم مايترتب على هذه الأمراض الباطنية الفتاكة من نتائج وخيمة وسلبيات كثيرة، تظهر آثارها عليه وعلى المجتمع، لاسيما إذا كان مسؤولا كبيرا، أو قائدا خطيرا، فيصر على رأيه، ويتعصب لقوله.

٥- وفي خلال تدقيقي النظر جيدا في ادلة المعتزلة – رحمهم الله – لاسيما في دليلهم الثاني، وجدت انهم لا يفرقون بين «خلق الفعل وايجاده» وبين «ايقاع الفعل وارتكابه والاتصاف به». وهذا بالحقيقة هو أحد المآخذ عليهم.

٦- وكذلك لا يفرقون – في الدليل الرابع – بين «القضاء» و «المقضى».

ولايفرقون أيضاً بين وجوه القضاء وصوره، اعني من حيث كونه فعلا لله تعالى، ومن حيث كونه فعلا للعبد.

٧- ومما يؤخذ على المعتزلة اهمالهم تحليل النصوص الدالة على خلق الله تعالى لجميع الممكنات، وتركهم ربطها وصلتها بالنصوص التي تمسكوا بها. كقوله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1] وقوله: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[2] وغيرهما من النصوص الأخرى، الدالة على عكس مرادهم وقولهم.

٨- واني اتساءل واقول: لوكان الإنسان محدثا وخالقا لأفعاله – كما قال المعتزلة – فلماذا اذن لا يخلق لنفسه الهداية والنور والصلاح والخير والعدل والحق، فيستضيء بضياء كل معنى من هذه المعاني السامقة، والاخلاق العالية، الداخلة في مشيئته المستقلة، وينقذ حينئذ نفسه من الحيرة والضلال والعمى والشر، وبدلا

(١) الصافات: الآية (٩٦).

(٢) الزمر: الآية (٦٢).

من ان يخلد في النار مع المعذبين الهالكين، يخلد في الجنة مع المنعمين الناجين. لكن واقع الحياة البشرية لو جئت تدرسه تجده خلاف ذلك تماما. فكيف اذن يكون الإنسان خالقا لأفعاله.

٩- ومن الناحية العقلية والمنطقية، إذا كان الإنسان خالقا لأفعاله فلابد ان يكون قديما غير مسبوق بالعدم، لأن من صفات الخالق ان يكون قديما، والإنسان حادث مخلوق بالاتفاق، فوجب ابطال اتصافه بالخالق.

١٠- كان هدف المعتزلة — غفر الله لهم — في قولهم: افعال الإنسان مخلوقة بقدرته المستقلة وحدها، لا بقدرة الله تعالى وخلقه، هو تنزيه الله تعالى عن وصف الظلم والقبح، وان هذا هو من باب العدل الإلهي — كما يقول البعض- ونحن نرفض هذه الصورة في تنزيه الله تعالى، لماذا ؟ لأن حركة ارتعاش يد المريض، وتعسر حركة الجهاز الهضمي عند البعض، وعدم انتظام ضربات القلب العاجز، وقلة الفطنة عند بعض الناس، والخرس، وكثرة البلادة عند الآخرين وغيرها من الافعال الاضطرارية، كلها من خلق الله تعالى بالاتفاق.

فلو كان خلقه سبحانه افعال الإنسان الاختيارية بنوعيها (الحسنة والقبيحة) يناقض تنزيهه تعالى، بعدا عن اتصافه بالقبح، لما خلق حركة ارتعاش اليد، والخرس، والعمى، والبلادة وغيرها. بل يلزم من الواجب الأولى — لحوقا بالأعمال الاختيارية — ان يقال بأن الافعال الاضطرارية كلها من خلق الإنسان واحداثه أيضاً، تنزيها لله تعالى عما في بعضها من قبح لا يليق بحضرته.

فيحصل نتيجة ذلك مايأتي:

أ- انتقال من مذهب المعتزلة إلى مذهب الجبرية المحضة.

ب- الغاء وتعطيل دور القدرة الإلهية.

ج- تناقض في المذهب واضح.

وسبب هذا التناقض والاشكال يعود إلى ان المعتزلة لم يوفقوا إلى التفرقة بين خلق الفعل واحداثه، وبين من ارتكبه وتلبس به ولم يهتدوا إلى التقييم الدقيق لحجم الإنسان وحدوده وقدراته وطاقاته.

رأي الباحث في الموضوع:

بعد ان اطلعنا على رأي الجبرية والمعتزلة واهل السنة في موضوع تدخل القضاء

والقدر الإلهيين في افعال الإنسان، ووقفنا على ادلة كل من هذه المدارس الكلامية مفصلة ومناقشة، وبعد ان رأينا رأي الباحث في رأي وادلة الجبرية والمعتزلة ونقده لهما، آن الآن أوان معرفة رأي الباحث في هذه القضية.

تقرير الإسلام حرية الإنسان:

وبادئ ذي بدء يجب علينا ان نوضح شيئا مهما قرره الإسلام واكده دوما، ألا وهو ان الإنسان خلقه الله تعالى مزودا بطاقات واستعدادات وقوى وملكات، وغرس في نفسه ميولات ورغبات، واعطاه الحرية في توجيه طاقاته وقواه، فبإمكانه توجيهها إلى عمل الخير، كما يمكنه توجيهها إلى عمل الشر. على ان الله تعالى افرده من بين جميع مخلوقاته بنعمة عظيمة، ومنحة كريمة، ألا وهي هبة «العقل» حتى يميز بها الحق من الباطل، والنور من الظلام، والهدى من الضلال، والخير من الشر.

وبعد هذا كله وضح له معالم الطريق الحق، وسمات الدرب المنور، وهداه إلى معرفة الحق والباطل، والصدق والكذب، فقال عز من قائل: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾[1].

حكمة الإيمان بالقدر الإلهي:

إذا فهمنا ما قلناه الآن من ثبوت هذه الحقائق العلية، نستطيع ان نقترب كثيرا من فهم حكمة إيماننا بالقدر الإلهي، وهو ان يكون إيماننا بقدره تعالى [قوة باعثة على النشاط والعمل والايجابية في الحياة، كما ان الإيمان بالقدر يربط الإنسان برب هذا الوجود، فيرفع من نفسه إلى معالي الأمور: من الاباء، والشجاعة، والقوة من اجل احقاق الحق والقيام بالواجب.

والإيمان بالقدر يري الإنسان أن كل شيء في الوجود انما يسير وفق حكمة عليا، فإذا مسه الضر فإنه لا يجزع، وإذا صادفه التوفيق والنجاح فإنه لا يفرح ولايبطر، وإذا برئ الإنسان من الجزع عند الاخفاق والفشل - وبرئ — من الفرح والبطر عند التوفيق والنجاح، كان انسانا سويا متزنا، بالغا منتهى السمو والرفعة، وهذا هو معنى قول الله سبحانه: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ

(١) الإنسان: الآية (٣).

إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾[1]][2].

بهذه الصورة الراقية، وبهذا المشهد الرائع، وبهذا التعبير الدقيق يجب ان نفهم القضاء والقدر الإلهيين ونؤمن بهما، إيمانا فيه قوة ونشاط وحيوية، وتفاعل مع الكون، وانطلاق واسع في اسرار الوجود، إيمانا يدفعنا إلى مقاومة الفقر بالعمل والمثابرة، ومقاومة الجهل والتخلف بالعلم والجد والتقدم، ومقاومة المرض بالعلاج والتداوي، ومقاومة الكفر والطغيان بالجهاد والشجاعة، ومقاومة المعاصي والفساد بالدعوة والحكمة والارشاد.

علاقة العلم الإلهي بالفعل البشري:

أقول هذا - من غير ان نجعل علم الله تعالى الازلي القديم بمستقبل هذا العبد، وبنتيجة هذا الفعل، متكئا نستند إليه ونتواكل عليه. فنتكاسل عن سبق الامم والعالم في حضارته الحديثة، وتقدمه العلمي الهائل، ونعجز عن توعية الأمة بالقلم والجهاد، وانشاء جيل الحضارة القادمة، جيل الجهاد والدعوة والسلام، جيل الروح والعلم.

لماذا ؟ لاننا نعلم علم اليقين [أن علم الله تعالى في الازل بافعال العباد هو علم بصورة ما سيفعله الناس بمحض اختيارهم - وحريتهم - علم احاطة وتدقيق][3]. فلا دخل لعلمه تعالى باحوال العباد في جبرهم على اعمالهم وتصرفاتهم. وعندئذ - وبعد استقرار هذه الصورة - نستطيع ان ندحض مزاعم المستشرقين من ان دين الإسلام دين يدعو إلى الكسل والاهمال والتواكل.

ولو جئنا ندرس بيان القرآن الكريم لهذه القضية، لألفينا ان القرآن الكريم ما قطع بأن الإنسان مجبور على الإطلاق، ولا جزم بأنه حر مختار على الإطلاق. وإنما حاصل ما ذكره هو ان الإنسان تارة يكون مجبرا مسيرا، وتارة يكون حرا مختارا. وهذا دليل كاف لبطلان الرأيين المتطرفين، رأي الجبرية ورأي المعتزلة.

وخلاصة الرأي الوسط في هذه المسألة، هو اننا بعد ان نفرق بين الافعال الاضطرارية والافعال الاختيارية، ونميز بين الأعمال القهرية كغلبة النوم والتنفس والصحة

---

(١) الحديد: الآيتان (٢٢-٢٣).

(٢) العقائد الإسلامية سيد سابق ص٩٧.

(٣) رسالة في علم العقائد، ص٢٤.

والمرض والأعمال الارادية كالمشي والجلوس والضحك والبكاء، هو اننا نقول: الإنسان ليس مجبورا على الإطلاق[1]، ولامختارا على الإطلاق[2]، وإنما هو مجبور في جانب حتى لا يخرج عن سلطان الله تعالى، ومختار في جانب آخر حتى لا نسلبه حق الحرية والاختيار، وهذا هو الرأي الوسط الذي نعتقده ونؤمن به، والله تعالى اعلم.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾.

(١) كما قال الجبرية.

(٢) كما قال المعتزلة في افعاله الاختيارية.

الفصل الثالث

تطبيقات الوسطية في المسائل النبوية

المبحث الأول: بشرية الرسول - ﷺ -

المبحث الثاني: الوسطية في التفضيل

المطلب الأول: التفضيل بين الأنبياء

المطلب الثاني: تفضيل الأنبياء على الملائكة

المبحث الأول

بشرية الرسول ﷺ

مقدمة في أهمية الموضوع:

تأتي ضرورة الحديث عن بشرية الرسول -ﷺ- لأنه حامل لواء الشريعة الربانية، ولأنه المشرع الثاني بعد الكتاب المنزل عليه[1] فلولا حضرته الكريمة لما وصل الينا الوحي السماوي - عقيدة وشريعة وسلوكا روحانيا.

فبواسطة الرسول -ﷺ- عرفت البشرية خالقها وسيدها العظيم -وهو الله تعالى - جل جلاله وعم نواله - وعرفت افعاله وصفاته واسمائه، وعرفت ضرورة الإيمان بحضرته سبحانه، وعرفت مايترتب على الإيمان به من خلود في نعيم الجنة، وما يترتب على الكفر به من خلود في عذاب النار.

وبواسطة الرسول - ﷺ - عرفت البشرية شريعة الله تعالى واحكامه في افعال العباد وتصرفاتهم، في بيعهم وشراءهم، في زواجهم وطلاقهم، في سلمهم وحربهم، في اولادهم وازواجهم، في اموالهم وزروعهم، وفي كل شيء من حياتهم.

وبواسطة الرسول -ﷺ- عرفت حقوق الله تعالى، ووجوب الصلاة والصيام والحج والزكاة، واخلاص النية والعبادة لحضرته وحده.

وبواسطة الرسول -ﷺ- تهذبت اخلاق البشرية وصفت سلوكياتهم، ونمت طاقاتهم الروحانية، واعطوا للروح حقه كما اعطوا للجسد حقه، ووازنوا بين مطالب القلب ونداءاته، واشواق النفس ورغباتها. فلما عرفوا نفوسهم عرفوا ربهم سبحانه، وهذه هي الفائدة من بعثة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) يعتقد المسلمون ان سنة النبي الأعظم - ﷺ - هي المصدر الثاني في التشريع، اعتمادا على جملة كبيرة من الادلة النقلية والعقلية فانظر ان شئت: المستصفى للغزالي ٨٣/١ والابهاج في شرح المنهاج ٢٦٢/٢ واللمع في أصول الفقه للشيرازي ص٦٨ وارشاد الفحول للشوكاني ص٣٣ وما بعدها وأصول الفقه الإسلامي للعلامة رشيد الخطيب ٢٨-٢٩ وعلم أصول القانون للعلامة الدكتور عبد الله مصطفى المرشي ص٢٤٠ وانظر أيضاً كتاب: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للدكتور الشيخ مصطفى السباعي.

فلو لم يكن النبي بشرا كيف كان يمكن التلقي منه والاخذ عنه، وكيف يمكن للبشرية ان تصل إلى مراد الله تعالى، وكيف لها ان تعرف مايحبه حتى تفعله وما يبغضه حتى تتجنبه؟

لذلك جعل الله تعالى رسوله بشرا حتى يكون حلقة الوصل بينه وبين عباده، يتحسس بأحاسيسهم، ويتألم بآلامهم، ويشعر بمشاعرهم، وحتى يكون قريبا منهم دوما، ناصحا وواعظا ومعلما. وحتى يمكنهم الاتصال بحضرته، وسؤاله وزيارته وصحبته وخدمته، وفهم أقواله وأفعاله.

اذن لا بد من معرفة هذا الرسول، ذاتا وصفاتا، ومعرفة مقامه العالي، حتى نعرف كيفية التعامل الصحيح مع حضرته، تعاملا دقيقا يرضي الله ويرضيه. وهنا نسجل نقطة مهمة في هذه المقدمة السريعة، وهي ان الاعتقاد الحق، والتصور الدقيق، والإيمان الجازم ببشرية النبي أو الرسول – عليهما الصلاة والسلام – كما تحدث عنها القرآن الكريم، اقول: يشكل هذا الاعتقاد في مقاييس المتكلمين الفيصل الفاصل بين المسلم واليهودي والنصراني وغيرهما. ومن هنا نستطيع ان نعرف اهمية هذا الموضوع وخطورته الكبيرة على عقيدة المؤمن. وفقنا الله تعالى لمعرفة مقام نبينا – ﷺ – ومحبته وتعظيمه واجلاله والتأدب الكامل مع حضرته العلية آمين آمين.

مواقف الامم تجاه انبيائهم عليهم الصلاة والسلام:

من يقرأ توراة اليهود، واناجيل المسيحيين، ويبحث عن مواقف أهل الكتاب وغيرهم تجاه انبياءهم، تأخذه الحيرة ويصاب بالدهشة الكبيرة في وصف المعايير الخلقية والرذائل السلوكية التي وصف بها مدونو التوراة حضرات الأنبياء الكرام – عليهم جميعا افضل الصلاة والسلام – وكيف اتخذ اقوامهم معهم هذه المواقف السيئة.

١ – **سيدنا نوح عليه السلام:**

يذكر سفر التكوين في العهد القديم(١) ان نوحا بعد ان خرج من السفينة شرب

(١) العهد القديم هو التسمية العلمية لاسفار اليهود، وليست التوراة إلا جزءا من العهد القديم، وقد تطلق التوراة على الجميع من باب اطلاق الجزء على الكل، أو لاهمية التوراة ونسبتها إلى سيدنا موسى عليه السلام، لأنه ابرز انبياء بني اسرائيل، وعنده يبدأ تاريخهم الحقيقي، وكلمة التوراة معناها الشريعة أو التعاليم الدينية، واسفار العهد غير متفق عليها عند اليهود والمسيحين: اليهودية =

من [الخمر فسكر وتعرى في خيمته. فرأى حام أبو كنعنان عورة ابيه، فأخبر اخويه وهما خارجان فأخذ سام ويافث ثوبا والقياه على اكتافهما. ومشيا إلى الوراء ليسترا عورة ابيهما] فلما استيقظ نوح من سكره علم بما فعل به ابنه الصغير فلم يرض على فعله فلعنه وجعله عبد العبيد لاخوته(١).

ويحدثنا القرآن الكريم عن موقف قوم نوح لما بعثه الله تعالى إليهم: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾(٢) ولم يكتفوا بقولهم ما أنت إلا بشر مثلنا، بل قاموا بتهديده فقالوا: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾(٣) فكذبوه ووصفوه بالجنون: ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ ﴾(٤).

ولم يستجب قوم نوح لنصيحته ودعوته، ولم يأبهوا لانذار الله تعالى لهم، لماذا؟ لانهم كانوا ينظرون إلى سيدنا نوح – عليه السلام- أنه انسان مثلهم يأكل ويشرب ويتزوج وينام، فكيف يكون نبيا من كان بشرا مثلهم(٥).

٢- سيدنا هود(٦) –عليه السلام:-

جاء سيدنا هود إلى قومه – عاد(٧)- فدعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده وترك

=

للدكتور أحمد شلبي، ط ٨، ص٢٣٠.

(١) التكوين: ٩.

(٢) سيدنا هود – عليه السلام –: الآيات (٢٥، ٢٦، ٢٧).

(٣) الشعراء: الآية (١١٦).

(٤) القمر: الآية (٩).

(٥) مع الأنبياء في القرآن عفيف عبد الفتاح طبارة ص٦٢.

(٦) سيدنا هود- عليه السلام – هو ابن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح –عليه السلام-. وقيل: هو ابن عابر بن شالخ وقيل غير ذلك: قصص الأنبياء للطبري ص١١٨البداية والنهاية لابن كثير ١/١٢٠.

(٧) وعاد: مدينة تقع بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشجر: مع الأنبياء في القرآن ص٨٦.

=

عبادة الاصنام، فقال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾[١]. لكن ماذا كان تأثير هذه الدعوة على قبيلة – عاد – ؟ الجواب على ذلك هو أنهم احتقروا سيدنا هودا واستصغروا من شأنه، ووصفوه بالسفه والطيش والكذب. والقرآن يحكي لنا موقفهم السيء هذا: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦٦ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٧ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨ ﴾[٢].

أي انهم قالوا له: [ما أنت إلا سفيه طائش الحلم، تسفه عبادتنا، وتعيب علينا ما وجدنا عليه آباءنا، ما أنت بيننا! وما ميزتك من واحد منا! أنت تأكل كما نأكل وتشرب كما نشرب، وتجري في حياتك على اسلوب كالذي نجري عليه][٣]. فكانت نظرتهم إلى حضرته موسومة بالبشرية الصرفة فقط.

٣– سيدنا صالح[٤] –عليه السلام

بعث الله تعالى سيدنا صالحا إلى قوم ثمود[٥]، فدعاهم إلى مثل ما دعا إليه سيدنا هود، فقال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾[٦]. فما كان من ثمود إلا أن صمت منهم الآذان، وغلقت القلوب، وعميت الابصار، فأنكروا عليه نبوته، وهزئوا بدعوته، وقالوا له: لست إلا بشرا مثلنا فما حملك على هذه الدعوة، ما نراك إلا

=

سيدنا هود – عليه السلام –: الآية (٥٠).

(١) سيدنا هود – عليه السلام –: الآية (٥٠).

(٢) الأعراف: الآيات (٦٦، ٦٧، ٦٨).

(٣) قصص القرآن ص٢٣.

(٤) سيدنا صالح هو ابن عبيد بن اسف بن ماسخ بن عبيد بن خادر بن ثمود بن جاثر بن ارم بن سام بن نوح، وقيل غير ذلك: قصص الأنبياء للطبري ص١٢٦.

(٥) ثمود قبيلة مشهورة يقال ثمود باسم جدهم ثمود ابن عابربن ارم بن سام بن نوح، وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر الذي هو بين الحجاز وتبوك: البداية والنهاية ١/١٣٠.

(٦) سيدنا هود – عليه السلام –: الآية (٦١).

مسحورا: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾[(١)].

أي: انما أنت ممن سحر كثيرا حتى غلبت على عقلك فأصبحت تهذي بما لا تعرف، فلا نسمع لنصحك، ولانؤمن برسالتك[(٢)]. ما أنت إلا انسان مثلنا.

٤- سيدنا يعقوب[(٣)] – عليه السلام:

يحار الباحث عندما يقرأ قصة نبي الله يعقوب – عليه السلام – في سفر التكوين، بهذه الصورة المشوهة التي صاغتها اقلام اليهود. إذ نجد المحاولات الخبيثة والخطط الماكرة التي يصف بها مدونو التوارة يعقوب وهو يريد أن ينال ميراث ابيه إسحاق دون اخيه عيسو. ويصف سفر التكوين – على وجه التحديد – اعمال يعقوب بالشطط والكذب والخديعة لينال ما ليس له.

وخلاصة عبارة سفر التكوين. ان اسحاق لما شاخ وكلت عيناه من النظر، دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له: يابني صرت شيخا كما ترى ولا اعرف متى اموت فخذ عدتك وقوسك واخرج إلى البرية، وتصيد لي صيدا وجئني بالطعام حتى آكل واباركك قبل أن اموت. فلما سمع بذلك اخوه يعقوب عن طريق امه – رفقة – جاء إلى ابيه بالطعام قبل مجيء اخيه عيسو، فدخل على ابيه وقال: يا أبي فقال: اسحاق: من أنت يا بني ؟ فقال له يعقوب: انا عيسو بكرك فعلت كما أمرتني. فقال اسحاق: قدم لي من صيدك حتى آكل واباركك. فتقدم له فأكل وجاءه بخمر فشرب ثم بارك اسحاق ليعقوب وورثه يعقوب بحيلته هذه دون اخيه عيسو الذي جاء فيما بعد ولم يصدقه ابوه اسحاق.ونص عبارة اسحاق لابنه يعقوب وهو يباركه: [يعطيك الله من ندى السماء، ومن خصوبة الأرض فيضا من الحنطة والخمر،وتخدمك الشعوب وتسجد لك الامم][(٤)].

ويذكر أيضاً سفر التكوين قصة اغرب من هذه، وهي ان سيدنا يعقوب – عليه السلام- صارع ذات ليلة رجلا طوال الليل ولما طلع الفجر قال الرجل: طلع الفجر

(١) الشعراء: الآيتان (١٥٣، ١٥٤).

(٢) التفسير الفريد للقرآن المجيد ٢٢٨٧/٣.

(٣) سيدنا يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن ارغوا بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن ارفخشذ بن سام بن نوح: قصص الأنبياء للطبري ص١٣٤.

(٤) التكوين: ٢٧.

فاتركني. فقال يعقوب: لا اتركك حتى تباركني فقال الرجل: لا يدعى اسمك يعقوب بعد الآن بل اسرائيل لانك غالبت الله والناس وغلبت. وقال يعقوب بعدها للناس: اني رأيت الله وجها إلى وجه ونجوت بحياتي[١]. تعالى الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا، وتنزه سيدنا يعقوب – عليه السلام – من هذا الافتراء.

٥– سيدنا هارون[٢] – عليه السلام –:

جاء في سفر الخروج أن سيدنا هارون بنى لبني اسرائيل العجل الذهبي بناءً على رغبة الشعب نفسه، حيث قال لهم: انزعوا حلق الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وجيئوني بها. فنزع جميع الشعب حلق الذهب وجاؤوا بها إلى هارون، فأخذها من أيديهم وأذابها وسكبها في صنم على صورة عجل، ثم بنى أمام هذا الصنم – الذهبي – مذبحا ونادى: غدا عيد للرب[٣]. ونادى بعبادة هذا العجل الذهبي.

٦– سيدنا داود[٤] – عليه السلام –:

يصور سفر صموئيل الثاني سيدنا داود تصويرا بشعا، حيث يذكر أن داود تمشى ذات يوم على سطح قصره فرأى على السطح امرأة تستحم وكانت جميلة جدا، فسأل عنها فقيل له: هذه بتشابع بنت أليعام، وزوجة جندي في جيش يوآب واسم زوجها أوريا الحثي. فأرسل إليها فاغتسلت وتطهرت وتجملت فدخل عليها ونام معها، ثم رجعت إلى بيتها قبل رجوع زوجها، وحين أحست أنها حبلى أعلمت داود بذلك، فأمر داود يوآب قائد الجيش أن يجعل أوريا الحثي في مقدمة الجيش عندما يكون القتال شديدا ويرجع الجيش من ورائه فيضربه العدو ويموت[٥].

يصف أحدهم داود بانه كان قاسيا، غليظ القلب كما كان الناس في وقته، وكان يقتل الأسرى جملة كأنه ملك من ملوك الآشوريين، ويأمر ابنه سليمان بالقتل ويشجعه

---

(١) التكوين: ٣٢.

(٢) سيدنا هارون هو ابن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم: قصص الأنبياء ص٢٧٦ وهناك تفصيل آخر في نسب هارون يذكره سفر الخروج في الاصحاح: ٦.

(٣) الخروج: ٣٢.

(٤) سيدنا داود هو ابن إيشي بن عويد بن باعز بن سلمون بن نحشون، بن عمي بن نادب بن رام بن حصرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم: قصص الأنبياء: ص٣٥٣.

(٥) صموئيل الثاني: ١١.

عليه[1].

٧- سيدنا سليمان -عليه السلام -:

يذكر أحدهم أنه لما آل الملك إلى سليمان قتل جميع منافسيه ليستريح من متاعبهم، وعمله هذا لم يغضب الهه الذي احب الملك الشاب ووهبه حكمة لم يهبها أحدا من قبله ولا من بعده[2]. ومن يقرأ سفر الملوك الأول يجد أن سليمان كان ملكا مشوها حيث قتل أخاه ادونيا، وقتل يوآب قائد الجيش وقتل شمعي أحد كبار الرجال في مملكة أبيه[3].

ونقرأ في سفر الملوك الأول ان سيدنا سليمان أحب غريبات من الموآبيين والعمونيين والآدوميين والصيدونيين والحثيين ومن الامم التي عناها الرب في قوله تعالى: لا تختلطوا بهم ولا يختلطوا بكم فهم يميلون بقلوبكم إلى آلهتهم. فتعلق بهن سليمان حبا. وكان له سبعمائة زوجةمن الاميرات وثلاثمائة جارية، فأزاغت نساؤه قلبه فعبد آلهتهم[4].

٨- سيدنا العزير[5]- عليه السلام -:

المشهور ان عزيرا نبي من انبياء بني اسرائيل، وانه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى، وانه لما لم يبق في بني اسرائيل من يحفظ التوراة الهمه الله تعالى حفظها فسردها على بني اسرائيل، فنسخ التوراة بأمر الله تعالى حرفا بحرف حتى فرغ منها[6]. وبعد ان اظهر الله تعالى على يديه آيات باهرات قال اليهود فيه: ابن الله. وقد ذكر القرآن الكريم مقالتهم هذه في آية صريحة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ...﴾[7] تعالى

---

(١) قصة الحضارات ٢/ ٢٣١ عن اليهودية للدكتور شلبي ص ١٦٦ وص١٦٧.

(٢) اليهودية ص ١٦٨ وص١٦٩.

(٣) الملوك الأول: ٢.

(٤) الملوك الأول: ١١.

(٥) سيدنا عزير هو ابن جروة، ويقال: بن سريق بن عديا بن أيوب بن درزنا بن تقي بن اسبوع بن فنحاص بن العازر بن هارون بن عمران، ويقال: عزير بن سروخا. وقد جاء في بعض الآثار أن قبره بدمشق: البداية والنهاية ٢/٤٣.

(٦) البداية والنهاية ٢/٤٦.

(٧) التوبة: الآية (٣٠) وانظر سورة البقرة: الآية (٢٥٩). وذكر ابن كثير – رحمه الله – في البداية والنهاية اختلاف العلماء في نبوة عزير -عليه السلام -.

الله تعالى ان يكون له ولد أو زوجة علوا كبيرا.

٩- سيدنا المسيح[١] -عليه السلام -:

لم يكن النصارى اقل شأنا في اساءة الادب مع نبيهم سيدنا عيسى ابن مريم وتشويه حقيقته العلية من بني اسرائيل وقوم نوح وهود وصالح وشعيب مع انبياءهم الكرام -عليهم جميعا افضل الصلاة والسلام - بل قال النصارى في نبيهم ما لم يقال على أي نبي إلا على سيدنا عزير، كما اخبرنا القرآن الكريم عندما قال: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾[٢].

وهذا نص انقله للباحث الكريم من انجيل «متى» يبين ان النصارى يعتقدون ان السيد المسيح - عليه السلام - هو ابن الله [وتعمد يسوع وخرج في الحال من الماء. وانفتحت السماوات له، فرأى روح الله يهبط كأنه حمامة وينزل عليه. وقال صوت من السماء: هذا ابني الحبيب الذي به رضيت][٣].

ويذكر لنا «متى» أيضاً ان رئيس الكهنة يستحلف سيدنا عيسى فيقول له [استحلفك بالله الحي ان تقول لنا: هل أنت المسيح ابن الله ؟ فأجاب يسوع: أنت قلت، وانا اقول لكم: سترون بعد اليوم ابن الإنسان جالسا عن يمين الله القدير وآتيا على سحاب السماء][٤].

ويقول سمعان السامري: [ان مريم والدة عيسى - عليه السلام - وان المسيح هو ابن الله][٥].

ويقول الدكتور يوسف بوست: [طبيعة الله عبارة عن ثلاثة اقانيم متساوية: الله الاب، والله الابن، والله الروح القدس، فإلى الاب ينتمي الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن

---

(١) سيدنا عيسى ابن مريم بنت عمران بن باشم بن امون بن ميشا بن حزقيا بن احريق بن موثم بن عزازيا بن امصيا بن ياوش بن احريهو بن يازم بن يهفا شاطا بن ايشا بن ايان ابن رحيعام بن سليمان بن داود، وقيل غير ذلك: البداية والنهاية ٢/٥٦.

(٢) التوبة: الآية (٣٠).

(٣) متى: ٣/١٦-١٧.

(٤) متى: ٢٦/٦٥.

(٥) العرب والفلسفة اليونانية للدكتور عمر فرّوج، المكتب التجاري للطباعة، بيروت - لبنان، ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠م، ص١٣٤.

الفداء، وإلى الروح القدس التطهير، غير ان الثلاثة أقانيم تتقاسم جميع الأعمال الإلهية على السواء](١).

ونفهم من هذا كله ان الاساس العام في العقيدة المسيحية ان لله ثلاثة اقانيم «الاب، الابن، روح القدس» كلها واحد، وان الله قد حل في مريم وتجسد انسانا بشكل يسوع(٢).

واختلفوا في قضية احساس جسد عيسى – عليه السلام – بآثار الصلب والقتل والتعذيب. فيزعم بعضهم ان المسيح تألم وصلب ومات وقبر، بينما يرى البعض الآخر ان جسد المسيح غير قابل للآلام، وان ما ذاقه من الآلام في الصلب كان خياليا لا حقيقة له(٣).

١٠ – سيدنا محمد(٤) – ﷺ –:

في المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية وجد سيدنا وحبيبنا محمد – ﷺ – صنوفا كثيرة من اذى المشركين، والوانا عديدة من السخرية والاستهزاء والتقليل من شأن حضرته العلية، مثلما وجد من قبل اخوانه من الأنبياء والمرسلين بل أشدّ واعظم. لقوله – ﷺ –: (ما اوذي أحد ما اوذيت في الله عز وجل)(٥).

---

(١) المسيحية للدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، ط٤، ص١١٧، وط٨ ص١٣٩ وانظر: البداية والنهاية، ٥٦/٢ واظهار الحق للعلامة رحمة الله الهندي، تقديم د.عبدالحليم محمود، ١٣٩٨ هـ –١٩٧٨، ص٨٦٠ ومع المسيح في الاناجيل الاربعة لفتحي عثمان، مطبعة أحمد مخير – القاهرة، ١٩٦٦/، ص٩٩ والكشاف ٥٨٥/١ وتفسير الرازي ١٩٠/١١.

(٢) تاريخ الديانتين د. سعدون الساموك ص١٢١.

(٣) العرب والفلسفة اليونانية ص١٣٦.

(٤) قال: – ﷺ –: (انا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن الياس بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما) رواه الحافظ البيهقي في الدلائل عن سيدنا أنس ﷺ.
الجامع الصغير للسيوطي ٤١١/١ (٢٦٨٢).

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم ١١٧٦٧ و ١٣٥٤٣ والديلمي في الفردوس ٩٤/٤ (٦٢٩٦) وابو نعيم في الحلية عن أنس ٣٣٣/٦ وابن عدي في الكامل عن جابر ٢٦١٣/٧ وابن عساكر كما =

فقال المشركون في حضرته بعد ان اذهلتهم آياته الباهرات ومعجزاته الواضحات: ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾(١). أي القرآن الذي جاء به ماهو إلا مما نقله محمد عن السحرة كمسيلمة واهل بابل وغيرهم، ماهذا الكلام الذي نسمعه هو قول الله وكلامه، وإنما هو كلام بشر اعتيادي فالقرآن -- في نظرهم واعتقادهم -- كذب مختلق، كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾(٢).

لقد كان المشركون ينظرون إلى شخصية الرسول الكريم — ﷺ — كما ينظرون إلى أبي لهب وامية بن خلف وكعب بن الاشرف وغيرهم. وانه رجل من آحاد الناس، لا ميزة له ولا خصوصية ينفرد بها حتى يدعي أنه نبي، بل كان يأكل الطعام مثل الناس ويمشي في الاسواق ويبتغي الرزق. وقد حكى القرآن الكريم مقالتهم الكافرة هذه: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ﴾(٣).

فما كان المشركون ينظرون إلى حضرة رسول الله —ﷺ— أنه نبي الله ورسوله بعثه برسالة الإسلام ودين الحق والعدالة، وإنما كانوا يرونه يتيم أبي طالب، ذلك الكائن البشري المخلوق من ابوين معروفين، فكانت رؤيتهم لحضرته بعين البشرية المجردة فقط، وبناء على هذه الرؤية القاصرة التي سبقهم بها اقوام الأنبياء السابقين كما رأينا، جعل المشركون مقام الرسول الأعظم مساويا لسائر البشرية من غير تمييز ولا خصوصية ولا شرف ولا منزلة ولا جاه.

ولم يكتفوا بذلك بل شككوا في وحيه الامين، وعابوا علمه الشريف، واستهانوا بدعوته ووعظه. فقالوا بعد ان اعرضوا عن قبول دعوته ودينه ان بعض أهل الكتاب يعلمونه هذا الوحي ويدرسونه هذا الكلام، وزادوا على هذه الفرية وصفهم لجنابه العظيم بالجنون وذهاب العقل. وهاهو القرآن الكريم يحكي لنا موقفهم السيء هذا فيقول: ﴿ ثُمَّ

=

قال السيوطي في الجامع الصغير ٤٨٨/٢ (٧٨٥٣) وقال الحافظ السخاوي: وأصله في البخاري: المقاصد الحسنة ص٣٦٣ (٩٣٩) بيد اني بحثت عنه في البخاري فلم اجده.

(١) سيدنا المدثر —ﷺ—: الآيتان (٢٤-٢٥).

(٢) سبأ: الآية (٤٣). (٣) الفرقان: الآية (٧).

﴿ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾[١] فمن رأى رسول الله - ﷺ - وساوى كل ذاته العلية مع ذات البشر الاعتيادي، وساوى كل صفاته الكريمة مع كل صفات المخلوق الإنساني فقد خرج من عقيدة أهل السنة والجماعة وما عليه أهل الحق، واتبع ما كان عليه أهل الشرك والكفر والضلال عندما قالوا لانبياءهم الكرام - عليهم الصلاة والسلام -: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾[٢] ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾[٣] ﴿ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾[٤] ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾[٥] ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾[٦].

نتائج هذه المواقف:

وبعد هذه الجولة المتفحصة لأحوال الامم والقبائل ومواقفها السيئة مع انبياء الله الكرام - عليهم الصلاة والسلام - ادع الباحث الكريم إلى تحديد هذه المواقف، وتنظيمها بمجموعات مرتبة منظمة.

فبعد ان تأملت مليا في هذه الصور المعروضة آنفا، ظهر لي فريقان:

الأول: رفع بعض الأنبياء من مقام البشرية كليا، ونفى منه وصف العبودية ووصف المخلوقية وقام بتأليهه وجعله في مصاف الخالق القديم كما صنع اليهود مع سيدنا عزير وكما صنع النصارى مع سيدنا المسيح - عليهما السلام -.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾[٧] وقال أيضاً: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ﴾[٨].

الثاني: حط من مقام النبوة كليا، وتسوية النبي مع بقية البشر، وجعله من عوامهم، ونفي كل خصوصياته ومميزاته ومناقبه ودرجاته وجاهه، وقد ظهر هذا الفريق بالصور الآتية:

---

(١) الدخان: الآية (١٤).

(٢) سيدنا ابراهيم - عليه الصلاة والسلام -: الآية (١٠).

(٣) الشعراء: الآية (١٥٤). (٤) المؤمنون: الآية (٣٣).

(٥) سيدنا المدثر - عليه الصلاة والسلام -: الآية (٢٥).

(٦) سيدنا يس - عليه الصلاة والسلام -: الآية (١٥).

(٧) التوبة: الآية (٣٠). (٨) المائدة: الآية (١٧).

أ- شتم وسب: كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝ ﴾[١] وقالوا أيضاً: ﴿ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾[٢].

ب- قتل وسفك: كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾[٣] فقد قتل هيرودوس اليهودي حاكم فلسطين سيدنا يحيى بن زكريا – عليهما السلام – واتى برأسه إلى زوجته هيروديا – بنت أخيه – حتى تشفي غلها وتطفئ وقدة غيظها[٤].

ج- تهديد وتخويف: كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ۝ ﴾[٥].

د- تصغير وتهوين: كما في قوله تعالى: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾[٦].

الأنبياء والرسل في المنظور القرآني:

بعد ان خلق الله تعالى سيدنا آدم – عليه الصلاة والسلام – وتكاثرت البشرية جيلا بعد جيل وتوسعت الاقوام، ونمت القبائل، وتعددت الامم اصبحت الحاجة واضحة في ارسال رسول مرشد يأخذ بأيدي الناس إلى طريق الله تعالى. فارسل الله تعالى رسله إلى كل الامم في جميع العصور المتطاولة، ولم تخل امة من رسول يدعوها إلى الله تعالى، وينور لها دربها، ويضيء لها طريقها، ويرشدها إلى نور الحق والعدل، كما قال الله تعالى: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾[٧] وقال: «**وان من امة إلا خلا فيها نذير**»[٨] وقال: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾[٩] وقال: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[١٠].

وشاءت حكمة الله تعالى ان جعل كل رسول ارسله بشرا من نفس تلك الأمة

(١) القمر: الآية (٩). (٢) الدخان: الآية (١٤).
(٣) آل عمران: الآية (١٨١).
(٤) انظر القصة في: قصص القرآن لمحمد المولى ص ٢٠٥وص ٢٠٦.
(٥) الشعراء: الآية (١١٦). (٦) الشعراء: الآية (١٥٤).
(٧) النحل: الآية (٦٣). (٨) فاطر: الآية (٢٤).
(٩) سيدنا يونس – عليه السلام –: الآية (٤٧).
(١٠) الرعد: الآية (٧).

المرسل اليها، لأن ذلك ادعى للالتفات حوله والانس به، قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[1] وقال سبحانه، ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾[2]. ولذلك [كان ارسال الرسل إلى البشر من البشر قانونا الهيا لا يتخلف ولايلتفت إلى من عارضه لانها معارضة للمعقول، ولذلك ما كان جواب الله تعالى عن طلب المشركين ان يكون الرسول إلى البشر واحدا من الملائكة إلا تقرير القانون الإلهي الطبيعي: ان الرسول يجب ان يكون من جنس المرسل إليهم، فاذا كان المرسل إليهم بشرا فلابد ان يكون الرسول بشرا من جنسهم، ليكون مألوفا لديهم، ولو افترض ان ارسل الله إلى البشر ملكا رسولا لجعله في هيئة البشر، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا ﴾[3]][4] والعكس بالعكس، فلو كان المرسل إليهم من أهل الأرض ملائكة لا رسل الله تعالى إليهم رسولا ملكا، كما قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴾[5].

والقرآن الكريم يحدثنا أيضاً عن الرسول، فهو يأكل الطعام ويمشي في الاسواق، وهذا لا شك من عادة البشر وعرفهم، فقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ ﴾[6].

ومن حق الرسول ان يتزوج ويولد له كغيره من البشر، كما حدثنا القرآن الكريم عن هذا الحق فقال: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ ﴾[7].

وكما قد يتعرض الرسول للصحة فقد يتعرض للمرض أيضاً، وكما قد يتعرض للقوة فقد يتعرض للضعف، وكما قد يتعرض للشعور باللذة فقد يتعرض للشعور بالألم، وكما يتعرض للحياة فقد يتعرض للموت، بيد ان ما يبتلى به الرسول من أمراض وآلام

---

(١) الأنعام: الآية (١٢٤). (٢) الحج: الآية (٧٥).

(٣) الأنعام: الآية (٩).

(٤) مفهوم النبوة في الديانات الثلاث للباحثة سلامة حسين كاظم ص ٢٨.

(٥) الإسراء: الآية (٩٥). (٦) الفرقان: الآية (٢٠).

(٧) الرعد: الآية (٣٨).

ومصائب لا تعرضه لتنفير الناس منه، لأنه إذا نفر الناس منه وانفضوا من حوله انعدمت فائدة بعثته وإرساله إليهم، قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾(١).

وقال تعالى في شأن خاتم النبيين سيدنا **محمد** – ﷺ –: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ ﴾(٢).

ويكشف لنا القرآن الكريم عن حقيقة أخرى من حقائق الأنبياء الكرام – عليهم جميعا افضل الصلاة والسلام – ويبين ان الرسول لا يتصرف في الكون إلا بمشيئة الله، ولايملك لنفسه ضرا أو نفعا إلا إذا شاء الله، ولايعلم من الغيب الإلهي المطلق إلا القدر الذي اراده الله تعالى له وكرمه وخصه به فوهبه له. قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ(٣) ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾(٤).

فالرسول – ﷺ – يعلم إذن من أسرار الوجود ومن المغيبات الكونية وغيرها ما منحه الله تعالى إياه، وميزه به، كما قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾(٥).

وتقييد علمه – ﷺ – وتصرفه في الكون وفي إحداث النفع والضر بمشيئة الله تعالى وارادته لا يحدث نقصا في شخصيته، إذ هو أمر طبيعي لكل مخلوق، وهو عبدالله

---

(١) الأنبياء: الآيتان (٨٣، ٨٤).

(٢) آل عمران: الآية (١٤٤).

(٣) أي: لو كنت اعلم الغيب من تلقاء نفسي بدون حاجة إلى الاتصال بوحي السماء لاستكثرت من الخير. وهذا لايعني انه لايعلم شيئا من الغيب بل هو يعلم كثيرا من الغيب الذي جاد عليه به ربه تبارك وتعالى كما سنرى الآن.

(٤) الأعراف: الآية (١٨٨).

(٥) الجن: الآيتان (٢٦-٢٧).

ورسوله، فلابد اذن ان يستمد عونه وعلمه بالغيب وتصرفه في الكون ومشيئته من خالقه العظيم وربه الكريم – جل جلاله وعم نواله –.

والى هنا نتوقف مع الباحث الكريم، ونترك بحث الاطالة في موضوع صفات الأنبياء إلى كتب المطولات في مكتبتنا الكلامية الإسلامية الزاخرة، لننتقل إلى تفصيل القول في صفة مهمة من صفات الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – ألا وهي «البشرية» التي تطرقنا إليها سريعا في هذه المحطة الموجزة، والوقفة المختصرة.

الأنبياء سادة البشـــر:

لابد ونحن نتحدث عن مقام النبوة الكريم ان نقدم الاعتذار اولا، كيف لا وهم [الصفوة المختارة من عباد الله، شرفهم الله بالنبوة واعطاهم الحكمة، ورزقهم قوة العقل وسداد الرأي، واصطفاهم ليكونوا وسطاء بينه وبين خلقه، يبلغونهم أوامر الله عز وجل، ويحذرونهم غضبه وعقابه، ويرشدونهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، وقد اقتضت حكمة الله تعالى ان يكونوا من البشر ليتمكن الناس من الاجتماع بهم، والاخذ عنهم، والاتباع لهم في سلوكهم واخلاقهم. والبشرية – التي ظهروا بها للناس – هي عين اعجازهم، فهم بشر من جنس البشر لكنهم متميزون عنهم بما لا يلحقهم به أحد، ومن هنا كانت ملاحظة البشرية العادية المجردة فيهم دون غيرها هي نظرة جاهلية شركية](١).

والغريب عن عقيدة أهل السنة والجماعة انا نجد في هذا الزمان بعض الناس يساوون حضرات الأنبياء الكرام بغيرهم من عوام المسلمين، في احوالهم وخلقتهم وصفاتهم، بذريعة انهم بشر وهؤلاء بشر، وهذا والله خطأ جسيم وقول خطير، وفكر منحرف ورأي فاسد، بثته اجهزة المخابرات اليهودية مستخدمة الايادي العميلة الخفية، بغية التقليل من هيبة النبي –ﷺ– في صدور المسلمين، والحط من شأن مقامه السامق في قلوب الناس أجمعين، وماهذه الدعاوى إلا عودة ودعوة إلى ما كان عليه اقوام الأنبياء السابقين والعياذ بالله تعالى.

القول الوسط في بشرية الرسول:

عقيدة الإسلام الوسط في بشرية رسل الله وانبيائه عموما وفي بشرية سيدنا وحبيبنا **محمد** –ﷺ– خصوصا، هو ان الرسول بشر ولكن ليس كالبشر، ومخلوق محدث

(١) مفاهيم يجب ان تصحح للعلامة الدكتور السيد محمد علوي المالكي الحسني ص ١٢٦.

وليس خالقا قديما.

فنحن لا ننظر إلى رسول الله – ﷺ – كما نظر المشركون من قبل إلى سيدنا نوح وهود وصالح وقالوا في حق كل واحد منهم: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾(١). وجردوه من وصف النبوة الكريم ومن نعت الرسالة العظيم. فشبهوه ببقية البشر، فوقعوا في ظلمة الضلال، وسقطوا في حفرة العمى. ومن رأى رسل الله بهذه العين المريضة اساء بهم الظن لا محالة، كما اساء بنو اسرائيل الادب مع انبياءهم الكرام – عليهم الصلاة والسلام – فنعتوهم بنعوت لا يقوى لسان على حملها، ووصفوهم بأوصاف لا يقوى قلم على خطها. لأن رؤيتهم إليهم كانت رؤية بشرية صرفة، وكلما ارادوا فهم احوال حضراتهم وتصرفاتهم نظروا إلى انفسهم وشهواتهم وصفاتهم، فاستصغروا من شأن انبياءهم. وهاهم اليوم يدعونا إلى ان ننظر إلى حضرة نبينا – **محمد** ﷺ – كما هم نظروا إلى انبياءهم، حتى نقول بعد ذلك في جنابه المعظم ماهم قالوه في انبياءهم يعقوب وهارون وداود وسليمان وغيرهم.

واذا كنا لا نقول في رسول الله سيدنا محمد – ﷺ – إنه بشر كبقية البشر في جميع تصرفاته واحواله وافعاله وصفاته، فنحن لا نقول أيضاً إنه ملك كما اراد المشركون، ولانقول إنه ابن الله كما قال اليهود في سيدنا عزير وكما قال النصارى في سيدنا عيسى – عليهما الصلاة والسلام – قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾(٢).

والوسط في هذه المسألة هو أننا لا نتعامل مع رسول الله – ﷺ – كما نتعامل مع زيد وعمرو وننظر إلى بشريته كما ننظر إليهما، ولاكما نتعامل مع الله تعالى ونجعله ابنا له ونصوره خالقا ثانيا مع الله سبحانه وتعالى، يخلق كما يخلق الله تعالى بقدرته الذاتية وبمشيئته الذاتية. وإنما نجمع الوصفين الكريمين – النبوة والبشرية – كلما ذكرناه بافكارنا أو بقلوبنا وارواحنا. ولاأدري ماذا اقول فيمن جرفتهم اهواء نفوسهم فأعمت ابصارهم عن رؤية الحق، غير اني اكتفي ببيتين قالهما الإمام البوصيري – رحمه الله – حين مدح سيدنا رسول الله – ﷺ – في بردته الجميلة فقال:

(١) الشعراء: الآية (١٥٤).

(٢) التوبة: الآية (٣٠).

وكيف يدرك في الدنيا حقيقته   قوم نيام تسلوا عنه بالحلم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر   وانه خير خلق الله كلهم[(١)]

وبشريته -ﷺ- أمر منطقي لأنه يرسل إلى البشر، فلابد اذن ان يكون من هؤلاء البشر - في شيء من صفاته وذاته - حتى يترجم تعاليمه إلى سلوك حي، بارز في تصرفاته، واضح في افعاله[(٢)].

وما اروع قول الإمام الشيخ أحمد السرهندي - قدس الله سره -: [اعلم ان الحقيقة المحمدية ظهور اول، وحقيقة الحقائق، بمعنى ان سائر الحقائق سواء كانت حقائق الأنبياء الكرام أو حقائق الملائكة العظام - عليهم الصلاة والسلام - كالظلال لها، وانها أصل جميع الحقائق][(٣)].

تفصيل بيان في بشرية الرسول الاعظم:

بعد ان سردنا هذه الحقائق العلية، اقول للباحث المنصف: تعال معي وتأمل في حضرة الحقيقة المحمدية، صورة ومعنى، ذاتا وصفة، جسدا وروحا. اقول ذلك لأن قولنا: رسول الله - ﷺ - بشر، يحتاج إلى تفصيل وتوضيح، حتى يعلم الناس ان مشاركتهم لرسول الله - ﷺ - في وصف البشرية ليس في مطلق بشريته وإنما هي في جزء قليل منها فقط، واما الجزء الثاني وهو الأكبر فذلك مما لا يعلم كنه حقيقته إلا الله تعالى.

والدليل على صحة ما اقول هو ان سيدنا رسول الله - ﷺ - تميز بصفات بشرية وخصائص جسدية، لا يشاركه فيها أحد من سائر الناس فَمَنْ مِنَ الناس يرى مَنْ - فتح الميم - امامه كما يرى مَنْ خلفه. وقد قال - ﷺ -: (**أيها الناس إني إمامكم فلا تسبقوني بالركوع ولا بالسجود ولا بالقيام ولا بالانصراف، فإني أراكم أمامي ومن خلفي**)[(٤)] وقال أيضاً: (**أتموا الركوع والسجود، فوالله إني لأراكم من بعد ظهري إذا ما**

---

(١) بردة المديح ص ١٣.

(٢) انظر: انبياء الله والحياة المعاصرة للدكتور عبدالغني عبود، ط١،دار الفكر العربي، ١٩٧٨م، ص ٢٧ والإسلام للدكتور أحمد شلبي، ط٤، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٣م، ص١١٥وص١١٦.

(٣) مكتوبات الإمام الرباني٣/١٧٤.

(٤) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ٤/٣٩٣(٤٢٦).

ركعتم وإذا ما سجدتم)[١]. فكيف إذن يكون كبقية البشر.

ومَنْ من الناس لم يتثاءب قط وقد اخرج البخاري في التاريخ وغيره عن يزيد بن الأصم قال: ما تثاءب النبي ﷺ قط[٢]. فكيف يكون كبقية البشر وهو الذي إذا مشى على الأرض لم يكن له ظل، لا في شمس ولا في قمر. وأي جسد بشري هذا بلغ من شرفه وخصائصه ان الذباب لا ينزل عليه، بل لا ينزل حتى على ثيابه، وان القمل لم يكن يؤذيه.

وأيُّ قلب بشري عظيم، هذا الذي إذا تنام عينا صاحبه ظل يذكر الله تعالى ويسبحه ويمجده. فقد سألت السيدة عائشة - رضي الله عنها -: يارسول الله اتنام قبل أن توتر ؟ فقال: **(يا عائشة إن عيني تنامان ولا ينام قلبي)**[٣].

واذا كانت بشريته كبقية بشرية الناس على الإطلاق، في صفاتها واحوالها، فمن من الناس لم يحتلم طوال عمره وقد حفظ الله تعالى نبيه الكريم من الاحتلام. فقد اخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: ما احتلم نبي قط، وإنما الاحتلام من الشيطان.

ومَنْ من الناس يُستشفى ببوله ويتخذ دواء وعلاجا للشفاء والبرئ من المرض. كما قالت أم ايمن - رضي الله عنها -: قام النبي - ﷺ - من الليل إلى فخارة في جانب البيت، فبال فيها، فقمت من الليل وانا عطشانة فشربت ما فيها، فلما اصبح اخبرته فضحك وقال: **(إنك لن تشتكي بطنك بعد يومك هذا أبدا)**[٤].

فهذه الوقائع النبوية الكريمة، والمشاهد الحقيقية المنيفة، ادلة واضحة، وحجج كافية، لمن كان له عقل وفهم على ان سيدنا رسول الله - ﷺ - متميز بذاته وصفاته عن كل البشرية بصفات وخصائص ومميزات، لا شبيه له فيها ولامثيل. وصدق الإمام البوصيري - رحمه الله - عندما قال:

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب الأمر بتحسين الصلاة واتمامها ٣٩٢/٤(٤٢٥).

(٢) مفاهيم يجب ان تصحح للعلامة المالكي الحسني ص ١٢٩.

(٣) رواه مسلم في صحيحه الكتاب ٦ الباب ١٧ برقم (١٢٥).

(٤) انظر هذه الآثار الشريفة الصحيحة مخرجة في كتاب مفاهيم يجب ان تصحح ص ١٢٩ ومابعدها. والخصائص الكبرى للشيخ السيوطي.

فهـــو الـــذي تم معـــناه وصـــورته ثم اصـــطفاه حبيـــبا بـــارئ النســـمِ
مـــنزه عـــن شـــريك في محاســـنه فجوهـــر الحســـن فـــيه غـــير منقسم

وأما قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[١] فهو من اقوى الادلة على صحة ما اعتقدناه، ومن أكثرها صراحة على تأييد ما رأيناه. إذ معنى هذه الآية كما يقول علماء التفسير هو: قل يامحمد ما أنا إلا آدمي مثلكم في الصورة، ومساويكم في بعض الصفات البشرية، وانا معترف ببشريتي ولكن الله تعالى منَّ عليَّ من بينكم بالنبوة والرسالة[٢].

والحق ان تفسير هذه الآية متصل ومرتبط بالآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ . فيكون معنى الآية الأولى عندئذ هو: ان حالي مقصور على البشرية لا يتخطاها إلى الملكية[٣]، ومن كان هكذا فهو لا يدعي الاحاطة بكلمات الله تعالى كلها، إلا أنه امتاز عنهم بالوحي إليه من الله سبحانه[٤]. وبمثل هذا قال الإمام الطبري[٥]، والإمام البيضاوي[٦]. والله اعلم.

وهذا الذي ذكرته في توضيح معنى بشرية الرسول — ﷺ — هو عقيدة المتكلمين من أهل السنة والجماعة، وها أنذا انقل للباحث نصاً بديعاً للشيخ الإمام عبدالكريم الشهرستاني — رحمه الله — وهو يفسر قول الله تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾[٧] وذلك في معرض حديثه عن بشرية رسل الله وانبيائه —عليهم الصلاة والسلام—

(١) الكهف: الآية (١١٠).

(٢) تفسير روح البيان للبروسوي ٣٠٩/٥.

(٣) الى الملكية على الدوام، لا امكانا، والا فهو — ﷺ — قادر على ذلك باذن الله تعالى متى ما شاء كما كان يتحول إلى صورة الملكية احيانا ويأخذ من جبريل القرآن الكريم: الاتقان في علوم القرآن ١/ ٤٣ وارشاد الساري ٥٩/١ والوحي المحمدي للسيد محمد رشيد رضا، ١٩٣٥م، ص ٨٣.

(٤) فتح القدير للشوكاني، شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي، ٣١٨/٣.

(٥) جامع البيان، المطبعة الاميرية، ١٣٢٨هـ، ط١، ٣١/١٦.

(٦) تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب، دار صادر — بيروت، ١٤١/٦.

(٧) الإسراء: الآية (٩٣).

فيقول: [فبطرف البشرية يشاكل نوع الإنسان ويشاركه، فيأكل ويشرب وينام ويستيقظ ويحيى ويموت، وبطرف الرسالة يشاكل نوع الملائكة ويشاركه، فيسبح ويقدس ويبيت عند ربه فيطعمه ويسقيه، وتنام عيناه ولاينام قلبه، ويموت قالبه ولايموت روحه][١].

واما جمال ذاته العلية، وروعة حقيقته الزكية، وكمال صورته الجمالية، وحسن هيبته الجلالية فذلك من مقام الغيب العظيم الذي لا يقوى مخلوق على الاحاطة بطرف جزء جزئه.

وعلى هذه العقيدة الناصعة، عقيدة التوحيد والتفريد، استشهد ومات أهل واصحاب رسول الله – صلى الله وسلم عليه وعليهم – ودافعوا عنها وفارقوا الدنيا عليها.

ومثال واحد اضعه بين يديك ايها الباحث الكريم، وهو سيدنا ومولانا العباس بن عبد المطلب – ﷺ وأرضاه – قال ذات يوم لابن اخيه الحبيب القريب سيدنا محمد – ﷺ -: يارسول الله اريد ان امتدحك، فقال سيدنا وحبيبنا رسول الله –ﷺ -: (قل، لا يفضض الله فاك) فأنشأ يقول:

من قبلها طبت في الظلال وفـــي مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشـــــــر أنت ولا مضغة ولا علـــــق

حتى قال:

وأنت لما ولدت أشرقـــــــت الأرض وضاءت بنورك الأفـــق
فنحن في ذلك الضياء وفـــــي النور وسبل الرشاد نحتـــرق[٢]

اللهم كما أحرقت سيدنا العباس وإخوانه من أهله واصحابه بنور الحبيب وضيائه أحرقنا كذلك بنور الحبيب ﷺ وضيائه – آمين -.

(١) نهاية الاقدام في علم الكلام ص ٤٢٩.

(٢) منهج السلف في فهم النصوص بين النظرية والتطبيق للعلامة الدكتور السيد محمد علوي المالكي الحسني – حفظه الله - ط٢، ١٤١٩هـ، ١٧٣و١٧٤.

المبحث الثاني

الوسطية في التفضيل

المطلب الأول

التفضيل بين الأنبياء

مقدمة في معنى التفضيل وأسبابه:

سلكنا طريقاً جميلاً وقضينا شوطاً ممتعاً في التعرف على بشرية أنبياء الله عموماً وبشرية رسولنا الأعظم - ﷺ - خصوصاً. وقد رأينا من المناسب جداً بعد ذلك البيان أن نعرف عقيدة الإسلام في أفضل الأنبياء والرسل -عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام- وإمكانية المفاضلة بينهم أو عدمها.

وقبل أن ندخل مع الباحث الكريم في هذا الموضوع الواسع الكبير، رأيت لزاماً عليَّ أن أقف عند نقطتين مهمتين: الأولى في معنى التفضيل والمفاضلة، والثانية في أسباب التفضيل، وذلك من أجل أن تكون خطواتنا كلها في مراحلها القادمة إن شاء الله تعالى مضيئة واضحة سهلة كما عهدنا ذلك من قبل.

وبيان النقطة الأولى هو أن المقصود بالتفضيل بين الأنبياء التفاوت بينهم من حيث الرتب والمنازل والدرجات بقول القاضي عياض - رحمه الله: [وإنما التفاضل في زيادة الأحوال، والخصوص، والكرامات، والرتب، والألطاف](١).

فعندما نقول: النبي فلان أفضل من النبي فلان، نعني أن مقامه الروحي أعلى من مقام النبي فلان بسبب زيادة له في تحسين أخلاقه وأعماله، أو نعني له خصوصية في مقامات أرباب الكمال، أو كراماته ومعجزاته وخوارقه أفضل وأقوى من معجزة وكرامة وخارقة أخيه النبي فلان، أو رتبته في عبادته ودرجته في صبره على أذى الناس عندما كان يدعوهم أرفع من درجة النبي فلان، أو أن ملاطفته ومخالطته للناس، وحسن عشرته، وطيب مجاملته، وكبير مداراته للأمة كان أكثر من ملاطفة ومخالطة ومداراة أخيه النبي

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، وهو مع شرحه للملا علي القاري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٤٨١/١.

فلان. فمن هنا كان هذا النبي أفضل.

إذن فالتفاوت بين الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إنما يجري بينهم من حيث الدرجة والمنزلة والجاه، والخصوصية، والثواب، والمعجزة والكرامة، فنقول مثلاً: النبي فلان أعظم درجة، وأكبر منزلة، وأكثر خصوصية، وأقوى معجزة، وأكثر ثواباً وأجراً من غيره.

ولا يجري التفاوت بينهم من حيث وظيفة النبوة، فالأنبياء كلهم في عمل النبوة سواء، لا فرق بين هذا النبي وذاك، ولا يجوز لنا أن نفرق بينهم من هذه الناحية ولا من ناحية الإيمان بكل واحد منهم أيضاً، فالإيمان بهم جميعاً والتصديق بمعجزاتهم التي ذكرها لنا القرآن الكريم ركن من أركان الإيمان والتصديق. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ ﴾[١] فمن آمن بجميع الأنبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم وأمرنا بالإيمان بهم إلا واحداً منهم فقط فقد كذب القرآن وكفر بدين الإسلام.

أسباب التفضيل:

وتوضيح ذلك هو أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يمكن معرفة سبب تفاوتهم في الدنيا وتفاضلهم فيها من خلال النظر في ثلاثة أحوال، ومعرفة ثلاثة أوصاف، فمن كانت هذه الأوصاف مجتمعة فيه أكمل وأكثر من غيره كان أفضل منه. علماً أن أنبياء الله ورسله في عقيدتنا كلهم كاملون، لا نقص فيهم ولا عيب. والأوصاف هي[٢]:

١ - أن تكون آياته، أي: خوارق عاداته، ومعجزاته المقرونة بالتحدي أظهر وأبهر وأشهر.

٢ - أن تكون أمته أزكى، أي: أتقى، وأكثر وأزيد من غيرهم، كيفية وكمية.

٣ - أن يكون النبي المفضل في ذاته أفضل وأطهر وأنور وأشهر.

فالأنبياء الكرام متفاضلون فيما بينهم، كل منهم بحسب ظهور هذه الأوصاف فيه

---

(١) البقرة: الآية (٢٨٥).

(٢) ذكر هذه الأوصاف القاضي عياض في كتابه: الشفا ٤٨٢/١، وفخر الدين الرازي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ البقرة: الآية (٢٥٣) ج٢١٢/٦، ومن العلماء من ذكر غير ذلك كالإمام الماوردي - رحمه الله - في تفسيره ٢٦٧/١.

وفي أمته أكثر وأكمل من غيره وغيرهم. ومن تأمل في هذه الأوصاف الثلاثة وجدها إما أن تكون في معجزة النبي أو في أمته أو في ذاته الشريفة.

وسوف نطبق هذه الأوصاف تطبيقاً علمياً وعملياً دقيقاً على من يعتقد أهل السنة والجماعة أنه أفضل أنبياء الله ورسله إن شاء الله تعالى.

عقيدة أهل السنة والجماعة:

يعتقد المسلمون جميعاً من أهل السنة والجماعة، علماء وعامة، رجالاً ونساء، أن نبينا وحبيبنا **محمداً** - ﷺ - هو أفضل وأشرف وأزكى وأعظم وأكرم خلق الله على الإطلاق وأحبهم إليه، فلا يوجد أحد في السماوات ولا من أهل الأرض يساويه في مقام من مقاماته، ولا في درجة من درجاته.

وهو أفضل من كل الأنبياء الكرام، والرسل العظام، وملائكة السماء، وملائكة الأرض، ومن كل بني الإنسان والجان، وعلى هذه العقيدة الكريمة أجمع علماء الأمة الإسلامية كلهم، في سائر الأقطار والبلدان، من غير توقف أحد منهم، على أنه أفضل الأولين والآخرين من غير استثناء[(١)]. وهذا ما ظهر لنا خلال بحثنا عن عقيدة أهل السنة في هذا الموضوع، في أوثق المصادر الكلامية وأقوى المراجع الأمينة.

أدلة أهل السنة على تفضيل نبيهم:

اعتمد أهل السنة فيما ذهبوا إليه وهو أن الرسول الأعظم سيدنا **محمد** - ﷺ - أفضل وأعظم خلق الله على الإطلاق، على مجموعة كبيرة جداً من الأدلة الصحيحة، والبراهين القاطعة، من النقل والإجماع ومنطق العقل. ولأن هذه الأدلة كثيرة وعديدة، يصعب إحصاؤها، ويتعسر جمعها كلها، فضلت الاعتماد على أشهرها وأظهرها، وها آنذا

---

(١) انظر: كتاب أصول الدين للبغدادي، ص١٦٥ وشرح المقاصد للتفتازاني ٤٧/٥، وشرح النسفية للتفتازاني مع حاشية أفندي ص٢٨٤، والشفا للقاضي عياض ٣٦٠/١، ٣٦٢ وما بعدها وشرح العقيدة الطحاوية ١٥٨/١، وما بعدها وتفسير الرازي ٢١٠/٦ وشرح الفقه الأكبر للقاري ص ٩٤، وأصول العقيدة الإسلامية ص٥٣، وشرح جوهرة التوحيد ص١٨٨ واليواقيت والجواهر ٢/ ٢١، وتنوير القلوب للعلامة **محمد** أمين الكردي ص٥٣، وجواهر البحار للنبهاني ٥٣/٢، والوسيلة في شرح الفضيلة ص٧٠٥، والمعتقد الإيماني على عقيدة الإمام الشيباني ص٢٦، ونور الإيمان للشيخ المدرس ص٤٩، والعقائد الإسلامية لسيد سابق ص١٩٨ وأصول الدين الإسلامي لقحطان الدوري ص٣٨٠، وشرح النووي على صحيح مسلم ٤٣/١٥.

أقسمها على الشكل الآتي:

أ - من القرآن الكريم:

١ - قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۢ ﴾[١]. فهذا النص القرآني الكريم صريح في أن بعض الأنبياء فضلهم الله تعالى على بضعهم الآخر [بالمواهب القدسية، والمراتب النفسية، والأخلاق العالية الزكية، أو بالمعجزات الجسمية، أو بعموم الرسالة، أو بفضائل الأمة] [٢].

٢ - وقال الله تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۢ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍۢ ﴾[٣].

إن تصريح هذه الآية بتفضيل الله سبحانه وتعالى بعض رسله على بعضهم الآخر مما لا يحتاج إلى بيان وتفسير. فالله تعالى فضل بعض الرسل الكرام بأن كلمه مباشرة من غير سفير وهو سيدنا موسى الكليم - عليه السلام[٤] ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء، فكان بعد تفاوتهم في الفضل، أفضل منهم بدرجات كثيرة، وهو سيدنا **محمد** - ﷺ - لأنه هو المفضل عليهم بإرساله إلى الكافة، وبأنه أوتي ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة، المرتقبة إلى ألف أو أكثر، وأكبرها القرآن الكريم لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر، وفي هذا الإبهام تفخيم، وبيان أنه العلم الذي لا يشتبه على أحد، والمتميز الذي لا يلتبس[٥].

٣ - وبعد أن حكى الله تعالى أحوال الأنبياء الكرام - عليهم الصلاة والسلام -

---

(١) الإسراء: الآية (٥٥).

(٢) مواهب الرحمن ١٩٢/٥.

(٣) البقرة: الآية (٢٥٣).

(٤) اختلف العلماء في الكلام الذي سمعه موسى وغيره من الله تعالى، هل هو الكلام القديم الأزلي الذي هو ليس من جنس الحروف والأصوات؟ قال الشيخ الأشعري وأتباعه: المسموع هو ذلك الكلام الأزلي القديم، لماذا؟ لأنه كما لم تمتنع رؤية ما ليس بمكيف فكذا لا يستبعد سماع ما ليس بمكيف. وقيل عكس ذلك تماماً: تفسير روح البيان ٣٩٤/١.

(٥) تفسير النسفي ١٢٧/١ وتفسير روح البيان ٣٩٤/١، وتفسير ابن كثير ٣٠٥/١.

قال مخاطباً سيدنا **محمداً** - ﷺ -: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾(1). فأمر - عليه الصلاة والسلام - بالاقتداء بمن قبله، فإما أن يقال: إنه كان مأموراً بالاقتداء بهم في أصول الدين وهو غير جائز لأنه تقليد، أو في فروع الدين وهو غير جائز أيضاً، لماذا؟ لأن شرعه الشريف نسخ سائر الشرائع.

فلم يبق إذن إلا أن يكون المراد الاقتداء بهم في محاسن الأخلاق، فكأنه سبحانه قال لحضرته: إنا أطلعناك على أحوال الأنبياء وسيرهم، فاختر أنت منها أجودها وأحسنها، وكان مقتدياً بهم في كلها، وهذا بالحقيقة يقتضي ويترتب عليه أنه اجتمع فيه من الخصال المرضية ما كان متفرقاً في جميع الأنبياء الكرام، فوجب أن يكون أفضل منهم(2).

٤ - وقال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾(3). وهذا دليل واضح على عموم رسالته وشمولها للعالم. وقد بشر وأنذر - ﷺ - أم القرى ومن حولها، وكتب الكتب إلى كبراء العالم يدعوهم إلى الإسلام، فكتب إلى كسرى الفرس، وإلى هرقل عامل الروم، وإلى أمراء الخليج العربي، وإلى المقوقس عظيم الأقباط(4).

وبعثته إلى كل الخلق تقتضي أن تكون مشقته ومسؤوليته أكبر، ومن كانت مشقته أكثر ومسؤوليته أكبر وجب أن يكون أفضل(5). لأن الأجر على قدر المشقة. وهذا في الحقيقة خلاف سنة الله تعالى في إرساله إلى كل أمة رسولاً من أنفسهم، برسالة سماوية خاصة لتلك الأمة. قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾(6). وقال أيضاً: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾(7).

٥ - وقال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾(8). قبل أن أبين للباحث

---

(١) الأنعام: الآية (٩٠).

(٢) تفسير الإمام الرازي ٦/٢١١.

(٣) سبأ: الآية (٢٨).

(٤) الوسيلة ص٧٠٥ وما بعدها ونور الإيمان ص٤٩.

(٥) تفسير الإمام الرازي ٦/٢١١، وانظر: عقيدتك أيها المسلم ص٦١ - ٦٢.

(٦) النحل: الآية (٣٦).

(٧) فاطر: الآية (٢٤).

(٨) آل عمران: الآية (١١٠).

وجه الاستشهاد بهذه الآية المباركة، أود أن أذكر لك شيئاً مهماً، وهو أني وجدت جمهوراً غفيراً من المتكلمين يركزون في أدلتهم في موضوع تفضيل الرسول الأعظم - ﷺ - على هذه الآية المباركة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على قوة الاستشهاد بها وصحته.

وبيان وجه الاستشهاد هو أن الآية دلت بيقين ووضوح على أن أمّة سيدنا **محمد** - ﷺ - أفضل أمم العالم فوجب على هذا أن يكون سيدنا **محمد** - ﷺ - أفضل جميع الأنبياء بمعنى أنه لو لم يكن خير الأنبياء وأفضلهم لم تكن أمته خير الأمم وأفضلها. لماذا؟ لأن أمته إنما نالت هذه الفضيلة - والخيرية - بسبب متابعتها لحضرته - ﷺ - قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ...﴾ [١]. ومن المقرر المعلوم عند العلماء أن فضيلة التابع توجب فضيلة المتبوع.

أضف إلى ذلك أن سيدنا **محمداً** - ﷺ - أكثر ثواباً وأجراً من جميع الأنبياء، لأنه مبعوث إلى الجن والإنس - كما تقدم بنا قبل قليل - بعثته عامة، فوجب إذن أن يكون ثوابه أكثر، لأن لكثرة المستجيبين أثراً في علو شأن المتبوع[٢]. فلولا أن سيدنا **محمداً** - ﷺ - خير الأنبياء لم تكن أمته خير الأمم، ولما كان قد ثبت في نص الآية أنهم خير الأمم كان نبيهم خير الأنبياء لما علمت ما بينهما من الملازمة الظاهرة[٣].

وقال الإمام سعد الدين التفتازاني (ت - ٧٩٣ هـ) - رحمه الله - في معرض استشهاده بهذه الآية: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ...﴾ [تفضيل الأمة من حيث أنها أمة تفضيل للرسول الذي هم أمته] [٤].

٦ - وقال الله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾[٥]. أي: رفعناه في الملأ الأعلى،

---

(١) آل عمران: الآية (٣١).

(٢) تفسير الرازي ٢١٢/٦، وانظر أيضاً: شرح المقاصد للتفتازاني ٤٧/٥، وشرح النسفية للتفتازاني مع رمضان أفندي ص٢٨٤، وجواهر البحار ٦٧/٢.

(٣) جواهر البحار ١٠٢/٢، وانظر: شرح النسفية للشيخ عبد الملك السعدي ص١٨٧.

(٤) شرح المقاصد ٤٧/٥.

(٥) الشرح: الآية (٤) وانظر النكتة البلاغية في كلمة «لك» في تفسير البيضاوي ١٨٩/٥ مع حاشية الكازروني عليه ١٨٩/٥، والكشاف ٢٦٦/٤.

ورفعناه في الأرض، ورفعناه في هذا الوجود جميعاً[١].

فقرن الجليل سبحانه اسم حبيبه **محمد** - ﷺ - مع اسمه سبحانه في كلمتي الشهادة، وفي الأذان، والإقامة يومياً خمس مرات، افتراضاً أو استحباباً، وفي كل تشهد في الصلوات المفروضة والمندوبة، وفي الخطب المنبرية والمحاضرات والدروس العلمية، وفي الصلوات المشروعة للكسوف والخسوف والعيدين وفي غيرها[٢]. ولم يكن ذكر سائر الأنبياء كذلك[٣].

[وليس بعد هذا رفع، وليس وراء هذا منزلة. وهو المقام الذي تفرد به - ﷺ - دون سائر العالمين.

ورفعنا لك ذكرك في اللوح المحفوظ، حين قدر الله تعالى أن تمر القرون، وتكر الأجيال، وملايين الشفاه في كل مكان تهتف بهذا الاسم الكريم «**محمد**» مع الصلاة والتسليم، والحب العميق العظيم.

ورفعنا لك ذكرك، وقد ارتبط بهذا المنهج الإلهي الرفيع، وكان مجرد الاختيار لهذا الأمر رفعة ذكر، لم ينلها أحد من قبل ولا من بعد في هذا الوجود] [٤]. وكفى بالمقام المحمود الذي سوف يقفه سيدنا **محمد** - ﷺ - يوم القيامة، يشفع لجميع الخلائق، الأنبياء والمرسلين والملائكة والصالحين، وسائر بني آدم أجمعين شاهداً على فضله على من يشفع لهم عند خالقهم ومولاهم.

٧ - ومن يتتبع علمياً نداءات الله تعالى لأنبيائه الكرام في القرآن الكريم، يجد أن الله تعالى كلما نادى نبياً من أنبيائه باسمه، فيقول مثلاً: ﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ ﴾[٥] ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾[٦] ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾[٧] ﴿ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ

(١) في ظلال القرآن سيد قطب، ط٥، سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧م، المجلد ٨ الجزء ٣٠/١٩٠.

(٢) مواهب الرحمن في تفسير القرآن ٧/٥٣٥.

(٣) تفسير الإمام الرازي ٦/٢١٠.

(٤) في ظلال القرآن المجلد ٨ الجزء ٣٠/١٩٠.

(٥) البقرة: الآية (٣٥) والأعراف: الآية (١٩).

(٦) الصافات: الآية (١٠٤).

(٧) سيدنا طه - ﷺ - الآيتان (١١ - ١٢).

أَهْلِكَ﴾(١) ﴿يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾(٢) وهكذا.

لكنه سبحانه عندما يريد أن ينادي سيدنا **محمداً** - ﷺ - فإنه لا يناديه باسمه صراحة كما كان ينادي جميع أنبيائه، وإنما يناديه بلفظ النبوة أحياناً، وبلفظ الرسالة أحياناً أخرى فيقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾(٣) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ...﴾(٤) ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾(٥) ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ...﴾(٦). وهذا التكريم الإلهي الخاص إن دل على شيء فإنما يدلّ على أفضلية الرسول الأعظم وعلى كونه فخر الأنبياء وسيد المرسلين.

ب - من السنة المطهرة:

وكما اعتمد أهل السنة والجماعة في تفضيل نبينا **محمد** - ﷺ - على سائر المخلوقات، من الأنبياء والملائكة وغيرهم، على الآيات الكريمة اعتمدوا أيضاً على الأحاديث النبوية التي جاءت صريحة في هذا التفضيل، وها نحن نذكر للباحث الكريم بعض هذه الأحاديث الشريفة:

١ - قال سيدنا رسول الله - ﷺ -: **(أنا سيد الناس يوم القيامة)**(٧).

٢ - وقال - ﷺ - **(أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع)**(٨).

ووجه الاستدلال في هذين الحديثين الصحيحين، هو أن معنى السيد كما قال

(١) سيدنا هود - عليه السلام: الآية (٤٦).
(٢) المائدة: الآية (١١٦). (٣) الأحزاب: الآية (٤٥).
(٤) الأحزاب: الآية (٥٩). (٥) المائدة: الآية (٤١).
(٦) المائدة: الآية (٦٧).
(٧) رواه البخاري برقم (٣٣٤٠) و(٤٧١٢) ومسلم في باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٤) والترمذي باب ١٠، ما جاء في الشفاعة ٤/٣٧ (٢٤٣٤).
(٨) رواه مسلم باب تفضيل النبي - ﷺ - على جميع الخلائق (٢٢٧٨) ١٥/٤٢ وأبو داود باب في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (٤٦٧٣) ٤/٢١٨، وابن ماجه باب ذكر الشفاعة ٢/٥٨١.

العلامة الهروي: هو الذي يفوق قومه في الخير. وقال القاضي عياض: السيد هو الذي يفوق قومه ويفزع إليه - الناس في النوائب والشدائد، فيقوم بأمرهم، ويتحمل عنهم مكارههم ويدفعها عنهم.

وأما قوله - ﷺ -: (يوم القيامة) مع أنه سيدهم في الدنيا والآخرة، فسببه أن في يوم القيامة يظهر سؤدده لكل أحد، ولا يبقى منازع ولا معاند ونحوه بخلاف الدنيا فقد نازعه ذلك فيها ملوك الكفار وزعماء المشركين.

وهذا التقييد قريب من معنى قوله تعالى: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾(١) أي: انقطعت دعاوى الملك في ذلك اليوم، مع أن الملك له سبحانه قبل ذلك، لكن كان في الدنيا من يدعي الملك أو من يضاف إليه مجازاً فانقطع كل ذلك في الآخرة(٢).

توقف مردود:

ذكر بعضهم أن هذين الحديثين الشريفين لا يفهم منهما تفضيله - ﷺ - على آدم - عليه السلام - وإنما يفهم منهما تفضيله على أولاده. ولهذا توقفوا في تفضيله على آدم - عليه السلام -(٣).

والجواب: أن هذه التوقف ضعيف جداً بل مردود، لماذا؟ أولاً: لعموم قوله -ﷺ-: **(لواء الحمد بيدي ولا فخر، آدم ومن دونه من النبيين تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر)**(٤).

وثانياً: لأن الحديثين المتقدمين صريحان في تفضيله - ﷺ - على جميع الخلق حتى آدم - عليه السلام - لكنه لم يذكر فيهما اسم آدم صراحة أدباً واحتراماً، لأنه لا ينبغي للولد أن يقول أنا أفضل من أبي إلا فيما ورد به الإذن الإلهي كما في الحديث الشريف:

---

(١) غافر: الآية (١٦).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/٤٢، و٣/٦٦ - ٦٧.

(٣) شرح النسفية للتفتازاني ص٢٨٥، والمعتقد الإيماني ص٢٦ وجواهر البحار ٢/٥٣.

(٤) رواه أحمد في مسنده برقم (٢٤١٥) و(٢٥٦٠)، و(١٢٠١٣)، والترمذي في كتاب المناقب ٥/٥٤٦ (٣٦١٠)، و(٣٦١٥) وقال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه في سننه في باب ذكر الشفاعة ٢/٥٨٢ والدارمي في سننه في باب ما أعطي النبي - ﷺ - من الفضل ١/٢٨، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٨٦، و٦/٣٠١ وذكره ابن الجوزي في الوفا بأحوال المصطفى - ﷺ - ص٨٣٣، وكلهم رووه بألفاظ متشابهة ومتقاربة.

(**آدم ومن دونه من النبيين تحت لوائي**) فإنه عندئذ صرح باسمه للإذن الإلهي بذلك[١].

٣ - وقال - ﷺ -: (**فُضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون**) [٢].

وهذا الحديث صريح جداً في كونه - ﷺ - أفضل من سائر الأنبياء.

٤ - وقال - ﷺ -: (**أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة**) [٣].

٥ - وقال - ﷺ -: (**أنا سيد ولد آدم، وعلي سيد العرب**) [٤] وفي رواية أخرى: (**أنا سيد العالمين، وهو - أي: علي - سيد العرب**) [٥] قال الإمام الرازي -رحمه الله-: [وهذا يدل على أنه أفضل الأنبياء عليهم السلام] [٦]. فإن رمت الاحتجاج بحديث: (سيد الناس آدم، وسيد العرب **محمد**) [٧]. قلت لك: الحديث ضعيف[٨].

---

(١) جواهر البحار للشيخ النبهاني - رحمه الله - ٥٣/٢.

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد ٨/٥ (٥٢٤) والترمذي برقم (١٥٥٣).

(٣) رواه مسلم برقم (٣٣١) ٧٣/٣.

(٤) جاء هذا الحديث من طرق عديدة فقد رواه الحاكم وقال صحيح ولم يخرجه، وهذا الحديث جاء مرفوعاً عن ابن عباس، وله شاهد من حديث عروة عن عائشة - رضي الله عنها - وقد أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث إبراهيم بن إسحاق الصيني عن قيس بن الربيع عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن الحسن بن علي أنه - ﷺ - قال: ادع سيد العرب. فقالت عائشة: ألست سيد العرب؟ فقال: أنا سيد ولد آدم وعلي سيد العرب: المستدرك على الصحيحين ١٣٤/٣، والمقاصد الحسنة للسخاوي ص٢٥٤ وص٢٥٥ (٥٧٨) وأخرجه ابن عساكر عن قيس بن حازم مرسلاً، وقال العجلوني: وجنح الذهبي إلى الحكم عليه بالوضع: كشف الخفاء ٥٦١/١.

(٥) رواه الحافظ البيهقي في فضائل سيدنا علي - عليه السلام - كما قال الرازي في تفسيره: ٢١٣/٦.

(٦) تفسير الرازي ٢١٣/٦.

(٧) رواه الديلمي في الفردوس ٣٢٤/٢ (٣٤٧١) وهو في كنز العمال للعلامة الهندي (٣٢٢٧٠) والجامع الصغير ٦٠/٢ (٤٧٥٤).

(٨) ضعفه السيوطي في الجامع الصغير ٦٠/٢، قال العلامة المناوي: فيه **محمد بن** عبد القدوس عن مجالد بن سعيد، **ومحمد** قال الذهبي - فيه - مجهول، ومجالد قال - فيه - أحمد ليس بشيء، وضعفه غيره: فيض القدير ١٢٣/٤.

ج - إجماع المسلمين:

أجمع المسلمون من أهل السنة والجماعة على أن سيدنا **محمداً** - ﷺ - هو أعظم خلق الله على الإطلاق وأفضلهم من غير توقف ولا استثناء، فهو أفضل الأنبياء والرسل جميعهم، وملائكة السماء والأرض، وغيرهم. وقد نقل إجماعهم هذا جمهور غفير من المفسرين والمتكلمين والمحدثين والفقهاء وغيرهم، من جيل إلى جيل، إلى زماننا هذا من غير خلاف ولا شك. وزيادة في توكيد صحة ما قلته أضع هذه النصوص الكريمة الواضحة بين يدي الباحث:

١ - قال الإمام فخر الدين الرازي: [أجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض، و - أجمعت أيضاً - على أن **محمداً** - ﷺ - أفضل من الكل](١).

٢ - قال الإمام سعد الدين التفتازاني: [أجمع المسلمون على أن أفضل الأنبياء **محمد** - ﷺ -](٢).

٣ - قال أبو البقاء الشافعي: [أنه ﷺ مفضل على سائر الخلق، حتى الأنبياء ودليل ذلك - هو - الإجماع] (٣). وجاء في المنظومة الشيبانية:

وأن رسول الله أفضل من مشى   على الأرض من أولاد آدم أو عدا

٤ - وقال العلامة عبد الوهاب الشعراني: [يكفي في بيان فضله - ﷺ - إجماع أمته كلهم في سائر الأقطار على تفضيله على الأولين والآخرين بالبديهة من غير توقف](٤). وأقر الإجماع ونقله أيضاً العلامة علي القاري في شرح الفقه الأكبر(٥)، والقاضي عياض في الشفا(٦)، وغيرهما من العلماء(٧).

والإجماع كما هو معلوم عند العلماء حجة شرعية لازمة، لقوله - ﷺ -: (**لا**

---

(١) تفسير الرازي ٦/٢١٠.

(٢) شرح المقاصد ٥/٤٧.

(٣) المعتقد الإيماني ص٢٦.

(٤) اليواقيت والجواهر ٢/٢١ وما بعدها وجواهر البحار ٢/٥٣.

(٥) شرح الفقه الأكبر ص٩٤.

(٦) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/٤٧٧.

(٧) تنوير القلوب للعلامة الكردي ص٣٥، وكبرى اليقينيات الكونية ص١٩٩.

تجتمع أمتي على ضلالة)[١]. وصدق الإمام البوصيري عندما قال:

محمد أشرف الأعراب والعجم ... محمد خير من يمشي على قدم

د – العقل:

١ – إن دين سيدنا **محمد** – ﷺ – أفضل الأديان، فيلزم من هذا أن يكون سيدنا **محمد** – ﷺ – أفضل الأنبياء، لماذا؟ لأن الله تعالى جعل الإسلام الحنيف ناسخاً لسائر الأديان وشريعة سيدنا **محمد** – ﷺ – مستمرة إلى الأبد. والناسخ يجب أن يكون أفضل لقوله – ﷺ –: **(من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة)**[٢]. فلما كان هذا الدين أفضل وثوابه أكثر كان المبعوث به أكثر ثواباً ممن بعث في سائر الأديان، فيلزم أن يكون سيدنا **محمد** – ﷺ – أفضل من سائر الأنبياء[٣].

٢ – وذكر الرازي – رحمه الله – حجة عقيلة أخرى على تفضيل حضرته: بأن معجزة رسولنا **محمد** – ﷺ – أفضل من معجزات سائر الأنبياء، لقوله – عليه الصلاة والسلام –: **(القرآن في الكلام كآدم في الموجودات)**[٤]. فوجب إذن أن يكون رسولنا أفضل من سائر الأنبياء، لأن الخلقة كلما كانت أشرف كان صاحبها أكرم عند الملك[٥].

والحق أن فضل معجزة سيدنا **محمد** – ﷺ – وهي القرآن الكريم على سائر المعجزات مما لا يحتاج لإقامته إلى برهان أو دليل، فقد بات هذا الأمر معلوماً عند

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٥٩٦٦) والترمذي في كتاب الفتن باب ما جاء في لزوم الجماعة ٤٠٥/٤ (٢١٦٧)، وابن ماجه باب السواد الأعظم ٤٦٤/٢، والطبراني في المعجم الكبير وابن أبي خيثمة في تاريخه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر – رضي الله عنهما – ٣٧/٣ والحاكم في مستدركه والطبري في تفسيره كما قال السخاوي: المقاصد الحسنة ص٤٥٤ وص٤٥٥ (١٢٨٨).

(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة في باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ١٠٨/٧ (١٠١٧) والطبراني في المعجم الكبير بلفظ قريب منه: الكنز الثمين للمحدث الغماري ص٥٧٢ (٣٧٥٣).

(٣) تفسير الرازي ٢١٢/٦ والوسيلة في شرح الفضيلة ص٧٠٦ ودور الإيمان ص٤٩.

(٤) بحثت عن هذا الحديث ولم أجده في: صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي وموطأ الإمام مالك ومسند الإمام أحمد ومعجم الطبراني في الأوسط ومعجم الطبراني الصغير ومستدرك الحاكم وكشف الخفاء للإمام العجلوني ومجمع الزوائد للحافظ الهيثمي.

(٥) تفسير الرازي ٢١١/٦.

الخاصة والعامة وأين هي نار نمرود، وأين هي عصا موسى، وأين الذين أبرأهم عيسى وأحياهم بإذن الله تعالى؟! بخلاف معجزته الكريمة، فإنها باقية مستمرة خالدة إلى يوم القيامة. وصدق حضرة الشيخ الدكتور عبد الله مصطفى الهرشمي - ﷺ - عندما قال: [١]

فالمعجزات إذا عددن فإنه   آياته القرآن والإسلام
اثنان في كنف الإله وحفظه   ما دام لابن الأولين دوام

وصدق الإمام البوصيري عندما قال:

محمد سيد طابت مناقبه   **محمد** صاغه الرحمن بالنعم
محمد صفوة الباري وخيرته   **محمد** طاهر من سائر التهم

رأي بعض منتحلي الإسلام:

ذكر الأستاذ أبو منصور عبد القاهر البغدادي (ت٤٢٩ هـ) - رحمه الله - أن قوماً من منتحلي الإسلام زعموا أن نبينا - ﷺ - لم يكن أفضل من إبراهيم ولا من نوح ولا من آدم - عليهم السلام -، لأن هؤلاء الثلاثة آباءه، وامتنعوا من تفضيل الابن على الأب.

ولكنهم قالوا بتفضيله - ﷺ - على موسى وعيسى وعلى كل نبي لم يكن أباً له. وقياسهم هذا يقتضي أن لا يكون من إدريس ولا من إسماعيل لأنهما أبواه[٢]. بيد أنهم لم يذكروا ذلك.

وهذا الرأي بالحقيقة لم أجد من ذكره في كتاب، فهو بالإضافة إلى كونه رأياً شاذاً وغريباً فهو زعم باطل ودعوى فاسدة لما يأتي:

أولاً: لأن حجته ضعيفة جداً لا تقوى على مقارعة ما تقدم من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الصحيحة.

ثانياً: لمخالفته إجماع أهل الحل والعقد.

ثالثاً: لأنا علمنا سابقاً أن أحد أسباب التفضيل هو كثرة المعجزات والكرامات، وقد حصل في حق نبينا **محمد** - ﷺ - ما يفضل على ثلاثة آلاف خارق للعادة، بخلاف آدم ونوح وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء.

(١) نفحات الحياة - ديوان شعر معاصر - ص٧٥.
(٢) كتاب أصول الدين ص١٦٥.

رابعاً: ولأن خوارق العادات التي ظهرت على أيدي الأنبياء قد خصّ نبينا **محمد** - ﷺ - من أجناسها بما هو أعظم منه.

وتوضيح ذلك أن الريح إن سخرت لسليمان - عليه السلام - فقد سخر لحضرته البراق، وإن انفجرت الحجارة لموسى - عليه السلام - بالماء فليس ذلك بأعجب من نبع الماء من بين أصابع حضرته - عليه الصلاة والسلام - لوضوء جيشه، وإن مشى عيسى - عليه السلام - على الماء فقد مشى حضرته على الهواء في المعراج إلى غير ذلك الكثير الكثير.

خامساً: ولأن الله تعالى خصه من بين آدم ونوح وإبراهيم وسائر إخوانه من النبيين والمرسلين بمعجزة الإسراء والمعراج.

سادساً: ولأن الله تعالى أرسله إلى الخلق كافة، وجعله خاتم النبيين.

سابعاً: ولأنه خص بالنبوة وآدم بين الماء والطين، ولم يعط أحد النبوة وآدم بين الماء والطين غير نبينا **محمد** - ﷺ -. بخلاف آدم ونوح وإبراهيم وسائر الأنبياء فإنهم قد شرفوا بالنبوة أيام رسالتهم المحسوسة.

ثامناً: وذكر الشيخ الشعراني - رحمه الله - سبباً آخر في تفضيل حضرته على آدم، وهو: لأن آدم - عليه الصلاة والسلام - كان حاملاً لألفاظ الأسماء(١) و**محمد** - ﷺ - كان حاملاً لمعانيها وهي جوامع الكلم المشار إليها بحديث: (**أوتيت جوامع الكلم..**)(٢).

فمن حصل على الذات حصل على الأسماء، وكانت تحت حيطة علمه، ومن حصل على الأسماء لا يكون محصلاً للذات الذي هو المسمى(٣).

قلت: وإذا جاز تفضيله على أول آبائه جاز تفضيله على البقية. فإذا كان حضرته أفضل من آدم كان أفضل من نوح وإبراهيم - عليهم السلام - من باب أولى، والله تعالى أعلم.

لطيفة:

قال الشيخ الشعراني: فإن قلت: فهل للعارف أن يفضله - ﷺ - بحسب ما تحتمله الألفاظ؟

---

(١) وكأنه يقصد في ذلك قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ...﴾ البقرة: ٣١.

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد برقم (٥٢٤) والترمذي (١٥٥٣) وقد تقدم مخرجاً في ص٢٠٤.

(٣) اليواقيت والجواهر ٢/ ٢١.

فالجواب: نعم له ذلك، ولكن - المرشد - الكامل لا يعتمد في جميع ما يقوله إلا على ما يلقيه الله تعالى عنده، لا على ما تحتمله الألفاظ والله أعلم[(١)].

رأي المعتزلة:

مقدمة:

لقد أخبرنا الله تعالى في محكم كتابه المجيد بتفضيل الرسل الكرام، بعضهم على بعض درجات، فقال سبحانه: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[(٢)]. ومن هؤلاء الرسل من خصه الله بالإرسال إلى الكافة فكان أفضل ممن أرسل منهم إلى أمة مخصوصة، قال تعالى في حق نبينا - ﷺ -: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾[(٣)]. وقال تعالى في حق نوح: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾[(٤)]. ومنهم من كلمة الله عز وجل بلا واسطة فكان أفضل من الذي خاطبه بواسطة، قال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[(٥)].

ومن الأنبياء من خصه الله بالابتداء فكان أول الأنبياء ظهوراً كسيدنا آدم - عليه السلام -، ومنهم من خصه بالخاتمة كسيدنا **محمد** - ﷺ -. ومنهم من رفعه الله مكاناً علياً كإدريس - عليه السلام - الذي هو سبط شيث وجد نوح، قال تعالى فيه: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧ ﴾[(٦)] أي: إلى السماء، وقيل إلى الجنة. ومنهم من أوتي النبوة أو الحكمة حال صغره كيحيى - عليه السلام - قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾[(٧)]. ومنهم من أعطاه الله الزبور وهو داود - عليه السلام -: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[(٨)]. ومنهم من أكرم بالمعجزات الظاهرات كعيسى - عليه السلام -: ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾[(٩)].

فنخلص من هذا كله إلى حقيقة قرآنية مهمة وهي أن التفضيل أو وجود درجات متفاوتة في الفضيلة بين الأنبياء واقع قرآني صريح، وصورة لامعة بين دفتي المصحف الكريم. وقد تعرفنا سابقاً على عقيدة أهل السنة وموقفهم من هذه المسألة، أما هذا فإنا

---

(١) المصدر نفسه ٢/٢٢.
(٢) البقرة: الآية (٢٥٣).
(٣) سبأ: الآية (٢٨).
(٤) نوح: الآية (١).
(٥) النساء: الآية (١٦٤).
(٦) مريم: الآية (٥٧).
(٧) مريم: الآية (١٢).
(٨) النساء: الآية (١٦٣).
(٩) البقرة: الآية (٨٧).

نسأل: ما هو رأى المعتزلة في هذه المسألة، وما موقفهم فيها؟ وهذا ما نريد أن نتعرف إليه ونقف عنده الآن.

مذهب المعتزلة وبعض الجبرية:

ذهب المعتزلة وبعض الجبرية إلى عكس ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة قاطبة، فقالوا: لا يوجد بعض الأنبياء أفضل من بعض، بل جميع الأنبياء - عليهم السلام - متساوون في الرتبة والدرحة. فلا فضل لبعضهم على آخر، وامتنعوا عن القول بوجود تفاوت بينهم من حيث المعجزات والكرامات والكمالات.

وهذا هو مذهب جمهور المعتزلة[١]، وبعض الجبرية وهم الضرارية أتباع ضرار بن عمر الكوفي[٢].

والمعتزلة والضرارية برأيهما هذا يرفضان أن يكون الرسول الأعظم سيدنا **محمد** - ﷺ - خير خلق الله على الإطلاق، وأفضل الأنبياء والمرسلين، لأنهم لا يفرقون بين درجة كل نبي ومنزلة كل رسول، لأن الكل عندهم سواء، سواء في الدرجات، سواء في الأجر والحسنات، سواء في الكرامات والمعجزات، سواء في الفضيلة والجاه والمقامات.

أدلة المعتزلة على منع التفضيل:

حاول المعتزلة أن يدعموا دعواهم بشيء من الأدلة لتوكيد ما ذهبوا إليه في منع التفضيل[٣]، فلم يجدوا شيئاً من القرآن الكريم، وأما من السنة المطهرة فقد وجدوا أربعة أحاديث شريفة، وآخر لا أصل له، وها نحن نفصل القول في تخريجها وبيانها على الوجه المرضي إن شاء الله تعالى.

١ - قال رسول الله - ﷺ -: **(لا تخيروني على موسى..)**[٤].

(١) الفتاوى الحديثة لابن حجر العسقلاني عن جواهر البحار للنبهاني ١٠١/٢.

(٢) كتاب أصول الدين للبغدادي ص١٦٥.

(٣) ذكر المتكلمون أدلة المعتزلة في كتبهم ودرسوها مثل: شرح المقاصد ٤٧/٥، وشرح العقيدة الطحاوية للدمشقي ١٥٨/١، والشفا مع شرح القاري عليه ٤٧٧/١ واليواقيت والجواهر ٢٢/٢، وشرح الفقه الأكبر للقاري ص٩٤ والمعتقد الإيماني ص٢٦ وأصول العقيدة الإسلامية ص٥٣ والعقائد الإسلامية ص١٩٩.

(٤) رواه البخاري في كتاب الخصومات الباب الأول (٢٤١١) ٧٠/٥ ومسلم في كتاب الفضائل (١٦٠) ١٣٩/١٥ وأبو داود كتاب السنة (٤٦٧١) ٢١٦/٤.

٢ - وقال - ﷺ -: (**لا تخيروا بين الأنبياء**) [١]، وفي صحيح مسلم: (**لا تفضلوا بين أنبياء الله**) [٢]، وفي البخاري (**لا تفضلوا بين أولياء الله**)[٣].

٣ - وقال - ﷺ -: (**لا يقولن أحدكم: إني خير من يونس بن متى**) [٤]. وفي رواية: (**ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى**) [٥]. وفي رواية: (**ولا أقول أن أحداً أفضل من يونس بن متى**) [٦]. وفي رواية أبي داود: (**ما ينبغي لنبي أن يقول: إني خير من يونس بن متى**) [٧].

٤ - وعن أنس - رضي الله عنه -: قال رجل لرسول الله - ﷺ -: يا خير البرية، فقال رسول الله - ﷺ -: (**ذاك إبراهيم**) [٨].

٥ - لا تفضلوني على يونس[٩].

وجه الاستدلال:

ولعل حجة المعتزلة ومن وافقهم تبدو لنا من خلال التأمل العلمي في هذه الأحاديث الشريفة، في أن الرسول الأعظم - ﷺ - نهى تارة عن التفضيل والتخيير بين الأنبياء الكرام نهياً عاماً، فقال: (**لا تفضلوا بين أنبياء الله**) و(**لا تخيروا بين الأنبياء**). ثم أراد - عليه الصلاة والسلام - أن ينهى على وجه التحديد والتخصيص، زيادة في توكيده

---

(١) رواه البخاري في كتاب الخصومات (٢٤١٢) ٥/٧٠ وأبو داود في كتاب السنة (٤٦٦٨) ٤/ ٢١٦.

(٢) رواه مسلم في كتاب الفضائل باب من فضائل موسى - ﷺ - (٢٣٧٣) ١٥/١٣٨.

(٣) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء برقم (٣٤١٤) ٦/٤٥٠.

(٤) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء برقم (٣٤١٢) ٦/٤٥٠.

(٥) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء برقم (٣٤١٣) ٦/٤٥٠ ورواه مسلم في كتاب الفضائل باب في ذكر يونس عليه السلام برقم (٢٣٧٧) ١٥/١٤٢ ورواه أبو داود في كتاب السنة باب في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام برقم (٤٦٦٩) ٤/٢١٧.

(٦) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء برقم (٣٤١٥) ٦/٤٥١.

(٧) رواه أبو داود في كتاب السنة برقم (٤٦٧٠) ٤/٤١٧.

(٨) رواه أبو داود في كتاب السنة برقم (٤٦٧٢) ٤/٤١٧.

(٩) قال الإمام القاضي علي بن أبي العز الدمشقي (ت - ٧٩٢ هـ) - رحمه الله -: إن هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب التي يعتمد عليها: شرح العقيدة الطحاوية ١/١٦١.

حرمة التفضيل فقال: (**لا تخيروني على موسى**) و(**ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس بن متى**).

إذن فهناك نهي عام، ونهي خاص، وكلاهما يشتركان في معنى واحد وهو منع التفضيل وتحريم التخيير بين الأنبياء - عليهم السلام - وما ذاك إلا لأنهم كلهم في مرتبة واحدة، ودرجة واحدة، وفضيلة واحدة.

فلولا أنهم جميعهم متساوون في المنزلة والجاه، متشابهون في الأجر والثواب، مشتركون في النبوة والنعيم، لما نهى رسول الله - ﷺ - عن إمكانية التفاوت بين حضراتهم، فلا يتميز نبي على نبي.

الحكمة من ذكر يونس

ولعلك - أيها الباحث الكريم - تسأل: ما الحكمة في تخصيص رسول الله - ﷺ - يونس - عليه السلام - بالذكر في الحديث المتقدم؟

والجواب على ذلك هو أن الله تعالى بعد أن قصّ في كتابه المجيد قصة سيدنا يونس وصور لحبيبه **محمد** - ﷺ - تولى سيدنا يونس عن قومه وتضجره منهم، وقلة صبره على أذيتهم وجفائهم وإصرارهم على الكفر والعدوان، قال: ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾(١) وقال سبحانه: ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾(٢) أي: يلوم نفسه. فخشي سيدنا **محمد** - ﷺ - أن توسوس النفس الأمارة بالسوء للضعيف من أمته الكريمة مما يؤدي إلى تنقيص من مقام سيدنا يونس عليه السلام - أو انحطاط من رتبته الرفيعة، ومن أجل أن لا يقع ذلك في نفس من لا يعلم مقام قرب يونس بيَّن - عليه السلام - أن الذي ذكره القرآن الكريم ليس بقادح في شخصية يونس، فيما منحه الله من كرامة النبوة وشرف الرسالة، فقال: (**ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس بن متى**) والله تعالى أعلم.

ولذلك قال الإمام النووي - رحمه الله -: [إنه - ﷺ - قال هذا زاجراً عن أن يتخيل أحد من الجاهلين شيئاً من حط مرتبة يونس - ﷺ - من أجل ما في القرآن العزيز

---

(١) القلم: الآية (٤٨).

(٢) الصافات: الآية (١٤٢).

من قصته. وقال العلماء: وما جرى ليونس - ﷺ - لم يحطه من النبوة مثقال ذرة][1].
فبان وتأكد لك صحة ما قلناه، وهو أنه - ﷺ - إنما ذكر سيدنا يونس - عليه السلام - دفعاً لوهم الواهمين وظنون الجاهلين.

تأويلات العلماء لأحاديث النهي:

لم تغب عن علمائنا - رحمهم الله تعالى - الأحاديث الشريفة الصحيحة التي حاول المعتزلة ومن وافقهم في قولهم الاعتماد عليها، فقام علماؤنا بدراسة هذه الأحاديث الشريفة متناً وسنداً، دراسة علمية منهجية، تقوم على أساس التوفيق والجمع بين الأدلة المصرحة بتفضيل حضرته العلية - ﷺ - على سائر الخلائق وبين هذه الأحاديث الشريفة التي استند إليها المعتزلة، وقد تميزت دراسة العلماء هذه بالاعتدال والتوسط الواضحين، وإليك - أيها الباحث الكريم - نتائج هذه الدراسة:

١ - معنى قوله - ﷺ -: (**لا تفضلوني على موسى**) لا تفضلوني بدافع الحمية والعصبية وهوى النفس، فإن كان كذلك فهذا هو التفضيل المذموم الممنوع.

٢ - ويمنع تفضيله على وجه الفخر والكبرياء والتعالي، لأن شأنه وأخلاقه التواضع حيث قال - ﷺ -: (**أوحي إليَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**)[2]. فمن فضل حضرته بدافع الكبرياء على حضرات الأنبياء أو على غيرهم فذلك طريق وسبب مذموم.

٣ - قوله: (**لا تفضلوا بين أنبياء الله**) نهي عن التفضيل الخاص، أي: لا يفضل بعض الرسل على بعض بعينه، بخلاف قوله: (**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**) فإنه تفضيل عام، فلا يمنع منه، ومعنى قولهم هذا هو أنه يجوز تفضيل الرسول الأعظم - ﷺ - على الكل من غير ذكر أحد من المفضل عليهم باسمه والتصريح به، مبالغة في الأدب معه.

٤ - نهى - ﷺ - عن تفضيل من يقول التفضيل برأيه، لا من يقوله بدليل وبرهان وحجة، فالأول ممنوع والثاني جائز.

---

(١) شرح النووي على مسلم ١٤٢/٥ وانظر: شرح الشفا للقاري ٤٧٧/١ و٤٧٨ و٤٨٠.

(٢) رواه مسلم في باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٢٠٥/١٧ (٦٤) وأبو داود في كتاب الأدب، باب في التواضع ٢٧٥/٤ (٤٨٩٥) وابن ماجه بلفظ قريب منه في باب البغي ٥٥٣/٢ (٤١٧٩).

٥ - سبب النهي عن التفضيل بين الأنبياء هو أنه إذا كان تفضيل المسلمين نبيهم يؤدي إلى إحداث خصومة وتنازع وتقاتل بينهم وبين أهل الكتاب، فمن أجل الحفاظ على دماء المسلمين في تلك الحالة نهى عن التفضيل.

٦ - وقوله: (**لا تفضلوا بين أنبياء الله**). المراد به: لا تفضلوا بجميع أنواع الفضائل بحيث لا يترك للمفضول فضيلة، لا إنكار لأصل التفضيل وإنما النهي عن التفضيل إذا كان على هذا الوجه فقط.

٧ - النهي في الأحاديث السابقة مختص في نفس النبوة لا في ذوات الأنبياء وتوضيح قولهم هذا هو أن النبي الكريم - ﷺ - إنما نهى عن التفضيل بين الأنبياء من حيث وظيفة النبوة لقوله تعالى: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾[1]. ولم ينه عن التفضيل بينهم من حيث ذواتهم الكريمة، وشمائلهم المنيفة، وخصائصهم العلية. لأن الأنبياء في وظيفة النبوة أو الرسالة سواء، لا فرق بين هذا وهذا، وعليه يحمل النهي في الأحاديث السابقة، بخلاف مراتبهم ودرجاتهم ومنازلهم ولذلك قال الله تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[2].

٨ - لا يجوز التفضل بين الأنبياء تفضيلاً يؤدي إلى تنقص بعضهم أو إلى الإقلال من شأنه.

وقولهم هذا قوي جداً، ومعناه لا يجوز للمسلمين أن يفضلوا بين بعض الأنبياء على حساب الانتقاص من مرتبة بعضهم الآخر، أو التقليل من مناقبه وفضائله ومآثره، أو الغض من صفاته وخصائصه.

٩ - وأخيراً قالوا: إن النبي - ﷺ - إنما قال: (**لا تخيروا بين الأنبياء**) و(**ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس بن متى**) على سبيل التواضع مع إخوانه من الأنبياء والمرسلين - عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام - فنهى حضرته عن التفضيل تواضعاً من جانبه المعظم، ونفياً للتكبر والعجب عن باطنه تعليماً لأمته، وإرشاداً إلى طريقته وأخلاقه، لا لأن أصل التفضيل حرام[3].

---

(١) البقرة: الآية (٢٨٥). (٢) البقرة: الآية (٢٥٣).

(٣) انظر: الشفا مع شرح القاري عليه ١/٤٧٩ وما بعدها وشرح المقاصد ٥/٤٧ وشرح النووي على صحيح مسلم ١٥/٤٣، وفتح الباري للحافظ ابن حجر ٦/٤٤٦ وشرح العقيدة الطحاوية =

خلاصة الدراسة:

يمكننا - بإذن الله تعالى - أن نرسم صورة واضحة بعد قراءة ما تقدم، هي زبدة الجواب عن أدلة المعتزلة، فنقول: يجوز تفضيل حضرة الرسول الأكرم - ﷺ - على سائر الأنبياء والمرسلين، بل قال الإمام النووي - رحمه الله -: [لا بد من اعتقاد التفضيل][(١)]. لكن من غير أن يكون الدافع إلى التفضيل هو هوى النفس الأمارة بالسوء، ولا الكبرياء على الأنبياء والتعالي على أهل الكتاب وغيرهم، ومن غير أن يكون هذا التفضيل سبباً للفتنة وإشعال نار الحروب والقتال، ومن غير أن يكون التفضيل في حقيقة النبوة والرسالة وأصلهما لأن الأنبياء في ذلك كلهم سواء كما قلنا من قبل، وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والكمالات والرتب. ومن غير أن يحدث التفضيل جرحاً في شخصية النبي المفضل عليه، أو يؤدي إلى تنقيصه من مقامه العالي.

فالتفضيل الشرعي إذن هو التفضيل البعيد من هذه الأسباب المذمومة والأوصاف السيئة، وما عدا هذه كلها يكون تفضيل النبي - ﷺ - على سائر الأنبياء والمرسلين شيئاً مستحباً، وفعلاً ممدوحاً، وصنعاً مأجوراً، يثاب فاعله، ويمدح كاسبه، ويرفع في أعلى الدرجات معتقده، وهو أمر لا بد منه، لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ ﴾[(٢)].

وما تفضيل سيدنا **محمد** - ﷺ - على سائر إخوانه من الأنبياء الكرام والرسل العظام، إلا جزء يسير من واجب تعظيمه الذي أمرنا الله تعالى به فقال: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾[(٣)].

=

١٥٨/١ وما بعدها وأصول العقيدة الإسلامية ص٥٣، وشرح الفقه الأكبر للقاري ص٩٤ والمعتقد الإيماني ص٢٦، واليواقيت والجواهر للشيخ الشعراني ٢٢/٢ وأصول الدين الإسلامي ص٣٨١، وجواهر البحار ١٠١/٢، والعقائد الإسلامية سيد سابق ص١٩٩ وانظر: تفسير الإمام الرازي ٢١٤/٦ و٢١٥.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٤٣/١٥.

(٢) الإسراء: الآية (٥٥).

(٣) الفتح: الآية (٩).

الغلاة من الروافض:

بعد أن علمنا رأي المعتزلة وبعض الجبرية ووقفنا على أدلتهم ودرسناها وناقشناها، فلا بأس من أن نعرف رأي الغلاة من الروافض وموافقهم من قضية جواز التفضيل بين الأنبياء.

وبعد أن بحثت عن رأيهم في هذه المسألة، وجدت أنهم لا يختلفون عن المعتزلة في منعهم التفضيل والتخيير بين الأنبياء. بل لم يكتفوا بالمنع فقط حتى راحوا يضيفون إليهم ساداتنا الأئمة - عليهم السلام - حيث جعلوهم متساوين معهم في درجاتهم ومنازلهم ومراتبهم وهذا ما ذكره الأستاذ أبو منصور البغدادي حيث قال: [وزعم قوم من غلاة الروافض أن الأنبياء والأئمة متساوون في الدرجات، ولكل - واحد - منهم في دوره من الفضل ما للآخر في دوره] [(١)].

فما قيل في الجواب عن المعتزلة يمكن أن يقال عن هؤلاء، فلا حاجة إلى إعادة ما ذكر هناك أن يذكر هنا. علماً أن مقامات ساداتنا وسادات كل المسلمين أهل البيت الكرام - عليهم السلام والرضوان - لا يعلم علوها، وعالي منائرها، وسموق عرشها، ورفعة قوائمها، وجمال كمالها، وحلال بهائها إلا الله تعالى، لكننا أمرنا بالوقوف عند الشريعة الغراء، شريعة خاتم الأنبياء والمرسلين -عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم- والله تعالى أعلم.

رأى الباحث:

خلاصة الآراء السابقة:

لكي نربط بين أول الموضوع وآخره، نستعرض سريعاً خلاصة الآراء المذكورة فيما سبق في موضوع التفضيل. والذي يبدو لي أن موضوع التفضيل فيه مسألتان: الأولى في إمكانية التفضيل بين الأنبياء عموماً من غير تحديد، والثانية في تحديد الذات المفضلة على الكل.

أ - أهل السنة والجماعة:

١ - يجوز التفضيل بين الأنبياء بشرط عدم تنقيص شيء من مقام النبي المفضل عليه أو إساءة الأدب مع حضرته.

---

(١) كتاب أصول الدين ص١٦٤ وقد بحثت عن أدلتهم في دعواهم هذه فلم أقف لهم على أي دليل.

٢ - أن يكون التفضيل في الدرجات والمراتب والكمالات لا في وظيفة النبوة أو الرسالة.

٣ - أفضل الأنبياء وأعظمهم، وأكرم الرسل وأشرفهم هو سيدنا **محمد** - ﷺ -.

ب - بعض منتحلي الإسلام:

١ - يجوز التفضيل بين بعض الأنبياء كلهم.

٢ - لم يكن **محمد** - ﷺ - أفضل من آدم ونوح وإبراهيم - عليهم السلام.

٣ - **محمد** - ﷺ - أفضل من موسى وعيسى - عليهما السلام -.

ج - المعتزلة:

لا يوجد بعض الأنبياء أفضل من بعض، بل جميع الأنبياء - عليهم السلام - متساوون في الرتبة والدرجة والنبوة.

د - الغلاة من الروافض:

الأنبياء والأئمة متساوون في الرتبة والدرجة والفضل، ولا يتميز أحدهم عن الآخر بدرجة أو فضل.

المذهب الوسيط:

١ - لا شك في أن عملية التفضيل والتخيير بين الأنبياء مشروعة لورود النصوص القطعية القاطعة بذلك، كقوله تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[1]. وإنكار جواز التفضيل مكابرة وعناد.

٢ - أفضل الأنبياء والرسل على الإطلاق هو سيدنا **محمد** - ﷺ -، ولكن من غير إساءة أدب مع أي نبي أو تقليل من شأنه، ومن غير أن نجعل ساداتنا الأئمة والأنبياء سواء بلا فرق في وظيفة أو درجة أو ثواب.

فنحن لسنا مع من ينكر أساس التفضيل، ولا مع من يفضله - ﷺ - على بعض دون بعض، ولا مع من يساوي مقامه العالي مع مقامات غير الأنبياء السنية. فإذا فهم التفضيل بهذه الصورة تحقق الوسط والاعتدال، وإعطاء كل ذي حق حقه من غير بخل ولا إسراف.

---

(١) البقرة: الآية (٢٥٣).

ولو جئت تتأمل بعين البصيرة قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾(١) لبان لك صحة ما اعتقدناه وسطاً من الآراء السابقة. فإن الآية الكريمة صريحة في أن الله تعالى ختم جميع الأنبياء بسيدنا **محمد** - ﷺ - فوجب أن يكون أفضلهم وأعظمهم لماذا؟ لأنه لو تصور بعثة نبي آخر بعد حضرته لنسخ ما جاء به ونَسْخُ الفاضل بالمفضول قبيح في نظر العقلاء.

ومما يزيدنا يقيناً بصحة عقيدتنا الوسط هو قوله تعالى في حق حبيبه **محمد** - ﷺ - ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾(٢). فإن هذه الآية دليل أيضاً على كونه أفضل الخلق أجمعين، لأن من كان رحمة لكل العالمين لزم أن يكون أفضل من كل العالمين.

سر الإبهام:

وبعد تصريح هاتين الآيتين بتفضيله على الخلق، وغيرهما من النصوص السابقة، جاء التلميح به في قوله تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ لحكمة عظيمة وهي زيادة في تفخيم قدره، ومبالغة في تعظيم شأنه، ولذلك قال الإمام النسفي - المفسر -: [وفي هذا الإبهام تفخيم، وبيان أنه العلم الذي لا يشتبه على أحد، والمتميز الذي لا يلتبس](٣).

أثر الموضوع من الناحية الفكرية:

ولموضوع تفضيل الرسول الأعظم - ﷺ - على سائر الأنبياء أهمية كبيرة، وخطورة شديدة في مجال الفكر الإسلامي. ولا تعتقدن أيها الباحث الكريم أن الموضوع قد يحسم الحديث فيه ببيان الآراء العقائدية وأدلتها ومناقشتها، بل لا بد من دراسة آثاره على منضدة الفكر الإسلامي.

وتوضيح ما أروم الوصول إليه، هو أنه إذا لم يعتقد أن نبينا **محمداً** - ﷺ - أفضل الأنبياء فأمته واحدة من أمرين: إما أن تكون مساوية لأمم الأنبياء الأخرى، وإما أن تكون أقل منها شأناً. ولا تكون أفضل الأمم قطعاً لأن فضلها على الأمم مرتبط بفضل نبيها

(١) الأحزاب: الآية (٤٠).

(٢) الأنبياء: الآية (١٠٧).

(٣) تفسير الإمام النسفي ١٢٧/٢.

على سائر الأنبياء، وحيث لم يعتقد نبيها أفضل سائر الأنبياء فلا تكون هي أيضاً أفضل سائر الأمم. ولكن يا ترى ماذا سوف يترتب على هذا؟

الجواب على ذلك هو أن الأمة الإسلامية إذا كانت أقل الأمم شأناً فلها أن تأخذ ما في الأمم الأخرى لتكمل نقصها وتساويها في الحضارة والبناء والشأن، فتكون محتاجة إليها بحكم الواقع والضرورة والحاجة.

وإذا كانت مساوية لأمم العالم في حضارتها، ولم تكن أفضل من أهل الكتاب - اليهود والنصارى - فذلك لا يمنع أن تأخذ بعض ما عند اليهود والنصارى، وتستفيد من تجربة كل واحدة منهما وحضارتهما. وبما أن النصرانية ديانة تبشيرية بعكس اليهودية المغلقة، ففائدة النصرانية لأمة الإسلام أكثر وأقرب، لا سيما وأن القرآن الكريم أكد هذا القرب في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾[1].

وبهذا فإنا نؤيد دعوى التقريب والمزج المسيحي الإسلامي اللذان تدعو إليهما بعض الأقلام الأجنبية الكافرة وبعض الكتابات العربية الخائنة ومن تلكم الكتابات الخطيرة ما أورده الدكتور حسن صعب الذي يدعو صراحة إلى دمج الإسلام بالمسيحية والمسيحية بالإسلام، وصبهما في قالب واحد، قضاءً على الغربة الثقافية المتبادلة بين الإنسان المسيحي والإنسان المسلم.

وأصحاب دعوى التقريب والدمج يتذرعون بأن العالم الإنساني أو الأنثروبولوجي يدرس الأديان والثقافات دراسة علمية موضوعية، بدون تمييز بينها، وهذا النهج الدراسي يساعدنا عى التغلب على الغربة الثقافية بين المسيحية والإسلام.

وهذا النهج الدراسي الجديد - الجامع بين المسيحية والإسلام - يفتح المجال لتكوين نظرة جديدة لثقافة الإنسان من حيث هي، ويوجه ثقافة الإنسان للاعتراف بثقافة كل من الديانتين ويشجعه على الأخذ منهما بما يخدم فكره وعقله وعبقريته. والمسيحية والإسلام يحتاجان - كما هم يقولون - للأخذ بهذا النهج في دراسة كل منهما للآخر.

ويعتقد أصحاب التقريب والدمج أن علم الكلام الإسلامي بإمكانه أن يستفيد من علم اللاهوت المسيحي في كثير من قضاياه العقائدية، ويقتبس من مفاهيمه كثيراً من الحلول والمعالجات، لا سيما اللاهوت المسيحي اليوم أشد تيقظاً للتحديات الفلسفية

(١) المائدة: الآية (٨٢).

الحديثة والعلمية من علم الكلام الإسلامي[١].

والرد على أصحاب التقريب ودعوتهم البائسة لا يتطلب منا كثيراً من العناء والتعب، لأن ديننا ليس بحاجة إلى أحد يكمله ويتممه، بل هو نظام إسلامي عالمي كامل متكامل، في أرضه وساحته، في اقتصاده وتشريعه، في سياسته وحركته، في بنائه وحضارته، في ثقافته وفكره، في علومه ومعارفه، وفي كل شيء من أجزائه. قال الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[٢].

الدعوة إلى التبشير:

إذن عدم الاعتقاد بأن سيدنا **محمداً** - ﷺ - هو أفضل الأنبياء والمرسلين على الإطلاق دعوة إلى التبشير بالديانة المسيحية، وهذا ما يجب أن يفهمه المسلمون عموماً، وأصحاب الوسطية خصوصاً. وعليهم أن يعلموا أن أعداء الإسلام لم يكتفوا بالنزول في البلاد الإسلامية، واستغلال خيراتها واحتلال مراكزها العملية، والتحكم والتصرف في مناصبها القيادية ووظائفها الإدارية بما يخدم مصالحهم ويحقق أهدافهم، بل عزموا على إفساد حياة المجتمع الإسلامي وتفكيك عرى وحدته، وإخماد حرارة روحانيته وتعطيل طاقاته، والحيلولة دون كل تنبه ويقظة يحصلان في المستقبل. ولن يتم ذلك لهم إلا بنقل المسلم من الإسلام إلى المسيحية، نقلاً إيمانياً وفكرياً وأخلاقياً وتشريعياً، بعد التأكيد على مبدأ التساوي بين الديانتين في الحضارة، والاشتراك في الأهداف والغايات النبيلة، ونفي أي هوة أو تفاضل بينهما، وهذا هو التبشير بعينه.

يقول المبشر و. رايد: [إن الوصول إلى المسلمين صعب لأن المسلمين يشكون في من يتبرع لهم من المبشرين، ويعزون عمله إلى مأرب ما، وإنني أحاول أن أنقل المسلم من **محمد** إلى المسيح، لا حباً لذات المسلم، ولا لأنه أخ لي في الإنسانية ولكن طمعاً في ضمّه إلى صفوف النصارى] [٣].

---

(١) الإسلام وتحديات العصر للدكتور حسن صعب ص١٤١ وما بعدها.

(٢) المائدة: الآية (٣).

(٣) انظر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ص١٩٣.

وصدق الله العظيم عندما قال: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ...﴾[1]. فهلا انتبه المسلمون لما يحاك لهم وتيقظوا لهذه الدوائر، اللهم إني بلغت فاشهد.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، وأكرمنا بحسن الخاتمة على الإسلام يا رب العالمين - آمين -.

(١) البقرة: الآية (١٠٩).

المطلب الثاني

تفضيل الأنبياء على الملائكة

لم أجد نزاعاً بين المتكلمين في تفضيل الملائكة العلوية السماوية على الملائكة السفلية الأرضية. لكني وجدت اختلافاً وقع بين المتكلمين في تفضيل الأنبياء على الملائكة، وها أنا أنقل مجموع الآراء الكلامية مع نسبتها لأصحابها ودراستها دراسة تفصيلية.

١ - جميع الأنبياء - عليهم السلام - أفضل من جميع الملائكة وأصحاب هذا القول هم أكثر الأشاعرة[١]، وأكثر الماتريدية[٢]، والمحدثون بالإجماع[٣]، وعليه الشيعة[٤]، وأكثر أهل الملل[٥].

٢ - جميع الملائكة - عليهم السلام - أفضل من جميع الأنبياء والناس من غير تفصيل ولا استثناء. وهو قول جمهور المعتزلة وأكثرهم[٦]، وزعم بعض إجماعهم عليه[٧]، والصواب الذي رأيته عدم إجماعهم عليه لوجود رأي آخر لهم قريب جداً من هذا. ووافقهم على قولهم هذا من الأشاعرة أبو عبد الله الحليمي والقاضي أبو بكر الباقلاني[٨]، وعليه الفلاسفة[٩].

---

(١) المواقف بشرح الجرجاني ٢٨٣/٨، وحاشية الجرجاني على الكشاف ٥٨٥/١ وشرح التفتازاني على النسفية ص٣٢٠ وشرح الفقه الأكبر للقاري ص ٩٨ والوسيلة ص٧٠٩.

(٢) شرح الفقه الأكبر للقاري ص ٩٨ وانظر: شرح النسفية للسعدي ص ٢٥٧.

(٣) كتاب أصول الدين للبغدادي ص١٦٦.

(٤) المواقف ٢٨٣/٨، ومقالات الإسلاميين للأشعري ١١٢/٢.

(٥) شرح الجرجاني على المواقف ٢٨٣/٨.

(٦) كتاب أصول الدين للبغدادي ص١٦٦ وشرح النسفية للتفتازاني ص٣٢٠.

(٧) مقالات الإسلاميين للأشعري ٢٧٢/١ و١١٢/٢، وانظر: حاشية الجرجاني على الكشاف ١/ ٥٨٥ وجواهر البحار ١٠٩/٢، وشرح النسفية للسعدي ص٢٥٧.

(٨) المواقف ٢٨٣/٨، وشرح الجرجاني على المواقف ٢٨٣/٨ وحاشية الجرجاني على الكشاف ١/ ٥٨٥، وشرح الفقه الأكبر للقاري ص٩٨، وجواهر البحار ١٠٩/٢ وشرح النسفية للسعدي ص ٢٥٨.

(٩) المواقف ٢٨٣/٨ شرح النسفية للتفتازاني مع حاشية رمضان عليه ص ٣٢٠ وشرح النسفية للسعدي ص٢٥٨.

٣ - الأنبياء أفضل من الملائكة الذي عصوا ربهم سبحانه، كهاروت وماروت وإبليس(١)، وأما الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون فهم أفضل من الأنبياء. وهذا هو قول فريق من المعتزلة(٢). لذلك قلت لك القول بإجماع المعتزلة على القول الأول فيه نظر.

٤ - التوقف وعدم القطع بالأفضل. وهذا هو رأي الإمام أبي حنيفة - رضي الله عنه - وبعض الماتريدية الأحناف(٣).

أدلة جمهور أهل السنة والجماعة:

استدل جمهور المسلمين الذين قالوا بتفضيل جميع الأنبياء على جميع الملائكة بأدلة نقلية وأخرى عقلية، ونحن نبين هنا أقوى هذه الأدلة وأظهرها على الشكل المبسط الآتي:

أ - من القرآن الكريم:

١ - قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ﴾(٤). ووجه الاستدلال بالآية الكريمة هو أن السجود لا يكون إلا من الأدنى إلى الأعلى دون العكس. قال العلامة الأيجي: [وأمر الأدنى بالسجود للأفضل هو السابق إلى الفهم، وعكسه على خلاف الحكمة(٥)](٦).

فإذا سجد الملائكة لسيدنا آدم - عليه السلام - كان آدم أفضل منهم، لأن

---

(١) اختلف المتكلمون في إبليس، هل هو من جنس الملائكة أو لا؟ على قولين ومن قال كان من جنس الملائكة استدل بأن الأصل في الاستثناء أن يكون متصلاً، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ ومن قال كان من الجن استدل بقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ والثاني هو الصواب، والله تعالى أعلم.

(٢) كتاب أصول الدين للبغدادي ص١٦٦.

(٣) شرح الفقه الأكبر للقاري ص٩٨ وكبرى اليقينيات الكونية ص٢٤٩.

(٤) البقرة: الآية (٣٤).

(٥) يظهر بقول الأيجي - رحمه الله - أن أهل السنة يقولون برعاية مقتضى الحكمة، وإن لم يقولوا بوجوبها: حاشية السيالكوتي على شرح المواقف للجرجاني ٨/٢٨٤.

(٦) المواقف ٨/٢٨٤.

السجود أعظم أنواع الخدمة، وإخدم الأفضل للمفضول - إذا قلنا للملائكة أفضل - مما لا تقبله العقول.

وإذا كان آدم - عليه السلام - أفضل من الملائكة، كان غيره من الأنبياء والرسل - عليهم السلام - كذلك أفضل منهم إذ لا قائل بالفرق(١).

قلت: وسجود الملائكة لسيدنا آدم - عليه السلام - إنما كان على جهة التعظيم لحضرته والتكريم لجنابه، بدليل قوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾(٢) وقال إبليس أيضاً: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾(٣). فهذا السجود هو سجود تكرمة وتفضيل وتخيير.

٢ - قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾(٤).

وهذه الآية المباركة دليل على أن سيدنا آدم علمه الله تعالى الأسماء كلها لما دخل في عالم الإبداع والإيجاد، ثم أظهر سحبانه صور تلك الحقائق على الملائكة، فقال الملائكة اعترافاً بعجزهم ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ ﴾ ولم تعلم الملائكة الأسماء كلها كما علمها آدم.

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن آدم أفضل منهم، لأنه تعلمها دونهم، والعالم أفضل من غيره لأن الآية سيقت لذلك، ولأن الله تعالى يقول: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾(٥).

---

(١) شرح المواقف ٢٨٤/٨، وشرح النسفية للتفتازاني ص٣٢١ والوسيلة في شرح الفضيلة ص٧٠٩ وشرح الفقه الأكبر للقاري ص٩٨ وشرح التسفية للسعدي ص٢٥٧.

(٢) الإسراء: الآية (٦٢).

(٣) الأعراف: الآية (١٢).

(٤) البقرة: الآيتان (٣١ - ٣٢).

(٥) الزمر: الآية (٩) وانظر: المواقف مع شرح الجرجاني ٢٨٤/٨ وشرح النسفية للتفتازاني ص٣٢١ ومواهب الرحمن ١٤٠/١ والوسيلة ص٧٠٩.

٣ - قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1].

ووجه الاستدلال بهذه الآية هو أن الله تعالى فضل آل إبراهيم على العالمين، وهذا يعني أن عامة البشر أفضل من الملائكة، سواء كان الملائكة رسلاً كجبريل - عليه السلام - أو غيرهم، لكن لما قام إجماع الأمة على عدم تفضيل عامة البشر على رسل الملائكة، بقي عامة البشر معمولاً به فيما عدا ذلك. أي: بقي تفضيل عامة البشر على ما عدا رسل الملائكة - عليهم السلام -[2].

ب - من العقل:

وكان لأهل السنة والجماعة أدلة عقلية منطقية على تفضيل حضرات الأنبياء الكرام على الملائكة - عليهم جميعاً الصلاة والسلام - ومنها:

١ - من الممكن أن يصل الإنسان إلى الفضائل والكمالات العلمية والعملية مع وجود العوائق الطبيعية المتعددة، من الشهوة والغضب والحاجات الشاغلة لأوقاته، فيصل إلى تلك الفضائل والكمالات بكسب ومقاومة صادقة لهذه العوائق، بخلاف الملائكة فإنه ليس لها شيء من هذه العوائق لتجردها بالخلقة من الشهوة والغضب.

ولا شك أن عبادة الإنسان لله تعالى مع هذه العوائق أدخل في الإخلاص، وأشق من غيره، أي: الملائكة الذي خلقوا من غير شهوة فطروا على عبادة الله وذكره.

ومن كانت عبادته أشق كان أفضل من غيره درجة، وأكثر منه عليها ثواباً وأجراً[3].

٢ - من يتأمل في طبيعة خلق الإنسان، يجد أن الإنسان ركب تركيباً بين الملك الذي له عقل بلا شهوة، والبهيمة التي لها شهوة بلا عقل.

فبعقله له حظ من الملائكة، وبطبيعته له حظ من البهيمة - فمن غلب طبيعته - من

(١) آل عمران: الآية (٣٣).

(٢) شرح النسفية للتفتازاني ص٣٢١ وحاشية رمضان أفندي على شرح النسفية للتفتازاني ص٣٢١ وشرح النسفية للسعدي ص٢٥٨.

(٣) المواقف مع شرح الجرجاني ٨/٢٨٥، وشرح النسفية للتفتازاني ص٣٢١ وحاشية رمضان أفندي ص٣٢١ والوسيلة في شرح الفضيلة ص٧٠٩، وشرح النسفية للسعدي ص٢٥٨.

بني الإنسان - عقله فهو شر من البهائم لقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ ﴾[(١)]، ولقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾[(٢)].

وهذا يقتضي - بطريق قياس أحد الجانبين على الآخر - أن يكون الإنسان الذي غلب عقله طبيعته خيراً وأفضل من الملائكة[(٣)].

أدلة المعتزلة ومناقشتها:

حاول جمهور المعتزلة دعم رأيهم في تفضيل الملائكة على الأنبياء، فاعتمدوا على بعض الأدلة النقلية وأخرى عقلية، وإليك - أيها الباحث - أشهر أدلتهم وأقواها، مع مناقشتها مناقشة علمية منطقية، في أوضح صورة، وأقرب بيان:

أ - من القرآن الكريم:

١ - قال الله تعالى: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴾[(٤)] وقال سبحانه: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ ﴾[(٥)]. وهذا دليل على أن الملائكة هم معلمو أفضل البشر وهم الأنبياء، والمعلم أفضل من المتعلم.

ويجاب: هناك فرق بين المبلغ والمعلم، أما الملائكة فهم المبلغون عن الله تعالى، وأما المعلم فهو الله تعالى، وإسناد التعليم إلى الملائكة من باب المجاز العقلي[(٦)]. فالملائكة في الحقيقة هم واسطة بين الله تعالى وبين أنبياءه، تبلغهم مراد الله تعالى وليست هي المعلم.

٢ - قال الله تعالى: ﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ

---

(١) الأعراف: الآية (١٧٩).

(٢) الأنفال: الآية (٢٢) فالإنسان الذي لا يستعمل عقله ولا حواسه فيما يفيده وما ينفعه فهو مثل الأنعام الصم البكم، بل هو أضل لماذا؟ لأن الأنعام غير مكلفة فلا حرج عليها، أما الإنسان فإنه مكلف فيقع في أسوأ حال ومئآل.

(٣) المواقف مع شرح العلامة الجرجاني ٨/٢٨٥.

(٤) النجم: الآية (٥).

(٥) الشعراء: الآيتان (١٩٣ - ١٩٤).

(٦) المواقف بشرح الجرجاني ٨/٢٨٧ وشرح النسفية للتفتازاني ص٣٢٢.

ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[(١)].

وبيان طريقة استدلالهم هي أن قوله تعالى: ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ صيغة جمع تتناول مجموع الملائكة، وهذا يقتضي أن يكون مجموع الملائكة أفضل من السيد المسيح، ولا يلزم أن يكون كل واحد منهم أفضل من المسيح[(٢)]. وقوله: ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ صريح في تفضيل الملائكة على السيد المسيح، لأنه كما يقال: لا يستنكف الوزير عن خدمة فلان ولا السلطان، ولا يجوز أن يكون العكس.

ومقصدهم أن مثل هذا التعبير القرآني: ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ يدل على الترقي. فتقول مثلاً: لا يعرف هذا التلميذ ولا هذا المعلم[(٣)]. إذن فالمعلم أعلى وأفضل من التلميذ، فكما أن المعلم أفضل فالملائكة إذن هم أيضاً أفضل من عيسى، وبما أنه لا قائل بالفرق بين الأنبياء، فالملائكة أفضل منهم كلهم.

ويجاب: أن هذا الاستدلال ضعيف، لماذا؟ لأن قوله تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ ...﴾ له سبب وهو أن النصارى استعظموا السيد المسيح - عليه السلام - لما رأوه قادراً على إحياء الموتى وعلى إبراء الأكمه والأبرص، ولكونه بلا أب، فأخرجوه من كونه عبد الله، وادعوا له الألوهية، في حين أن الملائكة أكثر قدرة منه على إحداث خوارق العادات، بل هم قادرون على ما لا يقدر عليه، ومع ذلك فهم لا يستنكفون من مقام العبودية، وإذ لم تكن قدرتهم على إحداث الخوارق العجيبة سبباً لادعائهم الألوهية، فالسيد المسيح من باب أولى أن لا يكون لها. وعندئذٍ فليس ذلك من الأفضلية التي نحن بصددها[(٤)].

---

(١) النساء: الآية (١٧٢).

(٢) قلت: هذا الاستدلال ضعيف جداً، لأنه إذ لا يلزم أن يكون كل واحد من الملائكة أفضل من عيسى، فهذا يعني أن سيدنا عيسى أفضل من كل الملائكة كما أن نبينا **محمداً** - ﷺ - لما كان أفضل من كل أحد من آحاد الأنبياء - كما تقدم لك ذلك في المطلب السابق - كان أفضلهم كلهم. وقد قال الإمام الجرجاني: [ولم يفرق بين التفضيل على التفصيل، والتفضيل على الجملة أحد ممن صنف في هذا المعنى] حاشية الجرجاني على الكشاف ١/٥٨٦.

(٣) المواقف ٨/٢٨٧ وشرح النسفية للتفتازاني ص٣٢٢ وشرح النسفية للسعدي، ص٢٥٨.

(٤) المواقف ٨/٢٨٧، وشرح الجرجاني على المواقف ٨/٢٨٧، وشرح النسفية للتفتازاني ص٣٢٢ وحاشية رمضان أفندي ص٣٢٢ وانظر حاشية الجرجاني على الكشاف ١/٥٨٧.

ب - من العقل:

١ - قال المعتزلة: الملائكة رسل الله تعالى إلى الأنبياء، والرسول يكون أقرب إلى المُرسِل من المُرسَل إليه، كالنبي - ﷺ - بالنسبة إلى أمته، فتكون الملائكة إذن أفضل من الأنبياء.

ويجاب على هذا: بأن ما ذكره المعتزلة قاعدة كلية فيجب أن يكون - بناء على هذه القاعدة - كل واحد من آحاد الناس إذا أرسله ملك إلى ملك آخر، أفضل من الملك المرسَل إليه وهو باطل قطعاً [(١)].

٢ - وقالوا أيضاً: غالباً ما يأتي ذكر الملائكة في الكتاب والسنة قبل ذكر الأنبياء - عليهم السلام - ومن المعلوم أن المفضول لا يقدم على الفاضل على سبيل الاطراد، وهذا يدل على سبق الملائكة شرفاً ورتبة[(٢)].

ويجاب على هذا: بأن التقديم المطرد إنما هو بحسب ترتيب الوجود[(٣)]، فإن الملائكة مقدمون في الوجود من هذه الناحية، لذلك جاء الوجود اللفظي مطابقاً للوجود الحقيقي. أو أن التقديم إنما كان بحسب ترتيب الإيمان، فإن وجود الملائكة أخفى للناس، لذلك كان الإيمان به أقوى، فيكون تقديم ذكرهم أولى [(٤)].

وقفة مع المتوقفين:

لا يفوتني بعد أن ذكرت رأي المعتزلة وأدلتهم ومناقشتها، أن أقف مع بعض الحنفية الذين راموا تفضيل التوقف وعدم الخوص في هذا الموضوع، بحجة أن: [الأسلم فيه - هو - أن نحيل حقيقة الأمر في ذلك إلى علم الله عز وجل] [(٥)].

وإني لست بداخل في مناقشة طويلة وعريضة مع هؤلاء الفضلاء الكرام - رحمهم الله - بيد أني أذكرهم في مسألة سابقة، شاركوا المسلمين قاطبة في الإجماع عليها، وهي أن رسولنا الأعظم - ﷺ - أعظم وأفضل خلق الله على الإطلاق من غير استثناء، فكيف

---

(١) المواقف ٢٨٨/٨.

(٢) المواقف ٢٨٨/٨ وشرح النسفية للسعدي ص٢٥٩.

(٣) أي: إنما قدم القرآن الكريم ذكر الملائكة وكذا السنة المطهرة لأن الله سبحانه وتعالى خلق الملائكة قبل حضرات الأنبياء الكرام - عليهم السلام - لأن الملائكة أفضل وأشرف عند الله تعالى، ولذلك جاء ترتيب ذكرهم مطابقاً لترتيب وجودهم، والله تعالى أعلم.

(٤) المواقف ٢٨٨/٨ وشرح النسفية للسعدي ص٢٥٩.

(٥) كبرى اليقينيات الكونية ص٢٤٩.

لا يكون أعظم من الملائكة والملائكة خلق من الخلائق، ولا قائل بالفرق بين حضرته العلية وبين إخوته من الأنبياء والمرسلين في تفضيله على الملائكة.

وزيادةً على ذلك فإن التوقف في هذا الموضوع رأي من الآراء، ومن المعلوم أن رأي آحاد المذاهب لا يعتد به ما لم يكن مدعوماً بالأدلة والحجج، ولا دليل في هذا التوقف.

الخلاصة:

جميع الأنبياء أفضل من جميع الملائكة، وجميع الملائكة أفضل من جميع الأنبياء، والتوقف في هذا الموضوع وعدم الخوض فيه، هو خلاصة آراء المذاهب الكلامية الإسلامية التي بحثت في هذا الموضوع اللطيف.

أثر الموضوع وأبعاده من الناحية الفكرية:

بعد أن تأملنا طويلاً في رأي المعتزلة وهم يفضلون الملائكة - عليهم السلام - على حضرات الأنبياء الكرام، ظهر لنا خطورة هذا الرأي على الإسلام، عقيدة وشريعة وسلوكاً وفكراً. فإنه تبين أن الذي يأخذ به يترتب على أخذه ما يأتي:

١ - تهديم سياج الشريعة الغراء وخرقها.

٢ - تجميد الطاقات العقلية، وإنهاء واضح لمعنى الخلافة الإنسانية.

٣ - إلغاء حركة البناء والتجديد والنمو والتقدم.

٤ - إحياء اقتراح المشركين ودعواهم الجدلية في أن يكون الرسول ملكاً، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ...﴾[1].

٥ - تعطيل فاعلية الإنسان وحيويته ونشاطه.

٦ - إعانة الأعداء على إضعاف المسلمين، واستمرار تخلفهم.

٧ - إلغاء دور الجهاد في الدفاع وتقويم الحضارة.

٨ - تكليف البشر ما لا يطاق من الأعمال.

وتوضيح كل ذلك هو أنه إذا لم يكن الأنبياء أفضل من الملائكة، فالملائكة إذن هم أكثر أهلاً واستحقاقاً لحمل الرسالات السماوية، وعندئذٍ يكونون هم المبلغون عن الله تعالى مراده وأمره لا الرسل. وإذا كانوا كذلك فهم إذن حلقة الوصل بين الخالق والمخلوق، وإذا كانوا كذلك كانت معرفة البشر بربهم قائمة على أساس مصدر غيبي غير

---

(١) الأنعام: الآية (٨).

مشاهد، لأن الملائكة أجسام نورانية - غير مشاهدة بالعين الباصرة - وإذا كان مصدر عقيدة البشر بربهم غيبياً، قال كل من البشر في الله تعالى وصفاته ما شاء اعتماداً على ما فهمه هو بنفسه الفهم الذاتي من هذا المصدر الغيبي، وعندئذٍ يحصل نتيجة الاختلاف البشري الطبيعي: تناقض الآراء، وتضارب العقائد، واختلاف المفاهيم، وتصادم التصورات، وتكثر ضروب الخيالات، وتزداد أنواع الوهميات، فتحصل عند الناس الحيرة والاضطراب، والدهشة والضياع وتعم الفوضى وتتيه العقول، وينتشر الفساد، وتمتلىء الدنيا بالفتن وتغص بالمحن.

ويفتح باب الاجتهاد على مصراعيه لقبول أوهام الباطلين وادعاءات الكاذبين بذريعة أن أحدهم اجتمع مع الملك الفلاني وأخبره بكذا وكذا، كما فعل بولص الرسول عندما ادعى لقاءه مع السيد المسيح - عليه السلام - كذباً وافتراء، فحرف المسيحية وصدقه الناس.

ولا يخفى على الباحث أيضاً أن جعل الملائكة رسلاً إلغاء لدور الأنبياء والرسل، فلا حاجة إليهم وإلى بعثتهم، في حين أن حِكَمَ بعثتهم وفوائدها لا تعد لا تحصى: من معاضدة العقل وإزالة الخوف عند الإنسان وبيان حال الأفعال وبيان منافع الأغذية والأدوية، وتكميل النفوس البشرية، وتعليم الصنائع الخفية، والإخبار بتفاصيل الثواب والعقاب. إلى غير ذلك مما يصعب ذكره وبيانه في هذا المكان(١).

ولو كان الملك أفضل من النبي لكان الملك هو القدوة للإنسان، وهذا ممنوع بمنطق العقل لاختلاف الجنسين، فطبيعة خلق الكائن البشري غير طبيعة خلق الكائن الملكي لقوله - ﷺ -: (**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**)(٢). فكيف يصح تكليف البشر بالاقتداء بالملك مع عدم وجود ما في الملك في البشر - وهو الطاعة وعدم العصيان - والله تعالى يقول: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾(٣).

ومن ناحية أخرى لو كان الملك هو القدوة للإنسان المسلم - باعتباره أفضل من

---

(١) انظر فوائد البعثة مفصلة في: شرح المقاصد للتفتازاني ٦/٥ - ٧.

(٢) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق (٢٩٩٦) ١٨/٣٣٤.

(٣) البقرة: الآية (٢٨٦).

النبي - لتعطلت الحياة البشرية وتوقف النسل البشري، لأن الملائكة لا شهوة لها في النساء، فإذا اقتدى بهم بنو البشر ابتعدوا عن الزواج وبه يتوقف النسل البشري وتنعدم الحياة على الأرض، فما صينت الخلافة الإنسانية وما أدي حقها، فيموت المسلم جوعاً ويهلك عطشاً لأن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون، وبقلة طعامه تضعيف بنية جسمه فيضعف جهاده مع الأعداء، وهذا ما يخطط له اليهود وأعداء الإسلام في فرض حصار جائر تارة ونشر مرض الإيدز تارة أخرى.

ومن جانب آخر لو كان الملائكة هم القدوة للإنسان بدل الأنبياء لتوقف العمل بنواميس الكون، وأهملت الطاقات الفكرية العلمية، وأصبح الناس كلهم زهاداً في الدنيا، لأن الملائكة لا صلة لها بدنيا البشر. ويترتب على زهد الناس في الدنيا وعكوفهم على الذكر والتسبيح والعبادة فقط عدم بناء الحضارة الإنسانية، فلا مستشفيات علمية، ولا برامج تكنولوجية، ولا أقمار صناعية، ولا شبكات فضائية، ولا جامعات عصرية، ولا اختراعات خدمية، ولا استكشافات تنموية، ولا تحليلات مختبرية، ولا تسهيلات حديثة.

بل يعني التوقف عن الارتقاء العلمي وتجميداً للحيوية الفكرية وإنهاكاً لقوى الإنسان المختلفة لماذا؟ لأن الملائكة الذين لا يعرفون غير عالم الملكوت كانوا قدوة للإنسان بدل الأنبياء، ولماذا بدل الأنبياء؟ لأن الملائكة أفضل من الأنبياء.

إذن لماذا قال الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[(١)] ولماذا قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا[(٢)] وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾[(٣)]، ولماذا قال: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ...﴾[(٤)].

ومن أجل هذا كله فإني لا أرى صحة ما ذهب إليه المعتزلة - رحمهم الله -.

موقف الباحث من التفضيل:

لا شك في تفضيل الرسول الأكرم - ﷺ - على الملائكة جميعاً، لأن من كان نذير للعالمين بنص قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا

---

(١) التوبة: الآية (١٠٥).
(٢) أي «طرقها وجوانبها».
(٣) الملك: الآية (١٥).
(٤) الجمعة: الآية (١٠).

﴿ ١ ﴾[(١)] والملائكة من جملة العالمين، فإنذاره لهم قطعي لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[(٢)]. وفضل المنذِر - بكسر الذال - على المنذَر - بفتح الذال - لا يخفى على كل عاقل.

وأكتفي زيادة على أدلة الجمهور القوية بما ذكرته الآن من آية الإنذار، وبحديث عن ابن عباس - رضي الله عنهما -[(٣)] قال: إن الله فضل **محمداً** - ﷺ - على أهل السماء. قال الملا علي القاري: أي من الملائكة المقربين[(٤)].

تفضيل وبيان:

ولو تأملت أكثر في ذات النبي عموماً وفي ذات الملك عموماً، لبان لك شيء جديد، وهو أن قوة الملك على إحداث خوارق وعجائب الأعمال وغرائب الأمور أكبر من قوة النبي، لكن درجة النبي مع هذا تبقى أعظم وأعلى من درجة الملك. ومن هنا يجب علينا أن نفرق بين المرتبة والثواب والمنزلة وبين درجة القوة وشدة البطش وكثرة خوارق العادات. فنقول الأنبياء أفضل من الملائكة من حيث الدرجة والثواب والمنزلة والملائكة أكبر قوة من الأنبياء على إحداث خوارق العادة وأكثر منهم شدة وبطشاً، وهذا الأمر طبيعي بحكم أصل خلقتهم وماهية حقيقتهم[(٥)]. وعلى هذا المعنى يمكن أن يحمل تفضيل الجمهور، والله تعالى أعلم.

---

(١) الفرقان: الآية (١).

(٢) الأنبياء: الآية (٢٩).

(٣) رواه الدارمي في: باب ما أعطي النبي ﷺ من الفضل عن الحكيم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس ٢٥/١ والحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ٣٨١/٢ وذكره بطوله الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ثم قال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير الحكيم بن أبان وهو ثقة، ورواه أبو يعلى باختصار كثير: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٢٥٧/٨ و٢٥٨ في: باب عظم قدره ﷺ ورواه البيهقي وابن أبي حاتم: شرح الشفا للقاري ٣٧١/١.

(٤) شرح الشفا ٣٧٢/١ ويأتي بعد النبي سيدنا **محمد** - ﷺ - في التفضيل على جميع الملائكة أولو العزم ثم جميع المرسلين والنبيين - عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام -.

(٥) وقد بلغ من قوة جبريل - عليه السلام - الذي هو من جملة الملائكة المقربين، وإقدار الله تعالى له أن اقتلع المدائن واحتملها على ريشة من جناحه فقلب عاليها سافلها، فيكون تفضيل الملائكة من هذه الناحية مما لا خلاف فيه، انظر: حاشية السيد الجرجاني على الكشاف للزمخشري ٥٨٧/١.

الفصل الرابع

تطبيقات الوسطية في المسائل السمعية

المبحث الأول: الميـــزان

المطلب الأول: تعريف الميزان

المطلب الثاني: الموزون في الميزان

المبحث الثاني: النفخ في الصور

المبحث الأول

الميزان

ما أعظم تلك الساعة، ساعة وقوف الإنسان أمام الميزان الإلهي العادل ليرى بأم عينيه أعماله كلها وهي توزن بميزان رباني دقيق، ليتحدد بعد ذلك مصيره وعاقبته، إنه مشهد رهيب حقاً، يبعث في نفس الإنسان الرعب والخوف والقلق والذعر، فلا يدري أترجح سيآته على حسناته فيساق إلى جهنم، حيث السياط والنار والعذاب والهلاك، أم ترجح حسناته على سيآته فيساق إلى جنة الله تعالى ورضوانه، حيث النعيم والسعادة والسرور والحور. نسأل الله تعالى أن يثقل بالحسنات ميزاننا ويجعل الصالحات أعمالنا ويشفع فينا نبينا محمداً - ﷺ - آمين.

المطلب الأول
تعريف الميزان

الميزان لغة:

وبعد هذه البداية السريعة يجب أن نعرف معنى الميزان في اللغة والاصطلاح، حتى يسهل علينا الدخول في صلب موضوعنا المختلف فيه.

فنقول: من يدرس معنى الميزان في المصادر اللغوية الأمينة يجد أن كلمة (ميزان) جاءت بمعان عدة، فقد جاءت هذه الكلمة ويراد بها **المثقال والكتاب والمقدار والعدل والقضاء والتسوية**. والامثلة التي ذكرها اللغويون على هذه المعاني كثيرة جداً، ومنها قول الله تعالى في شأن الكافرين: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾[١] أي: قدْرا. قال ابن الأعرابي: العرب تقول: ما لفلان عندي وزن، أي: مقدار لخسته.

ويقال: وزن الشيء إذا قدره. وفي الحديث الشريف: (سبحان الله عدد خلقه، وزنة عرشه)[٢] أي: بوزن عرشه في عظم قدره[٣].

والوزن – كما قال الراغب الاصفهاني هو – معرفة قدر الشيء يقال: وزنته وزنا وزنة[٤]

وقال مجاهد والضحاك والأعمش: الوزن والميزان بمعنى العدل والقضاء، وذكر الوزن ضرب مثل، كما تقول: هذا الكلام في وزن هذا وفي وزانه، أي يعادله ويساويه وان لم يكن هناك وزن[٥].

---

(١) الكهف: الآية (١٠٥).

(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التسبيح اول النهار وعند النوم ١٧/ ٤٨ (٧٩) و (٢٧٢٦) وذكره النووي في رياض الصالحين، باب فضل الذكر والحث عليه ص ٤٥٨ (١٤٤١) وفي حلية الابرار وشعار الاخيار في تلخيص الدعوات والاذكار المستحبة في الليل والنهار، مطبعة دار ابن كثير، ط٥، ٥/٥.

(٣) لسان العرب مادة: وزن ١٧ / ٣٣٨ و٣٣٩.

(٤) المفردات ص٥٢٢ وروح المعاني للعلامة الألوسي ٧/ ٨٢.

(٥) لسان العرب ١٧ / ٣٣٩ / وتفسير الرازي ١٤ / ٢٨ وتفسير الماوردي ٢ / ١٠ وفتح الباري ١٣ / ٥٣٩ وتفسير النسفي ٢ / ٤٥.

وقال ابن منظور: الموازين واحدها ميزان وهي المثاقيل، واحدها مثقال، ويقال – ميزان – للآلة التي يوزن بها الاشياء[١].

وقال العلامة القرطبي: وقيل: الميزان – هو – الكتاب الذي فيه أعمال الخلق[٢].

والذي وقع في نفس الإمام زين الدين الرازي اللغوي (ت – ٦٦٦ هـ) أن معنى كلمة يزن يساوي، ومنه الحديث النبوي الشريف: (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة) أي: تعدل وتساوي[٣].

وبعد أن استعرض ابن سيده بعض هذه المعاني لكلمة – ميزان – قال: وهذا كله في باب اللغة، والاحتجاج سائد، إلا أن الأولى أن يتبع ما جاء بالاسانيد الصحاح، فان جاء الخبر أنه ميزان له كفتان من حيث ينقل أهل الثقة فينبغي أن يقبل ذلك[٤].

قلت: وهو عين ما قاله الزجاج: هذا سائغ من جهة اللسان، والأولى أن يتبع ما جاء في الاسانيد الصحاح من ذكر الميزان[٥].

لكن القشيري – رحمه الله – لم يرتض هذا القول، لأنه لو جاز حمل كلمة – الميزان – على أي معنى من هذه المعاني التي يختارها الباحث فليحمل الصراط أيضاً على معنى الدين الحق، والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد، والشياطين والجن على الأخلاق المذمومة، والملائكة على القوى المحمودة[٦]،

وقد أيد القرطبي ما قاله القشيري وأضاف أن الأمة قد أجمعت في الصدر الأول على الاخذ بهذه الظواهر من غير تأويل، وإذا اجمعوا على منع التأويل وجب الاخذ

(١) لسان العرب مادة: وزن ١٧ / ٣٣٨.

(٢) تفسير العلامة القرطبي ٧ / ١٦٥.

(٣) مختار الصحاح مادة: وزن ص٧١٩ وانظر: المعجم الوسيط ٣ / ١٠٣٠ قلت: ولكن الحديث لم يرد بهذا اللفظ وإنما جاء بلفظ: (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء) والمعنى: لو كان لها أدنى قدر عند الله تعالى ما منع الكافر منها أدنى تمتع.وذكر المناوي – رحمه الله – أنه جاء في رواية أبي نعيم: (لو وزنت الدنيا..)، وعلى كل حال فقد ذكر المناوي سبب تضعيفه مفصلاً في كتابه فيض القدير ٥ / ٣٢٨.

(٤) لسان العرب ١٧ / ٣٣٨.

(٥) تفسير القرطبي ٧ / ١٦٥ وانظر: غاية المأمول شرح التاج الجامع للأصول ٥ / ٣٧٦.

(٦) تفسير القرطبي ٧ / ١٦٥.

بالظاهر، وصارت هذه الظواهر نصوصا[١].

الميزان في الاصطلاح:

يمكنك ان تقترب من اقوال المتكلمين إذا دققت فيما تقدم في تعريفات أهل اللغة للميزان. فقد اختلف علماء الكلام في حد الميزان على مايأتي:

١- قال أهل الحق في تعريف الميزان: له لسان وكفتان، توزن في إحدى كفتيه الحسنات وفي الأخرى السيئات، فمن رجحت حسناته دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته دخل النار، ومن تساوت حسناته وسيئاته تفضل الله تعالى عليه فأدخله الجنة[٢].

فميزان الآخرة في عقيدة أهل الحق ميزان حسي له لسان وكفتان، إحداهما نيرة وهي اليمنى المعدة للحسنات والأخرى مظلمة وهي اليسرى المعدة للسيئات[٣]. يراه الناس بأم أعينهم.

وهذا هو رأي الرعيل الأول – رضي الله تعالى عنهم – ومنهم سيدنا سلمان الفارسي – ﷺ – فقد اخرج أبو القاسم اللالكائي في السنة عن سيدنا سلمان أنه قال: يوضع الميزان وله كفتان، لو وضع في إحداهما السماوات والأرض ومن فيهن لوسعه[٤].

وهو مذهب ابن عباس – ﷺ – فقد قال فيه: إنه ميزان له لسان وكفتان، لا يوزن فيه إلا الأعمال[٥]. وفي رواية أخرى: توزن الحسنات والسيئات في ميزان، له لسان وكفتان[٦] والحسن البصري – رحمه الله – فقد جاء من طريق عبد الملك بن أبي سليمان أنه ذكر الميزان عند الحسن فقال: له لسان وكفتان[٧].

---

(١) المصدر نفسه والتذكرة للقرطبي ص٣٦٥.

(٢) مقالات الإسلاميين للاشعري ٢ / ١٤٦.

(٣) تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب ٧٢و٧٣.

(٤) فتح الباري ١٣ / ٥٣٩ والتذكرة ص٣٦٤ وروح المعاني ٧ / ٨٤ والمسايرة ٢٣٨.

(٥) تفسير روح البيان ١٠ / ٥٠٠ وتفسير القرطبي ٧ / ١٦٦.

(٦) تفسير القرطبي ٧ / ١٦٦ وشرح النسفية للسعدي ص١٣٥ وانظر: الايمان باليوم الآخر للاستاذ أسعد محمد سعيد الصاغرجي، دار القبلة، السعودية، ط ١، ١٤١٣-١٩٩٣، ص٨٣.

(٧) فتح الباري ١٣ / ٥٣٩ وتفسير الماوردي ٢ / ١٠ وكتاب المسايرة ٢٣٨ والكشاف للزمخشري =

قلت: وهذا هو مذهب جمهور المفسرين وأكثرهم(١)، وزادوا: ان له كفتين ولسانين وساقين(٢). وهو قول السواد الأعظم من المسلمين من السادة الاشاعرة(٣)، والماتريدية(٤) والحنابلة(٥).

قال القرطبي – رحمه الله: [وقد جاء ان كفة الحسنات من نور، والأخرى من ظلام، والكفة النيرة للحسنات، والكفة المظلمة للسيئات، وجاء في الخبر ان الجنة توضع عن يمين العرش والنار عن يسار العرش، ويؤتى بالميزان فينصب بين يدي الله تعالى، كفة الحسنات عن يمين العرش مقابل الجنة، وكفة السيئات عن يسار العرش مقابل النار. ذكره الترمزي الحكيم في نوادر الأصول](٦).

٢- الميزان عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل(٧). وهذا هو قول مجاهد والضحاك والاعمش(٨). واليه ذهب المعتزلة إلا ان منهم من جوز الوزن بالمعنى المتعارف –عليه – عقلا وان لم يقض بثبوته كالعلاف وبشر بن المعتمر، ومنهم

---

٢ / ٦٨ وانظر: الحياة الآخرة ما بين البعث إلى دخول الجنة أو النار للدكتور غالب بن علي عواجي، المكتبة العصرية الذهبية / السعودية / ط٢ / ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م / ٣ / ١٠٨٥.

(١) كتاب المسايرة ٢٣٨ وحاشية افندي على شرح النسفية ٣٢٩.

(٢) حاشية افندي على شرح النسفية ٣٢٩.

(٣) مقالات الأشعري ١٤٦/٢ وحاشية افندي ٣٢٩ ونور الايمان للشيخ عبدالكريم المدرس ١٠١ وشرح النسفية للسعدي ١٣٥ وتنوير القلوب ٧٥ والمعتقد الايماني ٢٢ واليواقيت والجواهر ٢/ ١٦٣ وروح المعاني ٨٤/٧.

(٤) شرح الفقه الاكبر للملا علي القاري ٧٦و٧٧ وشرح العقيدة الطحاوية ٦٠٩/٢ وكتاب المسايرة ٢٣٨ وانظر: كتاب الإيمان للدكتور محمد نعيم ١٢٣.

(٥) مختصر الاسئلة والاجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية ص١١٣ وانظر: الكشاف للزمخشري ٢/ ٦٧ وأصول الدين الإسلامي ٤٧٣.

(٦) التذكرة ٣٦٤ وانظر تفسير الرازي ٢٧/١٤و٢٨.

(٧) الكشاف للزمخشري ٦٨/٢ والرازي ٢٨/١٤ والقرطبي ١٦٥/٧ والنسفي ٤٥/٢.

(٨) تفسير الماوردي ١٠/٢ وتفسير الرازي ٢٨/١٤ وتفسير القرطبي ١٦٥/٧ والكشاف ٦٧/٢ وتفسير النسفي ٤٥/٢ وفتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني ٥٣٩/١٣ وروح المعاني ٨٣/٧.

من احاله لأن الأعمال أعراض وهي لا تبقى ومما لا يمكن اعادتها[١].

وبهذا يتبين لك ان قول ابن فورك – رحمه الله –: انكرت المعتزلة الميزان[٢]. عام على كل المعتزلة.

وقد فسر أصحاب هذا القول الميزان بالعدل والقضاء والانصاف فقالوا: حمل لفظ الوزن على معنى العدل سائغ في اللغة، وذلك لأن العدل في الاخذ والاعطاء لا يظهر إلا بالكيل والوزن في الدنيا، فلا يبعد جعل الوزن كناية عن العدل[٣].

٣– الميزان: هو موازنة الحسنات والسيئات بعلامات يراها الناس يوم القيامة. وهذا الرأي في الميزان وجدته في تفسير الإمام الماوردي – رحمه الله – دون ان ينسبه إلى قائله[٤]. ولم اجده فيما اطلعت عليه في كتب التفسير والكلام والله تعالى اعلم.

الرأي الوسط:

من يقرأ اقوال العلماء في توضيح الميزان الذي ذكره القرآن الكريم في أكثر من موضع وفي أكثر من سورة، فقال سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ...﴾[٥] وقال: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ...﴾[٦].

ومن يتأمل في الحكمة الإلهية في خلقه الميزان ليرى المؤمن فضل الله تعالى عليه، وكثرة آلائه، والكافر خزيه وفضيحته، وقطعا لحجته.

أقول: من يقرأ ويتأمل ويجمع بين الصورتين وصورة مادية الإنسان وبشريته الترابية يتبين له فساد القول الثاني الذي فسر الميزان بالعدل والانصاف، لماذا ؟ لسببين:

الأول: لأن الميزان موصوف بالثقل والخفة، وكونه معروفا بهذين الوصفين مما لا خلاف

(١) روح المعاني ٨٤/٧ وتفسير القرطبي ١٦٥/٧ وشرح المواقف ٣٢١/٨.

(٢) تفسير القرطبي ١٦٥/٧ وكذا قال السيد الشريف في شرح المواقف ٣٢١/٨.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/١٤ وانظر: كتاب المسايرة ٢٣٩ وشرح النسفية للتفتازاني ٣٢٩ ورسالة في التوحيد والفرق المعاصرة ١١٤ وشرح النسفية للسعدي ١٣٦ وأصول الدين الإسلامي ٤٧٣ وشرح المواقف ٣٢١/٨.

(٤) تفسير الماوردي ١٠/٢.

(٥) الأنبياء: الآية (٤٧). (٦) الأعراف: الآية (٨).

فيه بين اثنين من العقلاء، فتفسيره بالعدل والانصاف تأويل يجرده من وصفيه الضرورين وهو باطل قطعا.

الثاني: الإنسان يوم القيامة اما ان يكون مؤمنا بأن الله تعالى عادل منزه عن الظلم، حكيم منزه عن السفه، واما ان لا يكون مقرا بذلك.

فإن كان معتقدا بعدله سبحانه فقد كفاه اعتقاده هذا حكم الله تعالى في اعماله الصالحة والطالحة، وهو عندئذ لا يحتاج إلى ميزان يزن اعماله، بناء على ان معنى الميزان هو العدل — والله عدل. وهو – أي: هذا الاحتمال – فاسد لأن الدليل القطعي قام على اثبات نصب الميزان يوم القيامة ووزن ما قدم الإنسان من حسنات وسيئات، قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[1].

وان كان الإنسان غير معتقد بعدل الله سبحانه واتصافه بصفات الكمال وانه تعالى منزه عن الجور، فهو لا يستطيع ان يشاهد عدله يوم القيامة لأن الميزان عبارة عن العدل والانصاف وهو أمر معنوي لا جسمي حسي يرى بالعين. فلا بد اذن من كون الميزان آلة محسوسة، لماذا ؟ لأمرين: **اولا:** توافقا مع النصوص القاطعة به يوم القيامة، **وثانيا:** حتى لا تبقى للكافر حجة في عذابه بنار جهنم، وقطعا له من ان يقول: حسناتي أكثر من سيئاتي أو عذابي وعقابي أكبر من سيئاتي، لأنه لم يشاهد وزن اعماله.

وقد رد القرطبي — رحمه الله — كما تقدم هذا القول بأنه لو جاز حمل الميزان على ما ذكروه لجاز حمل الصراط على معنى الدين الحق، ولجاز حمل الجنة والنار على كل شيء يرد على الارواح دون الاجساد من الاحزان والافراح، ولجاز حمل الشياطين والجن على معنى الاخلاق المذمومة، والملائكة على القوى المحمودة.

وهذا التأويل خطير جدا، بل فاسد كله لأنه رد واضح لما جاء به الصادق الامين سيدنا **محمد** – ﷺ – ومن الناحية الفكرية إذا كان عقاب من شرب الخمر وسرق الاموال وزنا وقذف ان يعيش سنوات معدودة في النار حزينا مهموما مغموما، فلا بأس اذن من اقتراف انواع الكبائر والوقوع في أكبر الذنوب وارتكاب انواع الفواحش.

---

(١) الأنبياء: الآية (٤٧).

واما حجتهم الثانية وهي ان الأعمال اعراض فلا يمكن وزنها، لانها لا تقوم بنفسها. فنقول: هذه اساءة أدب بحق الخالق العظيم — جل جلاله وعم نواله — القادر على كل شيء. فمن الممكن أن يُصيِّر الاعراض اجساما ويزنها بميزانه، لاسيما وقد جاء في السنة ما يؤيد ذلك.

١- روى البخاري عن أبي سعيد الخدري — رضي الله عنه — قال: قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —: (يؤتى بالموت كهيئة املح — وفي رواية مسلم: كبش أملح — فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا ؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا ؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلاموت، ويا أهل النار خلود فلا موت)[١].

والشاهد في هذا الحديث الشريف أن الموت عرض من أعراض الدنيا قلبه الله تعالى جسما وجعله كبشا أملحا وذبحه، فكيف يقال اذن لا يمكن قلب الاعراض أجساما! فالقادر على قلب الموت جسما قادر كذلك على قلب الأعمال أجساما.

٢- روي عن ابن عباس (رضي الله عنهما): ان الله تعالى يقلب الاعراض اجساما، فيزنها يوم القيامة[٢].

وأما القول الثالث وهو أن الميزان عبارة عن علامات يراها الناس يوم القيامة. فهو قول فاسد من وجوه عديدة:

١- لا شاهد بصحة هذا التأويل من اللغة ولا من القرآن الكريم ولا من السنة المطهرة الشريفة.

٢- ماهي هذه العلامات، وماهي مميزاتها ؟

٣- من هو صاحب هذا القول ؟ وماهو الدليل على صحة نسبته إليه؟

٤- كيف يمكن الجمع والتوفيق بين هذا القول وما جاء بالنصوص القطعية.

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب (وأنذرهم يوم الحسرة) ٨/٤٢٨ (٤٧٣٠) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها واهلها ١٧/١٩١(٢٨٤٩) والترمذي في كتاب تفسير القرآن ٥/٢٩٥ (٣١٥٦) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح والدارمي في سننه: باب في ذبح الموت ٢/ ٣٢٩ والإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة — رضي الله عنه — ٢/٤٢٣.

(٢) أصول الدين الإسلامي ص ٤٧٣.

فلم يبق لنا إلا قول أهل الحق، قول السواد الأعظم من المسلمين الذين قالوا: إنه ميزان حسي، جسماني، مشاهد، له لسان وكفتان، وساقان. وهذا هو القول الوسط الذي يقف بين طرفين متباعدين، طرف ينكره ولايؤمن به أصلا، وطرف يفسره تفسيرا غريبا غامضا. ويتميز القول الوسط هذا عن القولين الآخرين - الثاني والثالث — بادلة صحيحة، صريحة، واضحة.

١- فالدليل على أنه ميزان حسي، جسماني مشاهد، له كفتان حديث عبد الله بن عمرو بن العاص (ض) قال رسول الله - ﷺ -: (ان الله سيخلص رجلا من امتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا — والسجل هو الكتاب الكبير — كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: اتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟

فيقول: لا يارب، فيقول: أفلك عذر ؟ فيقول: لا يارب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فانه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة — رقعة صغيرة — فيها: اشهد أن لا إله إلا الله وأشهد ان محمدا عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات، فقال: انك لا تظلم، قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات — أي: رفعت - وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء)[(١)].

ولهذا الحديث شواهد أخرى ذكر بعضها الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد، كحديث أنس بن مالك —رضي الله عنه— قال: قال رسول الله — ﷺ -: (يؤتى يوم القيامة بصحف مختمة فتنصب بين يدي الله تبارك وتعالى ...)[(٢)].

وعن سيدنا سلمان الفارسي- رضي الله عنه — عن النبي — ﷺ- قال: (يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسع، فتقول الملائكة: يارب من يزن هذا ؟ فيقول الله تعالى: من شئت من خلقي، فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق

---

(١) رواه أحمد ٢١٣/٢ والترمذي في كتاب الإيمان (٢٦٣٩) ٢٥/٥ وقال: حسن غريب وابن ماجة (٤٣٠٠) ٥٧٨/٢ وصححه ابن حبان (٢٥٢٤) والحاكم ووافقه الذهبي ٦/١ و٥٢٩.

(٢) رواه الطبراني في الاوسط بإسناد رجاله رجال الصحيح: مجمع الزوائد ٣٥٣/١٠.

عبادتك)[١].

وفي رواية ابن المبارك واللالكائي عنه أيضاً قال: يوضع الميزان وله كفتان، لو وضع في إحداهما السماوات والأرض ومن فيهن لوسعه[٢].

فهذه الادلة وغيرها دليل واضح على أن الميزان الذي سوف ينصبه الله تعالى لعباده يوم القيامة ميزان جسماني، حسي وليس أمراً معنوياً يعبر عنه بالعدل والقضاء، لأن السجلات والصحف والكتب والسماوات والأرض كلها اجسام محسوسة، وجواهر ملموسة. فلا بد أن يكون الميزان كذلك، توافقا وانسجاما.

٢- والدليل على أن له لسانا حديث ابن عباس المتقدم: أنه ميزان له لسان وكفتان[٣].

ومن المعلوم عند العلماء أن مثل هذه المسائل السمعية مما لا يمكن للصحابي أن يجتهد فيها من رأيه، بل لا بد أنه سمعها من أو عن رسول الله -ﷺ- فلها اذن حكم الرفع لا الوقف.

ويؤيد قول ابن عباس الإمام الحسن البصري -رحمه الله- عندما قال في الميزان: له لسان وكفتان[٤]. والحسن البصري بدوره أيضاً لا يقول في مثل هذه المسائل السمعية من رأيه، بل لا بد أنه سمع ذلك من الصحابة الذين تربّى على ايديهم، وعاش مترعرعا في أحضانهم الكريمة. فثبت اذن صحة قول الجمهور والله تعالى اعلم.

حكمة الميزان دليل جسمانيته:

ليس الخلاق العظيم محتاجا إلى وزن اعمال عباده ليعرف مقادير ثواب وعقاب كل منهم، وهو أعلم بها وكميتها، كبيرها وصغيرها، علنيها وخفيها، سبحانه: ﴿ يَعْلَمُ

(١) اخرجه الحاكم وصححه ٦٢٩/٤ وروح المعاني ٨٤/٧ وقريبا من هذا اللفظ رواه الطبراني في المعجم الكبير عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما -: مجمع الزوائد ٥٦/١-٥٧.

(٢) فتح الباري ٥٣٩/١٣ وروح المعاني ٨٤/٧.

(٣) تفسير القرطبي ١٦٦/٧ وتفسير روح البيان ٥٠٠/١٠ و ١٣٧/٣ وشرح النسفية للدكتور عبد الملك السعدي ١٣٥.

(٤) تفسير الماوردي ١٠/٢ والكشاف للزمخشري ٦٨/٢ وفتح الباري للحافظ العسقلاني ٥٣٩/١٣ وكتاب المسايرة للعلامة الكمال بن الهمام ٢٣٨ والمسامرة للكمال بن أبي شريف ٢٣٨.

خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾[١] فلماذا اذن يكون الوزن وما الحاجة إليه؟

الجواب على ذلك أن من يتأمل في خلقة الإنسان الترابية، ويدرس طرق معرفته وأسباب علمه، ويعف طريقة تفكيره، وتوضيح الشيء إليه ومدى ارتباطه بالماديات وتعلقه بها طوال عمره في الدنيا، ويعلم أن حياة الإنسان تحت سيطرة قانون المادة سنوات طويلة جعلته يكون مع المادة علاقة وطيدة، ومودة صادقة، فهو يحبها وهي تحبه.

وقد ضرب لنا سيدنا رسول الله – ﷺ – أروع مثال ورسم لنا أجمل صورة لتوضيح هذه الحقيقة الائتلافية في محبة جبل أحد، فقال: (**أحد جبل يحبنا ونحبه**)[٢]. وما حنين الجذع الذي كان – ﷺ – يخطب عليه وبكاءه شوقا إليه إلا دليل آخر على صدق هذه المودة.

اقول: من يتأمل طويلا في دراسة هذه الحقيقة يجد أن في اقامة الميزان يوم القيامة بشكله الحسي المشاهد [بيانا للانسان أن مضمون الحياة الثانية ليس إلا انعكاسا دقيقا لمضمون الحياة الأولى تماما، كما يكون موسم الحصاد انعكاسا دقيقا لموسم البذر والزرع.

ولا يتضح هذا المعنى للانسان اتضاحا تاما لو قيل له ان الخالق جل جلاله يثيب كلا أو يعاقبه حسب ما استقر في علمه –جل جلاله – من سابق كسبه وأعماله، دون أن يطلعه على تلك الأعمال ويذكره بها ويضعها ماثلة بين عينيه ليقارن بينها وبين نتيجتها الماثلة أيضاً امامه في ذلك اليوم. لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يقام للاعمال ميزان حسي][٣].

---

(١) غافر: الآية (١٩).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب فضل الخدمة في الغزو ٨٤/٦ (٢٨٨٩) ومسلم في كتاب الحج، باب فضل المدينة ١٤٧/٩(١٣٦٥) وفي باب أحد جبل يحبنا ونحبه ١٧١/٩ (١٣٩٢) والترمذي في كتاب المناقب، باب فضل المدينة ٦٧٨/٥ (٣٩٢٢) وابن ماجة في كتاب المناسك، باب فضل المدينة ٢٦٨/٢ والإمام أحمد في مسنده (٨٠٩٦).

(٣) كبرى اليقينيات الكونية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق – سوريا، ١٤٢٠هـ–١٩٩٩م، ص٣٥٢.

المطلب الثاني

الموزون في الميزان

تقدم لك في المطلب الأول اختلاف العلماء في تعريف الميزان الذي انتهى إلى ثلاثة أقوال، كان الوسط الراجح فيها هو قول الجمهور أنه ميزان ذو كفتين ولسان. لكن أصحاب هذا القول الوسط وان حصل الاتفاق بينهم في تصوير الميزان بهذه الصورة الدقيقة، نشأ خلاف بينهم في مسألة أخرى وهي الموزون في الميزان، هل الموزون في الميزان الصحف والكتب التي كتبت فيها الأعمال، أو الأعمال نفسها، أو العامل أي: الشخص نفسه ؟ وها نحن بإذن الله تعالى نقدم لك كل قول مدعوما بأدلته، لنقف بعد ذلك على الوسط منها، والله تعالى اعلم بالصواب.

القول الأول:

صحف الأعمال هي التي توضع في كفتي الميزان وتوزن. وهو قول جمهور العلماء(١) وسيدنا عبد الله بن عمر(٢) وعامة المفسرين كما قال الرازي(٣) وغيره(٤)، وصححه ورجحه الإمام القرطبي(٥)، وابن عبد البر(٦)، وصوبه الشيخ مرعي(٧)، وهو مذهب الطيبي كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح(٨)، وبه قال الاشاعرة ومنهم الاستاذ أبو منصور البغدادي(٩) والإمام الغزالي(١٠)، والعلامة التفتازاني(١١)، وعليه جمهور

---

(١) روح المعاني ٨٢/٧ وتفسير روح البيان ١٣٧/٣.

(٢) تفسير الماوردي ١٠/٢ وتفسير القرطبي ١٦٥/٧ والتذكرة للقرطبي ص ٣٦٤.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/١٤.

(٤) شرح جوهرة التوحيد ص٢٣٤ وأصول الدين الإسلامي ص ٤٧٥.

(٥) تفسير القرطبي ١٦٥/٧ والتذكرة للقرطبي ص٣٦٤ وأصول الدين الإسلامي ص٤٧٥.

(٦) أصول الدين الإسلامي ص٤٧٥.

(٧) أصول الدين الإسلامي ص٤٧٥.

(٨) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٥٣٩/١٣.

(٩) كتاب أصول الدين ص٢٤٦. وانظر: شرح المواقف ٣٢١/٨.

(١٠) احياء علوم الدين ١٠٦/١ و الاقتصاد في الاعتقاد ص١٣٧.

(١١) شرح النسفية مع حاشية رمضان افندي ص٣٢٩.

الماتريدية(١)، وغيرهم(٢).

قال سيدنا عبد الله بن عمر – رضي الله عنه – في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ...﴾(٣): توزن صحائف اعمال العباد. وقال القرطبي بعد ان ذكر قول ابن عمر هذا: وهذا هو الصحيح، وهو الذي ورد به الخبر(٤).

وقال الإمام الغزالي – رحمه الله – في الاحياء: ان الله تعالى يحدث في صحائف الأعمال وزنا بحسب درجات الأعمال عند الله تعالى، فتصير مقادير اعمال العباد معلومة للعباد، حتى يظهر لهم العدل في العقاب، أو العفو وتضعيف الثواب(٥).

وعبارة الإمام الغزالي في الاقتصاد: ان الكرام الكاتبين يكتبون الأعمال في صحائف هي أجسام، فاذا وضعت – هذه الصحائف – في الميزان خلق الله تعالى في كفتها ميلا بقدر رتبة الطاعات وهوعلى ما يشاء قدير(٦).

أدلة القول الأول:

اعتمد الجمهور من علماء أهل السنة والجماعة على عدة أدلة في تأييد قولهم ودعم رأيهم، ومن هذه الادلة على سبيل المثال:

١- الحديث الصحيح المتقدم، حديث السجلات والبطاقة الذي رواه عن سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – وقال الإمام القرطبي: والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب التي فيها الأعمال مكتوبة، وبها تخف، وقد روي في الخبر مايحقق ذلك، – ثم ذكر القرطبي حديث السجلات والبطاقة، ثم قال: فقد علم أن ذلك يرجع إلى وزن ما كتب فيه الأعمال لا نفس الأعمال، وان الله سبحانه يخفف الميزان إذا أراد، ويثقله إذا اراد بما يوضع في كفتيه من الصحف التي فيها الأعمال(٧).

(١) كتاب المسامرة مع المسايرة ص٢٣٩.

(٢) انظر: الكشاف ٦٧/٢ ونهاية الاقدام للشهرستاني ص٤٧٠ وتفسير ابن كثير ٢٠٣/٢ وشرح العقيدة الطحاوية ٦١٣/٢ وشرح الفقه الاكبر للملا علي القاري ص٧٧ وص٧٨.

(٣) الأعراف: الآية (٨).

(٤) تفسير القرطبي ١٦٥/٧.

(٥) احياء علوم الدين ١٠٦/١.

(٦) الاقتصاد في الاعتقاد ص١٣٧.

(٧) انظر: تفسير القرطبي ١٦٥/٧.

قلت: قوله – ﷺ – في حديث السجلات: (فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة)، صريح جدا في أن الموضوع في كفتي الميزان لوزنه هو الكتب والسجلات التي كتبت فيها اعمال العباد.

٢- ذكر العلامة الآلوسي – رحمه الله – في تفسيره(١) حديثا أخرجه ابن أبي الدنيا والنميري في كتاب الاعلام عن سيدنا عبدالله بن عمرو أيضاً قال: ان لآدم –عليه السلام – من الله عز وجل موقفا في فسح من العرش، عليه ثوبان أخضران، كأنه نخلة سحوق، ينظر إلى من ينطلق به من ولده إلى الجنة، ومن ينطلق به إلى النار، فبينا آدم على ذلك إذ نظر إلى رجل من أمة **محمد** – ﷺ – ينطلق به إلى النار، فينادي آدم – عليه السلام- يا أحمد يا أحمد، فيقول – عليه الصلاة والسلام –: لبيك يا أبا البشر، فيقول: هذا رجل من امتك ينطلق به إلى النار، قال – ﷺ –: فأشد المئزر وأسرع في أثر الملائكة فأقول: يارسل ربي قفوا، فيقولون: نحن الغلاظ الشداد الذين لا نعصي الله تعالى ما أمرنا ونفعل ما نؤمر.

فإذا أيس النبي – ﷺ – قبض على لحيته بيده اليسرى، واستقبل العرش بوجهه، فيقول: يارب قد وعدتني أن لا تخزيني في أمتي. فيأتي النداء من قبل العرش: أطيعوا محمدا، وردوا هذا العبد إلى المقام. فيخرج – ﷺ – بطاقة بيضاء كالانملة فيلقيها في كفة الميزان اليمنى وهو يقول: بسم الله، فترجح الحسنات على السيئات، فينادي المنادي: سعد وسعد جده، وثقلت موازينه، انطلقوا به إلى الجنة. فيقول – العبد –: يارسل ربي، قفوا حتى أسأل هذا العبد الكريم على ربه، فيقول – العبد –: بأبي أنت وأمي ما أحسن وجهك وأحسن خلقك، من أنت ؟ فقد أقلت عثرتي، ورحمت عبرتي. فيقول – عليه الصلاة والسلام–: أنا نبيك محمد، وهذه صلاتك التي كنت تصلي – بها – علي، وفيتكها احوج ما تكون اليها.

وشاهدنا في هذا الحديث الشريف هو قوله: فيخرج – ﷺ – بطاقة فيلقيها في كفة الميزان اليمنى، فترجح الحسنات على السيئات، الملقاة في كفة الميزان اليسرى. فإن لفظ – بطاقة وكفة الميزان – صريحان بصحة قول الجمهور أن

---

(١) روح المعاني ٨٣/٧ وذكره القشيري في تفسيره وكذا القرطبي: تفسير القرطبي ١٦٧/٧ والتذكرة للقرطبي ص٣٦١.

الموزون هو كتب الأعمال.

٣- وسئل سيدنا رسول الله -ﷺ- عما يوزن يوم القيامة ؟ فقال: (**الصحف**)[(١)] وفي لفظ آخر قال: (**توزن صحائف الأعمال**)[(٢)].

٤- وقال سيدنا عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - توزن صحائف الأعمال[(٣)].

فمن يتأمل في هذه الادلة الواضحة، ويلقي نظرة متفحصة على الفاظها الصريحة، يجد من غير عناء أنها تدل على صحة مذهب السواد الأعظم من أهل السنة، أن المعرض للوزن مباشرة في كفتي الميزان الإلهي العادل هو الصحف والكتب التي دوّن الملائكة فيها أعمال العباد.

القول الثانـــــي:

الإنسان صاحب العمل هو الذي يوزن في الميزان[(٤)] وهو رأي عبيد بن عمير حيث قال: يؤتى بالرجل العظيم الجثة فلا يزن جناح بعوضة[(٥)]. ولم أجد أحدا وافقه عليه من العلماء فيما اطلعت عليه من كتب التفسير والكلام والحديث.

أدلة القول الثاني:

١- روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة (ض) عن رسول الله - ﷺ - قال: (انه ليأتي الرجل العظيم، السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة. اقرءوا:

(١) لوامع الانوار البهية وسواطع الاسرار الاثرية للعلامة محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي، دار الاصفهاني وشركاءه بجدة، ١٣٨٠هـ، ١٨٧/٢.

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد للامام الغزالي ص١٣٧ وشرح المواقف ٣٢١/٨ وذكره القرطبي في تفسيره سورة الأعراف الآية (٨) ١٠٧/٧ وقال: وهذا هو الصحيح وهو الذي ورد به الخبر. وذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٥٣٩/١٣.

(٣) تفسير الماوردي ١٠/٢ وتفسير القرطبي ١٦٥/٧ والتذكرة ص٣٦٤ وانظر: الايمان باليوم الآخر للاستاذ الصاغرجي ص٨٢.

(٤) تفسير الماوردي ١٠/٢ وتفسير البيضاوي ٣/٣ وشرح العقيدة الطحاوية ٦١٠/٢ وتفسير ابن كثير ٢٠٣/٢ وروح المعاني ٨٣/٧ وتفسير روح البيان ١٣٧/٣.

(٥) تفسير الماوردي ١٠/٢.

﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾[(١) - (٢)].

٢- وروى الإمام أحمد بسند حسن عن سيدنا عبد الله بن مسعود (ض): (أنه كان يجتني سواكا من – شجر – الآراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله – ﷺ –: **(مم تضحكون)**؟ قالوا: يانبي الله من دقة ساقيه، فقال: **(والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد)**[(٣)].

القول الثـــالث:

الأعمال هي التي توضع في كفتي الميزان وتوزن بنفسها، وهو قول ابن عباس[(٤)] – رضي الله عنهما – والحسن البصري والسدي[(٥)]، وابراهيم النخعي[(٦)]، وبعض العلماء[(٧)].

روي عن ابن عباس أنه قال: ان هذه الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصور عرضية، تظهر في النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها في الحسن والقبح[(٨)].

وقال الحسن البصري: ان الذي يوزن هو الحسنات والسيئات بوضع أحدهما في كفة والأخرى في كفة[(٩)].

فأعيان الأعمال في مذهبهم هي التي توزن في الميزان، ولكن كيف توزن الأعمال وهي اعراض ؟ الجواب على ذلك أن الأعمال تجسم يوم القيامة [فتصور الأعمال الصالحة بصورة حسنة نورانية، ثم تطرح في كفة النور وهي اليمنى المعدة للحسنات، فتثقل بفضل الله سبحانه وتعالى، وتصور الأعمال السيئة بصورة قبيحة ظلمانية، ثم تطرح في كفة الظلمة وهي الشمال المعدة للسيئات، فتخف بعدل الله سبحانه، ولا يمتنع قلب الحقائق

(١) الكهف: الآية (١٠٥).

(٢) صحيح البخاري مع الفتح (٤٧٢٩) ٤٢٦/٨ ومسلم بشرح النووي (٢٧٨٥) ١٣٥/١٧ ورواه ابن المنذر وابن أبي حاتم: الدر المنثور للسيوطي ٢٥٣/٤.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٤٢٠/١ والطبراني برقم (٨٤٥٢) والبزار (٢٦٧٨).

(٤) تفسير ابن كثير ٢٠٣/٢ وروح المعاني ٨٣/٧.

(٥) تفسير الماوردي ١٠/٢.

(٦) روح المعاني ٨٣/٧، دار احياء التراث العربي – بيروت –.

(٧) شرح جوهرة التوحيد ص٢٣٤ وأصول الدين الإسلامي ص٤٧٧ وتفسير ابن كثير ٢٠٣/٢.

(٨) روح المعاني للعلامة الآلوسي ٨٣/٧.

(٩) تفسير الإمام الماوردي ١٠/٢.

خرقا للعادة][(١)].

ويرى بعضهم أن الله تعالى يخلق أجساما على عدد تلك الأعمال المعروضة للوزن، من غير قلب أو تحويل لها[(٢)].

أدلة القول الثالث:

١- ذكر الحافظ ابن كثير أدلة أصحاب هذا القول، أنه جاء في الصحيح ان البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان – أو غيايتان أو فرقان من طير صواف[(٣)]. وفي قصة القرآن جاء في الصحيح أيضاً أنه يأتي صاحبه في صورة شاب، شاحب اللون، فيقول: من أنت ؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرت ليلك، وأظمأت نهارك[(٤)].

٢- وعن أبي مالك الاشعري – ﷺ – قال: قال رسول الله – ﷺ -: (**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان**)[(٥)].

٣- وعن أبي هريرة – ﷺ – قال: قال رسول الله – ﷺ -: (**كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**)[(٦)].

فمن يتأمل في قراءة هذه الادلة الصحيحة يجد صواب هذا القول.

---

(١) شرح جوهرة التوحيد ص ٢٣٤.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٥ وانظر: شرح سنن ابن ماجة للقزويني ١/١٢٠و١٢١ وحاشية العلامة السندي على سنن النسائي ٥/٦و٧ والايمان باليوم الآخر ص٨٢ وص٨٣.

(٣) رواه مسلم في فضائل قراءة القرآن ٦/٣٣٧.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٠٣.

(٥) رواه مسلم في كتاب الطهارة – باب فضل الوضوء (٢٢٣) ٣/١٠٢ والترمذي في كتاب الدعوات (٣٥١٧) ٥/٥٠١ وقال: هذا حديث صحيح والنسائي في كتاب الزكاة ٥/٥ وابن ماجة في باب الوضوء شطر الايمان (٢٧٠) ١/١٢٠ والدارمي ١/١٦٧ وأحمد ٥/٣٤٢ و٣٤٣ والطبراني (٣٤٢٣) و (٣٤٢٤).

(٦) رواه البخاري – باب فضل التسبيح (٦٤٠٦) ١١/٢٠٦ ومسلم – باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٤) ١٧/٢١ والترمذي في كتاب الدعوات (٣٤٦٧) ٥/٤٧٨ وابن ماجة – باب فضل التسبيح (٣٨٠٦) ٢/٤٢٢ و٤٢٣ والإمام أحمد في مسنده ٢/٢٣٢.

وقال الطيبي في شرحه حديث: (**خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان**): [الخفة مستعارة للسهولة، شبه سهولة جريان هذا الكلام على اللسان بما يخف على الحامل من بعض المحمولات، فلا يشق عليه، فذكر المشبه واراد المشبه به، وأما الثقل فعلى حقيقته لأن الأعمال تتجسم عند الميزان][١].

القول الرابـــــع:

علامات الأعمال هي التي توزن في كفتي الميزان،[٢] أي: موازنة الحسنات والسيئات بعلامات يراها الناس يوم القيامة[٣].

وتوضيح ذلك بصورة أخرى، ان حسنات الإنسان إذا كانت اعظم من سيئاته رجحت إحدى الكفتين على الأخرى، فكان رجحانها دليلا على أن الرجل من أهل الجنة، وكذلك إذا رجحت الكفة الأخرى السوداء على كفة الحسنات – اليمنى – كان رجحانها دليلا على ان الرجل من أهل النار[٤].

قلت: كل من تعرض لهذا الرأي في كتابه من علماء التفسير والكلام لم يتعرض إلى ذكر اصحابه ولم يبين اسم واحد قال به.

كما لم اجد أيضاً أحدا ذكر لهذا القول دليلا يمكن ان يدعمه ويقويه.

الأمر الذي جعلني افتقد وجوده في كثير من مصنفات التفسير والكلام.

ومع ذلك فإن المقصود من هذا القول كما يبدو من خلال قراءته بدقة، ان الله سبحانه وتعالى عندما ينصب الميزان يوم القيامة، يخلق بقدرته سبحانه ثقلا في كفة ميزان الفائزين، وخفة في كفة ميزان الخاسرين، فعندما يراهما الناس يعلموا من هم الفائزون الناجون، ومن هم الخاسرون الهالكون. فيكون الثقل والخفة علامتين على النجاة والهلاك من خلال الميزان، والله تعالى اعلم.

القول الخامـــــس:

الصحف والأعمال وكاسبوها، كل في وقت أو مشهد غير المشهد الآخر، وهذا

---

(١) فتح الباري ٢٠٨/١١.

(٢) حاشية رمضان افندي على شرح النسفية للتفتازاني ص٢٣٠.

(٣) تفسير الماوردي ١٠/٢.

(٤) مقالات الإسلاميين للاشعري ١٤٧/٢.

القول تفرد به ابن كثير – رحمه الله – حيث قال: يمكن الجمع بين هذه الآثار، بأن يكون ذلك كله صحيحا، فتارة توزن الأعمال، وتارة محالها – صحفها – وتارة يوزن فاعلها، والله اعلم[١].

رأي الباحـــث:

خلاصة الآراء: من أجل أن نصل نهاية الموضوع بأوله علينا أن نذكر هنا ما قيل في الموزون في الميزان من اقوال المتكلمين وآرائهم، فقد تقدم ان قالوا: صحف الأعمال، وبعضهم قال: الأعمال نفسها، وبعضهم قال: الاشخاص انفسهم، وبعضهم قال: علامات الأعمال، وبعضهم قال: الكل جائز.

المناقشة والتحليل العلمي:

لو جئنا ندرس هذه الآراء دراسة علمية دقيقة، ونلقي عليها نظرة عقلية فاحصة، مع التجرد الكامل وعدم الميل إلى قول معين، لاتضح لنا فساد مذهب القائلين بوزن الاشخاص أصحاب الأعمال انفسهم. لماذا؟ لأن الميزان – كما نعلم – كفتان، فإذا وضع صاحب العمل في أحدهما فما يوضع – اذن – في الكفة الثانية ؟ فإن قيل: يوضع في مقابلة المؤمن الكافر، قلنا: هذا مما لم يرد به دليل. وإنما جاء الدليل بوزن الأعمال كما تقدم.

- واما الحديث الأول الذي اعتمدوا عليه: (**الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة**) فمعناه: لا قدر له عند الله، لأن الوزن يأتي في اللغة بمعنى المقدار[٢] – كما تقدم في المطلب الأول – ولذلك جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾[٣] أي: لا نجعل لهم مقدارا واعتبارا[٤]. ويقول العلامة الألوسي – رحمه الله –: والخبر ليس نصا في الدعوى كما لا يخفى[٥].

واما حديث ابن مسعود – ﷺ –: (**والذي نفسي بيده لهما اثقل في الميزان من**

(١) تفسير ابن كثير ٢٠٣/٢. وانظر في: نهاية الاقدام في علم الكلام ص ٤٧٠ رأي العلامة الشهرستاني مقارنة مع نور الايمان للشيخ عبد الكريم المدرس ص١٠١.

(٢) لسان العرب، مادة: وزن ٣٣٨/١٧.

(٣) الكهف: الآية (١٠٥).

(٤) تفسير البيضاوي ٢٣٧/٣.

(٥) روح المعاني ٨٣/٧.

أحد) فمن المعلوم أن جبل أحد – على الرغم من اختصاصه بمزية عظيمة- هو وسائر الجمادات مما لا يوضع في الميزان ويوزن، حيث لم يرد دليل في هذا. اذن فالحديث جاء يوضح عظمة ابن مسعود وكبير فضله وعلو مناقبه، مستخدما أكبر الجمادات المحسوسة مثلا، مبالغة في البيان، وأكثر وقعا في النفس.

وأما قول البعض: علامات الأعمال هي التي توزن، فهذا مما يستغرب له، إذ لم يرد دليل بهذا التفسير الغريب. والعلامات أمر غير منضبط. ثم ماذا تقولون في حديث السجلات والبطاقة، وحديث: **(توزن صحائف الأعمال)** المصرحين بأن الموزون هو الصحف.

ونحن لا ننسى أن رجحان إحدى الكفتين على الأخرى انما كان لوزن شيء في كفتي الميزان، سبق ظهور هذه العلامة، فما هو هذا الشيء الموزون ؟ وإذا كان هذا الشيء هو كذا، فهو الموزون اذن، لا العلامات.

وقول البعض: الكل جائز ضعيف من وجهين: اولا: لا دليل على صحة هذه الدعوى. ثانيا: الأحاديث الشريفة – على الرغم من اختلافها في ذكر الموزون – صحف الأعمال والأعمال – حددت الموزون وعينته، ولم يرد حديث بإطلاق كل ذلك حتى يمكن حمل هذه الدعوى عليه في هذا الموضوع من السمعيات.

فلم نجد في هذه الاقوال الثلاثة قولاً معتدلاً، يمكن أن يرتقي إلى مقام الوسط الذي نبحث عنه، ونسعى من أجل الوصول اليه. لكن بقي بين أيدينا قولان، يحتمل أن يكون أحدهما هو الوسط من بين هذه الآراء. الأول: هو الأعمال نفسها، والثاني: هو صحف الأعمال. ولندرس كل واحد منهما بدقة علمية وتأمل عقلي.

أما الأول فمعناه أن أعمال الإنسان تظهر كلها يوم القيامة مجسمة، مصورة بصور عديدة فيزن الله تعالى تلك الصور بميزانه العادل.

وقيل في تفسيره قول ثان والأول هو الأكثر الذي مشى عليه أصحاب هذا القول. فإذا جئت إلى العقل وأخذت رأيه فيما قيل، تجده يجوز ذلك ولا يمنعه، لأن قلب الاعراض أجساما وصورا ممكن من الممكنات، وقدرة الله تعالى تتصرف في جميع الممكنات، وتتحكم في جميع المقدورات. فلا يقف في طريقها مانع، ولا يمنعها رادع[1]. لكن لأن هذه مسألة

---

(١) ونحن لسنا مع العلامة القرطبي – رحمه الله – عندما قال: [ومن المتكلمين من يقول: ان الله تعالى يقلب الاعراض اجساما فيزنها يوم القيامة، وهذا ليس بصحيح عندنا، والصحيح أن الموازين =

إسلامية فلابد اذن من دليل نقلي، ويجب في هذا الدليل أن يكون نصا في المسألة، صريحا فيها. فإذا جئت تدرس أدلة هذا القول وتتأمل في دلالتها على صحة القول، سجلت ما يأتي:

١- الدليل الأول وهو أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، وأن القرآن يأتي صاحبه في صورة شاب. فهذا وان كان صحيحا سنداً ومتنا، غيرأنه ليس نصا في أن الأعمال هذه أو غيرها هي التي سوف توضع في إحدى كفتي الميزان وتوزن، وإنما هو مجرد اشارة إلى جواز أن تأتي الأعمال مجسمة في صور متنوعة لصاحبها يوم القيامة. فأين الدلالة في هذا الدليل على أن هذه المجسمات من الأعمال هي التي سوف توضع في إحدى كفتي الميزان وتوزن.

٢- واما حديث النبي - ﷺ -: (**الحمد لله تملأ الميزان**) فهو مجاز مرسل[(١)] معناه: أن ثواب هذه العبادة يملأ صحف الميزان، لا الميزان عينه.

والعلاقة هنا بين المعنى المنقول عنه والمعنى المنقول إليه علاقة محلية، وذلك فيما إذا ذكر لفظ المحل اريد به لفظ الحال فيه، كقوله تعالى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾[(٢)] والمراد هو من يحل في النادي، لا عين النادي.

وكقوله تعالى أيضاً: ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم ﴾[(٣)] فالمراد: يقولون بألسنتهم لماذا؟ لان، القول لا يكون عادة إلا بها. فالقرآن اذن ذكر هنا لفظ المحل لكنه أراد الحال لما بينا، وكذلك حضرة الرسول الأعظم -ﷺ- ذكر لفظ المحل وهو الميزان ولكنه أراد الحال وهو الصحف لماذا ؟ لأن الصحف عادة إذا أريد وزنها

تثقل بالكتب التي فيها الأعمال مكتوبة]. تفسير القرطبي ١٦٥/٧ وذلك إن أراد بقوله ليس بصحيح عندنا: أي ليس بممكن.

(١) المجاز المرسل: هو الكلمة المستعملة قصدا في غير معناها الاصلي لملاحظة علاقة غير المشابهة، مع قرينة دالة على عدم ارادة المعنى الوضعي. وسمي مرسلا لاطلاقه عن التقييد بعلاقة واحدة مخصوصة، بل له علاقات كثيرة. والقصد من العلاقة هو تحقق معنى الارتباط: جواهر البلاغة للسيد أحمد الهاشمي ص٢٩٢.

(٢) سورة العلق: الآية (١٧).

(٣) سورة آل عمران: الآية(١٦٧).

توضع في الميزان وهي التي تكتب فيها الأعمال.

٣- وأما قوله -ﷺ-: (**ثقيلتان في الميزان**) فيقال في تفسيره ما قيل آنفا في تفسير (الحمد لله تملأ الميزان). فهو مجاز مرسل أيضاً، ومعناه: ثقيلتان في صحف الميزان، لأن الصحف هي محل تدوين الأعمال، قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾[1].

فالصحف أو الكتب هي محل ثقل الأعمال وخفتها، والموازين هي محل ثقل الكتب وخفتها، والله تعالى أعلم.

فنخلص إلى أن أدلة هذا القول ليست نصا في المسألة كما رأيت. ولم يبق في جعبتنا إلا القول الثاني وهو: صحف الأعمال. فإذا سلكنا في دراسة أدلته ما سلكناه في أدلة القول، تبين لنا أنه هو القول الوسط. وذلك لعدة اسباب.

١- قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ...﴾[2].

الميزان – كما نعلم – بعد الحساب،والحساب على الأعمال يكون بقراءة الكتاب الذي سجلت الملائكة فيه الأعمال، والأعمال اعراض لا جواهر، والاعراض لا تنفك عن الجواهر بل هي ملازمة لها، وكل هذه الأمور حقائق لم يختلف فيها اثنان من العقلاء. فلو أمكن للبشر رؤية الاعراض من غير جواهر لرأى الإنسان أعماله أثناء الحساب وقرأها من غير كتاب. والقرآن يقول: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ...﴾ ولم يقل: اقرأ عملك أو انظره.

٢- الحكمة من الميزان هو اظهار العدل الإلهي للمخلوق، لأن الله سبحانه وتعالى أعلم بأعمال المخلوق بعلمه القديم الازلي. فهو غني عن الميزان. ولن يتم للمخلوق معرفة العدل الإلهي وفضله ورؤيته إلا إذا كان الميزان جسما محسا، وبما أن الميزان المحسوس يزن الاجسام المحسوسة، والأعمال اعراض لا أجسام،

---

(١) الإسراء: الآيتان (١٣-١٤).

(٢) الإسراء: الآيتان (١٣-١٤).

اذن فالميزان لا يزن الأعمال بمفردها وهي مستقلة بذاتها، إلا وهي مكتوبة في صحفها وسجلاتها وكتبها.

٣- اذا كان لا يمكن للانسان قراءة اعماله ورؤيتها من غير ان تكون مدونة في كتاب – كما تقدم – لأنها اعراض[(١)] فكيف يمكنه رؤيتها في الميزان ليرى عدل الله تعالى وانعامه. فانعدام الرؤية في الحساب يستلزم انعدامها في الميزان، وبانعدامها تنعدم الحكمة من وزن الأعمال، تعالت أفعاله سبحانه عن العبث والسفه.

٤- الميزان نوعان: معنوي وحسي، ودليل الأول قوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾[(٢)] أي: بميزان الحكمة. وهو ثابت في تفكير الإنسان عندما يوازن بين صلاح الفعل الفلاني ومفسدته مثلا. وكثيرا مايستخدم هذا الميزان الفقهاء في دراسة الواقعة، لتقرير حكم شرعي، يراعي الصالح العام.

ودليل الحسي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ ﴾[(٣)]. والفرق بينهما أن الأول واسطة ادراكه الفكر والبصيرة، والثاني واسطة ادراكه إحدى الحواس.

فإذا جئنا لدراسة الأعمال وجدناها اعراضا غير محسة، فهي اذن لا توزن بالميزان الحسي لاختلاف الحقيقتين، وبما أن ميزان الأعمال ثبتت بالادلة المعتبرة حسيته، فلابد اذن من وزنها وهي في بيت محسوس، ولا يكون ذلك البيت إلا الصحف والسجلات وهو المطلوب.

٥- وجدت في صحيح الإمام مسلم – رحمه الله – حديثا يؤكد أن الصحف هي محل الحسنات والسيئات. فقد قال سيدنا رسول الله – ﷺ –: (**يدني المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف، فيقول: أي رب أعرف، قال: فاني قد سترتها عليك في الدنيا وإني**

(١) وهذا لا يتعارض مع رؤية بعضها مجسمة مصورة كما ورد في بعض الأحاديث الشريفة، لأن الغرض من كلامنا هو رؤية كل الأعمال، ولكل المخلوقين. مع احتمال جواز رؤيتها مصورة وهي داخل الكتب مدونة.

(٢) الحجر: الآية (١٩).

(٣) المطففين: الآية (٣).

اغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته)[١].

قال القرطبي: فقوله: (فيعطى صحيفة حسناته) دليل على أن الأعمال تكتب في الصحف وتوزن[٢].

الموضوع من الناحية الفكرية:

من خصائص الإسلام الواقعية. فالواقعية هي أحد انظمة الإسلام الذي تميز بصفاته العلية عن بقية الاديان الأخرى. لذلك نجده يتعامل مع الحقائق الموضوعية، ذات الوجود الحقيقي المستيقن، والاثر الواقعي الايجابي، وليس له أي تعامل مع التصورات العقلية المجردة، والنظريات الفلسفية المعقدة، ولا تربطه بالأمور المثالية التي لا وجود لها في واقع الحياة أي رابطة.

فهو يتعامل ويتفاعل مع الحقيقة الكونية، ويسبح في اسرارها، ويغوص في اعماقها، ويتعامل ويتفاعل مع الحقيقة البشرية الإنسانية، فيلبي حاجاتها الروحية ويستجيب لرغباتها الجنسية، فهو اذن يعطي كل ذي حق حقه، من غير زيادة ولا بخس، وهذه مميزات الوسطية الإسلامية.

فعندما يقول لنا الإسلام: الأعمال تكتب في الكتب، ثم توضع هذه الكتب في ميزان، له كفتان ولسان، لمعرفة الراجح من الحسنات والسيئات، لا حاجة إلى أن نتكلف في فهم الميزان ونضغط على عقولنا فنجبرها على معرفة المادة أو الشيء الذي خلق الله تعالى منه الميزان، ولونه الذي سوف يظهر به، وما إلى ذلك من الأمور التي لا يبنى عليها أي تكليف، ولا يضر الاعتقاد بها أو عدمه شيئا من أصول العقيدة والإيمان. بل علينا أن نعتقد بصحة هذه الحقيقة، اكتفاء بما فهمناه من ظاهر هذه الالفاظ. ثم ننطلق بعد ذلك لنرسم صورة شمولية، وننظر نظرة بعيدة إلى هذا المشهد العظيم.

ان وقوف الإنسان في تلك الساعة امام الميزان الإلهي العادل، وجها لوجه، يراقب حسناته في كفته اليمنى، وينظر إلى سيئاته في كفته اليسرى، والاهوال المخيفة تحيط به من حوله، والزبانية من خلفه ينتظرون نتيجة الميزان وينظرون، وهناك اصوات مرعبة، وصيحات العذاب المخيفة، ونيران تلتهب، وسياط تضرب، وظلمات حالكة،

(١) صحيح مسلم – كتاب التوبة – (٢٧٦٨) ١٧/٩٣و٩٤.

(٢) تفسير القرطبي ٧/١٦٥ و١٦٦.

وكتل نارية تتساقط، وخوف قاتل، وقلق مخيف، وانتظار مميت.

انه مشهد خطير حقا، ووقوف مذعر فعلا عندما يقفه الإنسان ليسمع العدل والقضاء. فالإيمان بالميزان وهو ظاهر للناس في هذه الصورة وسيلة من وسائل ردعهم عن القدوم على شرب الخمر وسرقة الاموال وسائر المعاصي والمظالم الأخرى. ودوام تذكره وهو بهذه الرؤية يدفعهم إلى الصالحات من الأعمال. فهو اذن منهج قويم، لتقويم اخلاق المجتمع وتصرفات ابنائه. الذين يشهدون اليوم عصر التقدم العلمي السريع، عصر التكنولوجيا والشبكات الفضائية.

وهذا العصر الحديث الذي اكتشف فيه العلماء موازين عديدة، موازين لمعرفة درجة حرارة الجو وبرودته، وموازين أخرى لقياس الطاقة الكهربائية، وموازين للماء، وموازين لاتجاه الرياح وضبط سرعتها ومعرفة سقوط الامطار، وموازين لضغط الدم ومعرفة العالي والواطي أو المرتفع والمنخفض، وموازين كهربائية دقيقة لتشخيص مخارج الحروف وتحديدها. وغيرها من الموازين الأخرى التي لم نسمع بها إلى حد الان. فلا يبعد اذن أن يخلق الله تعالى، بقدرته المطلقة، ميزانا خاصا لوزن اعمال الإنسان، لائقا بها، مناسبا لها. والله تعالى أعلم.

اللهم ثقل بالحسنات ميزاننا، وأملأ بالصالحات سجلاتنا، واحفظنا من فضيحة ذلك اليوم، وسلمنا من حرج تلك الساعة، وبيض وجوهنا يوم نلقاك ونلقى نبيك سيدنا محمدا ﷺ آمين، يارب العالمين، يا أرحم الراحمين.

المبحث الثاني
النفخ في الصور

مقدمة:

لقد ذكر لنا القرآن الكريم أول مشهد من مشاهد يوم القيامة وهو النفخ في الصور، وصور لنا موقف الناس وشدة فزعهم، وشدة قلقهم وخوفهم، وشدة اضطرابهم وحيرتهم من هول هذا الحدث العظيم، والمشهد الخطير. فقال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ(١) وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾(٢)، أي: راغمين أو مطيعين.

ويصور لنا القرآن الكريم حال الأرض والجبال عند النفخ في الصور فيقول: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾(٣). ويوضح لنا أيضاً بعث الناس من قبورهم عندما يأمر الجليل سبحانه بالنفخ فيقول: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾(٤). ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾(٥).

ويحدد لنا القرآن الكريم حشر المجرمين يوم القيامة على أثر النفخ في الصور، ويرسم لنا بألفاظ بلاغية دقيقة تلك الصورة العظيمة، فيقول: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾(٦) يقول الشهيد سيد قطب – رحمه الله –: [يرسم – القرآن الكريم _ للمعرضين عن هذا الذكر ويسميهم المجرمين، مشهدا في يوم القيامة، فهؤلاء المجرمون يحملون أثقالهم كما يحمل المسافر أحماله. ويا لسوئها من احمال ! فإذا

---

(١) قوله: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ استثناء متصل. وذهب كثير من المفسرين إلى أن أصحاب هذا الاستثناء هم جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل: روح المعاني ٢٠/٣٣.

(٢) النمل: الآية (٨٧). (٣) الحاقة: الآيتان (١٣-١٤).

(٤) يس: الآية (٥١). (٥) الكهف: الآية (٩٩).

(٦) طه: الآية (١٠٢).

نفخ في البوق للتجمع فالمجرمون يحشرون زرق الوجوه من الكدر والغم. يتخافتون بينهم بالحديث، لا يرفعون به صوتا من الرعب والهول، ومن الرهبة المخيمة على ساحة الحشر][1].

اذن عندما يقول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾[2] وعندما يقول: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[3]، علينا أن ندرك بعقولنا وبصائرنا أن هذه الحياة التي غرت المجرمين والغافلين واللاهين ليست بشيء، وهي تنتهي بنفخة واحدة، فإذا بها كأن لم تكن بالامس.

سبحان الله، سبحانك ياعظيم، نفخة واحدة فإذا بالفزع قد بلغ من كل نفس منتهاه، ونفخة أخرى فإذا جميع الناس بل الخلق كله أجساد بلا أرواح، ثم نفخة ثالثة فإذا هم قيام ينظرون. فأي قدرة عظيمة كبيرة هذه، وأي جهل أعظم من جهل من أعرض عن ربه سبحانه واغتر بقوته، ونسي أنه يموت بنفخة، ويحيا بنفخة.

وبعد هذه المقدمة الجميلة الموجزة، أقول: اختلف علماء الكلام — رحمهم الله تعالى — في عدد النفخات التي تنفخ في الصور يوم القيامة. وقبل أن ندخل في تفصيل هذه المسألة وتوضيحها، علينا أن نعرف شيئين مهمين حتى تكون جميع تحركاتنا على بصيرة وهدى. والشيئان المراد معرفتهما هما — النفخ والصور —.

النفخ لغة:

قال الراغب الاصفهاني: [النفخ: نفخ الريح في الشيء.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾[4] ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾[5] ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾[6]. وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ ﴾[7]. ومنه نفخ الروح في النشأة الأولى][8].

---

(١) في ظلال القرآن ١٦/٩٩.

(٢) النبأ: الآية (١٨).

(٣) المؤمنون: الآية (١٠١).

(٤) طه: الآية (١٠٢).

(٥) يس: الآية (٥١).

(٦) الزمر: الآية (٦٨).

(٧) المدثر: الآية (٨).

(٨) المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة، بيروت، ص ٥٠٠.

ونفخ بفمه نفخا: اخرج منه الريح. ويقال: نفخ في البوق أو اليراع أو نحوهما: بعث فيه الريح بقوة من فمه ليحدث صوتا[١].

وقال العلامة البروسوي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾: [النفخ: نفخ الريح في الشيء، ونفخ بفمه أخرج منه الريح][٢].

النفخ اصطلاحا:

هو النفخ المخصوص، في الوقت المخصوص، من الملك المخصوص، لايجاد ما أراد الله تعالى، كما جاء في كتاب الله تعالى وسنة نبيه - ﷺ -[٣]. والمراد بالوقت المخصوص يوم القيامة، والمراد بالملك المخصوص سيدنا اسرافيل - عليه السلام- كما سيأتي الحديث في ذلك ان شاء الله تعالى.

الصـــــور:

النفخ يكون في الصور. والصور هو القرن الذي ينفخ فيه[٤]. وقيل فيه غير ذلك والأول هو الراجح الذي اعتمده جمهور المفسرين والمتكلمين، وصوبه الإمام الطبري[٥]، وصححه الإمام الرازي[٦]، وأيده الإمام الحافظ ابن كثير حيث قال في تفسير آية الانعام: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾[٧]: [والصحيح أن المراد بالصور: القرن الذي ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام][٨].

وقال البروسوي - رحمه الله -: [الصور: هو القرن الذي ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام للموت والحشر، فكأن أصحاب الجيوش من ذلك اخذوا البوقات لحشر الجند][٩].

واستطاع العلامة الماوردي - رحمه الله - أن يذكر لنا في تفسيره ثلاثة أقوال في

---

(١) المعجم الوسيط ٩٣٨/٣ مادة: نفخ وانظر: اساس البلاغة للعلامة الزمخشري بتحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩-١٩٧٩، ص٤٦٦.

(٢) تفسير روح البيان ٣٧٥/٦.

(٣) الحياة الآخرة: ١٨٤/١.

(٤) جامع البيان للطبري ٢٤١/٧ وأصول الدين الإسلامي ٤٥٩.

(٥) جامع البيان ٢٤١/٧.

(٦) تفسير الإمام الرازي ٣٤/١٣.

(٧) الأنعام: الآية (٧٣).

(٨) تفسير ابن كثير ١٤٧/٢.

(٩) تفسير روح البيان ٣٧٥/٦.

تفسير الصور وتعريفه. أحدها: أن الصور جمع صورة، والنفخ فيها اعادة الارواح اليها(١). الثاني: أنه شيء ينفخ فيه كالبوق، يخرج منه صوت، يحيا به الموتى. الثالث: أنه مثل ضربه الله تعالى لاحياء الموتى، في وقت واحد، بخروجهم فيه كخروج الجيش إذا انذروا بنفخ البوق، فاجتمعوا في الخروج وقتا واحدا(٢).

والراجح من هذه الاقوال هو الثاني، وهو أن الصور هو القرن – كهيئة البوق- وسيدنا اسرافيل – عليه السلام – واضع فاه عليه، شاخص بصره نحو العرش، ينتظر متى يؤمر وينفخ فيه.

ونقل الإمام الغزالي – رحمه الله – في احيائه قول مقاتل: - [الصور هو القرن، وذلك ان اسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق، ودائرة راس القرن كعرض السماوات والأرض](٣).

قلت: ويؤيد ما ذهب إليه الجمهور في تعريف الصور حديث سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص الذي رواه الترمذي في سننه، قال: جاء أعرابي إلى النبي – ﷺ – فقال: ما الصور ؟ فقال: (قرن ينفخ فيه) قال أبو عيسى – الترمذي -: هذا حديث حسن(٤).

وروى الترمذي أيضاً عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ -: (**كيف انعم وصاحب القرن** – اسرافيل – **قد التقم القرن، واستمع الاذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ**) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن(٥).

عدد النفخات:

وبعد ان عرفنا معنى النفخ لغة واصطلاحا، وعرفنا معنى الصور الذي ينفخ فيه اسرافيل – عليه السلام – بأمر من حضرة الجليل – جل جلاله وعم نواله – ندخل الآن في موضوع عدد النفخات التي سوف يؤمر اسرافيل بنفخها في الصور. فقد

---

(١) وقد ذكر الإمام الرازي هذا القول في تفسيره ورد عليه ٣٤/١٣.

(٢) تفسير الماوردي ٢١٢/٣.

(٣) احياء علوم الدين ٤٦٨/٤.

(٤) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الصور، برقم (٢٤٣٠) ٥٣٦/٤ وأبو داود في كتاب السنة، باب في ذكر البعث والصور برقم (٤٧٤٢) ٢٣٦/٤.

(٥) سنن الترمذي، باب ما جاء في شأن الصور، (٢٤٣١) ٥٣٦/٤.

اختلف العلماء – رحمهم الله تعالى – في تحديد عدد النفخات: فمنهم من يقول انها اثنتان، ومنهم من يقول انها ثلاثة، والذين قالوا انها اثنتان فهموا أن نفخة الصعق هي نفخة الفزع نفسها، بينما الذين قالوا انها ثلاثة اعتقدوا أن نفخة الصعق مستقلة عن نفخة الفزع، لذلك قالوا انها ثلاث نفخات. وإليك الآن بيان كل قول ودليله.

القول الأول:

ان النفخ في الصور نفختان، نفخة الفزع، ونفخة البعث، واما الصعق فإن نفخة الفزع هي نفسها نفخة الصعق، لأن الأمرين لا زمان لهما، أي فزعوا فزعا ماتوا منه. وهذا القول ذهب إليه عدد كبير من المفسرين والمتكلمين، منهم الحسن البصري(١)، والشيخ القشيري(٢) والإمام البغوي(٣)، والعلامة الزمخشري(٤) والبيضاوي(٥)، والقرطبي(٦) والبرديسي(٧)، والشعراني(٨)، والبيجوري(٩)، وغيرهم(١٠).

وذكر القرطبي أن السنة المطهرة دلت على انهما نفختان لا ثلاث، وهو الصحيح ان شاء الله تعالى(١١). والصور: قرن من نور، يجعل فيه الارواح، فيه من الثقوب على عدد أرواح الخلائق، فإذا نفخ فيه إسرافيل النفخة الثانية ذهب كل روح إلى جسده:

---

(١) التذكرة للقرطبي ١/٢٠٩.
(٢) فتح القدير للشوكاني ٤/١٥٤و١٥٥.
(٣) تكملة شرح الصدور ص ٤ نقلا عن الحياة الآخرة ١/١٩١.
(٤) الكشاف للزمخشري ٣/٤٠٩.
(٥) تفسير البيضاوي ٤/١٢٢.
(٦) التذكرة ١/٢٠٩ وروح المعاني ٢٠/٣١ وأصول الدين الإسلامي ص ٤٦١.
(٧) تكملة شرح الصدور ص ٤ نقلا عن الحياة الآخرة ١/١٩١.
(٨) اليواقيت والجواهر ٢/١٥١ و ١٥٢.
(٩) حاشية العلامة ابراهيم البيجوري على متن السنوسية ص ٤٩.
(١٠) تنوير القلوب للعلامة الكردي ص٦٦ والحصون الحميدية للشيخ الطرابلسي ص١٢٨ ومواهب الرحمن ٦/٢١٣ ونور الايمان ٨٨ والإيمان باليوم الآخر ص ٥٣-٥٤.
وتفسير الماوردي ٣/٤٧٤.
(١١) التذكرة ١/٢٠٩.

﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ أي: يخرجون سراعا[١].

وقوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ...﴾[٢] أي: خر ميتا من كان حيا وقتئذ، أو خرّ مغشيا عليه من كان قد مات، فالحي وقتئذ يموت، والميت وهم الارواح التي في البرزخ يغشى عليها، من شدة النفخة، وهول المشهد، ورعب الصورة، فصعق: ﴿ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ وهم جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل ملك الموت، فإنهم لا يموتون عند النفخة الأولى كغيرهم من الملائكة، ثم يأمر الله تعالى عزرائيل بقبض جبريل وميكائيل واسرافيل وباقي الملائكة، ثم يأمره بالموت فيموت. وعندئذ يقول الله تعالى: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ثلاث مرات، فلا يجيب أحد فيقول سبحانه: ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[٣]. ثم يحيي سبحانه الملائكة من جديد قبل النفخة الثانية[٤]. وبعد مضي زمان طويل – والخلائق موتى – ينفخ اسرافيل في الصور مرة أخرى فيبعث الله تعالى الموتى من قبورهم، ويحشرهم إلى الموقف[٥].

وذكر الشيخ الشعراني – رحمه الله – أن إسرافيل ينفخ في الصور مرتين، الأولى نفخة الصعق، والثانية نفخة الاحياء، تسمى أحدهما الراجفة والأخرى الرادفة. وبين النفختين يأمر الله تعالى عزرائيل أن يقبض روح جبريل وميكائيل واسرافيل ثم يقول الله تعالى له: مت فيموت، وحينئذ يعم الهمود والخمود اربعين سنة، فلا يبقى في الكون حي إلا الحي الذي لا يموت، ثم يحيي الله اسرافيل فينفخ النفخة الثانية كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[٦][٧].

ونفخة اسرافيل الثانية هي أول حدث من اليوم الآخر أي اوله، وهي نفخة البعث وهو احياء الابدان من القبور[٨] وقبل هذه النفخة، وقبل أن يحيي الله تعالى

(١) التذكرة ٢٠١/١. (٢) الزمر: الآية (٦٨).

(٣) غافر: الآية (١٦).

(٤) تنوير القلوب ص٦٦ وانظر: تفسير ابن كثير ٦٤/٤.

(٥) الحصون الحميدية ص١٢٨. (٦) الزمر: الآية (٦٨).

(٧) اليواقيت والجواهر ١٥١/٢–١٥٢ وانظر: تفسير ابن كثير ٦٤/٤.

(٨) حاشية البيجوري على متن السنوسية ص٤٩.

الملائكة يُنزل الله تعالى على الناس وهم في قبورهم ماء من تحت العرش، يقال له: ماء الحياة – كمني الرجال[١]- فتمطر السماء على الناس أربعين سنة حتى يكون الماء من فوقهم اثني عشر ذراعا، ثم يأمر الله عز وجل الاجساد فتنبت كنبات الطراثيث وكنبات البقل، حتى إذا تكاملت أجساد الناس فكانت كما كانت، يقول الله عز وجل: ليحيى حملة العرش، فيحيون، ثم يقول: ليحيى جبريل وميكائيل واسرافيل فيأمر الله اسرافيل فيأخذ الصور، ثم يدعو الله تعالى الارواح فيؤتى بها، تتوهج أرواح المسلمين نورا والأخرى –أي أرواح الكافرين – مظلمة، فيأخذها الله تعالى فيلقيها في الصور، ثم يقول لاسرافيل: انفخ نفخة البعث فينفخ فتخرج الارواح كلها كأمثال النحل، قد ملات ما بين السماء والأرض[٢].

قلت: وهذه المشاهد كلها مذكورة في حديث نبوي شريف عن علي بن معبد عن أبي هريرة – ﷺ – قال: حدثنا رسول الله – ﷺ – ثم ساق الحديث بطوله. كما ذكره القرطبي في التذكرة[٣].

أدلة القول الأول:

١- قالوا: الصعق هو غير الموت، بدليل قوله تعالى في حق سيدنا موسى – عليه السلام-: ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾[٤] مع أنه لم يمت. فهذا هو النفخ الذي يورث الفزع الشديد، وعلى هذا التقدير فالمراد من نفخ الصعقة ومن نفخ الفزع واحد، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[٥]. وعلى هذا القول فنفخ الصور ليس إلا مرتين[٦].

قلت: وممن فسر الصعق بأنه غير الموت وأنه عبارة عن الغشي ابن عباس

(١) حاشية البيجوري ص٤٩.

(٢) التذكرة ١/٢٠٤-٢٠٥ وانظر: لوامع الانوار البهية ٢/١٦١ ومابعدها.

(٣) التذكرة ١/٢٠٤-٢٠٥ وانظر: لوامع الانوار البهية ٢/١٦١ ومابعدها.

(٤) الأعراف: الآية (١٤٣).

(٥) النمل: الآية (٨٧).

(٦) تفسير الإمام الرازي ١٨/٢٧.

والحسن وقتادة – في رواية[١] – وابن قتيبة في غريب القرآن[٢] وابن منظور[٣] والقرطبي[٤]، وغيرهم[٥].

قال ابن منظور: [وقوله تعالى: ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ فإنما هو غشي، لاموت لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ ولم يقل: فلما نشر. وقيل: إنه خر ميتا، وقوله: فلما أفاق، دليل على الغشي لأنه يقال للذي غشي عليه، والذي ذهب عقله: قد أفاق][٦].

وسوف اذكر – ان شاء الله تعالى – في أدلة القول الثاني الذين قالوا: ان الصعق هو الموت.

٢- وعن أبي هريرة – ﷺ – قال: قال رسول الله –ﷺ –: (**مابين النفختين أربعون**) قالوا: ياأبا هريرة أربعون يوما ؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهرا ؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة ؟ قال: أبيت. ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل..)[٧] ومعنى أبيت: أي أبيت أن أجزم أن المراد أربعون يوما أو سنة أو شهرا، بل الذي أجزم به أنها أربعون مجملة، وقد جاءت مفسرة من رواية غيره، في غير مسلم انها أربعون سنة[٨].

٣- وروى ابن المبارك عن الحسن قال: قال رسول الله – ﷺ –: (**بين النفختين أربعون سنة، الأولى: يميت الله تعالى بها كل حي، والأخرى: يحيى الله بها كل ميت**)[٩].

(١) تفسير القرطبي ٢٧٩/٧ والدر المنثور للسيوطي ٥٤٥/٣ ومختصر تفسير الإمام الطبري ١٣٧ و١٣٨.

(٢) تفسير غريب القرآن لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، بتحقيق السيد أحمد صقر، دار احياء الكتب العربية، ١٣٧٨هـ – ١٩٥٨م، ص ١٧٢ وذلك في آية الأعراف ١٤٣.

(٣) لسان العرب مادة: صعق ١٩٨/١٠.

(٤) تفسير القرطبي ٢٧٩/٧.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣٧٣/٢ والحياة الآخرة ١٩٧/١.

(٦) لسان العرب مادة: صعق ١٩٨/١٠.

(٧) صحيح مسلم – كتاب الفتن وأشراط الساعة – باب ما بين النفختين – (٢٩٥٥) ٣٠٣/١٨.

(٨) شرح النووي على صحيح مسلم ٣٠٣/١٨.

(٩) التذكرة للقرطبي ٢٠٩/١.

٤- قالوا: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾[(١)] دليل على أن النفخ نفختان، لأن كلمة – أخرى – لا تقال إلا للثانية[(٢)].

٥- واعتمد القرطبي في قوله: انها نفختان. على حديث سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – وهو حديث طويل، قال فيه سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: **(ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا اصغى لِيْتا ورفع لِيْتا)** قال **(وأول من يسمعه رجل يلوط حوض ابله فيصعق ويصعق الناس)** قال **(ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون)**[(٣)].

قال النووي –رحمه الله –: الليت بكسر اللام صفحة العنق وهي جانبه، وأصغى: أمال. ومعنى قوله: يلوط حوض ابله: أي يطينه ويصلحه[(٤)].

القول الثاني:

ان النفخ في الصور ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث والقيام لله تعالى رب العالمين. وهذا هو قول سيدنا أبي هريرة[(٥)] – رضي الله عنه – والطبري[(٦)]، والرازي[(٧)]، وصاحب البحر المحيط[(٨)]، وابن العربي[(٩)] والحافظ ابن كثير[(١٠)]، والعلامة الشوكاني[(١١)] والعلامة ابن الكمال والآلوسي[(١٢)]، والاستاذ

(١) الزمر: الآية (٦٨). (٢) تكملة شرح الصدور ص٤.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب في خروج الدجال، (٢٩٤٠)١٨/٢٨٨و٢٨٩.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ١٨/٢٨٩ و٢٩٠.

(٥) تفسير الطبري ٢٤/٣٠، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط٣، ١٣٨٨هـ–١٩٦٨م والبحر المحيط ٧/٩٩ وصفوة التفاسير ٢/٤٢٠.

(٦) تفسير الطبري ٢٤/٣٠ و٣١.

(٧) تفسير الرازي ٢٧/١٨.

(٨) البحر المحيط ٧/٩٩ و١٠٠.

(٩) التذكرة ١/٢٠٩ وروح المعاني ٢٠/٣١ وأصول الدين الإسلامي ص٤٦٠.

(١٠) تفسير ابن كثير ٣/٣٧٨.

(١١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية وعلم التفسير، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ٤/١٥٤و١٥٥ وانظر: ص١٤٩ منه.

(١٢) روح المعاني ٢٠/٣١.

الصابوني[١]، وغيرهم[٢].

والقول انها ثلاث هو قول أكثر أهل العلم[٣].

قلت: وهو قول كل من فرّق بين الصعقة والفزع، وقال: الصعقة أو الصاعقة هي الموت، كمقاتل وأبي اسحاق[٤]، والزجاج[٥]، وابن قتيبة[٦]، وقتادة في رواية[٧].

وذكر الماوردي في تفسيره أن تفسير الصعق بالموت هو قول جمهور العلماء[٨].

قال سيدنا أبو هريرة -رضي الله عنه-: ان الملك - اسرافيل - له في الصور ثلاث نفخات: نفخة الفزع وهو فزع الحياة الدنيا وليس بالفزع الأكبر، ونفخة الصعق، ونفخة القيام من القبور[٩].

وذكر الإمام الرازي القول الثاني في تفسير الصعقة، أنها عبارة عن الموت، والقائلون بهذا القول قالوا: ان الناس يموتون من الفزع وشدة الصوت، وعلى هذا التقدير فإن النفخة تحصل ثلاث مرات: أولها: نفخة الفزع والثانية: نفخة الصعق والثالثة: نفخة القيام[١٠].

وقال العلامة الآلوسي في تفسير آية النمل: ٨٧: [اعلم أنهم اختلفوا في عدد النفخة، فقيل: ثلاث: نفخة الصعق المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن

---

(١) صفوة التفاسير، دار القلم، بيروت، ط٥، ١٤٠٦-١٩٨٦، ٢/٤٢٠.

(٢) الإيمان باليوم الآخر للاستاذ الصاغرجي ص٥٣.

(٣) الحياة الآخرة للدكتور عواجي ١/١٨٧.

(٤) لسان العرب مادة: صعق ١٠/١٩٨.

(٥) معاني القرآن واعرابه لابي اسحاق ابراهيم بن السري الزجاج، تعليق وتحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م،٤/٣٦٢.

(٦) تفسير غريب القرآن ص٣٨٤ وذلك في آية الزمر: ٦٨.

(٧) الدر المنثور للسيوطي ٣/٥٤٧.

(٨) تفسير الماوردي٣/٤٧٤.

(٩) البحر المحيط ٧/٩٩ والجواهر الحسان للثعالبي ٣/١٦٧و١٦٩ وتفسير القرطبي- دار الكتاب العربي ١٣:٢٣٩و٢٤٠.

(١٠) تفسير الإمام الرازي ٢٧/١٨و١٩.

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾[١]، ونفخة البعث المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾[٢]، ونفخة الفزع المذكورة في الآية المذكورة ههنا – وهي قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ – وهو اختيار ابن العربي][٣].

وصحح ابن الكمال – رحمه الله- هذا القول، فقال: [والصحيح عندي ما في القول الأول – ثلاث نفخات – من أن نفخة الفزع غير نفخة الصعق][٤].

زيادة بيان وتوضيح:

سبحان الله الخلاق العظيم، الذي جعل في الصور ثلاث نفخات مذهلات،عظيمات.

اولا: نفخة الفزع: وبهذه النفخة المرعبة يتغير كل شيء في هذا العالم، فيفسد نظامه، وتتبدل قوانينه، ويدخل النهار في الليل والليل في النهار، فيخاف كل مخلوق سواء كان من أهل السماء أو من سكان الأرض، ويدخل الذعر والخوف والارتجاف في نفس كل واحد منهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[٥].

وتجدر الاشارة هنا إلى أن خلافاً واسعا وقع بين العلماء في تحديد المستثنى من فزع وخوف النفخة الأولى وهي نفخة الفزع. فقال بعضهم المستثنى من أثر نفخة الفزع: الملائكة عموما، ومنهم من قال: جبريل وميكائيل وعزرائيل، وقيل: هم الأنبياء، وقيل: هم حملة العرش، وقيل: هم الشهداء.ولو جئت تدرس قول من حدد المستثنى بحملة العرش وتأملت في مكان العرش، لوجدته ضعيفا، لماذا ؟ لأن حملة العرش ليسوا من سكان السماوات والأرض لأن العرش – كما هو معلوم – فوق السماوات كلها، فكيف يكون حملته في السماوات ؟ والآية الكريمة صريحة في أن الفزع من سماع النفخة الأولى يذعر من كان في

---

(١) الزمر: الآية (٦٨).
(٢) يس: الآية (٥١).
(٣) روح المعاني ٣١/٢٠.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) النمل: الآية (٨٧).

السماوات: ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ لا من هو في اعلى من السماوات.

وأما سيدنا جبريل وميكائيل وملك الموت عزرائيل فهؤلاء الكرام من خدمة العرش، ومن الصافين المسبحين لله تعالى حول العرش، فهم اذن غير مشمولين بهذا الاستثناء، لأنه إذا كان العرش فوق السماوات لم يكن الاصطفاف حوله في السماوات.

أما البقية من حضرات الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – والشهداء وعموم الملائكة فأن الاحتمال قائم في شمول كل واحد منهم، بالاضافة إلى الأولياء العارفين بالله تعالى. ﷺ وعنا بهم – آمين –.

ثانيا: نفخة الصعق: وبعد أن ترتجف أفئدة الخلق وتخاف نفوسهم ويدخل فيها الرعب والخوف وتزول نواميس الكون، وينتبه الناس جميعا في وقت واحد إلى هول هذه النفخة وشدتها، يفاجئون بنفخة ثانية هي أشد هولا وأكبر أثرا. وأعظم حدثا من النفخة الأولى، فيصعقون جميعا في الحال ويموتون من غير استثناء، ما عدا جبريل وميكائيل واسرافيل فإن عزرائيل يقبض أرواحهم بعد هذه النفخة، لا على أثر حدوثها. قال الله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾(١).

ثالثا: نفخة البعث والنشور: وبعد النفخة الثانية التي يهلك فيها كل شيء، ويموت فيها كل شيء، ويموت فيها كل حي إلا الحي الذي لا يموت – سبحانه جل جلاله وعم نواله – يعم الوجود كله خمود وهمود، فلا حركة ولا تنفس ولا حياة ولا شيء يذكر. وعندها ينادي الجليل سبحانه ثلاث مرات: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾(٢) فلا يجيب أحد، فيجيب هو قائلا: ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾. وبعدها يخلق الله تعالى اسرافيل – عليه السلام – فيأمره بالنفخة الثالثة في بوقه أو قرنه، فيُحيي الله تعالى بهذه النفخة جميع خلقه، لبعثهم ونشرهم، وأول من يبعث من الناس هو حبيب الحق، وسيد الخلق سيدنا محمد – ﷺ – كما قال الله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ

(١) الزمر: الآية (٦٨).

(٢) غافر: الآية (١٦).

﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾(١).

وقد ذكرت لك فيما تقدم أن حضرة الرسول الأعظم - ﷺ- حدد لنا المدة بين النفختين الأخيرتين، عندما قال - ﷺ - **(مابين النفختين أربعون)**. وفي رواية ابن المبارك: (بين النفختين اربعون سنة).

أدلة القول الثاني:

لاتختلف أدلة أصحاب القول الثاني عن أدلة أصحاب القول الأول كثيرا، بل هي نفسها أحيانا ولكن المنظار إليها يختلف كثيرا، وها نحن نذكرها اليك مرتبة من غير تكرار ولا اطالة:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾(٢). فهذه الآية القرآنية الكريمة تتحدث عن حدوث النفخة الأولى، لأن الفزع معناه غير معنى الموت.

٢- وقال الله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾(٣).

وهذه الآية تتحدث عن حدوث النفخة الثانية، وهي نفخة الصعق، وذلك لأن الصعق معناه الموت.

٣- وقال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾(٤).

وقال سبحانه أيضاً: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾(٥). وهاتان الآيتان الكريمتان دليل واضح على حدوث النفخة الثالثة، نفخة البعث والقيام لله تعالى رب العالمين.

٤- وقال المحدث الجليل الصحابي الكريم سيدنا أبو هريرة - رضي الله عنه -: ان الملك له في

---

(١) يس: الآية (٥١). وقال سبحانه أيضاً: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ الزمر: ٦٨.

(٢) النمل: الآية (٨٧). (٣) الزمر: الآية (٦٨).

(٤) الزمر: الآية (٦٨). (٥) يس: الآيتان (٥١-٥٢).

الصور ثلاث نفخات: نفخة الفزع وهو فزع حياة الدنيا وليس بالفزع الأكبر، ونفخة الصعق، ونفخة القيام من القبور[(١)]

واعتقد أن حديث أبي هريرة لا يحتاج إلى تفسير وشرح وبيان، فهو صريح في تحديد عدد النفخات، وأنها ثلاث نفخات.

رأي الباحث:

سبب الخلاف: بعد أن قرأت أدلة الفريقين – الأول والثاني – قراءة علمية دقيقة، ظهر لي أن النقطة الاساسية في اختلاف العلماء في عدد نفخات الصور ترجع إلى اختلافهم في تفسير الكلمتين الواردتين في سورة النمل والزمر، وهما – **ففزع، فصعق**-. فمن قال معناهما واحد، فسر الصعق بالفزع وقال معناهما واحد، وأن الصعق معناه الغشي بدليل قوله تعالى في سيدنا موسى – عليه السلام -: ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ ﴾[(٢)] مع أنه لم يمت. وذكرنا فيما تقدم من فسر الصعق بالغشي كالقرطبي وابن منظور وغيرهما.

ومن قال بالمغايرة بين الفزع والصعق، فسر الصعق بالموت. ونحن نستفيد من هذا الخلاف أنا إذا فسرنا الصعق بالغشي قلنا بنفختين، وإذا فسرناه بالموت قلنا بثلاث نفخات. وممن فسر الصعق بالموت أئمة اللغة واساتذتها كالإمام مقاتل فقد قال في قوله: «أصابته الصاعقة» هي الموت.

وقال أبو اسحاق: الصاعقة ما يصعقون منه أي يموتون[(٣)].

ويؤكد ابن منظور- رحمه الله – أن الصعق وان استعمل عند البعض بمعنى الغشي إلا أن استعماله بمعنى الموت أكثر وأغلب.

فقد قال: [الصعق: أن يغشى على الإنسان من صوت شديد يسمعه وربما مات منه، ثم استعمل في الموت كثيرا][(٤)].

وبين هذين الفريقين ظهر لنا فريق ثالث جوز استعمال الصعق بنفس المعنيين –

---

(١) البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الاندلسي الغرناطي، دار الفكر، ط ٢، ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨، ٩٩/٧ وقد تقدم في ص ٢٦٩.

(٢) الأعراف: الآية (١٤٣).

(٣) لسان العرب مادة: صعق ١٩٨/١٠ ومعاني القرآن لأبي اسحاق ٣٦٢/٤.

(٤) لسان العرب مادة: صعق ١٩٨/١٠ وانظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٣٨٤.

الموت والغشي- على السواء، كثعلب[١]، والفيومي[٢].

أما الفزع: فمعناه الفرق – بفتح الراء – والذعر من الشيء، وفزعه –بتشديد الزاي-: أخافه وروعه[٣]. وهو جنس الجزع[٤].

اذن هناك تشابه كبير وقع بين كلمة – ففزع – وكلمة – فصعق – وإنما قال القرآن ذلك في سورة الزمر لمناسبة ما بعده وهو قوله: ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ فإن ذلك في مقابل الصعقة، في حين ختم آية النمل بقوله: ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾[٥] وهو المناسب للفزع، إذ معنى داخرين صاغرون، فناسب كل لفظ مكانه الذي وضع فيه[٦].

أما رأي الباحث في هذه المسألة، فأقول وبالله تعالى التوفيق: أنا لست مع الذين يفسرون الصعق بالفزع ويجعلون معناهما واحدا، وذلك لما يأتي:

١- ليس كل من خاف شيئا غشي عليه، وليس كل من غشي عليه مات، فقد يخاف الإنسان شيئا مخيفا فيذهل أمامه ويخاف منه من غير أن يغشى عليه فضلا عن أن يموت بسببه[٧].

اذن معنى الفزع أعم من معنى الصعق، وبينهما عموم وخصوص من وجه. أي كل من صعق ومات أو غشي عليه فقد أصابه أولا الذعر والخوف والفرق، لكن ليس كل من أصابه الخوف والفزع صعق فمات أو غشي عليه.

٢- تفسير الصعق بالفزع أو بالعكس، وجعل معناهما واحدا. يؤدي بنا إلى القول

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصباح المنير مادة: صعق ٤٦٤/١.

(٣) لسان العرب مادة: فزع ٢٥١/٨.

(٤) تاج العروس مادة / فزع ٤٥٢/٥ والمفردات للراغب بتحقيق محمد سيد كيلاني، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطبعة الأخيرة، ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١/، ص٣٧٩ وفي طبعة المطبعة الفنية الحديثة ص٥٧٠.

(٥) النمل: الآية (٨٧).

(٦) لقد تحدث فضيلة الدكتور فاضل صالح السامرائي في كتابه القيم: التعبير القرآني ص١٥٦ حديثا جميلا طويلا عن التشابه والاختلاف في الفاظ القرآن الكريم واستطاع أن يأتي على ذلك بأمثلة عديدة.

(٧) كما في قوله تعالى: ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ ﴾ ص: الآية (٢٢).

بوجود الترادف في الفاظ القرآن الكريم. لأن الترادف كما عرفه الإمام الجرجاني-رحمه الله -: عبارة عن الاتحاد في المفهوم، وقيل: هو توالي الالفاظ المفردة الدالة على شيء واحد، باعتبار واحد. ومن نظر إليه لم يفرق بينهما(١).

والترادف ممنوع في الفاظ القرآن الكريم. ولذلك يقول الإمام الزركشي – رحمه الله -: [وزعت – ألفاظ القرآن – بحسب المقامات، فلا يقوم مرادفها فيما استعمل فيه مقام الآخر، فعلى المفسر مراعاة الاستعمالات، والقطع بعدم – وجود- الترادف ما أمكن، فإن للتركيب معنى غير معنى الافراد، ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقع الآخر في التركيب، وإن اتفقوا على جوازه في الافراد](٢).

وجعلنا الصعق والفزع بمعنى واحد يؤدي بنا إلى وقوع أحد المترادفين موقع الآخر في التركيب. وهذا ممنوع كما علمت الآن فيما قرره العلماء في أصول التفسير وقواعده.

٣- ولأن تفسيرهما بمعنى واحد يصطدم اصطداما مباشرا مع ما صرح به سيدنا رسول الله – ﷺ – في حديثه الشريف: (**ينفخ في الصور ثلاث نفخات: الأولى: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين تبارك وتعالى**)(٣). وواو العطف تقتضي المغايرة.

- **تأمل سريع في أدلة القول الأول:**

لو اخذنا أدلة القول الأول القائل بالنفختين، ودرسناها دليلا دليلا، لتبين لنا أن هذه الادلة الشريفة لم تكن صريحة جدا في أن عدد النفخات في القرن هو اثنان، وتوضيح ذلك فيما يأتي:

---

(١) كتاب التعريفات: ص٥٦.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٤/٩٣.

(٣) ذكره الإمام الطبري في تفسيره ٢٤/٣٠ بسنده عن أبي هريرة – رضي الله عنه -. وذكره القرطبي في تفسيره ١٣/١٥٩ وقال: ذكر الحديث علي بن معبد والطبري والثعلبي وغيرهم وصححه ابن العربي. قلت: وذكره أيضاً مطولا ابن كثير في تفسيره وقال: وهذا الحديث قد رواه الطبراني وابن جرير وابن أبي حاتم: ٣/٢٠٤.

١- ليس في قوله تعالى: ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ دليل على أن معنى الصعق والفزع واحد، كما فهم أصحاب هذا القول، بل كل ما في الأمر أن موسى – عليه السلام- خر صعقا – مغشيا عليه أوميتاً – لما تجلى ربه سبحانه للجبل. فأين الاشارة في الآية على أن معنى الصعق هو نفس معنى الفزع الذي لم يذكر هنا أصلا.

بل حتى تفسير الصعق بالغشي، وأنه غير الموت أمر محتمل لأن البعض قالوا بغير ذلك، والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال.

٢- وأما حديث أبي هريرة عن النبي –ﷺ -: **(ما بين النفختين أربعون)** وفي رواية ابن المبارك: (مابين النفختين أربعون سنة) فليس فيه سوى اثبات المدة المقررة بين نفخة البعث والقيام والنفخة التي قبلها.

ونحن نقول: أين الاشارة في هذا الحديث على أنه لا توجد هناك نفخة ثالثة سبقت نفخة الصعق والموت، تسمى نفخة الفزع. ومثل هذا أقول أيضاً في حديث سيدنا عبدالله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما- حيث لم أجد فيه ما يدل على أنه لا توجد نفخة ثالثة، بل في هذين الحديثين وغيرهما سكوت عن التصريح بالثالثة ولا يلزم من ذلك عدمها.

٣- وأما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ وأن كلمة أخرى لا تقال إلا للثانية، فيلزم أن يكون عدد النفخات اثنين. أقول:صحح بعض العلماء مجيء كلمة – أخرى – للثالثة[1]. فكما يقال للثانية أخرى، يصح أيضاً أن يقال للثالثة أخرى. وفوق هذا وذاك فأين نحن من قوله تعالى: ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾[2].

فإن قيل لنا: الدليل على أن المراد بالصعق في قوله تعالى: ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ هو الغشي وليس الموت، هو قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ ولم يقل: فلما نشر.

قلنا: اطلقت كلمة أفاق في اللغة على الميت أيضاً كما أطلقت على المغشي أو على الذي فقد عقله –ذكر ذلك الزجاج رحمه الله – في معاني القرآن واعرابه. لكن من أجل التفريق بينهما، يقال للميت: قد أفاق من موته، وللذي غشي

(١) تكملة شرح الصدور للبرديسي ص٤ وتفسير الإمام الثعالبي ١٦٨/٣ و١٦٩.

(٢) النجم: الآية (٢٠) فقد جاءت كلمة أخرى واضحة وصريحة بعد كلمة الثالثة.

عليه: قد أفاق من علته[١].

علما أن بعض أهل اللغة ذكر أن القرآن الكريم أطلق كلمة الصاعقة على ثلاثة أوجه، ليس فيها معنى الغشي. والاوجه هي:

١- الموت: كقوله تعالى: ﴿ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٢].

٢- العذاب: كقوله تعالى: ﴿ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[٣].

٣- النار: كقوله تعالى: ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾[٤].

وأجمل ما قيل في تعريف الصاعقة: هي الصوت الشديد من الجو، ثم يكون منه نار فقط، أو عذاب، أو موت، وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الاشياء تأثيرات منها[٥].

وقفة مهمـــــة:

هناك أمر مهم جدا، انتبهت إليه أخيرا.

وهو أنه إذا كان معنى الصعق الغشي، وأنه غير الموت، وإذا كان معنى قوله تعالى: ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ خر مغشيا عليه – كما يقول أصحاب القول الأول – فأين اذن هي نفخة الموت التي تسبق نفخة البعث والقيام؟

إن القول بأن الصعق هو غير الموت، وأن معنى الفزع والصعق واحد، يثير في أنفسنا سؤالا مهما جدا: اين نفخة الموت التي لا يجوز انكارها، لأن انكار نفخة الموت التي تقع قبل البعث والقيام انكار للقرآن الكريم القاطع بحدوثها قبل نفخة الاحياء والبعث من القبور. قال الله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[٦]. والجواب الصحيح على ذلك يلزمنا بان نفرق بين الفزع والصعق، وان نرفض الاشتراك الموهوم بينهما، والله تعالى أعلم.

---

(١) معاني القرآن واعرابه لابي اسحاق الزجاج ٢/٣٧٣.

(٢) الزمر: الآية (٦٨).

(٣) فصلت: الآية (١٣).

(٤) الرعد: الآية: (١٣).

(٥) المفردات للراغب الاصفهاني بتحقيق محمد سيد كيلاني ص٣٧٩ وفي طبعة المطبعة الفنية الحديثة ص ٤١٥.

(٦) الزمر: الآية (٦٨).

الرأي الوســـط:

واخيرا وبعد هذه الدراسة العلمية الدقيقة لآراء المتكلمين في عدد نفخات اسرافيل – عليه السلام – في ضوء النصوص القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وما أثر عن الصحابة –ﷺ–، أقول الرأي الوسط في هذه القضية يظهر لنا في نقطتين:

الأولى: عدد النفخات ثلاث، ولا سبيل لانكار استقلال كل واحدة عن الأخرى.

الثانية: ليس كل الخلق من حيث التأثر بهذه النفخات والتفاعل معها على حد سواء.

وتوضيح ذلك هو أن المؤمنين غير الكافرين، والصالحين غير الطالحين، والذاكرين غير الغافلين، والمنفقين غير الممسكين، والصادقين غير الكاذبين، والمخلصين غير المنافقين، والمحسنين غير المسيئين. وعندما نقول عدد النفخات ثلاث نقولها ليس على العموم، لأن من الخلق من لا يتأثر ببعضها كالمؤمنين الصالحين والأولياء العارفين بالله تعالى.

والدليل على هذا التخصيص هو قول الله تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾(١).

وقوله سبحانه وهو يصف لنا أحوال الأولياء الصالحين امام هذه الاحداث الكونية الخطيرة: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾(٢).

وفي معنى الآية الأولى قولان، أحدهما: وهم من فزع يوم القيامة آمنون في الجنة، والثاني: وهم من فزع الموت في الدنيا آمنون في الآخرة(٣).

وفي معنى الآية الثانية أربعة أقوال، أحدها: أن الفزع الأكبر هو النفخة الأخيرة، الثاني: أنه ذبح الموت، الثالث: حين تطبق جهنم على أهلها، الرابع: أنه العرض في المحشر(٤).

واجمل ما قيل في تفسير الآيتين: هو أنه يجوز أن يراد بالفزع فزع واحد، ويجوز أن يراد به الكثرة لأنه مصدر، فإن أريد به الكثرة شمل كل فزع يكون في القيامة، وان أريد الواحد فهو الذي أشير إليه بقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾(٥).

اذن النفخات من حيث الوقوع ثلاث، ومن حيث تأثيرها في الخلق فليس على

---

(١) النمل: الآية (٨٩).

(٢) الأنبياء: الآية (١٠٣).

(٣) تفسير الماوردي ٣/٢١٣.

(٤) تفسير الماوردي ٣/٦٢و٦٣.

(٥) روح المعاني ٢٠/٣٧.

كل الخلق والا فما فائدة الاستثناء الإلهي في آية الفزع: ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ وفي آية الصعق كذلك: ﴿ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ والله تعالى اعلم بالصواب[1].

اللهم اجعلنا من أوليائك الصالحين وعبادك المقربين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهم من فزع يومئذ آمنون، وبشفاعة نبيهم – ﷺ – فائزون آمين.

(١) ونذكر هنا سريعا أن خلافا واسعا جرى بين العلماء في تحديد المستثنى وهذا في الحقيقة من رحمة الله تعالى بنا، فذكر بعضهم الأنبياء وقيل: الملائكة، وقيل: حملة العرش، وقيل: الشهداء وقيل غير ذلك والكل محتمل. قال القرطبي – رحمه الله – في التذكرة ١٨٩/١: قال شيخنا أبو العباس: والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح، والكل محتمل.

أهم نتائج البحث

الفصل الأول

١- **وسط الشيء – بفتح السين –:**

ما بين طرفيه وهو منه. وهو غير الوسط – بسكون السين – والفرق بين الأول والثاني يظهر لك فيما يأتي:

I- الوسط–بالتسكين– يقال فيما كان متفرق الاجزاء، غير متصل كالناس والدواب وغير ذلك. ومنه قول الرسول الأعظم –ﷺ–: (الجالس وسط الحلقة ملعون) لأنه لا بد أن يستدبر بعضه المحيطين به، فيؤذيهم فيلعنونه ويذمونه.

أما الوسط – بالفتح – فإنه يقال في شيء متصل الاجزاء كالدار والرأس والرمح والحبل وغير ذلك.

II- الوسط – بالتسكين – ما لا يكون في الطرف، سواء كان في مركز الدائرة أو فيما حوله، بشرط أن لا يكون في الاطراف.

أما الوسط – بالفتح – فإنه يقصد به مركز الدائرة في المكان ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي: خيارا وعدلا ونحن لسنا مع الجاحظ والزبيدي عندما قالا في تعريف الوسط: الشيء الذي بين الجيد والرديء، لأنه ليس بين الجيد والرديء وسط، ولا يصح اطلاقاً أن نقول الإسلام وسط بهذا المعنى.

٢- تمتاز الوسطية بكونها أرسخ قاعدة وأصلب أرضية في بناء الحضارة ونشر الدين، وبمراعاة التدرج الاصلاحي، والعمق التأريخي في الحضارة الإسلامية، والرؤية الشمولية الواسعة للكون والحياة، ورفض تجزئة الإسلام، والتحذير من الاتجاهات الهدامة والافكار المنحرفة، والخلود والبقاء، والجمع بين الاصالة والمعاصرة، والموازنة بين الثوابت والمتغيرات، والتيسير والتخفيف، والاستقامة والثبات، وهي دليل القوة والصلابة، والامان والاطمئنان، وتمتاز بالموازنة بين المصالح والمفاسد عند التعارض، والموازنة بين العزيمة والرخصة، وهي وصية الله تعالى في القرآن الكريم.

٣- وللوسطية أهداف تسمو إلى تحقيقها، مثل: حماية قدسية العقيدة والحفاظ عليها والدفاع عنها، وتثبيت قوانين الإسلام في حركتها الاجتهادية المتطورة المستمرة

داخل حدود شريعته الغراء، والتيسير في تطبيق الشريعة والتخفيف في حمل الواجبات، تحقيق العدالة ونشرها بين الناس حفاظا على مصالح المجتمع، وصيانة حضارة الإسلام من التحريف والتزييف، والحفاظ على هوية الأمة الإسلامية، واطفاء نار الصراعات القومية والطائفية والمذهبية وتحرير العقل من ترسبات الماضي، وتوحيد الكلمة وجمع الشتات، والتطور العلمي وتجديد البناء الحضاري، والحفاظ على ثروات الأمة الطيبة من الاسراف والضياع، والكمال الروحي والإنساني.

٤- وعلى الوسطية واجبات عديدة ومسؤوليات كثيرة ضخمة، منها: انشاء جيل مسلم يحمل راية الوسطية ويدعو إليها بأحدث الوسائل الاعلامية الحديثة، وعرض الإسلام مشروعا حضاريا لازما، عرضا عصريا حديثا يتسم بالتكاملية والشمول، توحيد الصفوف والفصائل الإسلامية، تنقية التاريخ من جميع الاخبار الكاذبة والقصص الدخيلة، متابعة أخبار العالم وتحليل كل خبر يذاع لاسيما التي تتصل بدين المسلمين وثقافتهم ومستقبلهم، عدم الدخول في صراع سياسي مع الحكام والسلاطين، كشف خطط الغزو الفكري، الاعتماد على الكتاب والسنة في حل المسائل العلمية ومعالجة القضايا العملية، تجديد عمل الروح الإسلامي وتنقيته من خرافات الجاهلين وابتداع المبتدعين، دراسة أزمات العقل المسلم، كشف زيف الحضارة الغربية، الشعور الجماعي بعظم المسؤولية، دراسة فقه الأولويات وفهم مقاصد الاحكام، ودراسة أصول العمل الجماعي وغيرها.

الفصل الثاني

٥- استطعنا بفضل الله تبارك وتعالى أن نشخص سبب الخلاف بين الجمهور والسادة الحنفية من جهة، والسادة الاشعرية والحنفية من جهة أخرى. ولمسنا بشكل واضح جدا حرج الحنفية وخوفهم من اطلاق اسم الزيادة أو اسم النقصان على التصديق، ولكن من أجل أن لا يصطدموا مع أدلة الزيادة الكثيرة في الكتاب والسنة وآثار الصحابة الكرام، جوزوا اطلاق لفظ القوة والضعف على التصديق، فقالوا: التصديق لا يزيد ولاينقص ولكن يتفاوت في القوة والضعف.

٦- وقد عثرنا على أمر غريب حقا، وهو أن بعض الحنفية – رحمهم الله تعالى – يفسر الزيادة بالقوة، والنقصان بالضعف، ولايفرق بينهما، وهو مع ذلك لا يقول بزيادة الإيمان ونقصانه.

ونحن هنا نقف ونسأل: إذا كان لا فرق بين الزيادة والقوة، والنقصان والضعف،

فلماذا اذن لا يقبل التصديق لفظ الزيادة مثل ما قبل لفظ القوة ؟ ولماذا لا يقبل لفظ النقصان مثل ما قبل لفظ الضعف ؟

أما رأي السادة الاشعرية خصوصا والجمهور عموما فلم يروا بأسا من دخول الزيادة والنقصان على التصديق، لأن التصديق في نظرهم – كما يظهر لي – على مراتب عديدة ودرجات كثيرة، فليس حصول كل نقص في التصديق يؤدي بصاحبه إلى الكفر والعياذ بالله تعالى.

٧- وكان مما فتح الله تعالى به علينا هو أنا قلنا قولا وفقنا به بين القولين، وجمعنا به الرأيين – الجمهور والحنفية- بحد وسط وهو:

- **كلما قوي التصديق واشتد ازداد الإيمان قوة، ونقص ضعفـــــا**
- **وكلما ضعف التصديق وخوي نقص الإيمان قوة، وازداد ضعفا**

واعتقد أننا بهذا الحد الوسط حققنا الجمع بين الفريقين، أما الاحناف فإنهم يقولون بقوة التصديق وضعفه ولايمنعون ذلك، وأما الجمهور فإنهم يقولون بزيادة الإيمان ونقصانه كما تقدم لك.

٨- اتضح لنا في دراستنا لرأي الخوارج في مرتكب الكبيرة أنه كافر مخلد في النار، أنه رأي يجعل المسلمين على ضعف إيمانهم اشتاتا مبعثرة، وأمة ممزقة، يزرع بين أبناء الإسلام العداء والحسد والبغض والنفور، ويشجع العصاة منهم على الفساد والغفلة والفجور، ويقضي على ثلثي أبناء المسلمين بانهم أبناء زنى، بينما صار من هؤلاء الكثير الكثير من العلماء والأولياء والمصلحين والمربين، فيولد هذا الرأي الشك في حضارة الإسلام ورجالها الاجلاء، وأعلامها العظماء، ودعاتها الأصلاء.

٩- أما رأي المرجئة في مرتكب الكبيرة أنه لا يعذب في النارمهما ارتكب من الكبائر فإنه يزيد الطين بلة، ذاك لأن أكثر مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة أصبحت أسيرة تقاليد المجتمع الغربي الكافر واعرافه الفاسدة واخلاقه المدمرة، بسبب الاحتكاك المباشر بالحضارة الغربية، فيأتي رأي المرجئة ليسهل بدوره قبول نظرية فرويد الجنسية الاباحية، التي تجعلنا ننكر ونهمل أكبر مقررات ديننا الإسلامي الحنيف ما دام ارتكابنا للكبائر لا يمنعنا من دخول الجنة ولا يكون سببا في دخولنا النار، لأن النار في نظر المرجئة معدة للكافرين فقط.

بل لا مانع في اطلاق الغرائز وتحريرها من قيود الاخلاق وضوابط الدين الحنيف، الأمر الذي يشجع مجتمعاتنا المعاصرة على التقليد الاعمى والركض السريع وراء

كل دعوة تحرر جديدة من الحياء والإيمان، فتزداد بذلك أمتنا الإسلامية تدهورا وسقوطا، وانحلالا وضعفا.

١٠- وفي خضم هذا الضياع الخلقي والتعطيل الفكري يأتي رأي المعتزلة ليزيد الأمة ضياعا وحيرة ودهشة، وذلك عندما يجعلون مرتكب الكبيرة متذبذبا، لا هو من جملة المؤمنين الناجين، ولا هو من جملة الكافرين الهالكين، لا هو من جملة الصالحين الفائزين المنعمين، ولاهو من جملة الطالحين الخاسرين المعذبين، وإنما هو شيء بينهما لكنه مع ذلك خالد في النار مع الكافرين.

لقد اتضح لنا أن رأي المعتزلة فيه تضارب وتناقض عجيب، أنه يجعلنا نجهل مصير الفاسق وكيفية التعامل معه. ونشر هذه الصورة الغامضة عن مرتكب الكبيرة تجعل الناس يموجون في أمواج من القلق والتفكير والفوضى والحيرة.

١١- ولكنك عندما تنظر بعين الانصاف والواقع إلى رأي أهل السنة والجماعة في مرتكب الكبيرة وهو أنه: مؤمن بما معه من الإيمان، وفاسق بسبب ما ارتكبه من الكبائر والعصيان. تجده رأيا معتدلا، وحدا وسطا، لماذا ؟

لانهم بقولهم فيه(مؤمن) يحافظون عليه من الضياع في أحضان الماركسية والفرويدونية، وبقولهم فيه (فاسق) يحافظون على شريعة نبيهم سيدنا محمد ﷺ — ويحملونه تبعات اعماله، ويصححون له ما انحرف في فكره وأفعاله واخلاقه.

فلا يقال فيه إنه كامل الإيمان كما قال المرجئة، ولا يقال فيه إنه كافر كما قال الخوارج ويسلب عنه أصل الإيمان،وانما يتوسط فيه فيقال: ناقص الإيمان، وقد فصلنا القول في آثار جميع هذه الآراء في المبحث الثاني في الفصل الثاني.

١٢- ظهر لنا أنا إذا قلنا: العقل هو ا لحاكم في الاشياء وهو مصدر معرفة خير الافعال وشرها على الإطلاق. قلنا بحرية العقل المفتوحة بلا ضابط ولا قيد ولا حد.

فنصف الله تعالى بما نشاء معتمدين على خيالات العقل وأوهام النفس، وجوزنا اختلاط الرجال بالنساء في كل الميادين لأن العقل يؤيد حقوقهما معا من غير تفريق ولا تمييز، وهذه في الحقيقة نغمة جميلة يطرب لها الاباحيون من ابناء الحضارة الغربية ويفرح بها العلمانيون من ابناء الحضارة الشرقية.

١٣- وظهر لنا أيضاً اننا لا نستطيع ايقاف حركة العقل على الإطلاق، لأنه بجموده وتوقفه تموت خلافة الإنسان في الأرض ولا تتحقق، ويغدو الإنسان في الأرض لا فرق بينه وبين الحيوان.

١٤- وتبين لنا أن القول بأن العقل لا يدرك حسن جميع الافعال وقبحها على الإطلاق

قبل مجيء الشرع الشريف، يؤيد ما روجه الشعوبيون وأعداء الإسلام على تاريخنا العربي الاصيل، وهو أن العرب قوم جهلاء، لا فهم لهم ولاعلم ولا عقل ولا إدراك.

١٥- وتبين لنا أيضاً أن حال العقل وطبيعة تحركه قبل البعثة وقبل اتصاله بوحي السماء، ليس كحله بعد البعثة.

١٦- وبان لنا أن الواجب الأول الملقى على عاتق عقل الإنسان السليم قبل وصوله نور النبوة الكريم هو الإيمان الاجمالي بخالق الكون ومبدعه، دون التعمق في تفصيلات جزئيات الإيمان ومفرداته الدقيقة. وهو أمر ميسور لكل من له فهم ولب من الناس، على الرغم من تفاوتهم واختلافهم في الادراك والوعي والفهم وقوة الاستيعاب.

ومنهجنا الوسطي في هذا الموضوع هو أننا لسنا مع الذين يحرمون حركة العقل قبل البعثة على الإطلاق، فلا يعرف أصل الإيمان ولايقدر عليه، ولا مع الذين يحملونه مطلق الإيمان.

أما الافعال فهي ليست على الإطلاق لا يعلم حسنها ولا قبحها، وليست على الإطلاق يعلم حسنها وقبحها. والحق الوسط هو أنه من الممكن أن يعلم الإنسان حسن بعض الافعال وقبح بعضها الآخر، وهي على عمومها اما أن تكون حسنة أو قبيحة في نفسها وهيئتها واما لعلة أو سبب.

وفي مجال الادراك وما يترتب عليه من ثواب وعقاب، تبين لنا أن الإنسان مكلف بالإيمان الاجمالي، وغير مكلف بالأعمال الشرعية والسلوكية وقد أوضحنا ذلك مفصلا في الدليل النقلي والعقلي.

١٧- رأي الجبرية في افعال الإنسان ينفي الفرق بين المحسن والمسيء، ويجعلنا لا نميز حسنات الإنسان الصالح من بين سيئات الرجل الطالح، ويبطل أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنه لا فائدة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما دام الإنسان مسلوب القدرة والاختيار. ولا فائدة في تكليف الله تعالى عباده لأنهم مسلوبو الحرية والإرادة. وبانعدام التكليف ينعدم الثواب والعقاب، وبانعدام الثواب والعقاب تنعدم فائدة بعثة الأنبياء الكرام — عليهم الصلاة والسلام—.

١٨- وظهر لنا أن قول الجبرية يؤدي إلى اسقاط رجاء العبد وطمعه في رحمة الله تعالى وأمله في مغفرته. ويؤدي هذا القول أيضاً إلى زوال خوف العبد من ربه سبحانه

– جل جلاله وعم نواله – لماذا ؟ لأن العبد إذا اعتقد أنه مجبور على معصية الله تعالى فهو مقهور على عقاب الله،واذا كان مقهورا مجبورا على عقاب الله تعالى فلا يبقى رجاء في رحمته ولايبقى طمع في مغفرته. وعندئذ يصيبه اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى وهذا والله كفر عظيم لقوله سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾.

١٩- وتبين لنا أن الجبرية بقولهم: الإنسان مجبور في جميع أفعاله، يعطلون حركة العقل ويجمدون طاقات الفكر، ويحولون دون الاستفادة من انطلاقاته واشعاعاته النيرة، التي ينشأ بها دولة الحضارة، ودولة العلم، ودولة التقدم والبناء.

٢٠- وبعد تدقيقنا في أدلة الجبرية ودراستها وجدنا أن الجبرية لا يفرقون بين صفة (العلم) وصفتي (القدرة والارادة). ووجدنا أيضاً انهم عندما يبغون الاستدلال لدعم رأيهم يجتزئون الآيات التي تدل على معنى الجبر، ويقطعون صلتها بأخواتها الاخريات التي تدل على معنى الحرية والاختيار. ورأينا أن قول الجبرية بمفاهيمه المستقبلية يسوّغ للماركسي الاصرار على ماركسيته، والبوذي على بوذيته، والمبتدع على بدعته، والفاسق على فسقه، بذريعة أن الله تعالى لو لم يشأ أن يكونوا هكذا لما كانوا كذلك.

٢١- أما المعتزلة فإنهم بقولهم الإنسان خالق لأفعاله، ينسبون العجز إلى الذات الإلهية الكريمة، ويعطلون دور القدرة والخلق الإلهيين.

وقولهم: فعل العبد يصدر بتأثير مشيئته وبتخصيصها فقط – سواء وافقتها مشيئة الله تعالى القديمة أم خالفتها- الغاء واضح لمشيئة الله تعالى ومخالفة صريحة وظاهرة لقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾.

وبقولهم: الإنسان يخلق أفعاله بقدرة منحتها له قدرة الله تعالى. يحدثون تناقضا بينا في مذهبهم، لماذا ؟ لأن أصل قدرة الإنسان الحادثة من الله تعالى، ولولا قدرته تعالى لما تحرك الإنسان وعمل وصارت أفعاله الاختيارية، فكيف اذن بعد هذا الاقرار بهذا الاصل يلغون دور هذه القدرة الاصل، ويمنعون تدخلها في افعاله – القائمة بالاساس عليها –.

٢٢- وقد ظهر لنا أن قول المعتزلة: الإنسان خالق لأفعاله، يولد في نفس العبد الكبرياء، والاصرار، والفخر والتعالي على الناس، والعجب بالنفس، لماذا ؟ لأن الإنسان اعتقد أنه هو الذي خلق الخير للناس بقدرته المستقلة لا بفضل أحد

عليه، وينسى أنه عبد فقير إلى الله تعالى في جميع أوقاته: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾.

٢٣- وظهر لنا أيضاً خلال تدقيقنا النظر في أدلة المعتزلة أنهم لا يفرقون بين (خلق الفعل وايجاده)، وبين (ايقاع الفعل وارتكابه والاتصاف به)، وهو أحد المآخذ الكبيرة عليهم.

٢٤- وبان لنا أنهم لا يفرقون بين مصطلح (القضاء) ومصطلح (المقضى) ولا يفرقون أيضاً بين وجوه القضاء وصوره، أعني من حيث كونه فعلا لله تعالى ومن حيث كونه فعلا للعبد.

٢٥- ومما سجلناه على المعتزلة هو اهمالهم تحليل النصوص التي تدل على خلق الله سبحانه وتعالى لجميع الممكنات،ودراستها وفهم المقصود منها، وتركهم ربطها وصلتها بالنصوص الأخرى التي تمسكوا بها. كقوله – جل جلاله وعم نواله –: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ وغيرهما.

٢٦- ولو تأملنا أكثر وأكثر في رأي المعتزلة لسألنا سؤالا عقليا ومنطقيا: إذا كان الإنسان خالق لأفعاله فلا بد أن يكون الإنسان قديما غير مسبوق بالعدم لماذا ؟ لأن من صفات الخالق القدم، والإنسان حادث مخلوق بالاتفاق، فوجب إذن إبطال اتصافه بالخالق.

وقد ظهرت لنا امور أخرى مهمة ذكرناها في المبحث الرابع وفصلنا القول فيها وقلنا رأينا في هذا الموضوع وهو اننا بعد ان نفرق بين الافعال الاضطرارية والأفعال الاختيارية نقول: الإنسان ليس مجبورا على الإطلاق ولا مختارا على الإطلاق وإنما هو مجبور في جانب حتى لا يخرج عن سلطان الله تعالى، ومختار في جانب آخر حتى لا نسلبه حق الحرية والاختيار وهذا هو الرأي الوسط الذي نعتقده ونؤمن به.

الفصل الثالث

٢٧- لقد جعل الله تعالى رسوله بشرا حتى يكون حلقة الوصل بينه وبين عباده، يتحسس بأحاسيسهم، ويتألم بآلامهم، ويشعر بمشاعرهم، قريبا منهم دوما، ناصحا وواعظا ومعلما.

وقد ظهرت لنا مواقف الامم والقبائل السيئة تجاه انبياء الله – عليهم الصلاة والسلام – وذلك من خلال قراءة القرآن الكريم والتوراة والانجيل، وكيف نسبوا

إليهم اشنع صور الفساد والرذيلة والسخرية، وهم الصفوة المختارة من عباد الله، الذين شرفهم الله تعالى بالنبوة واعطاهم الحكمة ورزقهم قوة العقل وسداد الرأي، واصطفاهم ليكونوا وسطاء بينه وبين خلقه، يرشدونهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى ان يكونوا من البشر ليتمكن الناس المبعوثون إليهم من الاجتماع بحضراتهم، والاخذ عنهم، واتباعهم في سلوكهم واخلاقهم. اما البشرية التي ظهروا بها للناس فهي عين اعجازهم، فهم بشر من جنس البشر لكنهم متميزون عنهم بصفات لا يلحقهم بها أحد بلغ من منازل الرقي والارتفاع ما بلغ، ومن هنا كانت ملاحظة البشرية العادية المجردة فيهم دون غيرها هي نظرة جاهلية شركية.

٢٨- عقيدة الإسلام الوسط في بشرية رسل الله عموما، وفي بشرية الرسول الأعظم سيدنا **محمد** — ﷺ — خصوصا هو ان الرسول بشر ولكن ليس كالبشر، ومخلوق محدث وليس خالقا قديما.

وتوضيح ذلك هو اننا لا ننظر إلى رسول الله — ﷺ — كما نظر المشركون من قبل إلى الأنبياء الكرام فقالوا في حق كل واحد منهم: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ وشبهوه ببقية البشر، ولا نقول هو ابن الله كما قال اليهود في سيدنا العزير والنصارى في سيدنا عيسى — عليهما الصلاة والسلام — قال تعالى ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ فلا يحق لنا أن نتعامل مع حضرة سيدنا **محمد** — ﷺ — كما نتعامل مع زيد وخالد وسعد، وننظر إلى بشريته كما ننظر إليهم. وإنما الحق هو ان نجمع الوصفين الكريمين — النبوة والبشرية — كلما ذكرناه وتحدثنا عن حضرته العلية، كيف لا وهو حقيقة الحقائق، والسبب في وجود كل الخلائق.

٢٩- وعلينا أن نعلم ان مشاركة الناس لرسول الله — ﷺ — في وصف البشرية ليس في مطلق بشريته وإنما هي في جزء قليل منها فقط، لأن الله تعالى خص بشريته الكريمة بخصائص فريدة ومميزات عديدة وأحوال لا تقبل المشاركة والمشابهة، وهذا هو الجزء الثاني والأكبر من بشريته العلية التي لا يعلم كنه حقيقتها إلا الله تعالى. وقد ذكرنا في الفصل الثاني ادلة كثيرة على صحة ما اعتقدناه.

٣٠- يعتقد المسلمون جميعا من أهل السنة والجماعة، علماء وعامة، رجالا ونساء ان نبينا وحبيبنا **محمدا** —ﷺ— هو أفضل واشرف واعظم واكرم خلق الله تعالى على

الإطلاق واحبهم اليه، فلا يوجد أحد من أهل السماوات ولامن أهل الأرض يساويه في مقام من مقاماته، ولا في درجة من درجاته.

وهو أفضل من كل الأنبياء والمرسلين، وملائكة السماء والأرض، ومن كل بني الإنسان والجان. وعلى هذه العقيدة الكريمة اجمع علماء الأمة الإسلامية كلهم، في سائر الاقطار والبلدان. وهذا ما ظهر لنا خلال بحثنا في هذا الموضوع. وقد ذكرنا اقوى أدلتهم من القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة واجماع المسلمين ومارآه العقل السليم.

ولا عبرة برأي بعض منتحلي الإسلام.

٣١- يجوز تفضيل النبي الاكرم – ﷺ – على سائر الأنبياء والمرسلين، بل اوجب ذلك الإمام النووي – رحمه الله – عندما قال: [لا بد من اعتقاد التفضيل] الإلهي لسيدنا **محمد** – ﷺ – على سائر الخلق بلا استثناء. ولكن من غير ان يكون الدافع إلى تفضيل جنابه المعظم هوى النفس الامارة بالسوء،ولا الكبرياء على الأنبياء والتعالي على الرسل، ومن غير ان يكون هذا التفضيل سببا لفتنة واشعال نار الحروب والقتال، ومن غير ان يكون التفضيل في حقيقة النبوة أو الرسالة، أو ان يؤدي إلى الانتقاص من شأن بعض الأنبياء.

٣٢- وقد ظهر لنا ان لموضوع تفضيل النبي – ﷺ –على جميع الخلق اهمية كبيرة وخطورة شديدة في ساحة الفكر الإسلامي. فإن من لم يعتقد افضليته على سائر الأنبياء – عليه وعليهم الصلاة والسلام – فامته مساوية لامم الأنبياء، وبهذا يؤيد دعوى التقريب والمزج المسيحي التي تدعوا إليها الاقلام الاجنبية الكافرة، وبعض الكتابات العربية الخائنة. ومن تلكم الكتابات الخطيرة ما كتبه الدكتور حسن صعب الذي دعا صراحة إلى دمج الإسلام بالمسيحية والمسيحية بالإسلام، وجمعهما في قالب واحد، للقضاء على الغربة الثقافية المتبادلة بين الإنسان المسيحي والإنسان المسلم.

ويعتقد أيضاً أصحاب هذه الدعوة الخبيثة ان علم الكلام الإسلامي بإمكانه ان يستفيد من علم اللاهوت المسيحي في كثير من قضاياه العقائدية ويقتبس من مفاهيمه كثيرا من الحلول والمعالجات.

وقد قمت بالرد العلمي على هذه الدعوة الخطيرة، وبينت ان أحد أكبر آثار عدم الاعتقاد بأن سيدنا محمدا – ﷺ –افضل من جميع الأنبياء والمرسلين هو الدعوة إلى التبشير بالديانة المسيحية.

٣٣- اختلف المتكلمون في موضوع تفضيل الأنبياء الكرام – عليهم جميعا افضل الصلاة والسلام – على جميع الملائكة – عليهم السلام – على اقوال عديدة.

i- جميع الأنبياء افضل من جميع الملائكة، وبهذا قال أكثر الاشاعرة وأكثر الماتريدية والمحدثون بالاجماع، والشيعة وأكثر أهل الملل، وهو الراجح.

ii- جميع الملائكة افضل من جميع الأنبياء والناس، من غير تفصيل ولا استثناء. وهو قول جمهور المعتزلة والفلاسفة.

iii- التوقف وعدم القطع بالافضل وهو رأي الإمام أبي حنيفة – ﷺ – وبعض الماتريدية الاحناف. وقد قمنا باستعراض اشهر أدلتهم واقواها ودراستها دراسة علمية دقيقة فظهر أن القول الراجح هو القول الأول القائل بتفضيل جميع الأنبياء على جميع الملائكة.

٣٤- وقد ظهر لنا – بعد تأمل كبير في رأي المعتزلة – ان الذي يفضل الملائكة على حضرات الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – يترتب عليه ما يأتي:

i- تهديم وخرق لسياج الشريعة الغراء.

ii- تجميد للطاقات العقلية وانهاء واضح لمعنى الخلافة الإنسانية.

iii- الغاء لحركة البناء والتجديد والنمو والتقدم.

iv- تعطيل لفاعلية الإنسان وحيويته ونشاطه.

v- اعانة الاعداء على اضعاف المسلمين واستمرار تخلفهم.

vi- الغاء لدور الجهاد في الدفاع وتقزيم الحضارة.

vii- تكليف البشر ما لا يطاق من الأعمال.

كل هذه الآثار الخطيرة تترتب على الاخذ برأي المعتزلة.

وقد قمنا بشرح وتوضيح كل اثر من هذه الآثار بما يقبله العقل السليم والمنطق الواضح.

٣٥- وتبين لنا فرق دقيق جدا، وهو ان الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – افضل من الملائكة من حيث الدرجة والجاه والثواب، والملائكة أكبر قوة من الأنبياء على إحداث خوارق العادة وأكثر منهم شدة وبطشا. اذن هناك فرق بين المرتبة والمنزلة،ودرجة القوة وشدة البطش.

الفصل الرابع

٣٦- تبين لنا فساد من قال في تعريف الميزان: إنه عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل، وذلك لسببين:

i- لان الميزان موصوف بالثقل والخفة، وكونه معروفا بهذين الوصفين مما لا خلاف فيه بين اثنين من العقلاء، فتفسيره بالعدل والانصاف تأويل يجرده من وصفيه الضروريين وهو باطل قطعا.

ii- الإنسان يوم القيامة اما ان يكون مؤمنا بان الله تعالى عادل منزه عن الظلم واما ان لا يكون مقرا بذلك: فإن كان معتقدا بعدله سبحانه فقد كفاه اعتقاده هذا حكم الله تعالى في اعماله الصالحة والطالحة وهو عندئذ لا يحتاج إلى ميزان يزن اعماله بناء على ان معنى الميزان هو العدل وهذا القول فاسد لأن الادلة القطعية قامت على اثبات نصب الميزان يوم القيامة كقوله سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

وإن كان غير معتقد بعدله سبحانه فهو لا يستطيع ان يشاهد عدله يوم القيامة، لأن الميزان عبارة عن العدل والانصاف وهذا شيء معنوي لا حسي يرى بالعين الباصرة.

اذن لا بد ان يكون الميزان آلة محسوسة لماذا ؟ لأمرين:

I- توافقا مع النصوص القاطعة به يوم القيامة.

II- حتى لا تبقى للكافر حجة في عذابه بنار جهنم، وقطعا له من ان يقول: حسناتي أكثر من سيئاتي أو عذابي وعقابي أكبر من سيئاتي، لأنه لم يشاهد وزن اعماله.

٣٧- ثبت عندنا بالادلة الصحيحة ان الميزان الذي يزن الله تعالى به يوم القيامة اعمال عباده هو ميزان جسماني، حسي، مشاهد له لسان وكفتان. وقد اوضحنا ذلك مفصلا في الفصل الرابع من الرسالة.

٣٨- بان لنا فساد مذهب القائلين بوزن الاشخاص أصحاب الأعمال انفسهم لماذا ؟ لأن الميزان – كما نعلم – كفتان، فإذا وضع صاحب العمل في إحداهما فمن يوضع اذن في الكفة الثانية هذا هو السؤال الذي يجب ان نسأل به انفسنا. فإن قيل لنا يوضع في مقابلة المؤمن الكافر قلنا: هذا ممالم يرد به دليل اصلا.

أما بقية الاقوال الأخرى فقد ناقشناها جميعا ودرسنا ادلة كل قول دراسة مفصلة.

٣٩- اتضح لنا ان القول الوسط في موضوع الموزون بالميزان هو الذي يقول بأن صحف الأعمال هي التي توزن وذلك لاسباب عديدة شرحناها شرحا موسعا في المبحث الأول في الفصل الرابع.

٤٠- وبناء على واقعية الإسلام وتعامله مع الحقائق الموضوعية ذات الوجود الحقيقي

المستيقن فإنا نرفض التكلف في فهم الميزان فنسأل انفسنا، من أي مادة خلق الميزان وما هو لونه واين هو موقعه بالنسبة للانسان ؟ إلى غير ذلك من الأمور التي لا يبنى عليها أي حكم تكليفي بل الواجب علينا هو ان نؤمن بأن الأعمال تكتب في كتب اوصحف ثم توضع هذه الصحف في ميزان الله تعالى العادل الذي له لسان وكفتان لمعرفة الراجح من الحسنات والسيئات ثم ننطلق بعد ذلك في مناكب الأرض للتزود بالعمل الصالح.

٤١- هناك أمر مهم في موضوع النفخ في الصور وصعقته وهو أنه إذا كان معنى الصعق الغشي وانه غير الموت وإذا كان معنى قوله تعالى ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ خر مغشيا عليه – كما يقول أصحاب القول الأول فأين هي نفخة الموت التي تسبق نفخة البعث والقيام ؟

ان انكار نفخة الموت قبل البعث والقيام انكار للقرآن الكريم القاطع بحدوثها قبل نفخة الاحياء والبعث من القبور قال الله تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

٤٢- القول الراجح في عدد النفخات انها ثلاث، وقد وجهنا جميع ادلة المخالفين توجيها علميا دقيقا وكان ترجيحنا للقول بأنها ثلاث نفخات راجعاً إلى سببين:

I- لاسبيل لانكار استقلال كل نفخة عن الأخرى.

II- ليس كل الخلق من حيث التأثر بهذه النفخات والتفاعل معها على حد سواء وقد وضحنا ذلك بشيء من التفصيل في المبحث الأخير من الاطروحة.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

والحمد لله رب العالمين

ترجمة الأعلام

١- **الآلوسي:** هو محمود بن عبد الله الحسيني، الآلوسي – نسبة إلى جزيرة آلوس في وسط نهر الفرات على خمس مراحل من بغداد – العلامة، شهاب الدين، أبو الثناء مفسر، محدث، فقيه، أديب، لغوي، نحوي مشارك في بعض العلوم، ولد ببغداد في ١٤ شعبان سنة ١٢١٧هـ-١٨٠٢م، وتقلد الافتاء فيها وتوفي في بغداد في ٢٥ ذي القعدة سنة ١٢٧٠هـ-١٨٥٤م. من تصانيفه الكثيرة: روح المعاني، كشف الطرة، الاجوبة العراقية، وحاشية على شرح قطر الندى في النحو: معجم المؤلفين عمر رضا كحالة ١٢/١٧٥.

٢- **أحمد بن حنبل:** هو أبو عبد الله الشيباني المروزي البغدادي، امام أهل السنة والجماعة، تلميذ الإمام الشافعي. كان – رحمه الله – اماما في الحديث واماما في الفقه واماماً في القرآن. وكان عالما، زاهدا، ورعا، عابدا. ألف كتابه المشهور – المسند – الذي يقع في ست مجلدات. توفي ببغداد سنة ٢٤١هـ واليه ينسب المذهب الحنبلي: تهذيب التهذيب ١/٧٢ وشذرات الذهب ٢/٩٦.

٣- **الاسفراييني:** هو ابراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، أبو اسحاق، عالم بالفقه والأصول والفرق، من كبار علماء السادة الاشعرية، كان يلقب بركن الدين.
من مصنفاته: التبصير وغيره: طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ١/١٧٣و١٧٤.

٤- **الاشعري:** هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم، ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل أبي موسى الاشعري – ﷺ -. ولد الاشعري بمدينة البصرة جنوب العراق سنة ٢٦٠هـ. وهو شيخ المتكلمين، وامام أهل السنة والجماعة، ناصر السنة وقامع البدعة. له مؤلفات عديدة مثل: الابانة، ومقالات الإسلاميين، واللمع وغيرها من كتب الحق والرد على أهل الضلال والبدع: طبقات الشافعية للامام السبكي ٢/٢٥٠و٢٥١.

٥- **الايجي:** هو أبو الفضل عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار، أصله من أهل – ايج – بفارس، عالم بالأصول والعقائد والعربية، ولي القضاء وانجب تلاميذ كبارا. حبس بكرمان بسبب محنة جرت له مع صاحبها. من مؤلفاته: المواقف، العقائد العضدية، شرح مختصر ابن الحاجب في الأصول. توفي في السجن سنة ٧٥٦هـ: الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ٢/٤٢٩ وشذرات الذهب لابن عماد الحنبلي ٦/١٧٤.

٦- **الباقلاني:** هو محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر القاضي المعروف بابن الباقلاني، البصري، نسبته إلى الباقلاء وبيعه. ولد — رحمه الله — في الربع الثاني من القرن الرابع الهجري. وهو من كبار متكلمي السادة الاشعرية، ومن رؤساء المذهب المالكي في الفقه. له كتب عديدة مثل: التمهيد واعجاز القرآن وغيرهما. توفي سنة ٤٠٣هـ: شذرات الذهب ١٦٨/٣ و١٧٠ وتاريخ بغداد ٣٧٩/٥ وفيات الاعيان لابن خلكان ٢٧٩/٢.

٧- **البغدادي:** هو أبو منصور عبد القاهر بن محمد التميمي. أخذ العلم عن الاسفرائيني وغيره. وقد برع في الأصول والعقيدة والفرق، وهو من أئمة الاشاعرة الكبار. له كتاب: أصول الدين، والفرق بين الفرق. توفي سنة ٤٢٩ هـ: طبقات الشافعية لابن شهبة ١٧٢/١و١٧٣.

٨- **البيضاوي:** هو عبد الله بن عمر بن معبد أبو الخير، قاضي القضاة، ناصر الدين، البيضاوي، كان —رحمه الله — اماما علامة، خارقا بالفقه وأصوله والتفسير والعربية والمنطق. توفي في سنة ٦٨٥هـ: بغية الوعاة ٥٠/٢و٨١.

٩- **التفتازاني:** هو سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني. عالم بالاصلين، والنحو، والصرف، والمعاني والبيان، وهو محقق آراء المدرسة الاشعرية. من مؤلفاته: المقاصد، شرح المقاصد، شرح النسفية وشرح التلخيص وغيرها. ونسبته إلى مدينة — تفتازان — من بلاد خراسان. توفي — رحمه الله — في مدينة سمرقند سنة ٧٩١هـ: معجم المؤلفين ٢٢٨/١٢ والاعلام ١١٤/٨.

١٠- **ابن تيمية:** هو أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحراني. ولد بحران يوم الاثنين ١٠ ربيع الأول سنة ٦٦١هـ-. تعلم من صغره الفقه والأصول والتفسير والعربية، وبرع في علم الكلام والفلسفة، وافتى دون العشرين من عمره. كان معروفا بالشجاعة والذكاء وقوة الشخصية. له مؤلفات عديدة مثل الفتاوى والفرقان والسياسة الشرعية. توفي في سنة ٧٢٨هـ: شذرات الذهب ٨٠/٦-٨٦.

١١- **ثمامة:** هو ثمامة بن أشرس النميري أبو معن أحد المعتزلة البصريين. جاء إلى بغداد واتصل بهارون الرشيد وغيره من الخلفاء. وكان زعيم المعتزلة أيام المأمون والمعتصم والواثق. وله أخبار ونوادر. توفي سنة ٢١٣هـ: تاريخ بغداد ١٤٥/٧.

١٢- **الجبائية:** هم أصحاب أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي. امام المعتزلة في

عصره، ورئيس المتكلمين في زمانه، وهو من معتزلة البصرة. توفي سنة ٢٩٥هـ: الملل ونحل ٧٨/١ وفيات الاعيان ٣٩٨/٣ وطبقات المعتزلة ص٨.

١٣- **الجعد بن درهم:** كان من موالي بني الحكم ومن المحتمل أن يكون فارسيا. وكان مؤدبا لمروان بن الحكم أحد خلفاء بني أمية. أظهر الجعد مقالته في زمن خلافة هشام بن عبد الملك، فأخذه هشام وأرسله إلى خالد بن عبد الله القسري والي العراق، وأمره بقتله فذبحه خالد صبيحة يوم عيد الاضحى: شرح العيون لابن نباتة ١٨٦ والكامل في التاريخ لابن الاثير ٧٠٤/٥ والبداية والنهاية ١٦/١٠.

١٤- **الجهم بن صفوان الراسبي:** كنتيه أبو محرز وهو مولى لبني راسب من الازد، وأصله من مدينة بلخ. لعب دورا خطيرا في الحياة الفكرية الكلامية، واليه تنسب الجهمية. اشتهر عنه نفي الصفات وانكاره رؤية الله تعالى في الجنة والقول بخلق القرآن. قتل سنة ١٢٨هـ بأمر من والي خراسان نصر بن سيار: التبصير في الدين للامام الاسفرائيني ص٩٦ والفرق بين الفرق للبغدادي ص١٩٩ والملل والنحل للامام الشهرستاني ١٠٩/١.

١٥- **الجويني:** امام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف. ولد في مدينة — جوين — من نواحي نيسابور سنة ٤١٩هـ. ورحل إلى بغداد فمكة حيث جاور اربع سنين ثم انتقل إلى المدينة المنورة فافتى ودرس فيها ثم عاد إلى نيسابور فتسلم هناك مسؤولية التدريس في المدرسة النظامية. وهو من كبار العلماء ومشاهيرهم. عالم بعلوم شتى. من مؤلفاته: البرهان في أصول الفقه، والشامل، والارشاد وغيرها. توفي بنيسابور سنة ٤٧٠هـ: وفيات الاعيان ٣٥١/٢.

١٦- **ابن حجر العسقلاني:** هو أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد الكناني، العسقلاني. المصري المولد والمنشأ والدار والوفاة، الشافعي، يعرف بابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل، محدث، أديب، مؤرخ، شاعر. ولد في ١٢ شعبان سنة ٧٧٣هـ- وتوفي في ١٨ ذي الحجة سنة ٨٥٢هـ. زادت تصانيفه التي معظمها في الحديث والتأريخ والادب والفقه والاصلين على مائة وخمسين، منها: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، والاصابة في تمييز الصحابة، والدرر الكامنة وغير ذلك: معجم المؤلفين ٢٠/٢ و٢١.

١٧- **ابن حجر الهيتمي:** هو أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي، السعدي، الانصاري، الشافعي، شهاب الدين، أبو العباس، فقيه

مشارك في انواع من العلوم. ولد في محلة أبي الهيتم من اقليم العربية بمصر في رجب، وتوفي بمكة. من مؤلفاته الكثيرة تحفة المحتاج لشرح المنهاج، مبلغ الارب في فضل العرب والصواعق المحرقة وغيرها: معجم المؤلفين ١٥٢/٢.

١٨- **الحسن البصري:** هو الحسن بن يسار البصري مولى زيد بن ثابت وقيل مولى جمل بن قطبة يسار، من سبي بيسان اعتقته بنت النظر. ولد سيدنا الحسن زمن سيدنا عمر بن الخطاب(ﷺ) وسمع سيدنا عثمان بن عفان (ﷺ) وشهد الدار وهو ابن إحدى عشر سنة، وكان كبير الشأن رفيع الذكر رأسا في العلم. توفي سنة ١١٠هـ: سير اعلام النبلاء للذهبي ٥٦٣/٤ وانظر: طبقات ابن سعد ١٥٦/٧ والزهد لأحمد بن حنبل ٢٥٨ وحلية الأولياء ١٣١/٢ والبداية والنهاية ٢٢٦/٩ وشذرات الذهب ١٣٦/١.

١٩- **الخوارج:** جمع مفرده خارجي وهو اسم لحزب سياسي وفرقة تظاهرت بالدين. سموا بهذا الاسم لخروجهم عن طاعة الإمام سيدنا علي- عليه السلام — وقيل غير ذلك. قالوا في مرتكب الكبيرة: كافر خالد في النار. ولهم فرق كثيرة مثل: المحكمة والازارقة والنجدات والحرورية وغيرها: مقالات الإسلاميين ١/ والملل والنحل ١٦٩/١ وتاريخ الفرق الإسلامية للغرابي ص٢٦٤.

٢٠- **الذهبي:** هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبدالله التركماني الاصل، الفارقي، الدمشقي، الذهبي، الشافعي، أبو عبدالله شمس الدين، محدث، مؤرخ. ولد بدمشق في ربيع الأول سنة ٦٧٣هـ-١٢٧٤-م- وسمع بها وسمع منه خلق كثير. وتوفي بدمشق في ٣ ذي القعدة سنة ٧٤٨هـ-١٣٤٨م ودفن بمقبرة الباب الصغير من تصانيفه الكثيرة: تاريخ الإسلام الكبير وميزان الاعتدال، طبقات الحفاظ: معجم المؤلفين ٢٨٩/٨.

٢١- **الرازي:** هو فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين، المتكلم المشهور، من أئمة الاشاعرة، كان له باع طويل في الوعظ وكان يبكي كثيرا في وعظه. وهو سلطان المتكلمين في زمانه. له مصنفات كثيرة منها: التفسير الكبير، واساس التقديس. توفي — رحمه الله — سنة ٦٠٦هـ-: طبقات الشافعية لابن شهبة ٣٩٦/١ وشذرات الذهب ٢١/٥و٢٢.

٢٢- **الراغب:** هو حسين بن محمد بن الفضل أبو القاسم الاصفهاني، ويقال: الاصبهاني، من أهل اصبهان. سكن بغداد واشتهر بين العلماء حتى قرن -رحمه

الله – بالغزالي. توفي في سنة ٥٠٢هـ وقيل ٥٠٣هـ. له: المفردات في غريب القرآن، وحل متشابهات القرآن، وجامع التفاسير: كشف الظنون ١/٣٦ والاعلام ٢٧٩/٢ وسير أعلام النبلاء ١٢٠/١٨ ووفيات الاعيان ٩٤/١.

٢٣- **الزجاج:** هو أبو اسحاق ابراهيم بن السري بن سهل،ولد في بغداد سنة ٢٤١هـ وكان عالما بالنحو واللغة وكان في فتوته يخرط الزجاج ثم اصبح كاتبا للقاسم بن المعتضد العباسي. له معاني القرآن وهو كتاب عظيم القدر، واعراب القرآن، والامالي في الادب واللغة. توفي – رحمه الله – في بغداد سنة ٣١١هـ: معجم الادباء ٤٧/١ وبغية الوعاة ٤١١/١ وطبقات المفسرين٧/١.

٢٤- **الزمخشري:** هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري، الخوارزمي، الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان. كان امام عصره من غير مدافع، صنف التصانيف البديعة منها الكشاف في تفسير القرآن العظيم واساس البلاغة في البلاغة. كان داعية الاعتزال، توفي في سنة ٥٣٨هـ: شذرات الذهب ١١٨/٤و١٢١.

٢٥- **السهرندي:** هوسيدنا أحمد بن عبد الاحد السهرندي – نسبة إلى سهرند- مدينة بين دهلي ولاَهور. الفاروقي، النقشبندي. من مصنفاته العظيمة: آداب المريدين، واثبات النبوة، واثبات الواجب، والمبدأ والمعاد، والمعارف الدينية. ولد سنة ٩٧١هـ- وتوفي سنة١٠٣٤هـ. وهو من كبار الأولياء الصالحين الذين نصروا السنة وقمعوا البدعة وجاهدوا في الله حق جهاده حتى أتاهم اليقين: معجم المؤلفين ٢٥٩/١.

٢٦- **السيوطي:** هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد بن خضر بن أيوب بن محمد بن همام الدين الخضيري الاصل، الطولوني، المصري، الشافعي، جلال الدين أبو الفضل، عالم مشارك في انواع من العلوم. ولد – رحمه الله – في رجب سنة ٨٤٩هـ-١٤٤٥م. ونشأ بالقاهرة يتيما وقرأ على كثير من العلماء، وتوفي في ١٩ جمادى الأولى سنة ٩١١هـ-١٥٠٥م بمنزله بروضة المقياس، ودفن في حوش قوصون خارج باب القرافة. من مؤلفاته الكثيرة التي زادت على خمسمائة مؤلف: الدر المنثور، والجامع الصغير، واتمام الدراية، وتدريب الراوي، وشرح الصدور وغيرها: معجم المؤلفين ١٢٨/٥.

٢٧- **الشافعي:** هو امامنا محمد بن ادريس الشافعي بن العباس بن عثمان بن شافع

القرشي، المطلبي، الشافعي، الحجازي، المكي أبو عبد الله أحد الائمة الاربعة عند أهل السنة، واليه تنسب الشافعية. ولد – رحمه الله – في مدينة غزة بفلسطين سنة ١٥٠هـ–٧٦٧م وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين نشأ بها وبمدينة رسول الله – ﷺ – وقدم بغداد مرتين وحدث بها ثم ذهب إلى مصر ودفن بها في آخر يوم من رجب سنة ٢٠٤هـ–٨١٩م.

من مصنفاته الكثيرة التي تقارب المائة: المسند في الحديث، واثبات النبوة والرد على البراهمة،والمبسوط، والرسالة في أصول الفقه: معجم المؤلفين ٣٢/٩.

٢٨- **الشعراني:** هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن موسى الشعراني، الانصاري، الشافعي، الشاذلي، المصري أبو المواهب أبو عبد الرحمن، فقيه، أصولي، محدث، صوفي، مشارك في انواع العلوم. ولد – رحمه الله – في قلقشنده في مصر في ٢٧ رمضان سنة ٨٩٨هـ – ١٤٩٣م وتوفي في القاهرة سنة ٩٧٣هـ – ١٥٦٥م. من مصنفاته الكثيرة: الجوهر المصون لواقح الانوار، المقدمة النحوية، شرح جمع الجوامع. وهو من كبار الأولياء الصالحين: معجم المؤلفين ٢١٨/٦.

٢٩- **الشهرستاني:** هو محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشافعي، المتكلم الاشعري المشهور، له نهاية الاقدام في علم الكلام، والملل والنحل وغيرهما.

توفي – رحمه الله – ٥٤٨هـ –: شذرات الذهب ١٤٩/٤.

٣٠- **الصابئة:** فرقة وثنية كانوا يقولون: ان صانع هذا العالم ومصوره ومدبره ونافعه وضاره هو الكواكب السبعة، وينكرون نبوة أحد من البشر وقد سكنوا في مدينة – حران – التي تقع جوار الحدود السورية التركية- داخل حدود تركيا-: الاديان دراسة تاريخية مقارنة للدكتور رشدي عليان والدكتور سعدون الساموك ص١٥٧ وما بعدها وخطط الشام للاستاذ محمد علي كرد ص١٥١.

٣١- **الطحاوي:** هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الازدي، المصري، المجري، الحنفي، من قرية – طحا – بمصر. كان فقيها حنفيا بارعا حتى انتهت إليه رياسة الفقهاء الاحناف بمصر. وهو متكلم كبير ألف كتاب العقيدة الطحاوية وله كتب عديدة مثل: اختلاف العلماء ومعاني الآثار، توفي بمصر سنة ٣٢١هـ: تذكره الحفاظ ٨٠٨/٣.

٣٢- **عبد الله الهرشمي:** هو عبد الله بن مصطفى بن أبي بكر بن محمد بن عبد الله، هرشمي، الاستاذ الدكتور، العلامة، استاذ الجيل، حضرة الشيخ المرشد.

حياته العلمية: فتح عينيه – ﷺ – على الحياة في أرض العراق في محافظة اربيل الجميلة، وهو كردي وللاكراد في صنع الحضارات يد بيضاء. نشأ في بيت والده العلامة الشيخ مصطفى كمال الدين وتعلم على يديه علوم الجادة كلها حتى وفقه الله تعالى لنيل الاجازة العلمية.

ودرس أيضاً على يد علماء آخرين في الشمال وبغداد. وكان معروفا بذكائه الخارق منذ نعومة اظفاره. واستمر في رحلته العلمية حتى أخذ الشهادة العالية من جامعة الازهر الشريف، ثم التحق بجامعة لندن بكلية القانون – الحقوق – قسم القانون المدني. وهناك ظهرت عبقريته لأصحاب الحضارة الكافرة فمنحه مجلس الجامعة شهادة الدكتوراه في ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٥٩م، وأصبح أول رجل قانون من العراق ينال مرتبة – دكتوراه في القانون المدني بجامعة لندن. ولما رجع إلى بغداد انتدب استاذا مدرسا في جامعاتها وكلياتها، فدرس مدة استاذا محاضرا في جامعة بغداد واستاذا دائما في الجامعة المستنصرية. ولم ينقطع خلال فترة التدريس الجامعي عن تدريس طلاب العلم الإسلامي علوم الكتاب والسنة، حتى منح بعضهم الاجازة العلمية. وفي خضم هذه الاجواء المزدحمة كان يؤلف الكتب ويكتب المقالات، فقد ظهر له: الرقابة المالية، علم أصول القانون – الذي كان يدرس على الطلاب في الجامعة، الحرية الجامعية، المقتضب – في علم الوضع –، المقتطف – في علم الصوت –، الرفيق الاعلى – وهو بحث علمي رصين في برهان العقل والحكمة والفيزياء الكونيتين –، سونيتات شكسبير، نفحات الحياة – ديوان شعر معاصر –، معالم الطريق في عمل الروح الإسلامي، وانشق القمر.

حياته الاجتماعية: ولما اشتهر اسمه وذاع صيته انتدبته الحكومة العراقية للعمل في وزارتها،فأسس ديوان الرقابة المالية، والدراسة العليا للمحاسبة القانونية بجامعة بغداد.ثم اصبح عضوا في مجلس ادارة البنك المركزي، وعضوا في مجلس الخدمة العامة، ومراقب الحسابات العام. وبعد ان اظهر ابداعاته الفكرية الهادفة واسفر عن آراءه العلمية النافعة،وضاعف اعماله التطورية الخادمة خلال هذه الوظائف رشح لتسلم إحدى وزارات الحكومة، فأصبح وزير المالية،وزير الاقتصاد،رئيس مجلس الرقابة المالية.

مناقبة وصفاته: لقد كان الدكتور عبد الله رأسا في العلم، رفيع الذكر، كبير الشأن، **شيخ الطريقة النقشبندية في العراق بلا منازع.** معروف بقوة شخصيته، وصلابة إيمانه، وعظمة أخلاقه، وصدق أقواله، وكبير غيرته. ومعلوم بمنهجه

الوسط لذا فهو يتحلى بقوة يقينه ونقده لعيوب مجتمعه، ودراسته العلمية للحضارة ومشكلات العصر وأمراضه، وهو كالطود الاشم، لا تجرفه غمار مجتمعه السائدة، ولا تطوه لجج حياته الصاخبة. وإن في المحادثة معه تلقيحا للعقل، وترويحا للقلب، وتسريحا للهم، وتنقيحا للادب، يشهد له بذلك حاسدوه قبل محبيه. وقد كانت سعة اطلاعه وتنوع معارفه وتعدد علومه وقوة روحه سببا لأن يكون رجلا قويا في حياته، وانسانا متميزا في مجتمعه، من غير ان يعرف التردد إليه سبيلا، ولا التذبذب إليه طريقا، مع تواضع كامل وحب شامل.

٣٣- **عبد الجبار القاضي:** هو عبد الجبار بن أحمد الهمداني، الاسترابادي، كان شيخ المعتزلة في زمانه. له مصنفات عديدة، منها: شرح الأصول الخمسة والمغني في أبواب العدل والتوحيد ودلائل النبوة. والأخير من أجل مصنفاته واعظمها. ذكره ابن المرتضى في الطبقة الحادية عشرة. وكان في ابتداء حاله يذهب في الأصول مذهب الاشعرية، وفي الفروع مذهب الإمام الشافعي ثم تحول إلى الاعتزال، واليه انتهت الرياسة في المعتزلة. توفي — رحمه الله تعالى — في سنة ٤١٥ هـ: شذرات الذهب ٣/ ٢٠٢ و٢٠٣ وطبقات المعتزلة ١١٢.

٣٤- **عياض القاضي:** هو عياض بن موسى اليحصبي، السبتي، عالم المغرب، وامام أهل الحديث في وقته، ولي قضاء — سبتة — ثم قضاء — غرناطة -. من مؤلفاته المشهورة: الشفا بتعريف حقوق المصطفى. توفي- رحمه الله — بمراكش سنة ٥٤٤ هـ: تذكرة الحفاظ ٤، وتاريخ قضاة الاندلس ص١٠١.

٣٥- **الغزالي:** هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي، المعروف بالغزالي. زين الدين أبو حامد حكيم، متكلم، فقيه، صوفي، مشارك في انواع من العلوم. ولد رحمه الله بخراسان ثم ارتحل إلى امام الحرمين أبي المعالي الجويني بنيسابور، فتعلم على يديه ولازمه ثم ندب للتدريس بنظامية بغداد. ولد في سنة ٤٥٠ هـ وتوفي بالطايران إحدى قصبتي طوس بخراسان نفس مكان ولادته وذلك في سنة ٥٠٥هـ. من مصنفاته: احياء علوم الدين، وتهافت الفلاسفة، والمستصفى في أصول الفقه وغيرها: معجم المؤلفين ١١/٢٦٦.

٣٦- **غيلان الدمشقي:** هو غيلان بن يونس وقيل: غيلان بن مروان القدري الدمشقي، كان قبطيا وكان والده مولى لعثمان بن عفان وكان خطيبا فصيحا جدليا ماهرا، ولد سنة ١٠٥هـ وقتله هشام بن عبد الملك بباب دمشق: سرح العيون لابن نباتة ٢٨٩ وتاريخ الفرق الإسلامية لعلي الغرابي ٣٣.

٣٧- **الفراء:** هو يحيى بن زياد الفراء من العلماء الكوفيين. كان اماما في اللغة وحجة أهل الكوفة، له مؤلفات قيمة منها: معاني القرآن. توفي سنة ٢٠٧هـ: بغية الوعاة ٣٣٣/٢ وتهذيب التهذيب ٢١٢/١١.

٣٨- **قتادة:** هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي، البصري، الضرير، الحافظ المفسر. ولد سنة ٦٠ هـ وهو رأس الطبقة الرابعة، كان اماما في العربية وأيام العرب وتوفي سنة ١١٧: شذرات الذهب ١٥٣/١ وتذكرة الحفاظ ١٢٢/١.

٣٩- **ابن قتيبة:** عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ولد في بغداد المحروسة سنة ٢١٣ هـ وسكن الكوفة ثم ولي قضاء الدينور مدة من الزمن فنسب اليها. كان اماما لغويا ونحويا عارفا بالاخبار، وكان ثقة فاضلا من المؤلفين المكثرين، له: تأويل مختلف الحديث، ومشكل القرآن وغيرهما. توفي رحمه الله في سنة ٢٧٦هـ: بغية الوعاة ٦٣/٢ وحياة الاعيان ٢٥٩/١.

٤٠- **القدرية:** تطلق كلمة القدرية على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى احترازا من وصمة اللقب، إذ كان الذم به متفقا عليه لقول الرسول الأعظم -ﷺ-: (القدرية مجوس هذه الأمة). ثم تحول هذا الاسم إلى نفاة القدر وكان من رؤساء هذه الفرقة معبد الجهني وغيلان الدمشقي/ وقد تقدمت ترجمة الثاني وسوف تأتي ترجمة الأول ان شاء الله تعالى: الملل والنحل للشهرستاني ٤٣/١ والفرق بين الفرق للبغدادي ص٩٤.

٤١- **القرامطة:** فرقة تنسب إلى حمدان بن قرمط وهي من الفرق الباطنية. عاثوا في الأرض فسادا وقتلوا وسلبوا أموال الناس، واعترضوا قوافل الحجاج وقتلوهم وسبوا النساء ونهبوا ما في القوافل، ودخلوا مكة المكرمة في موسم الحج سنة ٣١٢هـ- ونزعوا كسوتها واخذوا الحجر الاسود من مكانه إلى الاحساء، ودام وجودهم قرابة قرن من الزمان. وكانوا على صلة وتعاون مع كل الحركات الهدامة، فقد اتصلوا بالزنج وغيرهم. وشملت عملياتهم الارهابية مدنا كثيرة من دولة الإسلام: الكامل في التاريخ لابن الاثير٤٤/٧ وما بعدها و٤٤٩و٥١١و٥٤٨ والبداية والنهاية لابن كثير ١١/و ١٧٨ وتلبيس ابليس لابن الجوزي ١٠٤و١٠٥.

٤٢- **ابن القيم:** هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن ايوب بن سعيد الزراعي ثم الدمشقي، ابن قيم الجوزية، الفقيه، الأصولي، المفسر، النحوي. ولد سنة ٦٩١هـ. له: تهذيب سنن أبي داود، وزاد المعاد، واعلام الموقعين وغيرها.

توفي بدمشق سنة ٧٥١هـ-: الذيل على طبقات الحنابلة ٤٤٧/٢ و٤٥٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٩/١٠ والاعلام ٥٦/٦.

٤٣- **الماتريدي:** هو أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، السمرقندي. نسبة إلى قرية – ما تريد – من قرى سمرقند.ولد الإمام الماتريدي – رحمه الله- حوالي سنة ٢٣٨هـ وهو امام أهل السنة والجماعة، اظهر الحق ودافع عنه وهو من كبار متكلمي أهل السنة والجماعة. له كتاب التوحيد، والجدل في أصول الفقه، والرد على القرامطة. وقد قام بدور عظيم في زمانه خدمة لعقيدة المسلمين حتى توفي في سنة ٣٣٣هـ-: الفوائد البهية ص١٩٥.

٤٤- **مجاهد:** هو مجاهد بن جبير مولى عبد الله بن السائب من مشاهير علماء التابعين وكبارهم – رحمه الله – كان مفسرا، فقيها، زاهدا، توفي ١٠٢هـ-: تهذيب التهذيب ٤٢/٨.

٤٥- **المرجئة:** الارجاء في اللغة هو: التأخير وسميت هذه الفرقة بهذا الاسم لقولهم بتأخير الأعمال عن الإيمان، بمعنى انهم بالغوا في اثبات الوعد وغلبوا نصوصه على نصوص الوعيد بخلاف الخوارج المبالغين في الوعيد. وقالوا في مرتكب الكبيرة: إنه مؤمن. ورفعوا عنه العذاب. وقد اشتهر عنهم انهم كانوا يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة: الفرق بين الفرق ص١٥١ و ص ١٥٣ والتبصير في الدين ص ٩٧ وص ٩٩.

٤٦- **معبد الجهني:** تابعي ومحدث، نشأ في البصرة وتنقل بين العواصم الإسلامية الكبرى، فزار دمشق والمدينة المنورة، وكان له تلاميذ واتباع. قتله الحجاج سنة ٩٥هـ – وهو أول من تكلم بالقدر ودعا إلى القول بحرية الارادة والاستطاعة. وكان ينكر فكرة القضاء المحتوم التي يتعلل بها الحكام لتسويغ تصرفاتهم وافعالهم: ميزان الاعتدال ١٤١/٤ وتهذيب التهذيب ٤٤/٩.

٤٧- **المعتزلة:** مدرسة فكرية كلامية كبيرة. لها مواقف كلامية عديدة واتجاهات فكرية خطيرة. ظهرت في بداية القرن الثاني للهجرة في مدينة البصرة جنوب العراق. مؤسسها واصل بن عطاء – سوف تأتي ترجمته – الذي كان تلميذا مستمعا في مجلس الإمام الحسن البصري، كانوا يقولون في مرتكب الكبيرة: في منزلة بين المنزلتين وانكروا رؤية الله تعالى يوم القيامة وقالوا بأن الإنسان خالق لأفعاله الاختيارية: الفرق بين الفرق ص٩٤ وما بعدها وتاريخ الفرق الإسلامية

لعلي الغرابي ٤٥و٤٦.

٤٨- **المناوي:** هو علي بن أحمد بن عثمان بن محمد بن اسحاق، السلمي، المناوي الاصل، القاهري، الشافعي، فقيه مشارك في بعض العلوم. ولد بالقاهرة في ١٣ ربيع الأول سنة ٨٧٧هـ ١٤٧٢م ودفن بحوش سعيد السعداء. وهو من الأولياء الصالحين. من مؤلفاته: فيض القدير وتعليق على الحاوي وغيرهما: معجم المؤلفين ٧/٢٠.

٤٩- **النووي:** هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن خزام النووي، الدمشقي، الشافعي، محيي الدين بن زكرياء، فقيه، محدث، حافظ، مشارك في بعض العلوم. ولد – رحمه الله- بمدينة – نوى- من اعمال حوران في العشر الأول من المحرم سنة ٦٣١هـ. وقرأ الفقه وأصوله والحديث وأصوله والمنطق والنحو وأصول الدين وسمع الكثير، وولي مشيخة دار الحديث بعد شهاب الدين أبي شامة. وتوفي بنوى في ١٤ رجب سنة ٦٧٧ هـ- ودفن بها. من مصنفاته الكثيرة: شرح صحيح مسلم، والمجموع،وروضة الطالبين، ورياض الصالحين، وتهذيب الاسماء واللغات: معجم المؤلفين ١٣/٢٠٢.

٥٠- **ابو الهذيل:** هو محمد بن هذيل العيدي، العلاف مولى عبد القيس، وشيخ معتزلة البصرة. ولد في سنة ١٣١هـ – وقيل: في سنة ١٣٥هـ - وهو من الطبقة السادسة من طبقات المعتزلة. توفي ٢٣٥هـ -: طبقات المعتزلة ص٤٤.

٥١- **واصل بن عطاء:**هو أبو حذيفة المخزومي، الغزّال. ولد واصل سنة ٨٠هـ- بالمدينة المنورة، ومات سنة ١٣١هـ. وهو مؤسس المدرسة الاعتزالية الفكرية الخطيرة. وهو اول من قال في مرتكب الكبيرة: أنه في منزلة بين المنزلتين: سير أعلام النبلاء ٥/٤٦٤ و٤٦٥.

﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

- آ -

٢- آداب البحث لعضد الدين عبدالرحمن بن أحمد الايجي، (ت -٧٥٦هـ-) وهو مطبوع في: مجموع مهمات المتون، دار الفكر، ط٤، ١٣٦٩هـ-١٩٤٩م.

٣- آداب الزفاف في السنة المطهرة، محمد ناصر الدين الالباني، المكتب الإسلامي، الاردن، ط٨، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

- أ -

٤- أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، الدكتور ابراهيم علي شعوط، المكتب الإسلامي، ط٦، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٥- الابهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاضي البيضاوي (ت - ٦٨٥هـ)، تأليف شيخ الإسلام علي بن عبد الكافي السبكي (ت-٧٥٦هـ) وولده تاج الدين عبدالوهاب بن علي السبكي (ت -٧٧١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٦- الاتباع للعلامة القاضي ابن أبي العز الحنفي (ت -٧٩٢هـ)، تحقيق الشيخ محمد عطا الله حنيف والدكتور عاصم بن عبدالله القريوتي، عالم الكتب، ط٢، ١٤٠٥هـ.

٧- الاتقان في علوم القرآن، شيخ الإسلام جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، عالم الكتب - بيروت -. اهمل ذكر الطبعة والسنة.

٨- احياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت-٥٠٥هـ)، وبذيله كتاب: المغني عن حمل الاسفار للحافظ العراقي، دار القلم، بيروت - لبنان، ط٣.

٩- اخلاقنا أو الدمار، ابراهيم النعمة، شركة معمل ومطبعة الزهراء الحديثة، العراق- موصل، ط٣.

١٠- الأدب المفرد لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (ت -٢٥٦هـ)، القاهرة، ط٢.

١١- ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني (ت-٩٢٣هـ) المطبعة الاميرية ببولاق مصر المحمية، ط٧، ١٣٢٣هـ.

١٢- الارشاد إلى قواطع الادلة في أصول الاعتقاد لامام الحرمين الجويني (ت -٤٧٨هـ)، تحقيق الدكتور محمد يوسف موسى والاستاذ علي عبدالمنعم عبدالحميد، مطبعة

السعادة بمصر، ١٣٦٩ هـ-١٩٥٠م.

١٣- أزمة العقل المسلم، الدكتور عبدالحميد أحمد أبو سليمان، مكتبة المنار، الزرقاء - الاردن. اهمل ذكر عدد الطبعة والسنة.

١٤- ازمة المثقفين تجاه الإسلام في العصر الحديث، الدكتور محسن عبدالحميد، مطبعة وزارة التربية، ط٣، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

١٥- أساس البلاغة للعلامة أبي القاسم جار الله الزمخشري، بتحقيق الاستاذ عبدالرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٣٩٩ هـ -١٩٧٩م.

١٦- الإسلام والدعوات الهدامة، بقلم انور الجندي، اهمل ذكر المطبعة والسنة.

١٧- الإسلام والتنمية الاجتماعية بقلم الدكتور محسن عبدالحميد، دار الانبار، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م، مطبعة الخلود.

١٨- الإسلام وتحديات العصر، الدكتور حسن صعب، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط٤، ١٩٧٩م.

١٩- أصول الفقه للعلامة الشيخ محمد الخضري بك، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ط٦، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

٢٠- أصول الفقه للعلامة الشيخ محمد أبي زهرة، دار الفكر العربي. اهمل ذكر المطبعة والسنة.

٢١- أصول الفقه للعلامة الشيخ رشيد الخطيب الموصلي، حققه ابراهيم النعمة، طبع بمطابع الجمهور - الموصل.

٢٢- أصول الدعوة، الدكتور عبدالكريم زيدان. اهمل ذكر المطبعة والسنة.

٢٣- أصول الدين، للامام الاستاذ أبي منصور عبدالقاهر بن طاهر التميمي البغدادي، (ت -٤٢٩هـ) دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط٣، ١٤٠١هـ-١٩٨١ م.

٢٤- أصول الدين الإسلامي، الدكتور رشدي محمد عليان والدكتور قحطان عبدالرحمن الدوري، مطبعة الارشاد - بغداد، ط٣، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٢٥- أصول العقيدة الإسلامية التي قررها الإمام الطحاوي مع منتخبات اختارها عبدالمنعم صالح العلي العزي من شرح ابن أبي العز الاذرعي (ت -٧٩٢هـ) الناشر مكتب زيار، مطبعة وزارة الثقافة.

٢٦- اظهار الحق، للعلامة رحمة الله الهندي، تقديم الدكتور عبدالحليم محمود، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م. اهمل ذكر المطبعة.

٢٧- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، للامام فخر الدين الرازي، تقديم وتحقيق

الدكتور محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي - القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
٢٨- الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة، للامام الحافظ الكبير أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت -٤٥٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
٢٩- اعلام الموقعين عن رب العالمين، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (ت - ٧٥١هـ) حققه وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط٢، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.
٣٠- الاغتراب الروحي لدى المسلم المعاصر، اديب ابراهيم الدباغ، مكتبة الرشد، شركة الخنساء للطباعة، بغداد.
٣١- افعال العباد بين الجبر والاختيار في القرآن الكريم، الدكتور عبدالملك عبدالرحمن السعدي، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، دار الانبار.
٣٢- الاقتصاد في الاعتقاد للامام أبي حامد الغزالي - رحمه الله تعالى - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
٣٣- إمام أهل السنة والجماعة أبو منصور الماتريدي وآراؤه الكلامية، الدكتور علي عبد الفتاح المغربي، القاهرة، مكتبة وهبة،١٩٨٥م.
٣٤- الأمراض الجنسية، الدكتور نبيل الطويل، ط١، ١٣٩٣هـ. اهمل ذكر المطبعة.
٣٥- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الدكتور محمد عبدالقادر أبو فارس، دار الفرقان - الاردن، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
٣٦- الاموال لأبي عبيد القاسم بن سلام، ط١، القاهرة، ١٣٨٨هـ.
٣٧- الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد، لأبي الحسين عبدالرحيم بن محمد بن عثمان الخياط، تحقيق ونشر نيبرج، القاهرة، ١٣٤٤هـ-١٩٢٥م.
٣٨- الإنسان هل هو مسير أم مخير، الدكتور فؤاد خدرجي العقلي، الناشر مكتبة الخانجي - القاهرة، ط١، ١٩٨٠م.
٣٩- الانصاف فيما يجب اعتقاده ولايجوز الجهل به، لامام المتكلمين القاضي أبي بكر بن الطيب الباقلاني، البصري (ت - ٤٠٣هـ) تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.
٤٠- اين الخطأ، عبدالله العلايلي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٧٨م.
٤١- الإيمان - أركانه - حقيقته - نواقضه، الدكتور محمد نعيم ياسين، الناشر مكتبة

التراث الإسلامي - القاهرة.
٤٢- الإيمان باليوم الآخر، الاستاذ اسعد محمد سعيد الصاغرجي، دار القبلة - السعودية -، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

- ب -

٤٣- باطن الاثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، دمشق - سوريا، ط٣، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م.
٤٤- البحر المحيط للعلامة اثير الدين محمد بن يوسف المشهور بأبي حيان الاندلسي الغرناطي، دار الفكر، ط٢، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
٤٥- بداية المجتهد ونهاية المقتصد للامام القاضي أبي الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي، الاندلسي الشهير بابن رشد الحفيد (ت -٥٩٥هـ) دار الفكر. اهمل ذكر السنة.
٤٦- البداية والنهاية للحافظ أبي الفداء ابن كثير الدمشقي (ت -٧٧٤هـ)، مكتبة المعارف، بيروت - لبنان، ط٧، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
٤٧- البرهان في معرفة عقائد أهل الاديان، للامام العلامة أبي عبدالرحمن الحنبلي، السكسكي، الاردن.
٤٨- البرهان في علوم القرآن للامام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت -٧٩٤هـ) تحقيق وتعليق الاستاذ مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٣٠٨هـ-١٩٨٨م.

- ت -

٤٩- تأويلات أهل السنة للامام أبي منصور محمد بن محمود الماتريدي (ت -٣٣٣هـ) تحقيق الدكتور محمد مستفيض الرحمن، مطبعة الارشاد-بغداد، ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م.
٥٠- تاج العروس من جواهر القاموس، للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م. واعتمدت أيضاً على طبعة: منشورات مكتبة الحياة، بيروت - لبنان.
٥١- تاريخ الديانتين اليهودية والمسيحية، الدكتور سعدون محمود الساموك والدكتور رشدي محمد عليان، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر - جامعة الموصل، ١٩٨٨م.
٥٢- تاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين، للشيخ علي مصطفى الغرابي، مطبعة محمد علي صبيح، مصر، ط٢، ١٣٧٨هـ-١٩٥٩م.
٥٣- تاريخ الجهمية والمعتزلة، للعلامة جمال الدين القاسمي، الدمشقي، مطبعة المنار

بمصر، ط١، ١٣٣١هـ.
٥٤- التبشير والاستعمار في البلاد العربية، الدكتور مصطفى خالد والدكتور عمر فروخ، ط٢، بيروت،١٩٥٧م.
٥٥- التبصير في الدين للاستاذ أبي المظفر الاسفرائيني الاشعري (ت -٤٧١هـ) تحقيق العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري (ت -١٣٧١هـ)، القاهرة، الناشر مكتبة الخانجي بمصر،١٣٧٤هـ-١٩٥٥م. واعتمدت أيضاً على طبعة الثقافة الإسلامية، ط١، ١٣٥٩هـ-١٩٤٠م.
٥٦- تبيين كذب المفتري فيما نسب للامام أبي الحسن الاشعري، للعلامة أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة بن عساكر الدمشقي (ت -٣٥٧هـ) مطبعة التوفيق، ١٣٤٧هـ.
٥٧- تحقيق كتاب: ميزان الأصول للسمرقندي - وهو رسالة دكتوراه للشيخ عبدالملك عبدالرحمن السعدي، مطبعة الخلود، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
٥٨- التذكرة في احوال الموتى وامور الآخرة، للامام شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الانصاري القرطبي (ت -٦٧١هـ) دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
٥٩- تربيتنا الروحية، للشيخ سعيد حوى، دار الكتب العربية، دمشق - بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
٦٠- الترغيب والترهيب، للامام الحافظ زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري (ت -٦٥٦هـ) تحقيق وتعليق الاستاذ مصطفى محمد عماره، دار احياء التراث العربي، ط ٣، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.
٦١- التطرف الديني، الدكتور سعدون الساموك والدكتور قحطان الدوري والدكتور رشدي عليان، مطبعة وزارة الاوقاف والشؤون الدينية.
٦٢- التعبير القرآني، الدكتور فاضل صالح السامرائي، جامعة بغداد، بيت الحكمة.
٦٣- التعريفات، للامام الشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط٣، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
٦٤- تفسير البيضاوي المسمى: انوار التنزيل واسرار التأويل، للامام ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، وبهامشه حاشية الكازروني، دار الفكر، دار صادر، بيروت - لبنان. اهمل ذكر السنة.
٦٥- تفسير روح البيان، للامام الشيخ اسماعيل حقي البروسوي (ت -١١٣٧هـ) دار

الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. اهمل ذكر السنة.
٦٦- تفسير الزمخشري المسمى: الكشاف، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت -٥٣٨هـ) ومعه حاشية السيد الشريف الجرجاني عليه، دار الفكر. اهمل ذكر الطبعة والسنة.
٦٧- تفسير ابن كثير، للامام أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت -٧٧٤هـ) دار المفيد، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.
٦٨- تفسير الماوردي المسمى: النكت والعيون، لأبي الحسن علي بن حبيب الماوردي البصري (ت - ٤٥٠هـ) حققه خضر محمد خضر، مطابع مقهوي - الكويت، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
٦٩- تفسير النسفي، للامام الجليل العلامة أبي البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان. اهمل ذكر الطبعة والسنة.
٧٠- تفسير المدرس المسمى: مواهب الرحمن في تفسير القرآن، للعلامة الشيخ عبدالكريم محمد المدرس، دار الحرية للطباعة - بغداد، ط٢، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
٧١- تفسير سيد قطب المسمى: في ظلال القرآن، سيد قطب، ط٥، ١٣٨٦هـ-١٩٦٧م.
٧٢- تفسير السيوطي المسمى: الدر المنثور في التفسير المأثور، للامام عبدالرحمن جلال الدين السيوطي (ت -٩١١هـ) دار الفكر، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٧٣- تفسير الثعالبي المسمى: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المطبعة الثعالبية، الجزائر، ١٣٢٥هـ.
٧٤- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط٢، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
٧٥- تفسير الطبري المسمى: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للامام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت -٣١٠هـ) دار الفكر، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، واعتمدت أيضاً على طبعة دار المعارف بمصر بتحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، وعلى طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط٣، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م وعلى طبعة المطبعة الاميرية،ط١٣٢٨،١هـ.
٧٦- التفسير الفريد للقرآن المجيد، الدكتور محمد عبدالمنعم الجمال. اهمل ذكر المطبعة والطبعة والسنة.
٧٧- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، الدكتور محمد سيد طنطاوي، مطبعة السعادة، ط

١٤٠٩، ٢هـ-١٩٨٨م.
٧٨- تفسير غريب القرآن، للامام عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، بتحقيق السيد أحمد صقر، دار احياء الكتب العربية، ١٣٧٨هـ-١٩٥٨م.
٧٩- تفسير السمرقندي المسمى: تفسير القرآن الكريم، لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن ابراهيم السمرقندي (ت -٣٧٥هـ) دراسة وتحقيق الدكتور عبدالرحيم أحمد الزفة، مطبعة الارشاد - بغداد، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
٨٠- التفسير الكبير، للامام فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، طهران، ط٢، واعتمدت أيضاً على طبعة دار الفكر، بيروت - لبنان.
٨١- تفسير الخازن المسمى: لباب التأويل في معاني التنزيل للامام العلامة علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن، وبهامشه تفسير الإمام النسفي، مطبعة دار الكتب العربية الكبرى.
٨٢- تفسير الشربيني المسمى: السراج المنير للامام محمد الخطيب الشربيني الشافعي. اهمل ذكر المطبعة والتاريخ.
٨٣- تفسير الآلوسي المسمى: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (ت -١٢٧٠هـ) دار الطباعة المنيرية، دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان. واعتمدت أيضاً على طبعة دار الفكر للنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.
٨٤- تفسير القرطبي المسمى: الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي، دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان. وقد اعتمدت على طبعة أخرى أيضاً.
٨٥- تقريب المرام في شرح تهذيب الكلام للعلامة الشيخ عبدالقادر السنندجي الكردستاني مع حاشية المحاكمات، المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحمية، ١٣١٨هـ.
٨٦- التقرير والتحبير شرح العلامة المحقق ابن امير الحاج على تحرير الإمام الكمال ابن الهمام، المطبعة الاميرية ببولاق مصر، ط١، ١٣١٦هـ.
٨٧- التلويح في كشف حقائق التنقيح، للعلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني الشافعي (ت -٧٩٢هـ) دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٣٧٧هـ-١٩٥٧م.
٨٨- التمهيد، للامام القاضي أبي بكر محمد بن الطيب بن الباقلاني (ت -٤٠٣هـ) نشرة الاب رتشرد يوسف اليسوعي، المكتبة الشرقية، بيروت، سنة ١٩٥٧م.

٨٩- تنبيه المسلم إلى تعدي الالباني على صحيح مسلم، محمود سعيد ممدوح، اهمل ذكر الطبعة والسنة.

٩٠- التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع، للامام الفقيه المحدث أبي الحسين محمد بن أحمد بن عبدالرحمن الملطي الشافعي (ت -٣٧٧هـ) قدم له وعلق عليه العلامة محمد زاهد بن الحسن الكوثري، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

٩١- تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، للعلامة الشيخ محمد امين الكردي الاربلي، دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

٩٢- تهذيب الكلام لسعد الملة والدين العلامة التفتازاني، وهو مطبوع مع كتاب تقريب المرام في شرح تهذيب الكلام للعلامة السنندجي، المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحمية، ١٣١٨هـ.

٩٣- التوضيح على متن التنقيح، وهو بهامش التلويح على متن التنقيح، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. اهمل ذكر السنة.

- ج -

٩٤- جاهلية القرن العشرين، محمد قطب، دار الشروق، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٩٥- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد المرحوم أحمد الهاشمي، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ط١٢، ١٣٧٩هـ-١٩٦٠م.

- ح -

٩٦- الحاجات الاقتصادية في المذهب الاقتصادي الإسلامي، أحمد عواد محمد الكبيسي، ط١، مطبعة العاني - بغداد، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

٩٧- الحرية الجامعية، الدكتور عبدالله مصطفى الهرشمي، طبع بمطابع التعليم العالي، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

٩٨- حاشية الشهاب المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير العلامة البيضاوي، دار صادر، بيروت.

٩٩- حاشية العلامة أبي الفضل القرشي، الصديقي، الخطيب، المشهور بالكازروني على تفسير العلامة البيضاوي، دار صادر، بيروت - لبنان.

١٠٠- حاشية العلامة رمضان افندي على شرح النسفية للعلامة التفتازاني، مطبعة الحاج حسين افندي، ١٣٠٤هـ.

١٠١- حاشية الشيخ العلامة اسماعيل الكلنبوي (ت -١٢٠٥هـ) على شرح الدواني، دار الطباعة العامرة، ١٣١٧هـ.

١٠٢- حاشية العلامة السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد زين الدين أبي الحسين الجرجاني على الكشاف للعلامة الزمخشري، دار الفكر للطباعة والنشر،ط١، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.
١٠٣- حاشية العلامة السيالكوتي على شرح المواقف للسيد الشريف الجرجاني، مطبعة السعادة بمصر، ط١، ١٣٢٥هـ-١٩٠٧م.
١٠٤- حاشية العلامة السندي على سنن الإمام النسائي، دار القلم، بيروت - لبنان.
١٠٥- حاشية الشيخ زين الدين قاسم الحنفي على كتاب المسايرة، المطبعة الاميرية الكبرى ببولاق مصر، ط١، ١٣١٧هـ.
١٠٦- حاشية العلامة الشيخ ابراهيم البيجوري على متن السنوسية، مطبعة دار احياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي وشركاءه بمصر.
١٠٧- حاشية الإمام محمد عبده على العقائد العضدية، وشرحه للدواني، المطبعة الخيرية، ١٣٣٢هـ.
١٠٨- حصوننا مهددة من داخلها بقلم الدكتور محمد محمد حسين، دار الارشاد، بيروت، ط٣، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.
١٠٩- الحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية، للعلامة الشيخ حسين بن محمد الجسر الطرابلسي (ت -١٣٢٧هـ) منشورات نور محمد كارخانة.
١١٠- حلية الأولياء وطبقات الاصفياء للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الاصفهاني (ت - ٤٣٠هـ) دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
١١١- حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء، للعلامة الإمام سيف الدين أبي بكر محمد بن أحمد الشاشي القفال، تحقيق الدكتور ياسين أحمد درادكه، مكتبة الرسالة الحديثة، الاردن، ط١، ١٩٨٨م.
١١٢- حول قضية التراث، الدكتور محسن عبدالحميد، مكتبة القدس، بغداد - العراق ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.
١١٣- حياة محمد - ﷺ - محمد حسين هيكل. اهمل ذكر المطبعة والسنة.
١١٤- الحياة الآخرة ما بين البعث إلى دخول الجنة أو النار، الدكتور غالب بن علي عواجي، المكتبة العصرية الذهبية، السعودية، ط٢، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

- خ -

١١٥- خصائص التصور الإسلامي، سيد قطب، دار الشروق، ط٧، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
١١٦- الخصائص العامة للإسلام، الدكتور يوسف القرضاوي، دار المعرفة، الدار البيضاء.

اهمل ذكر السنة.

١١٧- الخوالد من آراء حجة الإسلام الغزالي، بقلم الدكتور صلاح الدين عبداللطيف الناهي، دار الجيل - بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

- د -

١١٨- دائرة معارف القرن العشرين، تأليف فريد وجدي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٧١م.

١١٩- دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، الدكتور عرفان عبدالحميد، مطبعة الارشاد، بغداد، ط١، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

١٢٠- الدرر السنية في الرد على الوهابية، السيد أحمد بن زيني دحلان (ت -١٣٠٤هـ-١٨٨٦م). اهمل ذكر المطبعة والسنة.

١٢١- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، للعلامة محمد بن علان الصديقي الشافعي الاشعري المكي، (ت -١٠٥٧هـ) دار الريان للتراث، القاهرة، ط١٤٠٧،١هـ-١٩٨٧م.

- ر -

١٢٢- رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، محمد قطب، دار الوطن للنشر، الرياض، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١.

١٢٣- رسالة في علم العقائد للعلامة الشيخ رشيد الخطيب، مطبعة الجمهورية، الموصل، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.

١٢٤- رسالة في التوحيد والفرق المعاصرة، كمال الدين الطائي، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

١٢٥- رسالة الآداب في علم آداب البحث والمناظرة، للعلامة الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ط٧، ١٣٧٨هـ-١٩٥٨م.

١٢٦- الرسالة الإسلامية، للعلامة الدكتور السيد محمد علوي المالكي، مطبعة سحر، المملكة العربية السعودية، جدة، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

١٢٧- روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط٢٥، ١٩٨٥م.

١٢٨- الروح، للعلامة شمس الدين أبي عبدالله بن قيم الجوزية (ت -٧٥١هـ) مكتبة الشرق الجديد، بغداد، ط١، ١٩٨٥م.

١٢٩- رياض الصالحين، لحجة الإسلام يحيى بن شرف النووي (ت -٦٧٦هـ) تحقيق محمد ناصر الدين الالباني، المكتب الإسلامي، ط١٤٠٦،٣هـ.

- س -

١٣٠- سلسلة الأحاديث الصحيحة والضعيفة والموضوعة واثرها السيء في الأمة، للسقاف، المكتب الإسلامي، الاردن.

١٣١- سنن أبي داود للامام الحافظ أبي داود سليمان بن اشعث السجستاني الازدي (ت - ٢٧٥هـ) الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١٣٢- سنن الترمذي للامام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت - ٢٧٩هـ) بتحقيق وشرح العلامة أحمد محمد شاكر، دار الفكر للطباعة والنشر.

١٣٣- سنن النسائي للامام للحافظ النسائي وهي بشرح السيوطي وحاشية الإمام السندي، دار القلم، بيروت - لبنان، اهمل التاريخ.

١٣٤- سنن ابن ماجة للحافظ القزويني وعليها شرح الإمام أبي الحسن الحنفي السندي، دار الجيل، بيروت - لبنان.

١٣٥- سنن الدارمي للامام أبي محمد عبدالله بن بهرام الدارمي (ت -٢٥٥هـ) دار الفكر - بيروت - لبنان.

١٣٦- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، الدكتور الشيخ مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١٣٧- السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مكتبة المعارف، بغداد، ط٥، ١٩٩٠م.

١٣٨- سير اعلام النبلاء، للامام محمد بن أحمد بن عثمان التركماني، الدمشقي، الشافعي، الذهبي (ت -٧٤٨هـ) مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

١٣٩- السيرة النبوية لأبي محمد عبدالملك بن هشام بن ايوب الحميري (ت -٢١٨هـ) تحقيق وشرح الاستاذ مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبدالحفيظ شلبي، الناشر دار الفكر، بيروت - بغداد، مطبعة اوفسيت منير - بغداد.

١٤٠- السيرة النبوية، للسيد أبي الحسن علي الحسني الندوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

- ش -

١٤١- شبهات حول الإسلام، محمد قطب، دار الشروق، ط١١، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

١٤٢- شبهات وانحرافات في التفكير الإسلامي، توفيق علي وهبه، دار الفكر العربي، ط١، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

١٤٣- شبهات وأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها، الشيخ الإمام محمد متولي الشعراوي، دار القلم، بيروت - لبنان.

١٤٤- الشباب والتغيير، فتحي يكن، ط١٤، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

١٤٥- شرح صحيح مسلم، للامام محيي الدين النووي الشافعي (ت -٦٧٦هـ) دار القلم، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

١٤٦- شرح العقيدة النسفية للعلامة سعد الدين التفتازاني بحاشية رمضان افندي، مطبعة الحاج حسين افندي، ١٣٠٤هـ.

١٤٧- شرح النسفية في العقيدة الإسلامية للدكتور الشيخ عبدالملك عبدالرحمن السعدي، مكتبة دار الانبار، العراق، الرمادي، ط١/ ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م.

١٤٨- شرح المقاصد، للعلامة الإمام مسعود بن عمر بن عبدالله سعد الدين التفتازاني (ت -٧٩٣هـ) تحقيق الدكتور عبدالرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت - لبنان.

١٤٩- شرح العقيدة الطحاوية، للامام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي (ت -٧٩٣هـ) تحقيق الدكتور عبدالله بن محسن التركي والشيخ شعيب الارناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١٥٠- شرح جوهرة التوحيد المسمى: اتحاف المريد بجوهرة التوحيد، للشيخ عبدالسلام بن ابراهيم اللقاني، المالكي، ومعه كتاب النظام الفريد للشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ط٢، ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م.

١٥١- شرح سنن ابن ماجة للعلامة أبي الحسن الحنفي السندي، دار الجيل، بيروت - لبنان.

١٥٢- شرح الفقه الأكبر، للامام أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الحنفي، الماتريدي السمرقندي (ت -٣٣٣ هـ) مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند بحيدر آباد الدكن، ١٣٢١هـ.

١٥٣- شرح الفقه الأكبر، لناصر السنة وقامع البدعة العلامة ملا علي القاري الحنفي (ت - ١٠٠١هـ) مطبعة التقدم بمصر، ط١، ١٣٢٣هـ.

١٥٤- شرح الشفا، للامام الملا علي القاري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

١٥٥- شرح المواقف، للسيد الشريف الجرجاني، مطبعة السعادة بمصر، ط١، ١٣٢٥هـ-١٩٠٧م.

١٥٦- شرح مرقاة الوصول إلى علم الأصول للعلامة الملا خسرو المطبوع في هامش حاشية مرآة الأصول للفاضل محمد الازميري، دار الطباعة العامرة العثمانية، ١٣٠٩هـ.

١٥٧- شرح العقائد العضدية، للعلامة المحقق جلال الدين محمد بن اسعد الصديقي الدواني (ت -٩٠٨هـ) المطبعة العثمانية - استنابول، ١٣١٦هـ.
١٥٨- شرح الأصول الخمسة، لقاضي القضاة عبدالجبار بن أحمد الهمداني (ت -٤١٥هـ) تحقيق الدكتور عبدالكريم عثمان، مكتبة وهبة، ط١، ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م.
١٥٩- شرح البيجوري على جوهرة التوحيد، للعلامة ابراهيم البيجوري، القاهرة، ١٩٦٤م.
١٦٠- الشفا للقاضي عياض، وهو مع شرح الملا علي القاري عليه، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٦١- الشيعة بين الاشاعرة والمعتزلة، هاشم معروف الحسني، ط١، ١٩٧٨م، دار القلم، بيروت - لبنان.

- ص -

١٦٢- الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي. اهمل ذكر المطبعة والطبعة والسنة.
١٦٣- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي، دار الشروق، ١٤٠٢هـ.
١٦٤- الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.
١٦٥- صحيح البخاري، للامام الحافظ محمد بن اسماعيل البخاري، وهو مع فتح الباري للحافظ العسقلاني، دار المعرفة، بيروت — لبنان.
١٦٦- صحيح مسلم، للامام الحافظ مسلم بن الحجاج بن مسلم أبي الحسين القشيري النيسابوري، وهو مع شرح النووي عليه، دار القلم، بيروت — لبنان، ط١، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧م.
١٦٧- صحيح ابن حبان.
١٦٨- صراع الافكار في المجتمع الإسلامي، الدكتور محسن عبدالحميد، مطبعة وزارة التربية، ط١، ١٤١٩هـ —١٩٩٨م.
١٦٩- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، الاستاذ مالك بن نبي، مطبعة دار الجهاد بمصر، ط١، ١٣٧٩هـ-١٩٦٠م.
١٧٠- صفوة التفاسير، الدكتور الشيخ محمد علي الصابوني، دار القلم، بيروت — لبنان، ط ٥،١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
١٧١- صفوة اللآلي من مستصفى الإمام الغزالي — رحمه الله تعالى -، الشيخ عبدالكريم

محمد المدرس، مطبعة العاني – بغداد، ط١، ١٤٠٦هـ–١٩٨٦م.

– ط –

١٧٢– طبقات المعتزلة، لأحمد بن يحيى المعتزلي الزيدي، المشهور بابن المرتضى، تحقيق دفيد فلرز، بيروت – لبنان، ١٩٦١م.

– ع –

١٧٣– العرب والفلسفة اليونانية، الدكتور عمر فروخ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت – لبنان، ١٣٨٠هـ – ١٩٦٠م.

١٧٤– عقائد السلف، الدكتور علي سامي النشار والاستاذ عمار جمعة الطالبي، مكتبة الآثار السلفية، ١٩٧١م.

١٧٥– العقائد الإسلامية، السيد سابق، منشورات مكتبة التحرير، مطبعة اشبيلية، بغداد.

١٧٦– العقيدة النسفية للامام العلامة عمر بن محمد النسفي، وهي مطبوعة في مجموع مهمات المتون، دار الفكر، ط٤، ١٣٦٩هـ–١٩٤٩م.

١٧٧– العقد الثمين

١٧٨– العقل وفهم القرآن، للامام الحارث بن اسد المحاسبي (ت –٢٤٣هـ) تحقيق حسين القوتلي، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط١، ١٣٩١هـ– ١٩٧١م.

١٧٩– عقيدتك ايها المسلم، الشيخ عبدالعليم عبدالرحمن السعدي، مطبعة اوفسيت الوسام، بغداد، ط٢، ١٤٠٦هـ–١٩٨٥م.

١٨٠– علم أصول القانون، العلامة الدكتور عبدالله مصطفى النقشبندي، شركة الفكر للتصميم والطباعة المحدودة، بغداد، ط١، ١٤١٦هـ–١٩٩٥م.

١٨١– علم المنطق، للاستاذ الدكتور محمد رمضان عبدالله، دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٩٢م.

١٨٢– عمل اليوم والليلة، للحافظ أبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت – ٣٠٣هـ) دار الفكر، ط١٤٠٦،١هـ–١٩٨٦م.

– غ –

١٨٣– غاية المأمول شرح التاج الجامع للأصول، للشيخ منصور علي ناصف، دار الفكر، بيروت، ط الرابعة، ١٩٨٦م.

– ف –

١٨٤– فتاوى ابن تيمية، لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني (ت – ٧٢٩هـ) مطابع الرياض، ط١، ١٣٨١هـ.

١٨٥- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للامام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت- ٨٥٢هـ) دار المعرفة، بيروت - لبنان.

١٨٦- فتح القدير للامام العلامة كمال الدين محمد بن عبدالواحد المعروف بابن الهمام الحنفي، المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحمية، ١٣١٥هـ.

١٨٧- الفردوس بمأثور الخطاب، للامام أبي شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي، الهمذاني (ت - ٥٠٩هـ) تحقيق خادم السنة السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

١٨٨- الفرق الإسلامية، ذيل كتاب شرح المواقف، للعلامة الكرماني (ت - ٧٨٦هـ) تحقيق سليمة عبدالرسول، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٧٣م.

١٨٩- الفرق بين الفرق، للامام عبدالقاهر بن طاهر بن محمد البغدادي التميمي (ت -٤٢٩هـ) حققه وعلق عليه العلامة محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة المدني، القاهرة بمصر، واعتمدت أيضاً على طبعة أخرى.

١٩٠- الفصل في الملل والاهواء والنحل، للامام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري (ت ٤٥٦ هـ) المطبعة الادبية، ط١٣٢٠،١هـ.

١٩١- فقه السيرة، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ط٧، دار الفكر ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

١٩٢- الفقه الأكبر في التوحيد، للامام المقتدى به أبي حنيفة النعمان (ت -١٥٠هـ) تعليق محمود عمران موسى، مطبعة اسعد - بغداد، ١٩٩٠م.

١٩٣- الفقه الأكبر، للامام المقتدى به محمد بن ادريس الشافعي (ت -٢٠٤هـ) وهو مطبوع مع شرحه الكوكب الازهر، مكتبة الفكر العربي للنشر والتوزيع، المنصور - بغداد، مطبعة الشعب.

١٩٤- فكرة القانون الطبيعي عند المسلمين، الدكتور محمد شريف أحمد، دار الحرية للطباعة - بغداد، ١٩٨٠م.

١٩٥- الفكر الإسلامي - منابعه وآثاره - الدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، ط ٣، ١٩٧١م.

١٩٦- الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الافكار الغربية، الاستاذ محمد المبارك، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط٣، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

١٩٧- فهم الإسلام في ظلال الأصول العشرين، جمعة امين عبدالعزيز، دار الدعوة للطباعة والنشر، الاسكندرية - مصر، ط٢، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

١٩٨- الفهم الشمولي المسمى: المنهج الشمولي في فهم الإسلام، الدكتور محسن عبدالحميد، شركة الرشد للطباعة والنشر – بغداد، شركة الخنساء للطباعة، بغداد.

١٩٩- فيض القدير شرح الجامع الصغير، للعلامة محمد عبدالرؤوف المناوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط٢، ١٣٩١هـ–١٩٧٢م.

٢٠٠- في علم الكلام، الدكتور أحمد محمود صبحي، مؤسسة الثقافة الجامعية، ط٤، ١٩٨٤م.

٢٠١- في فقه الأولويات، الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي، مكتبة وهيب، القاهرة، ط٢، ١٤١٦هـ–١٩٩٦م.

– ق –

٢٠٢- قاعدة في جمع كلمة المسلمين، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق حماد سلامة، مكتبة المنار، الزرقاء – الاردن، ط١، ١٤٠٣هـ–١٩٨٨م.

٢٠٣- القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت –٨١٧هـ) المكتبة التجارية الكبرى. واعتمدت أيضاً على طبعة مؤسسة الحلبي.

٢٠٤- قصص الأنبياء،لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تعليق الاستاذ مصطفى عبدالقادر عطا، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٤٠٩ هـ –١٩٨٩م.

٢٠٥- قصص القرآن، المرحوم محمد أحمد جاد المولى، مطبعة اوفسيت منير، مكتبة الشرق الديد – بغداد، ١٣٩٨هـ–١٩٧٨م.

٢٠٦- القضاء والقدر عند المسلمين، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، من الباحث اسماعيل القرني.

٢٠٧- القول الموفي شرح الفقه الأكبر للامام الأعظم أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، للشيخ محمد بن ياسين بن عبدالله، مطبعة الشعب – بغداد، ١٩٨٩م.

– ك –

٢٠٨- كبرى اليقينيات الكونية، فضيلة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر ١٤٢٠هـ –١٩٩٩م.

٢٠٩- الكبيرة والآثار المترتبة عليها عند المتكلمين، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية العلوم الإسلامية – جامعة بغداد، من الباحث ثائر ابراهيم خضير الشمري، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.

٢١٠- كتاب الاربعين في أصول الدين، لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي (ت – ٥٠٥هـ) دار الجيل، بيروت – لبنان، ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م.

٢١١- كتاب البداية من أصول الكفاية، للامام أحمد بن محمود الصابوني (ت –٥٨٠هـ) تحقيق الدكتور فتح الله خليف، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م.
٢١٢- كتاب العين، للامام أبي عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور ابراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢.
٢١٣- كتاب المعتمد في أصول الدين، للقاضي أبي يعلى محمد بن الحسن بن محمد بن خلف بن أحمد بن الفراء الحنبلي البغدادي (ت –٤٥٨هـ) حققه الدكتور وديع زيدان حداد، دار المشرق، بيروت – لبنان.
٢١٤- كشف المراد شرح تجريد الاعتقاد للعلامة الحلي. بدون تاريخ.
٢١٥- الكليات، لأبي البقاء الحسيني الكفوي، الحنفي (ت –١٠٣٤هـ) مكتبة المثنى – بغداد. اهمل ذكر السنة والمطبعة.
٢١٦- كنز العمال في سنن الاقوال والافعال، للعلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري (ت – ٩٧٥هـ) ط١، مؤسسة الرسالة، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.
٢١٧- الكنز الثمين في احاديث النبي الامين، للعلامة أبي الفضل عبدالله بن محمد بن الصديق، الحسني، الغماري، عالم الكتب، ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٢١٨- الكوكب الازهر شرح الفقه الأكبر للامام الشافعي، تحقيق الشيخ محمد بن ياسين بن عبدالله، مكتبة الفكر العربي للنشر والتوزيع، بغداد، ١٩٨٦م.

– ل –

٢١٩- اللؤلؤ والمرجان، محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، مكة المكرمة.
٢٢٠- لسان العرب، للامام جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الانصاري (ت –٧١١هـ) الدار المصرية للتأليف والترجمة.
٢٢١- اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، لامام المتكلمين الشيخ أبي الحسن علي بن اسماعيل الاشعري (ت –٣٣٠هـ) تحقيق الدكتور حمودة غرابة، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥٥م.
٢٢٢- اللمع في أصول الفقه، للامام أبي اسحاق ابراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، الشافعي، (ت –٤٧٦هـ) دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
٢٢٣- اللمعة في تحقيق مباحث الوجود والحدوث والقدر وافعال العباد، للعلامة الشيخ ابراهيم بن مصطفى الحلبي المذاري، علق حواشيه الشيخ محمد زاهد بن الحسن

الكوثري، مطبعة الانوار، ١٣٥٨هـ-١٩٣١م.
٢٢٤- لوامع الانوار البهية وسواطع الاسرار الاثرية، للعلامة محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي، دار الاصفهاني وشركاءه بجدة، ١٣٨٠هـ.

— م —

٢٢٥- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت — ٨٠٧هـ) بتحرير الحافظين العراقي وابن حجر، منشورات مؤسسة المعارف، بيروت — لبنان، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
٢٢٦- مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، ط١، ايران.
٢٢٧- محصل افكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين، للامام فخر الدين محمد بن عمر الرازي، مكتبة الكليات الازهرية، مصر.
٢٢٨- محمد ﷺ الإنسان الكامل، للسيد الدكتور محمد بن علوي المالكي الحسني، دار الشروق — جدة، ط٤، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.
٢٢٩- مختار الصحاح، للعلامة زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي (ت — ٦٦٦هـ) ترتيب وتحقيق محمود خاطر وحمزة فتح الله، دار البصائر — مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م.
٢٣٠- مختصر الاسئلة والاجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية، عبدالعزيز المحمد السلمان، ط٩، الرياض — ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
٢٣١- المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، للاستاذ محمد محمود، دار الثقافة للطباعة، مكة المكرمة، ط١، ١٣٨٤هـ.
٢٣٢- المدخل لدراسة الاديان والمذاهب، تأليف العميد عبدالرزاق محمد اسود، الدار العربية للموسوعات. بدون تاريخ.
٢٣٣- المدرسة الاشعرية ودورها في الدفاع عن العقيدة الإسلامية، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية العلوم الإسلامية — جامعة بغداد، من قبل الطالب محسن قحطان الراوي باشراف الدكتور محمد رمضان عبدالله، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
٢٣٤- مذاهب الإسلاميين، الدكتور عبدالرحمن بدوي، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٧٩م.
٢٣٥- المسامرة للكمال بن أبي شريف في شرح المسايرة للكمال ابن الهمام مع حاشية زين الدين قاسم الحنفي، المطبعة الاميرية ببولاق مصر المحمية. بدون تاريخ.
٢٣٦- المسايرة لكمال الدين محمد بن همام الدين عبدالواحد الشهير بابن الهمام وهو بشرح المسامرة للكمال، مع حاشية الشيخ زين الدين قاسم الحنفي، المطبعة الاميرية ببولاق

مصر المحمية.

٢٣٧- المستدرك على الصحيحين، للامام الحافظ أبي عبدالله الحاكم النيسابوري وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت — لبنان.

٢٣٨- المستصفى من علم الأصول، لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي (ت —٥٠٥هـ) المكتبة التجارية الكبرى —مصر، ط١، ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م.

٢٣٩- المستقبل لهذا الدين، سيد قطب، دار الشروق.

٢٤٠- المسلمون امام تحديات الغزو الفكري، الشيخ ابراهيم النعمة، ط٢، شركة ومطبعة الزهراء الحديثة، الموصل.

٢٤١- المسند للامام أحمد بن حنبل(ت —٢٤١هـ) شرحه وصنع فهارسه أحمد محمد شاكر، دار المعارف — مصر -.

٢٤٢- المسيحية، الدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية — القاهرة، وقد اعتمدت على الطبعة الثامنة، ١٩٨٤م والطبعة الرابعة أيضاً.

٢٤٣- مشكلة الافكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي، مطبعة دار البيان، مصر، ط١، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

٢٤٤- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للعلامة أحمد بن محمد بن علي المقري، الفيومي (ت —٧٧٠هـ) دار القلم، بيروت — لبنان.

٢٤٥- مصنفة النظم الإسلامية، الدكتور مصطفى كمال وصفي، مطبعة الامانة، القاهرة، ط ١، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

٢٤٦- معالم الطريق في عمل الروح الإسلامي، للدكتور العلامة حضرة الشيخ عبدالله مصطفى الهرشي، النقشبندي - ﷺ وأرضاه - ط١، عمان — الاردن /١٤١٤هـ —١٩٩٣م.

٢٤٧- معالم في الطريق، سيد قطب، دار الكتاب الإسلامي، قم — إيران، ط١٠، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٢٤٨- معاني القرآن، للامام يحيى بن زياد الفراء (ت —٢٠٧هـ) عالم الكتب، بيروت — لبنان، ط٢،١٩٨٠م.

٢٤٩- معاني القرآن، للامام أبي اسحاق ابراهيم بن السري الزجاج، تعليق وتحقيق الدكتور عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت — لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ — ١٩٨٨م.

٢٥٠- المعتزلة، زهدي حسن جار الله، منشورات النادي العربي في يافا، القاهرة، ١٣٦٦هـ.

٢٥١- المعتزلة بين الفكر والعمل
٢٥٢- المعتقد الإيماني على عقيدة الإمام الشيباني، لأبي البقاء الأحمدي الشافعي، مطبعة شفيق، بغداد، ١٩٦٢م.
٢٥٣- المعتقد المنتقد، للشيخ فضل الرسول القادري، البركاتي، لاهور، المكتبة الحامدية. اهمل ذكر الطبعة والسنة.
٢٥٤- معجم المؤلفين – تراجم مصنفي الكتب العربية - عمر رضا كحالة، الناشر مكتبة المثنى ودار احياء التراث العربي – بيروت.
٢٥٥- مع الأنبياء، عفيف عبدالفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان.
٢٥٦- مع المسيح في الاناجيل الاربعة، فتحي عثمان، مطبعة أحمد مخير، القاهرة، ١٩٦٦م.
٢٥٧- مغني المحتاج إلى معرفة معاني الفاظ المنهاج، للعلامة الشيخ محمد الخطيب الشربيني، على متن منهاج الطالبين للامام النوري، دار الفكر –بيروت.
٢٥٨- المغني في العدل والتوحيد، للقاضي عبدالجبار المعتزلي، تحقيق الدكتور أحمد فؤاد الاهواني، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، مطبعة مصر، القاهرة، ط١، ١٩٦٢م.
٢٥٩- مفاهيم يجب ان تصحح، السيد الدكتور محمد علوي المالكي المكي الحسني، دار الإنسان للطباعة والترجمة والنشر.
٢٦٠- المفردات في غريب القرآن، للحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني، مكتبة الانجلو المصرية، المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٧٠م. وقد اعتمدت أيضاً على طبعة دار المعرفة، بيروت – لبنان. وطبعة أخرى بتحقيق محمد سيد كيلاني، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطبعة الأخيرة، ١٣٨١هـ-١٩٦١م.
٢٦١- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لشيخ أهل السنة والجماعة الإمام أبي الحسن علي بن اسماعيل الاشعري (ت –٣٣٠هـ) تحقيق العلامة الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٣٦٩هـ-١٩٥٠م.
٢٦٢- المقاصد الحسنة للحافظ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي (ت –٩٠٢هـ) صححه وعلق عليه المحدث عبدالله محمد صديق الغماري، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
٢٦٣- الملل والنحل، للشيخ عبدالكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٣٨٧هـ –١٩٦٧م. وقد اعتمدت على طبعة ثانية موجودة في هامش الفصل لابن حزم الظاهري، المطبعة الادبية، دار الندوة الجديدة، بيروت – لبنان، ١٣٢٠هـ.

٢٦٤- منهاج المستشرقين، الدكتور سعدون محمود الساموك والدكتور عبدالقهار داؤد العاني، بيت الحكمة، جامعة بغداد، ١٩٨٩م.

٢٦٥- منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاضي البيضاوي (ت -٦٨٥هـ) وهو مع الابهاج، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٢٦٦- المنهاج القويم، شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي (ت - ٩٧٤هـ) تحقيق الدكتور مصطفى الخن والدكتور مصطفى البغا وآخرين، دار الفيحاء، عمان، مؤسسة علوم القرآن، بيروت - لبنان، ط٣،١٩٨٧م.

٢٦٧- منهج السلف في فهم النصوص بين النظرية والتطبيق للدكتور السيد محمد علوي المالكي الحسني، ط٢، ١٤١٩هـ.

٢٦٨- المنطلق، محمد أحمد الراشد، الكتاب الأول في سلسلة احياء فقه الدعوة، نشر أدب، إيران.

٢٦٩- موقف الدين من العلم، الدكتور علي فؤاد باشكيل، ترجمة اورخان محمد علي، ط٣، دار الانبار - بغداد، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٢٧٠- المواقف، للقاضي عضد الدين عبدالرحمن بن أحمد الايجي، ومعه شرحه للسيد الشريف الجرجاني، مطبعة السعادة بمصر، ط١، ١٣٢٥هـ-١٩٠٧م.

٢٧١- ميزان الأصول في نتائج العقول في أصول الفقه، للشيخ علاء الدين شمس النظر أبي بكر محمد بن أحمد السمرقندي، تحقيق ودراسة الدكتور عبدالملك عبدالرحمن السعدي، مطبعة الخلود، بغداد، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٢٧٢- الميزان الكبرى، للعلامة أبي المواهب عبدالوهاب بن أحمد الانصاري، المعروف بالشعراني، وبهامشه: رحمة الأمة في اختلاف الائمة، دار الفكر للطباعة والنشر، ط١، اهمل ذكر التاريخ.

- ن -

٢٧٣- نحن والحضارة الغربية، أبو الاعلى المودودي، دار الفكر، بيروت - لبنان، مطابع معتوق إخوان، بيروت.

٢٧٤- نحو مجتمع إسلامي، سيد قطب، دار الشروق.

٢٧٥- نشأة الاشعرية وتطورها، الدكتور جلال محمد عبدالحميد موسى، دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

٢٧٦- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الدكتور علي سامي النشار، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م.

٢٧٧- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للامام برهان الدين البقاعي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد – الدكن – الهند، ١٣٩٠هـ–١٩٧٠م.
٢٧٨- النظم المستعذب.
٢٧٩- النظام الفريد بتحقيق شرح جوهرة التوحيد، للعلامة الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد، وهو مطبوع بذيل شرح جوهرة التوحيد.
٢٨٠- نفحات الحياة، ديوان شعر معاصر، للعلامة الدكتور حضرة الشيخ عبدالله مصطفى النقشبندي - ﷺ - شركة الفكر للتصميم والطباعة المحدودة، ط١٤١٦،١هـ–١٩٩٥م.
٢٨١- نهاية الاقدام في علم الكلام، للعلامة الشيخ عبدالكريم الشهرستاني، حرره وصححه ألفرد جيوم. اهمل تاريخ الطبعة.
٢٨٢- نور الإيمان في بيان اعتقاد المسلمين، للشيخ عبدالكريم محمد المدرس، مطبعة الخلود، ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م.

– هـ –

٢٨٣- هذا الدين، سيد قطب، ط٤، انتشارات ادب، ايران.

– و –

٢٨٤- الوجيز في أصول الفقه، الدكتور عبدالكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٥هـ–١٩٨٥م.
٢٨٥- الوحي المحمدي، السيد محمد رشيد رضا (ت –١٩٣٥م) شركة الطباعة الفنية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٠م.
٢٨٦- الوسيط في المذهب، لحجة الإسلام سيدنا أبي حامد الغزالي (ت –٥٠٥هـ) دراسة وتحقيق علي محيي الدين علي القره داغي، ط١٤٠٤،١هـ–١٩٨٤م، دار النصر للطباعة الإسلامية – مصر.
٢٨٧- الوسيلة في شرح الفضيلة في علم أصول الدين، للشيخ العلامة عبدالكريم محمد المدرس، مطبعة الارشاد، بغداد، ط١، ١٣٩٢هـ–١٩٧٢م.
٢٨٨- الوعي الإسلامي – مجلة إسلامية كويتية، العدد (٢٩٠)، ١٤٠٩هـ–١٩٨٨م، وقد اعتمدت على عدد آخر للمجلة أيضاً.
٢٨٩- وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بن خلكان (ت –٦٨١هـ) تحقيق الدكتور احسان عباس، دار صادر – بيروت، ١٣٩٧هـ–١٩٧٧م، واعتمدت أيضاً على طبعة القاهرة، ١٩٤٨م.

٢٩٠- اليهودية، الدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، ط٨، ١٩٨٨م.
٢٩١- اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الاكابر، للعلامة الإمام عبدالوهاب الشعراني، ملتزم الطبع والنشر عبدالحميد أحمد الحنفي، شارع المشهد الحسيني، مصر.
واعتمدت اخيرا خلال طبع الاطروحة على المصادر الاتية:
٢٩٢- حلية الابرار وشعار الاخيار في تلخيص الدعوات والاذكار المستحبة في الليل والنهار للامام محيي الدين النووي الشافعي (ت -٦٧٦هـ)، ط٥، دار ابن كثير.
٢٩٣- الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، للعلامة الشيخ محمد بن يوسف النبهاني، طبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر.
٢٩٤- الفرق الإسلامية، محمود علي البشبيشي، المطبعة الرحمانية، مصر، ط١، ١٣٥٠ هـ-١٩٣٢م.
٢٩٥- في الحداثة والخطاب الحداثي، للاستاذ منير شفيق، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء - المغرب، ط١، ١٩٩٩م.
٢٩٦- عالم الفكر - مجلة كويتية - المجلد الثامن والعشرون - العدد الثاني، ١٩٩٩م، مطابع دار السياسة.
٢٩٧- المسألة الحضارية، كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير، للاستاذ زكي الميلاد، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء - المغرب، ط١، ١٩٩٩م.
٢٩٨- المغني عن حمل الاسفار في الأسفار في تخريج ما في الاحياء من الاخبار للعلامة زين الدين أبي الفضل عبدالرحيم بن الحسين العراقي (ت -٨٠٦هـ) وهو مطبوع مع كتاب الاحياء للغزالي، دار القلم، بيروت - لبنان، ط٣.

محتويات الأطروحة

الفصل الرابع

تطبيقات الوسطية في المسائل السمعية